صابر

obeikandl.com

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

سليم دبور
"صابر"
(رواية)

*

الطبعة الأولى (2013)
جميع الحقوق محفوظة

*

الإخراج الداخلي
الريشة

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

obeikandl.com

رواية

سليم دبور

صابر

دار الجندي للنشر والتوزيع

obeikanal.com

obeikandl.com

إهداء وشكر

أتقدم بإهداء هذا العمل- المستمد من واقعنا الفلسطيني الأليم، والذي قمت بكتابته عام 1993- لوالديّ وزوجتي إيمان، وابنتيّ: وسام ونور، وولديّ: قسّام ومحمد.

كما وأهديه إلى شهداء فلسطين في الوطن والشتات، والأسرى في سجون الاحتلال، وإلى كل ضحايا العالم.

سليم دبور

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)

أمرهم غريب؛ يغرسون حقنهم المنوِّمة في رحم الوريد، يطعنون بطن ذراعي بقسوة وكأنه خُلق من حديد، يفرّغون سمّ النشوة ثم ينتشون الحقن بقلوب ميتة وكأنهم ينتشون مسماراً من جدار عنيد.. ينتشونها ويبتسمون معجبين بمهاراتهم المميزة، ومُهلّلين لصمْتيَ العجيب.

عليّ أن أشكرهم بابتسامة عريضة، وإلا سيغضبون، وما أدراك ما غضبهم! يخدرونني ليختلسوا صحوتي، ليغسلوا دماغي ويروضوه، ثم يفتحون التلفاز ليختبروا تأثير مخدرهم باطلاعي على مستجدّات الأمور. أشيح بوجهي لأهرب من تلك الصور ولأحمي قلبي من رعاة البقر. أغمض بصري، أغلق سمعي، أظنّ لبرهة أني انتصرت على رغباتهم. فجأة أشعر ببرودة تلاطف جسدي، تقتحم عقلي، تحاوره، تضاجعه، وتنتصر. يتبدل حالي بلمح البصر، أستسلم تماماً. أطلق بصري بل ألصقه بشاشة التلفاز، وأتركهم يعبثون بمشاعري، بكرامتي، بكل شيء يسكنني، والأدهى من ذلك أرى نفسي أصفق بحماس لأي خبر.. لأتفه خبر.. لأحقر خبر!

وإذا ما ذهب مفعول المخدر، وعاد دماغي لمواصلة مهامه، أو تفاعل مع الحدث بعيون ناقدة أو تجرأت فأفصحت عن رأي بصراحة تقوم قيامتي.. يثورون، يجنون، يُعسكرون أمامي ككتيبة من الأشباح ويتسابقون لاغتصاب

حريتي وقمعها. لا يثقلون عليّ كثيراً، أبداً لا يثقلون! فقط يكتفونني بقميص الجنون، يقيدون أقدامي بسلاسل تزن أكثر من وزني، ويقيدون أطرافي بسرير متحضر، ويشرعون بدغدغة جسدي بالكهرباء. يشبعون غريزتهم ويزجّون بي في زنزانة انفرادية لا تتسع لِديك حبش هزيل.

ومع ذلك يصرّون على إسماعي نشرات الأخبار، كأنهم يتعمدون خلق ذريعة لتأديب جسدي، وأراهن أنهم يتعمدون، فهم يعرفون أن أخبارهم تؤرقني، توقظني، وتجعل دمي يغلي في عروقه كالحمم.

وأية أخبار؟ أخبار هرمة مللت سماعها، ضجرت من عناوينها المتكررة وتفاصيلها الممقتة. دائماً نفس الأخبار، أخبار القرن الماضي تعيد نفسها من جديد، تغيرت التكنولوجيا في بث الأخبار، تغير المذيعون، إلا أن الخبر بقي على ما هو عليه، لا يتغير. عناوين مفجعة تتكرر باستمرار، كلها تدور حول مسرحية هزلية طال مُشاهدتها، بطولة أرض قيل إنها بلا شعب! أرض اغتصبت منذ عشرات السنين ولا زالت حتى اللحظة.

عفواً، أخطأت! حررّها بعضهم بالكلام، وطئوا ترابها بالأحلام، صلّوا في أولى القبلتين وكلاب الصيد نيام، جوّعوا السمك ليطعموه لحم الاحتلال، مات السمك من الجوع، ومتنا نحن من ثرثرتهم وشعاراتهم البراقة، شعارات شوّهوا بها جمال وجوهنا وطُهر قلوبنا، جعلونا أكلة لحوم البشر، أكلة العظام وأسناناً ضعيفة، لطيفة، هشة لا تقوى على طحن حبات الزبيب.

يا لهم من رجال! قلبوا العالم ضدنا، أهلكونا بالكلام، أغرقونا بالأوهام، ضيّعوا حقوقنا، أرضنا، قمحنا، زيتوننا، بحرنا، وجعلونا متسولين بعد أن كانت

بيوتنا منبعاً للطعام. تراهم فيطفح وجهك بالحمرة وتشعر بشيء غريب يدور في أمعائك كالإعصار، يُشعرك بلذة في التقيؤ، وغالباً ما تتقيأ. وجوه ضاحكة إذا ما صافحوا يد رجل أشقر أو أبرص، وعابسة إذا ما اقتحمت أعينهم وجه رجل من طينتهم. رجل لا ذنب له غير أن شعره أسود، ووجه بني مطحون حرقته شمس الذّل والشقاء. ولو تنازلوا عن أنفتهم وصافحوه، فكأنهم يقدمون له العزاء أو يشتمونه دون أن تتحرك شفاههم. وجوه محنطة، مجمّدة تخلو من أي تعبير.

وأية وجوه؟ وجوهٌ احتلت شاشات التلفاز منذ كانت شابة ولا زلت أراها حتى اللحظة، الفرق أنها أصبحت هرمة ومتجعدة، يكتسحها التعب، ليس من مرارة تذوقوا طعمها، أو فقر عشش في بيوتهم أو حرمان، بل نتيجة طول أيامهم الحُبلى براحة البال، وهل البائس وحده يصاب بنوبة قلبية أجزم أنّ السعيد مرشح لنفس الحال.

يا ويحهم! أسماؤهم تتكرر ليل نهار، رجال أبديون لا يتغيرون، ألصقوا مؤخراتهم المترهلة بمقاعد القرار، وقالوا لماشيتهم في وضح النهار: نحن منزلون، عدّوا لنا بعشرات السنين. أصوات متخمة مللنا سماعها، شعارات براقة أصمت آذاننا، سياسات موحدة تطبخ أفكارها في مطبخ معروف، معروف جداً، وعلى الشعوب المخدرة أن تأكل مما يقدم لها من وجبات مُهينة، مُذلة مُجبرة لا مُخيّرة، فيبقى الخبر محتفظاً بشكله ومضمونه:

"شجبت الجامعة العربية المجزرة التي ارتكبها جيش الاحتلال بحق المصلين في المسجد الأقصى"، "استنكرت الدول العربية العملية الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين ووصفتها بالإرهابية"، "قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي بطرد

obeikandl.com

عائلات بدوية تقطن في بئر السبع"، "هدمت قوات الاحتلال ثلاثة منازل في القدس الشرقية بحجة عدم الترخيص"، "صرّح متحدث باسم البيت الأبيض عن ضرورة وقف العنف في الشرق الأوسط"، "صرّح متحدث باسم الاتحاد الأوروبي أن السلام هو الحل الوحيد لفض النزاعات بين الإسرائيليين والفلسطينيين"، "قامت قوات الاحتلال بنصب بؤر استيطانية جديدة في الضفة الغربية المحتلة"، "قامت مجموعة من المستوطنين بخلع المئات من أشجار الزيتون".

منذ أن رأى بصري النور وأنا أسمع نفس الأخبار والنتيجة الحتمية البقاء للأقوى. أصبحت القوة موزعة بشكل هرمي متسلسل وفقاً لقانون الغاب؛ الأسماك الضعيفة تخشى أسماك القرش، الدودة تخشى العصفور، العصفور يخشى الصقر، الصقر يخشى النسر، النسر يخشى الصياد، الصياد يخشى حماة الطبيعة، الصغير يخشى الكبير، الضعيف يخشى القوي، إذن البقاء للأقوى. الأقوى يُرسِل ويُملي، يحكُم ويسجن، يجلد ويهدد، ويفعل ما يشاء كونه فوق القانون، والضعيف يستقبل وينفذ وليس من حقه أن يعترض، وإذا اعترض فهناك سياط تنتفض، وشتائم تنهمر، ووسائل بطش لا حدود لها ولا حَصْر.

أحياناً تكون أحكامنا خاطئة، خاطئة جداً. لو تكاثفت خيوط العنكبوت أُجزم أنها ستُقيّد ملك الغابة، ولو هجمت عشر ديدان على عصفور لاستسلم العصفور، ولو هجم عشرة عصافير على صقر لهرب الصقر، ولو هجم خمسة صقور على نسر لمات النسر، ولو هجم ثلاثة نسور على الصياد لندم على اللحظة التي أحلّ بها صيد النسور. فالكثرة غلبت الشجاعة! ليست أيّة كثرة، نوعية

الكثرة تهمّ جداً. لو كانت كثرة بلا عقل مستيقظ يقودها، وبلا ضمير حيّ ينصفها، وبلا قلب شجاع يحميها، فهي كزبد البحر لا وزن ولا قيمة لها.

الصغير يكبر مع تقدم الزمان، والضعيف يحظى بالقوة لو سعى إليها، والقوي يمكن أن يُلاحق ويُحاسب لو تجاوز قوانين الإنسانية، فلا أحد فوق القانون إلا الميت والمجنون، وتلك الزرقاء الخبيثة التي تتلاعب برؤوس من لا عقل لهم!

أرى كل شيء قابلاً للتغيير إلا الخبر. خبر مأساتنا، ضياعنا، شتاتنا. خبر ترابنا الأحمر الرطب، وعينان دامعتان ترقبانه عن مسافة لا تُقاس أبداً، ولا تقوى على الوصول.

أمقُتُ نفسي أحياناً، أمقُتها عندما ينتفخ رحمها ببذرة المرارة فتنجب اكتئاباً. يُخيّل إليّ عندها أنه يوجد خطأ ما في فهم فلسفة الحياة، إن كان للحياة في بقعتنا فلسفة أصلاً. أنهال عليها بالأسئلة محاولاً انتزاع إجابة لأقمع فضول ما يشغل ذهني على مدار الزمان والمكان. أسألها أسئلة عقيمة، عميقة، ضعيفة، غبية، مدركاً أنني لن أحصل على إجابة منطقية تُثلج صدري العليل، ولكني أسأل على أية حال. أسأل فيتلذذ اللسان في نطق الحروف، ويُمقت القلب من الإصغاء لعفويتي: لماذا لا تتساوى القوة عند الجميع؟ لماذا يصر الضعيف على ضعفه؟ لماذا يسرف القوي في استخدام قوته؟ مَن قسَّم القوة؟ لماذا شعبنا هو الضحية دائماً؟ لماذا الجسد العربي مصاب بالشلل الدماغي؟ لماذا يملك زعماؤنا الذهب الأسود ولا يملكون العقل، بينما يملك الأغراب العقل وبذكائهم يسرقون ذهبنا؟ لماذا يُنصر الظالم؟ لماذا كان عليّ العيش في غرفة أشبه بقن الدجاج، وغيري

obeikandi.com

ينعمون بالقصور؟ لماذا جُعلت لاجئاً؟ إلى متى ستظل السكين المتثلمة تحزّ أعناقنا والعالم صامت؟ متى سأغادر هذه المصحة الحمقاء، ومتى سيتوقف أولئك الساديون عن حقني؟ أسئلة لا نهاية لها تفتقد دوماً الإجابة الشافية.

أنا على يقين أن هناك خطأ يجب أن يُعالج ليصلح وضعنا، ونرتقي إلى درجة البشر. لكن لا أدري أين يكمن هذا الخطأ، ومن المسؤول عنه. هل يكمن في حكامنا الأشاوس؟ أم في قدرنا العنيد الذي يمارس دوره علينا بلا رحمة؟ أم في صمتنا واستسلامنا وبيع جماجمنا لتجار الكلام؟ أين تكمن قوتنا؟

لكل كائن حي سلاح، لا أستثني كائناً، الأفعى سلاحها السم، والعقرب والنحلة والبعوض كذلك الأمر. الليث سلاحه الأنياب الحادة. الغزال سلاحه الخفة والسرعة. الطيور سلاحها المخالب والأجنحة. كل كائن حي أعطاه الخالق سلاحاً، فما هو سلاحنا نحن كبشر؟

إذا كان العقل- الذي ميزنا به الله عن البهائم- هو سلاحنا، فيا له من شر سلاح! لأن عقولنا قادتنا إلى الضياع، قادتنا إلى حفر قبر إنسانيتنا بأيدينا مخيّرين لا مُجبرين، قادتنا إلى صنع أسلحة الدمار الشامل، وإبادة الحياة بالذرة، قادتنا إلى تلويث الكون وإفساد الأرض والأجواء، قادتنا إلى قتل أنفسنا بأيدينا فتحولت أجسادنا إلى حقل للتجارب.

ما يزيد جنوني أن أولئك المجرمين الذين كرّسوا حياتهم لصنع أسلحة الدمار الشامل؛ مبيدة البشر والحجر، يلفظون أنفاسهم الأخيرة بكلمات اعتذار للبشرية نادمين على ما صنعته أيديهم. تضحكني كلماتهم وقت الهرم، وجوههم المتجعدة تثير شهوتي في البصق عليها. يضحكني اعتذارهم بشكل هستيري، وكوني أعتبر

نفسي من فصيلة البشر، ولي الحق في الكلام، أقول لهم: سحقاً لكم لما صنعته أيديكم الدامية، ابحثوا في قبوركم عن مصرف مخبول يصرف لكم شيكات الاعتذار أو عن إله فاسد يقبل الرشوة فيقبل ندمكم أو اعتذاركم، أما أنا فلن أغفر لكم حوبتكم في تدمير هذا الكون.

أتساءل: لماذا وصل الحال بالبشرية إلى هذا الحد الفظيع؟ لماذا لا نسمع إلا الأخبار الممقتة في كل مكان؟ أخبارنا تدل على فشل الساسة في صنع عالم يسوده الحب والمساواة والسلام والتسامح، يفشلون في استخدام منطق مستقيم، فيلجأون إلى القوة ويفرطون في استخدامها.

أسألهم بصوت مسموع: من يستخدم القوة؟ هيا أجيبوني! هل قلتم الحيوان؟ معذرة أيها السادة صناع القرار؛ أجزم أن آذانكم معطوبة لا تلتقط ما يقال من كلام، أمصرّونَ أنتم أنني قلت الحيوان؟ إذن كما تتمنون لن أخيِّب ظنكم، الحيوان هو من يلجأ إلى القوة، أتدرون لماذا؟ ببساطة لأنه حيوان. هيا جهزوا قيودكم الفولاذية وزنازينكم المظلمة لتزجّوا عظامي بها، هيا انتزعوا حساء النكد ورغيف الذل عن مائدتي فلم يعد طعامكم يشبع صمتي، هيا شغِّلوا القضاة وحيكوا التهم فأنا مجنون والمجنون أبداً لا يُدان.

مهلاً! مهلاً! بقي ثمة شيء لم أقله بعد، أترغبون في سماعه؟ هل قلتم نعم؟ غيرت رأيي لم أعد أرغب في قوله فقط؛ لأنكم تريدون سماعه. لحظة! لحظة! غيرت رأيي مجدداً، سأقوله.. اللعنة! ما لي أرى وجوهكم قد شحُبت! ألهذا الحد تخافون الكلام؟ لا تخافوا، سأضع كاتم صوت حتى لا يسمع كلامي غيركم.

آه! نسيت أن آذانكم معطوبة لا تصلح للاستخدام، إذن ما جدوى الكلام؟ يا للغرابة! أسمع أحدكم يطلب مني الكلام، أهو من زمرتكم أم إنه وجه جديد لا يزال يحلم بتغيير الكون، أجزم أنه كذلك. غداً سيُغسل دماغه بمسحوق النذالة، ويفقد رجولته، ويصبح مثلكم مجرد دمية يحركها الدولار. كلكم في بادئ الأمر تعِدون الماشية بعشب أخضر، وماء نقي، وزريبة كريمة، وعندما يمر أسبوع على تسلمكم مفاتيح الرئاسة تتحولون فجأة إلى وحوش ضارية، وأول أعدائكم هم من انتخبوكم وجعلوكم زعماء عليهم، هذا إذا تم الانتخاب أصلاً.

لا أدري لماذا أعذب نفسي بالتساؤلات وبمسائل أهلكت أمثالي منذ زمن بعيد، فكان الإعدام مصيرهم أو الجنون.

الأفضل أن أوضِّب سريري. سريري؟ هل قلت سريري؟ أي سرير؟ يبدو أن الصدمات الكهربائية أذهبت عقلي، لا ليست الصدمات، هي الحقن، نعم الحقن. لا ليست الحقن، هي الوحدة، نعم الوحدة تجعل المرء فيلسوفاً أو مجنوناً، تناسبني الثانية أكثر، فالفيلسوف في هذا الزمن مدان ومحكوم عليه بالإعدام.

ما أسوأ أن يتخلى عنك البشر وقت الشدائد، أن يتركوك وحيداً في غابة تسيطر عليها وحوش ضارية، خائنة، لا صديق لها.

حتى أنت تركتني وحيداً، ليتك كنت معي الآن. لا! هذه أمنية أنانية، أنانية جداً. لقد ارتحت من هذه الدنيا الظالم أهلها، ارتحت وأرحت نفسك من رؤية مصائب تهز الأبدان، على الأقل رحلت عنا وفي ذاكرتك صور مقبولة نوعاً ما. عفواً هل قلت مقبولة؟ أتراجع، لا أظن أنك رأيت شيئاً أسعدك منذ مهدك حتى لحدك.

وكيف أعرف؟

لعلّك رأيت ما يسعدك.

أكاد أجن، وكأني أعيش في أقبية مظلمة نتنة، بل الأقبية أرحم من جدران هذه الحجرة اللعينة، فهناك لن أسمع شخيراً على الأقل. اللعنة! أظن أن هذه الأجساد المنتشرة في أركان هذا الإسطبل مستسلمة تماماً لما فرضه عليهم أولئك الساديون، لم يعد لديهم إرادة لتحدي الحقن المنومة، بل لم يعد لهم رغبة في مواصلة الحياة. سأحاول أن أوقظ أحدهم لعلّه يتحدث إلي، فالحديث ينسيني همي وينسيهم الجنون.

"أنت استيقظ، أرجوك انهض! سأحدثك قصة علي بابا والواحد وعشرين حرامي...". لا جدوى من مناشدته، أراهن لو أطلقت مدفعاً قرب مسامعه فلن يستيقظ كزعماء العرب.

سأحاول مع غيره.

-"أنت استيقظ، أود التحدث إليك. لدي ما هو أفضل من النوم، سأروي لك حكاية ليلى والخنزير البري". عبثاً أحاول، لو حملته وألقيت به خارج أسياج هذه المصحة فلن يدرك أنه حرٌّ.

سأحاول مع مجنون غيره.

-"أنت استيقظ، سأروي لك حكاية قُتلتُ يوم قُتلتْ دجاجة الحاج منصور، هيا انهض! النوم لن يطيل عمرك أو يقصّره". وكأني أحدِّث ميتًا مخمورًا.

سأحاول مع غيره.

-"سعيد انهض، انهض يا سعيد، إن كان آخر العمر موتًا، فما أهمية النوم؟ هيا انفض غبار البؤس عن قلبك وانهض. هل نسيت أنني أطعمتك وأنت جائع؟ وأثلجت حنجرتك بماء الينابيع وأنت ظمآن؟ ردّ إليّ الجميل وانهض، أود أن أحدثك قصتي"... وكأني أتحدَّث مع أصم. "انهض يا سعيد، أنسيت أني أفضل مستمع لخطبك؟"

سعيد يغطّ في سبات أعمق من عميق، ينتظر قدوم سنة لا تاريخ لها، شهر لا أيام له، يوم لا ساعات له، ساعة لا دقائق لها، دقيقة لا ثوان لها، ثانية لا بداية لها، يخترق العواصف الهوجاء، والحدود، والجبال، والوديان، والأنهار، والمحيطات، يتجاوز معسكر الغيوم وقواعد النجوم والكواكب السابحات، يبحث عن الوحي ليملي عليه كلمات خطابه الجديد ليلقيه في هيئة الأمم من أجل استعادة كرامته.

رغم أن النوم يخلو من أية منفعة، إلا أني أحتاج إليه لأريح عقلي قليلاً، لكن كيف أهنأ بفتات نوم وقوافل الذكريات تهزمني؟ كيف تغمض لي عين، وكل ذكرى شوكة عنيدة تلسع قلبي وتكويه بلا رحمة؟ اللعنة! لدي كلام كثير يجثم على صدري، كما كانت تجثم الصخرة فوق صدر بلال، لكن لا أجد أحداً يجيد الاستماع. يا لها من ليلة ظلماء كروح معاناتي! صماء كأذن العالم، بكماء كأفواه زعاماتنا العربية أمام جثمان قضيتنا ومطالب الشعوب!

كم تحتاج روحي لأجد من أتحدَّث معه غير جدران هذه المصحة، أن أرى وجوهاً جديدة غير وجوه هؤلاء المخدرين، وأولئك الساديين. أحتاج لقدوم مجنون جديد يسمعني من باب الخجل والحياء لا من باب التعاطف والاهتمام.

لا! لا أريد مجنوناً آخر، أنا بحاجة إلى روح متنورة مستيقظة وأذن سليمة تصغي لما يكتسح قلبي من آهات وحكايات.

آه يا رب! كل شيء هنا غريب، غريب جداً. المكان ليس مكاني، هؤلاء النيام ليسوا أصدقائي، هذا السرير ليس سريري، حتى الملاءة ليست ملاءتي. ملاءتي دوماً مغبرّة بتراب المخيم، تفوح منها رائحة خشب البلوط المحروق وشذا دلال. كم أشتاق إلى تلك الرائحة! وكم أتلهّف لعناق دلال!

آه يا وجع قلبي! كأن قدمي انزلقت إلى مصيدة رمال متحركة، تبتلعني رويداً رويداً دون رحمة. أرفع يديّ فلا يراني أحد، أصرخ بملء حنجرتي، فلا يسمعني أحد.

أعرف الآن لماذا يصاب الناس بالجنون؛ هو التفكير!

التفكير يقتل النفس الحائرة، يذبحها ويشويها بجحيم الضياع. ليتهم تفهّموا مأساتي وأنصفوني. ليتهم يعرفون أن الإحساس ليس جنوناً، أن الحب ليس جنوناً، أن الطيبة ليست جنوناً، أن الوفاء ليس جنوناً. ليتهم يرون غيرهم من التائهين في عالم الظلم بعيون بصيرة لا عيون عمياء. ليتهم يمنحونني دقيقة واحدة لأعبِّر لهم عن سبب تصرفاتي. لكنهم يا ويحهم! عكَّروا صَفْوَ حياتي بعنادهم، ألبسوني ثوب الجنون وزجّوا بي وراء قضبان الذل لأتصفح بقايا مأساتي بروح أسيرة حزينة، روح قتلتها الوحدة وشتتها الحرمان، فلم تعد تقوى على الصبر أو الاحتمال.

الصبر؟

obeikandl.com

هل قلت الصبر؟ أهو لغة الأقوياء أم لغة الضعفاء؟ لا يهم، يقولون للصبر حدود. لماذا لا يدركون أن صبري قد نفد، أم أن اسمي يشجعهم على الاستمرار؟

يا ناس، يحتاج الجريح إلى يد تضمد جراحه، لا يد ملتهبة تزيده ألماً. يا ناس، يكفيني سوط العذاب يلسع جسدي بإخلاص دون توقف، يكفيني موت أحبتي وفراق فلذة كبدي. الكل متسلط عليّ وكأني دمية رخيصة وقعت بين فكيّ تمساح...

أيتها الجدران اللعينة، هل تتفهمين مأساتي؟ هل تسمعين ما سمعه الأصم ولم يستطع أحدهم سماعه؟ هل تدركين أن وراءك يُصلب إنسان جريح ويحتاج أن يشم هواءً نقياً؟ أجزم أنك لا تختلفين عنهم، أنت مثلهم صماء بكماء عمياء. سجّانة أنت مثلهم، تقفين كصخرة سمجة فوق صدري، تنتصبين حولي لتحجبي عني شعاع الشمس وضوء القمر، تنتصبين بحقد وكراهية وتغتصبين حريتي.

أيتها الجدران اللعينة، أنت ظالمة مثلهم، تشاركينهم الخيانة، تسترين جرائمهم، وتحاك المؤامرات بين أضلعك. أكرهك أيتها الجدران الخائنة، وأكره قضبانك القذرة. سحقاً لك ولمن شيّدك أول مرة. وراءك يختبئ عالمي الذي حرمت منه ظلماً وبهتاناً، وراءك يختبئ ماضيّ وحاضري ومستقبلي. وراءك يختبئ ولدي. ليتك تتنازلين عن كبريائك الأجوف وتنشقين لتفتحي لي طريقاً يوصلني إلى أضرحة أحبتي. ليتك تمتلكين ذرة من الإحساس فتفتحي لي نافذة أهرب منها إلى الحياة. أتذكرين موسى وحكايته مع البحر؟ لقد خرّ البحر خشوعاً وشق له طريقاً لينقذه من قبضة فرعون، فلماذا لا تمدي يدك إليّ وتنقذيني من الموت؟ أجزم أنك لن تفعلي شيئاً. أنت سادية تستمتعين بتعذيبي، وتطبقين على أنفاسي

دون رحمة. أنت مثل أسيادك تماماً؛ هم يأسرون حريتي ويقولون: نسقيك المر حتى تعرف الحلو، ونضربك بالحقن حتى تتفاءل، وأنت تغتصبين حريتي وتقولين إنك هنا لحماية جسدي من البرد وحر الشمس.

يضحكني كلامهم وكلامك أكثر. عن أيّ تفاؤل يتحدثون وحريتي مغتصبة؟ عن أيّ تفاؤل يتحدثون وكل أحبتي أُجبروا على الرحيل؟ ربما للتفاؤل عندهم مفهوم آخر... ثم من اشتكى لك حر الشمس أو برد الشتاء؟ أنا أعشق البرد والحر؛ لأنهما ميزان العدل، لأن للبرد خصال رائعة وللحر خصال أروع، لأن البرد يخدر جروحي، والحر يدفئ روحي، مَن أنت حتى تمنعين عني ميزان الحياة؟

أنت الملام يا أبي، ليتك لم تفكر بإنجابي. ألم تكن تدري أن العالم الذي جلبتني إليه عالم مكتظ بالظلم والفساد؟ أم هل كانت شهوتك أقوى من أي إدراك لأية حقيقة؟

أبي! هل تذكرني؟ أجزم أنك نسيتني. سأذكِّرك من أكون: أنا من أفنيت عمري أنسج خيمة بخيوط جمعتها من كل النفايات لتأوي جسدي، وبعد أن انتهيت جاء أحدهم وفتق ما نسجت بلمح البصر وبرود أعصاب.

أنا من زرع ولم يحصد، بل زرعت ورداً وحصدت أشواكاً. زرعت حباً وحصدت كرهاً. أنا من أضحك الناس، فأبكوني. أنا صابر يا أبي، صابر... صابر. وكأنك كنت تعرف ما سألاقي في هذه الدنيا ولذلك ألصقت هذا الاسم الذليل على جبيني.

obeikandi.com

(2)

ألومك يا أبي أحياناً، وأشفق عليك أكثر. أنت مسكين مثلي رغم اختلاف الهموم. ذهبت ضحية للمرض، شُلّ جسدك، وانحنت قامتك، وفقدت بصرك، إلى أن أصبحت جثة تذرف العين لها دمعاً، ويخفق القلب لها ألماً، ويرتعش الجسد منها خوفاً. تركتني وحيداً أناطح الأمواج الصاخبة بفقري، وأنشد الآهات من شدة حزني. أردتَ الموت فنِلته، وأنا ما زلت أعزف سيمفونية وداعك على أوتار من لهب. أحرقت أناملي تلك الأوتار.. منذ وفاتك أعلنت البلية شرها، وقدحت زناد ظلمها. أصبحت موطئ الأقدام ومرمى الكلام. أصادق الألم فما لي غيره. أحب الظلام ففيه أجد فتات نفسي.

أتذكرك جيداً وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة، معلناً نهاية قصتك البائسة في هذه الدنيا. أتذكّر وصاياك العظيمة جيداً رغم أنني لا أطبقها: "المصائب محك الرجال". أتساءل: أيّ رجال؟ داستنا أقدام الذل حتى عصرت أمعاءنا، وذبحت كرامتنا ومرغتها بالوحل، ونقول المصائب محك الرجال.

هراء! هراء! هل يجب أن يتذوق المرء الذل حتى يسمى رجلاً؟ هل يجب أن نضرب، نعذّب، يُبصق في وجوهنا حتى نكون رجالاً؟ هل يجب أن نمضي حياتنا نتألم ونمتص المصائب حتى نكون رجالاً؟ ليتك كنت معي لترى أيّة مصائب تحتل جسدي وذهني، لتنازلت بفخر عن رجولتك!

بعت شبابك لتعلمني. تعلمت يا أبي، بل شربت العلم بملعقة كبيرة. طهوت صفحات الكتب، والتهمت حروفها بشغف. سهرت الليالي الطويلة حتى أنهيت دراستي بدرجة تفوق وامتياز، والنتيجة لا وظيفة أستر بها فقري، لا شقة تسر العين، لا زوجة تشاطرني الحياة بحلوها ومرّها. لا مستقبل يلوح بالأفق.

بذّرت نقودك، وأقلقت نفسك بمستقبلي دون فائدة. الوظيفة لا تحتاج إلى امتياز جامعي، بل تحتاج إلى نسب معروف أو واسطة أصحاب السيوف والألوف! الشقة تحتاج نقوداً بعدد من تبقى من شعر رأسي، وما أكثر ما تبقى. والزوجة تحتاج إلى مهر تعجيزي؛ مهر يكلف أمثالي العمل الشاق طوال حياته؛ حتى يجمعه وعلى الأرجح لن يجمعه إلا إذا عمل تاجراً يروِّج المخدرات. لم يعد الزواج فريضة وبناء، بل أصبح تجارة رابحة لا يقدر عليها أصحاب الدخل المحدود.

لا تقلق يا أبي! كنت محظوظاً فتزوجت بمعجزة؛ أما غيري فاستعاضوا عن الزواج بالسهر مع بائعات الهوى، فما جمعوه من مال لا يكفي مهر عروس، وما بلغوه من العمر لا يشجع الفتيات على الارتباط بهم، فكان حضن بائعات الهوى أدفأ وأقرب إلى إمكانياتهم.

آه يا أبي! حلمت كثيراً بمستقبلي فتحطمت أحلامك على صخرة اللئام. ظننت أن تخرّجي من الجامعة بتفوق سيفتح لي باب الرزق على مصراعيه، وسيجلب لي السعادة المفقودة. هراء! تبين لي أن تخرّجي من الجامعة بتفوق هو بداية البؤس والهلاك، وليس ما حاولت أن تقنعني به. ليتك وافقتني على فكرتي حين اقترحت عليك أن أعمل عامل تنظيفات في وكالة الغوث. على الأقل لكنت

قد ضمنت مستقبلاً زاهراً. أخذتك العزة بنفسك وركب العناد رأسك ورفضت بشدة فرصتي في تحسين وضعي. اتهمتني بالجنون. ليتك ترى وضع من ضربوا كلام الناس بعرض الحائط وحضنوا تلك الوظيفة. إنهم يعيشون برخاء، حياتهم مستورة. أحسدهم على ذكائهم، لأنهم فهموا ما لم أفهمه وتفهمه. كنت قلقاً من كلام الناس؛ أما هم فقد أدركوا أن كلام الناس لن يطعمهم لو جاعوا، ولن يبلل حناجرهم لو ظمئوا، ولن يستر عوراتهم لو تعروا.

أتدري يا أبي؟ مثلك كمثل من يرتدي بذلة فاخرة ويلبس تحتها ثياباً ممزقة متعفنة تفوح منها رائحة النتانة، وهو كمن يرتدي بذلة ممزقة ويلبس تحتها ثياباً نظيفة تفوح منها رائحة المسك. الأول له بيت جدرانه جميلة تثير إعجاب الناظر، أما وراء الجدران فيعتكف فقر مدقع وعفن مثير للاشمئزاز، مجرد جحر يخلو من أي طعام أو شراب. والثاني كمن جدران بيته متسخة ومثيرة للاشمئزاز، أما وراء الجدران فأثاث فخم، وكماليات ثمينة ومطبخ فيه كل ما تشتهي الأنفس من طعام وشراب. أقلقتك المظاهر والنتيجة فشل واكتئاب.

آه يا أبي! جاءتك المنية لتصطحبك معها في رحلة أبدية لعالم لا نعلم عنه إلا القليل. رحلت وتركتني وحيداً أدفع عقلي وجسدي وروحي كضريبة لأخطائك.

أتعلم ما حدث لي بعد وفاتك؟ شعرت بدوار سحق رجولتي وطرحني أرضاً لأعانق الظلام. انطلق صراخي يملأ المخيم فزعاً، صرخة تختنق في قلبي، وأخرى يعانقها الظلام ويرددها الصدى، إلى أن اختلست الغيبوبة صحوتي. التف الجيران حولي، مستغربين غموض الصورة. منتظرين إجابة من جثة قد تتكلم أو من جدار قد يخبرهم من الميت أنا أم أنت؟

obeikandl.com

استيقظت. أخبرتهم أنني قد صحوت، لكنّ جثتك ستظل مأسورة إلى أبد الآبدين. حزن جيراننا، تزاحمت الدموع في عيونهم. لم يكونوا يبكون على فراقك، بل على ضعفي! أخبرتهم أنك الميت، فاشتد بكاؤهم أكثر. كنت في غيبوبة من أمري، أحاول أن أفهم الموقف، لم أستطع، ولم يستطع الجيران معي صبراً. حاولت إنكار حقيقة موتك لكنّ وضوح الصورة كان أعظم. حاولت إقناعهم بنومك العميق، تألّموا من إجابتي أكثر، وأصرّوا على أني ملحد يتذمر. طلبوا مني مغادرة الحجرة إلى أن يأتي الصباح بنوره، رفضت فأصرّوا. أدركوا قوة عنادي، تركوني وانصرفوا.

لم أتركك لحظة. أمضيت تلك الليلة أحدثك عن آلامي وأحزاني، محاولاً الحصول على إجابة لسؤال كاد يحطمني: "أين ذهب أخي أسامه؟". لم تتكلم، ولم أيأس. بقيت مستمراً في سؤالي إلى أن تجور خباء الليل، ومع ظهور أول ضوء للصباح احتشد الجيران أمام حجرتنا ليقدموا العزاء وليدفنوا جثتك.

أبى حظك السيئ أن يفارقك. كان الثلج يتساقط بغزارة في هبات كبيرة وثقيلة، وكانت السماء مُعكرة المزاج. لم أفاجأ بذلك الحظ اللعين الذي لا يصيب إلا أمثالنا من الفقراء المنكوبين حتى في موتنا.

لم أكن مستعجلاً لدفنك. أردت أن أبقيك معي في الحجرة، لكن الشيوخ قالوا: "إكرام الميت دفنه". بدؤوا يغسلون جثتك. اقتربت منك، شُق بصرك فأغمضه أحدهم وقال: "اللهم اغفر له، وارفع درجته في المهديّن واخلفه في عقبه في الغابرين...". انتهوا من تغسيل جثمانك. طلب أحدهم مني أن أودعك، ففعلت. كنت مرتبكاً، حزيناً، منهاراً. لم أستطع تقبل فكرة رحيلك بسهولة.

obeikandl.com

ارتميت فوق جثتك أبكي وأشد شعري متوسلاً إليك أن تعود. سمع عجوزٌ- لا أعرفه- كلماتي فأقبل إليّ مسرعاً ووكزني بعكازه وطلب مني أن أتوقف عن كلماتي لأنها كفر. قلت له إنك كل شيء لديّ. ازداد غضباً وطلب مني أن أوحّد الله وألا أبكي كالنساء. قلت إن البكاء يخفف الألم، وإن الرجال يبكون حتى الأشداء منهم. رمقني بنظرة ساخرة، وقال: "بل أشباه الرجال وليس الرجال".

تجاهلته تماماً، وأخذت أُناجي جثتك دون كلام وأبكي بصمت. فجأة وجدت جسدي يرتفع عن الأرض ورأسي يلاصق السقف، وكأن السماء امتصتني بعد أن جذبتني إليها. أصابني الهلع فنظرت للأسفل لأرى من ذلك الخارق الذي رفعني عن جثمانك وكأني ريشة عصفور. رأيت نضالاً؛ ذاك الشاب طويل القامة، مفتول العضل، ضخم الشارب، غليظ الوجه، كثيف الشعر. استشطت غضباً وصحت طالباً منه أن ينزلني. أنزلَني بغلظة وقال مهدداً: "إياك والتصرف كالأطفال". نظرت إليه بعينين خائفتين وهززت رأسي بالموافقة.

همس الحنين في أذني فدفعته من أمامي وجلست بجانب جثمانك وعدت للبكاء ثانية. انقضّ عليّ نضال وسحبني بهمجية عن جثتك وأجلسني في زاوية الحجرة. نظرت إليه مستغرباً تصرفه الجاف. ربّت على كتفي بخشونة، وقال بصوت خشن: "كن رجلاً! كلنا لها". سألته ماذا يقصد ب "لَها". سكت تماماً ولم يعرف ماذا يجيب. طأطأ رأسه محرجاً وابتعد عني بضع خطوات وأخذ يحلق بي بكراهية.

حاولت النهوض من الزاوية لأودعك للمرة الأخيرة. رآني فمشى إليَّ مسرعاً يدب الأرض دباً. اعترض طريقي ودفع صدري بقوة، فارتطم ظهري

obeikandi.com

بالجدار. قذفني بنظرة قاسية وصاح بلهجة عسكرية وهو يلوح بسبابته: "ابق مكانك، ولا تتحرك!". غصصت بريقي وتوسلت إليه أن يسمح لي بوداعك للمرة الأخيرة. رفض طلبي بشدة، وقال بلهجة متعجرفة أو هكذا هي لهجته: "قلت لك ابق مكانك، وتصرف كالرجال".

استسلمت لجبروته، وجلست ثانية وقلبي يبكي من قلة الحيلة. حقيقة خفت أن يضربني فيما لو تزحزحت مرة أخرى من مكاني، ولو أنك رأيت عضلاته- التي تزن أكثر من جسدي- لخفت منه أيضاً. بقيت جالساً في الزاوية، حتى أقبل الشيخ توفيق إمام المسجد ودعا الحضور لصلاة الجنازة.

بقيت جالساً مكتوف اليدين، معقود اللسان، أنظر إلى جثمانك بحذر الملدوغ، وأختلس نظرات محظورة، فإذا بنضال ينتصب أمامي كالشبح ويرعد صوتاً جهوراً هزّ جدران الحجرة طالباً مني المشاركة في صلاة الجنازة. أخبرته بحرج وتلعثم أنني غير طاهر. رمقني بنظرة قاسية وسألني بتطفل: "هل تمارس تلك العادة القبيحة؟". قلت وقد طفح وجهي بالحمرة: "القلم مرفوع عن النائم". هزّ رأسه متفهماً وأسرع لتأدية صلاة الجنازة. صلوا عليك ثم حمل أربعة رجال شداد غلاظ جثمانك – كان نضال أحدهم – وذهبنا سوياً إلى المقبرة لدفنك.

في منتصف الطريق وعلى مقربة من منزل عرفات اللداوي انزلقت قدم نضال بسبب الثلج، ففقد توازنه وأفقد الآخرين توازنهم فانزلقوا معه. جن جنوني حين رأيت جثتك تتدحرج على الأرض وكأنها كرة ثلجية، وبعفوية صحت في وجه نضال: "ماذا فعلت أيها الغبي؟ انظر لقد وسخت الكفن، وحطمت عظامه".

نظر إليّ بعيون يتطاير منها الشرر، وقال مستهزئاً ومهدداً: "غبي؟! سأحاسبك فيما بعد على طول لسانك".

لم أستطع تمالك نفسي، شعرت أنه يستضعفني ويتنمّر عليّ، صحت بعفوية: "ولماذا فيما بعد؟ حاسبني الآن، هيا اضربني، أرجوك!". رمقني بنظرة أشعرتني أنه يحتقرني- رغم أنه لا توجد بيني وبينه أية عداوة-، وقال بفظاظة: "لماذا كل هذا الغضب، وأنت تعلم جيداً أنه ميت والميت لا يحس؟!". صحت بانفعال: "حتى لو كان الأمر كذلك، عليك أن تكون حذراً في سيرك، وتذكر أنك تحمل جثمان إنسان وليس كيساً من القمامة!".

ارتفعت وتيرة المشادة الكلامية بيننا. ضج الجميع وابتدأ كبار السن يدمدمون: "يكفى! اختصرا الشر"، "اتقيا الله، نحن في جنازة"، "ما هذا اللؤم؟ لماذا تعامله وكأنه قصد أن يوقع الجثمان؟!"، "خيراً تعمل شراً تلقى؛ كان عليك أن تشكره لوقوفه معك، وليس إهانته!".

أشعرتني تلك العبارات بالحرج الشديد. نظرت إلى نضال فرأيته يحملق بي. اقتربت منه ومددت يدي لمصافحته في محاولة للاعتذار منه: "آسف، لم أقصد الإساءة إليك". رفض أن يمد يده، اكتفى بهزّ رأسه بطريقة لم ترقْ لي، وكأنه كان يهددني أو يسبني في داخله. كررت اعتذاري دون فائدة. أشاح بوجهه عني وهو يدمدم بكلمات لم أفهمها. كظمت غيظي، وتظاهرت بانشغالي بنفض الثلج العالق بكفنك. نظفت الكفن ووضعتك بمساعدة بعض الشبان في التابوت مرة أخرى وتابعنا سيرنا والصمت يخيم على الجميع حتى وصلنا المقبرة.

obeikandi.com

بدت أرض المقبرة وكأنها أرض مستوية، منبسطة. كانت القبور مغطاة تماماً بأكوام الثلج. لم يكن هناك أثرٌ للحفرة التي جهزها الشبان لدفن جثتك. وقفنا حائرين حول جثمانك حتى اقترح أحد الشيوخ أن نحفر قبراً جديداً. نال اقتراحه القبول، إذ لم يكن أمامنا خيارٌ آخر. تعاون الشبان على حفر القبر وأنجزوه بسرعة ودفنوا جثتك. وقف الشيخ توفيق وقال بصوت يرتعش: "استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل". انهمرت الدموع من عينيّ. لم أستطع الوقوف على قدميّ، كان جسدي ينتفض بقوة كمن صعقته الكهرباء، رمقته بنظرة حادة وصحت بأعلى صوتي: "ولماذا يُسأل، ألا يكفى معاناته وعذابه في الدنيا؟!". استاء المحتشدون من كلماتي وأخذوا يكيلون لي الاتهامات ويصفونني بالمُلحد، وكأني تلفظت بكلمات غير مباحة أو ربما كانت كذلك.

طأطأت رأسي خجلاً، وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني. شعرت أني محاصرٌ ليس بكلماتهم القاسية فقط، بل أيضاً بنظراتهم التي كانت تجلدني بلا رحمة. لم يكن أمامي سوى التماس النجاة بحفنة من الدموع، فأجهشت بالبكاء. لاحظ الشيخ توفيق توتري فتقدم إليّ، وقال: "تمالك نفسك يا بني، إن النياحة حرام، واعلم أن الميت يعذب ببكاء أهله. أما الحزن فلا بأس فيه، فهذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده. إنما يرحم الله من عباده الرحماء، إن العين لتدمع والقلب ليحزن، ونحن لفراق والدك لمحزنون. اصبر يا بني واحتسب، إن لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى". لم أستطع الاستمرار في البكاء حين سمعت ذلك.

مسحت دموعي ورفعت يديّ إلى السماء، وقلت والألم يعتصر قلبي: "اللهم اغسل ذنوب أبي بالماء والبَرَد والثلج، ونقّه من الذنوب والخطايا كما تنقي الثوب

obeikandi.com

الأبيض من الدنس". أنهيت دعائي، والتفت حولي أبحث عن وردة كي أغرسها وسط قبرك كما يفعل الناس. لم أجد سوى غصن زيتون حطمته الرياح، تناولته وغرسته في منتصف القبر.

شاهد الشيخ توفيق ما فعلت، ابتسم في وجهي، وقال: "الميت لا يأبه بالأغصان أو الورود، أما دعاؤك فقد سمعه". قلت مستغرباً: "وهل الميت يسمع؟" شخص ببصره إلى السماء وقال: "نعم يسمع!". سألته مندهشاً: "وكيف عرفت؟ هل مت من قبل؟ أم هل مررت عبر النفق؟!". قطب حاجبيه مستغرباً مما أقول، فقلت موضحاً: "معذرة، أقصد كيف عرفت أن الميت يسمع؟". قال بثقة عالم: "هذا ما أعلمنا به رسول الله، حيث قال: والذي نفسي بيده أنهم يسمعون قرع نعالكم". أعجبني ما سمعت، فسألته متحمساً: "هذا يعني أنه يستطيع أن يسمع حديثي لو جئت إلى قبره وفضفضت له؟". هزّ رأسه وقال بثقة: "الميت يعلم ولا يعمل". سألته مستغرباً عن قصده. قال إن الأموات يعلمون أخبار الأحياء، لكنهم لا يستطيعون عمل شيء. لذلك أُحدِّث صورتك يا أبي، فأنا أعلم أنك تسمعني.

أنهيت حواري مع الشيخ توفيق ثم وقفت على شارع المقبرة الترابي المغطى بالثلج لتقبل العزاء، قام الجميع بتعزيتي – حتى نضال–، وانصرفوا إلى بيوتهم. وما أن هرول الناس إلى منازلهم حتى شرعت بالبحث عن الحجارة. جمعت كمية من الحجارة وطوقت قبرك بها حتى لا يجرفه الماء لو أمطرت السماء. ألقيت عليه نظرة سريعة وهرولت إلى المخيم الصامد وأنا أفكر بكلمات الشيخ توفيق التي رفعت من معنوياتي.

رأيت الناس يعدون على الثلج وقد تراكم بكثافة في مداخل منازلهم، والأطفال يتهافتون عليه ويستمتعون بنعومته. يصنعون منه تماثيل جميلة ويلثمونها بالكوفية، والمخيم يرزح تحت ضباب دامس أكثف من الغيوم. وقفت أراقبهم وأستمتع بما يفعلون، وفجأة ابتدأ الأطفال يهربون إلى منازلهم ويغلقون الأبواب خلفهم. للوهلة الأولى اعتقدت أنهم خافوا مني وسرعان ما تبين سبب هروبهم وخوفهم. رأيت قوات من الجيش الإسرائيلي يتسكعون في الشوارع وفي أزقة المخيم. دخل الأطفال منازلهم مذعورين، وأطلقوا أبصارهم يراقبون الجنود من خلف ستائرهم البالية. تارة يبرزون لهم أصابعهم الوسطى، وأخرى يخرجون لهم ألسنتهم ليغيظوهم دون أن يرى الجنود شيئاً مما يفعلون.

آه يا أبي! لا تظن أني جننت لأنني أحدث صورتك، فالشيخ توفيق أكد لي أنك تسمعني كما أني أريد أن لا أشعر بالوحدة في هذا المكان الغريب. أريد أن أشكو لك همومي. صدقني أنني أشعر بأن صورتك تبادلني الكلام، عيناك تطلب مني إكمال حديثي، أليس كذلك؟

رأيت الجنود يمشون بخطوات سريعة باتجاهي. أسرعت في مشيي محاولاً تجنبهم حتى لا يتحرشوا بي أو يتشبثوا بي كشوك العليق.

اختفيت عن أبصارهم، وما كدت أشكر الله أني نجوت منهم، حتى فوجئت بفرقة أخرى تقف على مقربة من حجرتي ويتبادلون أطراف الكلام ويضحكون. لمعت في ذهني فكرة الرجوع، فأنا أعرف أنهم سيتشبثون بي كالعلقة. تذكرت الفرقة الأولى التي تركتها تمشي ورائي، قلت لنفسي لا مفر، فقررت المواصلة. مشيت نحو حجرتي مطأطئاً رأسي، أمشي بأدب وانكسار راجياً من الله أن يأخذوا

obeikandi.com

عني انطباعاً جيداً، وما كدت أضع يدي على قبضة الباب حتى شرعوا يصيحون علي: "أنت يا ولد تعال هنا".

تظاهرت بأني لا أسمعهم، فأردت دخول حجرتي. أطلقوا عياراً نارياً في الهواء، وصاحوا ثانية: "أنت تعال هنا!". قلت في قرارة نفسي: "هذا ما ينقصني الآن، رحمتك يا الله!".

ذهبت إليهم وذهني مشغول بالهراوات التي يحملونها، وبعفوية أخذت أتحسس أجزاء من جسدي، متأهباً ومواسياً للجزء الذي سيتلقى الضرب. تقدم أحدهم مني وأرعد صرخة مدوية في وجهي. صرخة مصحوبة بالبصاق: "هل أنت أطرش؟". قلت بأدب: "لا! لست أطرشَ، ظننت أنك تنادي على ولد صغير". وخزني ببندقيته وصاح ثانية: "لماذا تنظر إلي بحقد، هل تكرهني؟!". استغربت سؤاله فأنا لم أنظر إليه كما زعم. أجبت بنبرة هادئة: "وماذا بيني وبينك حتى أنظر إليك بحقد؟!". مد يده وصاح بلهجة متعجرفة وهو ينظر إليّ باحتقار: "أعطني الهوية، هيا تحرك بسرعة!".

هززت رأسي ووضعت يدي في جيب معطفي أتحسس الهوية فلم أجدها. اضطرب قلبي خوفاً ورحت أقلب كل جيوبي، أيضاً لم أجدها. نظرت إلى الجندي بعينين خائفتين، وقلت بصوت يرتجف: "يبدو أني نسيتها في البيت...". كزّ على أسنانه وقال ساخراً: "نسيتها في البيت؟ كيف تنسى ما أعترف به، ألا تعرف أنك غير موجود دون الهوية؟!". شعرت بغصة في قلبي، وقلت: "أنا إنسان، والإنسان ينسى أحياناً، لكن إذا أردت التأكد من وجودي، دعني أجلب لك الهوية، ذاك هو بيتي".

obeikandi.com

أمسك بعنقي ودفعني بقوة ضد عامود الكهرباء وسألني بلهجة غاضبة: "هل أنت مطلوب؟!". قلت بسذاجة: "هذه أمنيتي! لكن بصراحة لم تنظر إليّ فتاة أبداً". فاجأني بصفعة على وجهي وصاح: "أيها الغبي! أنا أسألك إن كنت مطلوباً للجيش، وليس للنساء!". هززت رأسي وابتسمت معتقداً أنني فهمت مقصده، فأجبت ببساطة: "لا أملك الهوية الزرقاء كي أُطلب للجيش، أنا لاجئ وأسكن في المخيم". جُنّ جنونه، ووجه لي صفعة على عنقي وصاح: "ألا تفهم العربية؟ أنا أسألك إن كنت مطلوباً للجيش، بمعنى إن كنت مخرباً". أخذت أضحك وأسخر فيها من نفسي، وعدم مقدرتي على التركيز وأجبت بثقة: "أبداً! أنا مسالم، ولا أتدخل بالسياسة، بل أمقتها جداً". هزّ رأسه وبلهجة متجهمة: "ماذا تعمل؟!". أجبت بابتسامة: "سائق فرشه". قطب حاجبيه مستغرباً وسأل: "ماذا تعني بسائق فرشه؟!". أجبت موضحاً: "أعني أني لا أعمل، أمضي يومي نائماً...". أمسك بعنقي وضغطه بشدة، وصاح: "ألا تعرف أن تقول إنك نكرة وعاطل عن العمل؟". قلت وأنا أحاول أن أحرر عنقي من قبضته: "سائق فرشه تعني أني عاطل عن العمل، اعتقدت أنك تعرف تلك العبارة". أفلت عنقي ثم ثبّت قدميّ بحذائه العسكري وألصق خوذته في رأسي، وسألنني بخشونة: "هل تحب عرفات؟". سألت مستفسراً: "عرفات اللداوي؟". ظنوا أني أسخر منهم، والحقيقة أني ظننت أنهم يسألوني عن عرفات اللداوي، وليس عن القائد الفذّ ياسر عرفات.

انهالوا عليّ بالضرب المبرّح. قلت لهم إن موتك أنساني الهوية وإنني لا أسخر منكم. لم يأبهوا بما قلت. أرادوا أن يعلموني درساً لن أنساه كما قال أحدهم.

أمروني بالانبطاح على الثلج، فانبطحت بسرور، وقلت محاولاً تخليص نفسي منهم: "حجرتي قريبة، دعوني أجلب لكم الهوية". تجاهلوا كلامي، أمروني أن أمشي مثل الحمار وأنهق. مشيت كالحمار ونهّقت والقهر يمزقني، وهم يضحكون ويتلذذون بأنهم الأقوى.

أمروني أن أخلع ثيابي. ترددت. لدغوا وجهي بركلة وصاحوا: "اخلع ثيابك بسرعة قبل أن نغضب!". قلت في قرارة نفسي: "كل هذا ولم تغضبوا بعد؟!". خلعت قميصي وسروالي محاولاً اختصار الشر قدر المستطاع. طلبوا مني أن أخلع الملابس الداخلية أيضاً. رفضت بقوة، وصحت بشجاعة: "على جثتي! إلا "الكلسون"!" التقطوا كمية من الثلج ودلكوا بها صدري، لم ألفظ كلمة احتجاج.

أمروني أن أرقص. قلت صادقاً: "لم يعلمني أبي الرقص". شدني أحدهم من شعري وصاح بملء حنجرته: "ارقص وإلا..."

رقصت يا أبي! رقصت ولم يمر على دفنك إلا ساعة. نفّذت كل أوامرهم بفارغ الصبر، أتدري لماذا؟ لأنني أردت زيارتك في اليوم التالي لأفك وحدتك، ولأقرأ ما تيسر من الآيات القرآنية على قبرك، قال الشيخ: "أقرأ ما تيسر من القرآن وهبه إلى روح الرسول -عليه السلام- وإلى روح والدك". قبلت كل تلك الإهانات من أجلك. أنا لا أعايرك، بل أعبِّر لك عن مدى حبي.

بعد أن تجرعت كمية لا بأس بها من الإهانات، التقط الضابط حجراً كبيراً وأمرني بمد يدي. مددت يدي معتقداً أنه شعر بالذنب ويود الاعتذار عن طريق

مصافحتي. أمسك بيدي وأسقط الحجر عليها. كسر رسغي الأيمن وانفجر بالضحك وكأن عاهرة تدغدغه.

لم أكترث. حبست وجعي وسكت. ظن الضابط أن جسدي ميتٌ لا يحس. سألني بسخرية: "هل أنت حيوان، ألا تحس؟ ألا تشعر بألم؟". قلت بعصبية: "بل أكاد أموت من الألم، لكنني أخاف أن أظهره فأزعجكم فأُضرب ثانية!".

رمقني بنظرة احتقار، وطلب مني أن ارتدي ثيابي. ارتديت ثيابي بصعوبة. طلب مني أحدهم أن أمد يدي ثانية. صحت بغيظ: "أقسم بالله أنها تؤلمني". صفن قليلاً ثم أمرني برفع كُمّ القميص ليُلقي عليها نظرة. رفعت كُمّ القميص وقلبي غير مطمئن. أمعن النظر في رسغي وقال: "أنصحك بالتوجه إلى الطبيب فوراً، أخبره أن الجيش كسره، واطلب منه أن يكتب لك تقريراً طبياً كي ترسله لعرفات، ليعوضك بمبلغ من المال سينسيك الألم". قلت مندهشاً: "لا داعي للدكتور، سيشفى وحده!".

شدني أحدهم من ذراعي، وقال مهدداً: "إياك أن تنسى الهوية مرة أخرى، مفهوم؟!". قلت مختصراً الشر: "أعدك أنني سأعلقها في عنقي حتى لا أنساها أبداً".

أطلقوا سراحي بعد أن قضوا شهوتهم وأرضوا كبرياءهم. مشيت إلى حجرتي بتثاقل، أحبس ألماً ثقيلاً بين أضلعي، راجياً من الله أن يوكلني أمر ذلك الضابط يوماً ما لأكسر رسغه كما كسر رسغي، فقط لأجعله يتذوق الألم الذي تذوقته.

دخلت حجرتي وأنا أتأرجح كدمية مطاطية. أسندت ظهري إلى جدار الحجرة الرطب، فتزحلق ظهري حتى وصلت مؤخرتي الأرض. مددت رجليّ

وألقيت نظرة على فراشك. اعتصرني الحزن. غيابك فتك برجولتي وأضعفني. زحفت إلى فراشك وأخذت أقبّل وسادتك متمنياً أن يكون رحيلك مجرد كابوس سمج. أدركت أن موتك حقيقة مرّة لا ينكرها أحمق. غلبني الحزن فأجهشت بالبكاء. أرجو ألّا تكون قد عُذِّبت بسبب بكائي!

ازداد وجع رسغي المكسور. لم أستطع تحمل الألم، فهرعت راكضاً إلى منزل الحاجة صالحة لتجبره. اقتحمت منزلها بأسلوب همجي دون استئذان، ولسوء حظي وجدتها تُصلي. ارتميت على الأرض وأنا أتأوه من شدة الألم. سمعت أنيني، فأسرعت في صلاتها.

أنهت الصلاة والتفتت إليّ وسألتني بمودة عمّا أصابني. أخبرتها أن الجيش كسر رسغ يدي. رفعت يديها إلى السماء ودعت على الفاعل. قلت في نفسي: "منذ ولدت وأنا اسمع الدعاء ضدهم، لكن يبدو أن الله لا يأبه بدعائكم، ربما لسوء نواياكم!".

أجلستني أمامها برفق وألقت نظرة خاطفة على رسغي. تنهدت، وقالت باستياء: "رسغك مكسور". قلت وقد سبقت الدموع كلماتي: "أرجوك ساعديني، أكاد أموت من الألم". أمسكت كف يدي بيدها اليسرى، وأمسكت مرفقي بيدها اليمنى، ثم نظرت إليَّ بعينيها الجميلتين الواسعتين، وقالت: "فكِّر بشيء حلو". اعتقدت أنها تقصد الحلويات، قلت بسذاجة: "سأفكر بالكنافة". ابتسمت، وفجأة شدت يدي بقوة لتعيد عظام الرسغ إلى وضعه الطبيعي، وما كادت تفعل حتى ابتدأت أصرخ بأعلى صوتي: "كفى! أرجوكِ كفى!". ملّصتُ يدي قبل أن تنجز مهمتها. تأففت، وغيّرت جلستها. حثتني على الصبر والتحمل

obeikandi.com

لدقيقة واحدة فقط ثم أمسكت بيدي ثانية ووضعت قدميها على صدري، وقالت بخشونة: "اصبر يا بني، وفكر بشيء جميل غير رسغك وألمه". ضحكت رغم الألم الشديد، وقلت مخاطباً نفسي: "ألهذا السبب طلبتِ مني التفكير بشيء حلو؟!". وفجأة دفعت صدري بقدميها وهي تشد يدي إليها، فإذا بعظم الرسغ المفصول عن بعضه يعود إلى مكانه الطبيعي. لم أستطع احتمال الألم أو السيطرة على نفسي، فأخذت أسبّها بكلمات بذيئة، بذيئة جداً وأبكي في الوقت ذاته... وكأنها لم تسمع شتائمي، أو أنها سمعت ولم تكترث. نهضت عن الأرض بتثاقل وفركت شعر رأسي بمودة وهرعت إلى حجرة أخرى وعادت وهي تحمل بيدها أربع قطع من أغصان الزيتون الجافة ووعاء فيه بعض الحنطة. عجنت الحنطة بقليل من الماء حتى أصبحت متماسكة. تناولت الأغصان وطوقت بهم رسغ يدي ووضعت فوقها قليلاً من الحنطة المعجونة ثم لفت الرسغ بقطعة من القماش وهي تدمدم بكلام غير مفهوم. انتزعت منديلها عن رأسها فبدا شعرها الأبيض وكأنه قطع من الفضة، تنحنحت، وقالت بمودة: "أنت مثل ابني!". طوت المنديل وربطت طرفيه معا وعلقت يدي في عنقي وهي تدعو لي بالشفاء العاجل.

آه يا أبي! من المؤلم جداً أن يُكسر رسغ يدك ويجبّر على طريقة الحاجة صالحة. أتدري، كان رأسي يصل الأرض وهي تجبّره من شدة الألم.

علّقتْ يدي في عنقي، وابتدأتْ تغيظني بالحديث عن طفل قامت بتجبير يده في الصباح: "قمت بتجبير ذراع طفل هذا الصباح، كان كسره أسوأ بكثير من كسرك، لكنه كان رجلاً بمعنى الكلمة، لم أسمع له صوتاً، بهرني بشجاعته!". قالتها وكأنها تسخر من شجاعتي ورجولتي. أظنّ أني بالغت قليلاً في صراخي،

لكن لم يرتفع صراخي رغبة ولا حباً في إسماع صوتي النشاز، بل من وجع فتك بأحرف صبري ومقدرتي على التحمل. قلت لها: "كل إنسان وجعه على قده". ابتسمت وقالت بنبرة فيها ودّ: "كل طفل يحرسه ملاك من السماء!". هززت رأسي مؤيداً.

شكرتها بحرارة ومشيت خطوتين باتجاه باب الخروج. أوقفتني وسألتني باهتمام: "هل تعرف من مات في المخيم؟". اهتزّ بدني وقلت بحزن: "أبي!". اقتربت مني وهي تنظر إلي بعينين حزينتين، طبطبت على كتفي، وقالت مواسية: "عظّم الله أجركم، البقاء لله". قلت وقد اغرورقت عيناي بالدموع: "شكر الله سعيكم، كلنا لها!". ضغطت كتفي بمودة، وقالت: "رحمه الله! ارتاح من معاناته". هززت رأسي وغادرت منزلها وأنا في غاية التعب. تارة أتأرجح في سيري، وتارة أتماسك، وأخرى أنظر بشفقة إلى رسغ يدي المعلق في عنقي، وأتساءل كم سيستغرق من الوقت حتى يشفى.

في طريقي التقيت بالشيخ توفيق، أوقفني وسألني باهتمام وفضول عمّا أصاب ذراعي، فأخبرته بما حدث. ربت على كتفي بمودة واعتبر ما أصابني مجرد تكفير عن ذنوبي، ودعا لي بالشفاء وتابع سيره وهو يردد: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

كلما مشيت خطوة التقيت بأحد الجيران. كان علي أن أشرح لكل واحد أصادفه في طريقي ماذا حدث. أحدهم وصفني بالغبي لعدم فراري من الجنود حين نادوا عليّ، وآخر تعاطف معي وقال إنه مقدر لي أن أُضرب ويُكسر رسغي، وآخر شمت بي وقال بأنني أستحق أن يكسر رأسي لا رسغ يدي، ولا أدري لماذا قال ذلك.

obeikandi.com

كان عليَّ أن أتحمل كلماتهم اللاذعة، وأختصر في الحديث قدر الإمكان؛ لأني خفت أن يغلبني الألم فأضعف وأبكي أمامهم وبالتالي تهتزّ صورتي أكثر، كما اهتزت أمام الحاجة صالحة، أو تنفعل كرامتي فأثور وأضرب أحدهم وبالتالي أدفع ضريبة ثورتي ما لا أطيقه، هذا إن نجوت من الموت.

أسرعت في سيري متناسياً ما قيل لي، لكن عشرات عيون المارة بقيت ترقبني وتتساءل بفضول عما أصابني، حتى اقتربت من حجرتي وتنفست الصعداء.

دلفت عتبة الحجرة متهالكاً. شعرت برعشة، ببرد شديد اجتاح جسدي واخترق عظامي. لم تكن الحجرة في تلك البرودة قبل أن تجبّر الحاجة صالحة رسغي.

أشعلت شمعة لأنير الحجرة، ثم حطمت ما تبقى من خشب الخزانة بقدمي ووضعتها في الموقد. اختنقت الحجرة بسحب الدخان، كدت اختنق. هرولت إلى النافذة وفتحتها. ابتدأت سُحُب الدخان تتلاشى، كان الهواء يمتصها بشغف إلى خارج الحجرة تماماً كما يمتص البؤس روحي.

أغلقت النافذة ثانية، وجلست قرب الموقد وأنا أحتضنه. شعرت بدوار قوي. خفت أن تسهو عيني وينجذب رأسي نحو الدفء فيسقط في الموقد. كما يقولون الوقاية خير من قنطار علاج. ابتعدت عن دفء الموقد واستلقيت على فراشي لآخذ قسطاً من الراحة.

أصبت بالحمّى والقشعريرة. أردت أن أضع بعض الكمادات الباردة على جبيني لتمتص الحرارة، لم أستطع الحراك. شعرت بارتخاء في جسدي ووجع في مفاصل عظامي.

obeikandi.com

أتدري كنت أتلذذ بحرارتي المرتفعة، كانت تنقلني إلى عالم جميل. شعرت وكأني مخمور بنبيذ معتق... صرت أهذي بكلام شاعري بليغ وأرى أشياء جميلة وأخرى عجيبة، أشياء لا تشبه شيئاً. رغم ذلك خفت أن تفتك الحرارة بجسدي فأصبح مشلولاً.

ضغطت على نفسي ونهضت. تناولت الشمعة ومشيت نحو برميل الماء، خارت قواي فوقعت على الأرض. انطفأت الشمعة فأصبحت الحجرة مظلمة سوداء. لم أر شيئاً أمامي. زحفت على ركبتيّ أتلمس طريقي إلى الفراش.

وصلت الفراش وتمددت عليه متهالكاً وأسناني تصطك ببعضها. أسندت رأسي على الوسادة وعدت أستمتع بهلوستي من جديد.

تارة أرى أكواماً من خيوط الصوف متداخلة في بعضها، متشابكة تماماً وعليّ أن أرتبها، وأخرى أرى نفسي مشغولاً بتنظيف كمية هائلة من الأرز من الشوائب، وأحياناً أرى مروجاً فيحاء ترعى فيها أعداد هائلة من الماشية بمرح وسرور، فأبتسم. ثم أرى ذئباً يأتي من بعيد يتلبد لصغار الماشية فأصيح: "ابتعد أيها الذئب ولا تعكر مزاجها". فيختفي الذئب. ما أفظع أن يصاب المرء بالهلوسة فيخضع لنوع آخر من التعذيب النفسي!

ازداد الوجع أكثر فصرت أتمرغ على الفراش كالثور الأجرب. حاولت أن أنادي على أحد، فلم تفلح طبقات صوتي الواهن أن تلفت انتباه الجيران.

تمنيت لو يسمعني أحد فيأتي لمساعدتي. لم يسمعني أحد غير الله و"جرعوش" المجنون. فتح "جرعوش" باب حجرتي وألقى نظرة خاطفة. رآني أتمرغ على

فراشي فظن أني أفعل شيئاً آخر. ضحك ضحكة هستيرية مجلجلة وصاح بملء حنجرته: "يا ناس، صابر يضاجع فراشه!".

قالها وهرب يردد تلك العبارة على مسامع الجميع. لم يكن بوسعي أن أدافع عن نفسي. تجاهلت ما قاله وأمسكت طرف الملاءة بأسناني وشرعت أكزّ عليها كامرأة جاءها المخاض حتى أخمد بركان الألم.

تركت نفسي في عناية المجهول حتى ارتخت أطرافي تماماً ولم تعد أسناني قادرة على ضغط طرف الملاءة. تذكرت أن في جيب قميصي يوجد أقراص مسكنة للألم. ابتلعت حبتين وبعد ربع ساعة ارتحت قليلاً.

عدت وأسندت رأسي على الوسادة، هذه المرة سرحت أحلم بزوجة جميلة تجلس بجانبي وتشاطرني الأحزان، تفرك شعري بأناملها الناعمة، وتهلل لي كما تهلل الأم لطفلها قبل النوم. حلمت بأطفال لي يلعبون حولي بمرح وسرور، أداعبهم ويداعبونني. شرد ذهني وتاه في عالم جميل، جميل جداً. قطرة من الماء تسقط على أنفي عبر ثقوب السقف تعيدني إلى واقعي المرير.

سمعت باب حجرتي يفتح رويداً رويداً، وعيون كثيرة تمد بصرها إلى فراشي منتظرة مشهداً غرامياً. صحت بصوت متعب: "من هناك؟". انفجروا ضاحكين وأغلقوا الباب ولاذوا بالفرار. خمنت أن جرعوش قد حشد أطفال الحارة واقتادهم إلى حجرتي ليمسكوا بي متلبساً مع الفرشة. فضحني ذلك المجنون وأنا بريء مما اعتقد براءة الذئب من دم يوسف.

تناسيت أمره وحاولت النوم دون جدوى. تناولت كتاباً من تحت وسادتي وأردت القراءة فمنعني الظلام. عادت الحمى من جديد تجلد جسدي بلهيبها.

ابتدأت أرى وجوه الأموات، رأيت وجهك ووجه أمي، انتابتني مشاعر غريبة ورعشة قوية وإحساس مروع، اعتقدت أن أجلي قد اقترب. فرحت لأنني سمعت أن الأموات تلتقي. فرحت، لأنني كنت أرغب بلقاء الأحبة والأهل وخاصة لقاءك ولقاء أمي التي فقدتها منذ نعومة أظفاري.

أشياء كثيرة استوطنت مخيلتي، الخوف كان أهمها.

آه يا أبي! هل استيقظت بفزع من نومك يوماً على مداعبة الألم، يمد أنامله الخفية إلى جسدك، يلامس بأطرافه الجزء المصاب لمسة رقيقة مداعبة، ثم يلملم نفسه وينسحب مبتعداً ببطء كثعبان مراوغ، ليعود فيغزو بشكل أعنف ثم أعنف، ينهش الجزء المصاب بأنيابه السامة، يعتصره بلا شفقة، فتعاني ما تعانيه بعيداً عن نظرات زوج حنونة، تتطوع بضمك إلى صدرها لتنسيك الألم، أو لمسة أم تقف فوق رأسك كالملاك، تطبطب على صدرك بحنان، وتدعو لك بالشفاء كلما تأوَّهت.

هل تدري ما هو الحل في حال الوحدة وغياب الزوجة والأم؟ لا حلّ سوى ابتلاع علبة من دواء وكالة الغوث المخدر، يستسلم بتأثيره الجسد والعقل لنوم ثقيل، ثقيل جداً. نوم غريب ومخيف، لا يشبه النوم، مليء بالكوابيس والمتناقضات. ترى وجوهاً بلا عيون وأخرى بخمس عيون أو تسعٍ. عيون لا تشبه العيون، حمراء، صفراء، بنفسجية، وترى خصوماً كثراً، أعداء كثراً، يجلدونك، يخنقونك، يلكمونك، يركلونك، يتقاسمونك ضرباً موجعاً، أو يغيظونك بما لا تطيق. تحاول أن تقاوم دون أن تفلح. ترى نفسك مستسلماً تماماً، وفجأة يتغير الحال. تحطم القيود وتحظى بفرصة انتقام. انتقام العاجز. تصرخ بلا

صوت، تركض بلا مسافة، تضرب بلا يدين، تشتم بلا لسان، ثم ترى نفسك في مكان غير المكان، تقف على حافة عمارة شامخة، سامقة أشبه بناطحة سحاب. يلتف حولك خصوم جدد بلا وجوه، يريدون دفعك، ذبحك ولا تعرف لماذا. كل ما تعرفه أنك مستهدف. ترى في أيديهم خناجر، وسلاسل، بنادق وهراواتٍ ثخينة. تنظر إلى يديك فتراهما فارغتين، إلا أنك تصرّ على المقاومة، على التحدي. وفي لحظة الهجوم، ترى قدميك تنقلانك إلى الوراء بخطوات ثقيلة وخائفة. تمشي وتنسى تماماً أنك في مكان عال يناطح السحاب. وفجأة تدوس قدماك شيئاً وأنت لا تقوى على حملهما. تسقط نحو الأرض باندفاع... تحاول أن تصرخ، تستجير دون أن تقوى على الكلام. تحاول التشبث بها تمسك فيخذلك الهواء. يفلت منك كل شيء، فتشفطك الأرض الصلبة إليها بشغف ليرتطم رأسك بها. الغريب أنك تتحرك، تسمع خفقان قلبك، تشك في أنك لا زلت حياً. تنظر إلى جسدك فتراه سليماً، تتحسس رأسك فتحس أنه متماسك وثابت. تعتقد أنه كابوس قذر، تحاول النهوض فلا تستطيع. تُجنّ، تصيح، فيخرج صوتك مجلجلاً ومزلزلاً المكان. يلتف حولك أناس كثيرون... كثيرون جداً. تخمنّ أنهم جاؤوا لينقذوك، تبتسم وتنتظر أن يمد أحدهم يده إليك، فلا ترى مبادراً. تفرغ شحنة غضبك وسخطك على شخص ما، تصيح به: "أعميت! هيا مدّ يدك وساعدني على الوقوف، فأنا حيّ!". وكأنك تحادث مخلوقاً فضائياً غبياً، شكله يشبه البشر، لكنه لا يشعر ولا يفهم لغتهم.

تدرك أنك ميت، فتمد جسدك مكان السقوط باستسلام وبرود، منتظراً مبادراً ينقلك إلى مثواك الجديد، مسكنك الجديد!.. ثم يسحب المخدر تأثيره

obeikandi.com

بتلكؤ، تاركاً المجال لآلاف العصابات من الحشرات المفترسة لتجتاح جسدك، وتفترس كل شيء فيه. تنشر أمواجاً كهربائية سريعة متلاحقة، يقشعر لها الجلد وتختلج العضلات ثم يخف تأثيرها، ولا يبقى منها سوى صداع يدكّ الجمجمة، واستعدادٍ لهجمة جديدة من هجمات الألم التي أصبحت أكثر عنفاً وتقارباً. الأدهى من كل ذلك، أن لهفة الحاجة إلى المخدر أشد فتكاً وعصفاً من الألم ذاته فهل تصدق؟ وهل حدث معك يوماً ما حدث معي؟

أخيراً غلبني النعاس فنمت. نمت قرابة الساعة واستيقظت من نومي مذعوراً. أيقظتني قطرات الماء المثلجة التي تساقطت بغزارة من ثقوب صفائح السقف. ظننت أنها شيء آخر غير مرغوب فيه. تحسست ثيابي فوجدت أن الماء المالح قد اجتاح كل شبر فيها. لمست جبيني فوجدته يتصبب عرقاً. قلت بسعادة: "إذن تحرر جسدي من الحرارة!".

جلست القرفصاء في فراشي أفكر بطريقة تمكنني من سد الثقوب المنتشرة في صفائح "الزينكو"، ومنع الهواء المثلج الذي يهاجمني عبر شقاق النافذة ويلسعني بسياطه التي لا تقل قسوة عن فراقك.

غادرت الحجرة وصعدت فوق سطحها لأغلق الثقوب بمادة الزفت، فبدل أن أغلقها دست بالخطأ فوق صفيحة "زيكنو" صدئة، فاتسعت الثقوب. نزلت عن السطح وأنا أردد المثل الذي يقول "بدل ما كحلتها عميتها".

توجهت نحو النافذة لأضع خرقة لسد الشقوق. لم أستطع فعل ذلك بيد واحدة وجسد هزيل. لم يكن أمامي سوى الاستسلام لواقعي المرير. لم أخسر كثيراً فقط تبلل فراشي وتجمد جسدي. أصبح جلدي كقشر البرتقال. تحيّرت من

نوع مأساتي فلعنت من تسبب بها. غطيت جسدي بالملاءة ووضعت قطعة من النايلون فوق الملاءة لتحمي جسدي من القطرات المتساقطة.

هاجمني النعاس مرة أخرى فنمت وأنا أسب زعماء العرب، لأسباب تعرفها وهم يعرفونها جيداً.

ساعة تقريباً وإذا بصفعة ثقيلة مفاجئة تهبط بقسوة على وجهي، تزلزل بدني، وصوت خشن يهدر غاضباً: "أنت، هيا انهض!".

نهضت كالذي يتخبطه الشيطان من المس، أصيح بصوت يتملكه الفزع: "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟". أتدري يد من صفعت وجهي؟

إنها يد الضابط الذي كسر رسغي في الصباح. لم يكتف بها فعل، بل أيقظني حتى أمسح الشعارات الثورية المكتوبة على جدران حجرتي ونزع ملصقات وصور القادة: عرفات وخليل الوزير، وجورج حبش. غضبت من ذلك الضابط اللئيم. احتججت على الطريقة التي دخل بها حجرتي، وعلى أسلوبه الفظّ في إيقاظي. لم يزده احتجاجي سوى تجبراً وعنفوانا. عصرني عصراً بين ذراعيه حتى ظننت أنه الموت، وقال بلهجة متعجرفة إنه يفعل ما يحلو له وقت ما يشاء، وإن أمثالي عليهم تنفيذ الأوامر دون احتجاج، وإذا كان أسلوبه في التعامل معي لا يعجبني، فمياه المجاري أمامي يمكنني شربها.

قلت وعيوني يتطاير منه الشرر: "للبيوت حرمة عليك احترامها". وخزني بفوهة بندقيته، وقال بسخرية: "ظننت حجرتك مرحاضاً فجئت لأبول فيه!". قلت منزعجاً: "هذه حجرة لها حرمتها". قاطعني، وقال وهو يشدني من قبة قميصي: "هيا انهض دون فلسفة، فوراءك عمل مهم". قلت له إنني مصاب

بالحمى الشديدة بسبب البرد الذي أصابني عندما أجبروني على نزع ملابسي، وبسبب كسر رسغي. فأجاب وهو يشدني إليه بوحشية: "يبدو أنك لم تكتف بكسر رسغ، ما رأيك بكسر الرسغ الآخر؟". قلت بخوف: "أنا مريض، ضع يدك على جبيني وتأكَّد". ركلني وصاح: "هيا انهض دون ثرثرة!".

تأففت من أسلوبه الفظّ وصحت منفعلاً: "أنا لم أقتل أحداً من أهلك، لماذا تعاملني بهذا الأسلوب؟". انفجر ضحكاً، وقال: "وكيف تريدني أن أعاملك؟". قلت مستهزئاً: "باحترام".

تمنيت لو لم أقل شيئاً. شدني من أذني وسحبني كالماعز إلى خارج الحجرة. صحت بانفعال: "اترك أذني". دفعني بقوة فارتطم ظهري بالجدار، سقطت أرضاً وقلبي يغلي قهراً، متمنياً أن أغرز أصابعي في عنقه الممتلئ بالبرص. تقدَّم أحدهم مني، وابتدأ يدغدغني ببندقيته ويرفس معدتي بحافره، يطالبني بالنهوض ورفع يديّ إلى الأعلى.

نهضت ورفعت يدي مستسلماً لجبروته. شرع يدق رأسي بخوذته ويقول: "ارفع يدك الأخرى". أجبته باستهجان: "ألا تراها معلقة في عنقي؟". استمر ينطحني بخوذته فقلت إني سأفعل ما يشاء، مقابل أن يتوقف عن ضرباته الموجعة. وضع أصابعه على ذقنه وأخذ يفكر بكيفية إهانتي. تخيّل، لقد طلب مني أن أقلد صوت الكلب، والقطة، والأفعى. لا تخف على ولدك، ولدك ذكي ويعرف كيف يخلص نفسه وقت الشدائد. قلدت مجبراً كل الأصوات إلا صوت الأفعى. جُنّ جنونه، ازداد عصبية، وأمرني بقوة الهراوة أن أقلد فحيح الأفعى. قلت له إنني لا أعرفه. لم يصدق، أصر على أمره التعسفي. حاولت عبثاً تقليده.

قلت: "بخ بخ". استشاط غضباً، دق رأسي بالجدار حتى سال دمي، وبصوت أشبه بتساقط الحجارة صاح: "غداً سأزورك مرة أخرى. لا أريد أن أرى أيّ شعار على جدران المخيم، ولو نسيت شعاراً واحداً سأنسيك مذاق حليب أمك". قلت بمرارة: "لم ترضعني". صاح في وجهي: "ماذا قلت؟". تنحنحت، وقلت مختصراً شره: "سأنظفها بلساني". هزّ رأسه، وقال محاولاً استفزازي: "تمرّن على تقليد فحيح الأفعى، غداً سأختبرك". قلت داعياً بصوت خافت: "ليتك تموت قبل الغد".

انصرفوا بعد أن مرغوا كرامتي بالوحل. حقيقة لم ألمهم على دخولهم الحجرة بلا استئذان، فهي أشبه بمرحاض بال عليه الزمن. نحن نعيش في بيوت أشبه بالمراحيض بنتها لنا وكالة الغوث، وهم يعيشون في قصور بنوها فوق ترابنا المغتصب، حتى أنهم لم يبنوها بأنفسهم بل عمالنا الأبطال هم الفاعلون! أليس كذلك يا أبي؟

هددوا بزيارتي في اليوم التالي ليتأكدوا من مسح الشعارات، ولأقلد لهم فحيح الأفعى. ليتهم طلبوا شيئاً آخر، كأن أقلد لهم صوت الألم المدفون في جوف ضحاياهم، أو صوت من مزقوا جسده بالرصاص وهو ذاهب لجلب قوت أبنائه، أو صوت عجوز هدموا منزلها أمام عينيها، أو صوت رضيع عصروا جمجمته بساطيرهم، أو صوت عابد طرزوا ظهره بالرصاص أثناء صلاته.

عذرا يا أبي، هذه حقيقتهم ومن الصعب النسيان. أخذت وعاء فيه طلاء من أحد الجيران وجئت لأمسح الشعارات. بللت الفرشاة بالطلاء وهممت مسح

obeikandl.com

الشعار الأول وقبل أن تلمس الفرشاة كلمة، قررت أن أقرأ ما كُتب، رحت أتصفحها بتأنٍ:

"أيها العميل قف وفكر إسرائيل لن تدوم لك"، "الانتفاضة المباركة هي الطريق الوحيد لتحرير فلسطين من النهر إلى البحر"، "الحرية عروس مهرها الدماء"، "ربما تستمر الثورة مائة عام، فعلى قصيري النَفَس التنحي جانباً"، "الحرية تُنتزع لا تُمنح"، "مات الكبار يا جولدا مائير لكن الصغار لم ينسوا".

أشعرتني تلك الشعارات الثورية المنتشرة هنا وهناك ليس بقوة منطقها فحسب، وإنما أيضاً بقوة زمن جيلنا الجديد، فهو زمن الانتفاضة المتأججة والشبان المناضلين وملاحم الكفاح الشعبي. قررت عدم مسحها، ركلت الوعاء بقدمي وعدت إلى الحجرة غير مكترث بما سيفعلون.

ارتميت على فراشي محاولاً النوم. لم أستطع. انتعلت حذائي وغادرت حجرتي الباردة وجلست أمام عتبة الباب في جو رومانسي أقل برودة من حجرتي. جمعت رأسي بين كفيّ أفكر بحالي. شعرت بِهَمّ ساحق يجثم على صدري، أطبق عليّ الحزن. تركت ساقيّ المبتلتين وقدميّ المتشققتين تأخذاني إلى حيث لا أدري.

مشيت في طرق وعرة، وشوارع تغصّ بالثلج والوحل. انتهى سيري في وسط دوار المخيم. نظرت يميناً ويساراً فوجدت المحلات مغلقة. كلها مغلقة. تذكرت أنه يوم إضراب شامل. تنهدت باستياء وتساءلت في نفسي عن جدوى الإضراب الشامل، هل فعلاً يؤثر على المحتل؟ وحسب ما رأيت أنه يؤثر فقط على أصحاب المصالح، وأولئك العمال الذين إذا لم يعملوا لن يأكلوا.

استدرت باشمئزاز نحو طريق العودة. مشيت خطوتين. سمعت ضجيجاً ينبعث من المقهى. نظرت إلى بابه فوجدته مغلقاً. أدركت أن القهوجي يغلق الباب خوفاً من تحرش الجنود بزبائنه، أو ربما من غضب القوات الضاربة.

هرعت إلى المقهى لأقتل وقتي وأسلي نفسي قليلاً. طرقت بابه برقة. فتح صبي الخدمة الباب بخوف وحذر، اطمئن قلبه فأدخلني بسرعة.

دخلت المقهى فسمعت صوت أم كلثوم يملأ المقهى المكتظ بالجالسين حول طاولات صغيرة، المنهمكين بلعب الورق، والشطرنج، والطاولة، وصبي الخدمة يدور بين الطاولات كمكوك حائك نشيط يلبي طلبات الزبائن.

سحبت كرسياً وجلست أسند ظهري إلى أحد أعمدة المقهى الإسمنتية، أبحلق بعيون متعبة بالشبان المنهمكين باللعب، أستمع إلى حديثهم: "لعبة جيدة، هذا دورك"، " قفزة مزدوجة جيدة. يا له من مأزق!"، " كش ملك، أنا الفائز، هل تريد اللعب مرة أخرى؟"، وآخرون يتحدثون في أمور أهم من اللعب: "بعد انتهاء الإضراب الشامل، سأحاول البحث عن عمل وراء الخط الأخضر"، "نزل بيان يطالب الناس بعدم العمل في المستوطنات أو وراء الخط الأخضر"، " يا أخي! قل شيئاً غير هذا، لدي أطفال من أين سأطعمهم؟"، "الكل يعاني... الموت مع الجماعة رحمة ".

سمعت آخر يجلس حوله خمسة شبان يروي نكتاً، والشبان في حالة ضحك هستيري، من النكت التي قالها، كانت إحدى النكت عن القائد عرفات:

"جاء ذات مرة صحافي لمكتب عرفات في تونس، وقال: "هناك إشاعة في الدول العربية تقول إن إسرائيل لم تستطع أن تعجزك ولكن كلمة عجّزتك". قال

عرفات: "هذه إشاعة كاذبة ومغرضة، لا أحد يستطع أن يعجزني". تشجع الصحافي وطلب منه أن يلفظ كلمة "تراكتور". ابتسم عرفات وقال للصحافي: "هذا سهل". قال الصحافي: "إذن تفضل وقلها لتقلع عيون من يظنون أنك لا تستطيع لفظها...". ابتدأ عرفات محاولاً لفظ كلمة تراكتور: "ت ت ت ت ت ت ت ت... ". غضب الصحافي وقال: "طلبت منك أن تلفظ كلمة تراكتور؛ لا أن تشغل التراكتور... "

حقيقة انفجرت ضحكاً حين سمعت تلك النكتة. ضحكت وضحك الجميع من تلك النكتة اللطيفة، فرغم محبة الشبان واحترامهم الكبير إلى الرمز والقائد الفذّ ياسر عرفات، إلا أنهم كانوا يألفون النكات لمداعبته...

جلست قرابة الساعة وأنا أستمع لكلام الزبائن حتى ضاق صدري من الضجة والشكوى وسُحب الدخان الكثيفة والنكات التي كادت أن تجعلني أبول على نفسي من شدة الضحك.

حملت نفسي وغادرت المقهى مهرولاً إلى حجرتي لأنام. كان الثلج يتساقط بكثافة هائلة. ابتسمت وتابعت سيري أمشي بحذر خشية التزحلق. في الطريق قابلت نفس الفرقة. أوقفني الضابط وسألني بلهجة لطيفة: "هل قمت بمسح الشعارات؟". قلت بتوتر: "جئت لأشترى الطلاء فوجدت السوق مغلقاً". صفن قليلاً، وقال: "امسحها غداً، فغداً ينتهي إضرابكم أليس كذلك؟". قلت بفتور: "هكذا سمعت". قال بأسلوب مهذب: "هيا انصرف، مع السلامة!". استغربت أنه تكلم معي بأدب، قلت محدثاً نفسي: "ربما هاتف زوجته أو حبيبته فوعدته بمفاجأة ساخنة عند عودته".

obeikandl.com

تابعت سيري إلى حجرتي وفي خاطري تدور حرب من الأسئلة حول الشعارات؛ هل أمسحها أم لا؟ وأخيراً قررت الثبات على موقفي، نظرت إلى الخلف حيث تلاشى ظل الجنود وصحت بصوت خافت لم يسمعه غيري: "لن أمسحها!". دخلت الحجرة. أمضيت ساعة مع نفسي أراجع النكات التي سمعتها وأضحك لدرجة أني خفت أن يلحس الجنون عقلي. شعرت بالتعب الشديد، حاولت النوم، فلم أستطع؛ أصابني الأرق فشرعت أقرأ أدعية كثيرة لأتخلص منه دون جدوى. أصرّ الأرق على مصاحبتي حتى لملم الليل ذيوله السود ورحل إلى أمريكيا. انجلت ظلمته الموحشة، ليعلن عن بزوغ نهار آخر ليس بجديد.

obeikandl.com

(3)

قررت أن أتحدّى الثلج الكثيف مرة أخرى، لكن هذه المرة بنفسية رطبة ومتفائلة. خرجت لأرى كيف يبدو مخيمي بثوبه الإلهي الأبيض. وجدته رائع المنظر، حزين الجوهر. تذكرت ليلتي كيف كانت، قارنتها بليلتهم فأدركت أنهم لم يناموا مثلي؛ ليس من أرق بل من البرد الذي يحاصر بيوتهم من كل جانب.

تجرّعت حسرتهم وأكملت سيري غير مكترث إلى أين ستقودني قدماي، وما هي إلا دقائق معدودة من السير المتواصل، وإذا بي أقف أمام خيمة هدمها الثلج. فزعت وهرعت إليها راكضاً لأزيل أكوام الثلج المتراكم عليها بيد واحدة. ظللت أزيل الثلج حتى سمعت أنيناً مختنقاً وصوتاً خافتاً يردد: "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله". رفعت الخيمة فرأيت رجلاً مسناً، طويل القامة، عريض المنكبين، جميل الطلعة، عريض الجبين، اسود العينين، أبيض البشرة، ذا لحية بيضاء طويلة، كثيف الحاجبين، ترتسم على وجهه مسحة من الوقار، يلف رأسه بعمامة بيضاء. هل عرفته يا أبي؟

إنه أبو العبد ذلك الرجل العجوز الفقير المعدم، صاحب الأسمال البالية والثياب الرثّة، صاحب البطن الجائع، والأقدام الحافية، أبو العبد ذاك الرجل مغمور النسب، لا جاه ولا مال ولا عشيرة، وليس له بيت يأوي إليه، ولا أثاث ولا متاع. يشرب بكفيّه من الينابيع، وينام في خيمة بالية، مخدته ذراعه، وفراشه

البطحاء، أبو العبد الذي لم يستطع أحد من المخيم فهمه. كانوا يصفونه بالبخل، ينعتونه بالمخبول. لم تكن توافقهم الرأي، كنت تقول لي إن ذلك العجوز – الذي يبلغ السبعين من عمره – له حكاية غامضة.

على أية حال، قمت بنصب الخيمة من جديد، ثبّت أوتادها بشكل قوي. أشعلت له النار لتدفئ جسده المتجمد، غير مكترث برسغي المكسور رغم أن ألمه كان يمزقني.

شعرت أنها فرصة ذهبية للتعرف إليه ومعرفة ما يدفنه من أسرار في قلبه الهرم. انتهيت من تقديم المساعدة. قدّم شكره لي بابتسامة دافئة، وبصوت تملؤه الحكمة: "الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة". قلت مجاملاً: "يشرفني الجلوس معك". قال ملاطفاً: "أتعلم أنك أفضل شاب قابلته في هذا المخيم؟". قلت مكسوفاً: "هذا من لطفك!". قال مؤكدا: "هذه هي الحقيقة". رأيته يرتعش، فسألته إن كان يشعر بالبرد، قال متفلسفاً: "برد الطبيعة أهون من برد القلب". سألته مستغرباً ماذا تقصد؟ فأجاب مبتسماً: "لا شيء، أنا عجوز خرف لا أدري ماذا أقول أحياناً". قلت ممازحاً: "أتسخر مني؟". قال وعيناه تضحكان: "لا تأخذ الأشياء على محمل الجد وإلا ستموت مبكراً".

ابتسمت له ابتسامة مفعمة بالاحترام، واتجهت نحو عامود الخيمة. أشعلت سراجاً فقير الضوء، قديم الصنع، لكن لا بأس به فهو يقضي حاجة رجل وحيد، قليل الحركة.

طلب مني الجلوس. جلست بجانبه ونظرت إلى وجهه فرأيت الدم يسيل من جبينه. صحت بفزع: "جبينك ينزف!". ابتسم، وقال: "لا عليك، مجرد خدش

بسيط". أخرجت محرمة من جيب معطفي، ومسحت الدم بلطف، وبصوت يملؤه الحنان سأل: "ماذا أصاب رسغك؟". قلت بمرارة: "كسره الجيش". تأفف، وقال: "يتحكمون بنا وكأننا عبيدٌ". قلت مندفعاً: "العبيد لهم حقوق أكثر منا". هزّ رأسه وقال مقتبساً: "يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً". قلت: "هذا قدرنا. علينا أن نتحمل". ضحك وقال: "قدرنا؟ نعلق أخطاءنا دائماً على شماعة القدر وهنا يكمن سرّ ضعفنا وخيبتنا!". قلت مستغرباً: "لا أفهمك..." أجاب بصوت خافت: "قلت لك إني عجوز خرف لا أدري ماذا أقول"، قلت مدافعاً: "بل يبدو أنك رجلٌ حكيمٌ!". ابتسم وقال بنبرة ساخرة: "وكيف عرفت ذلك؟". صمتُ قليلاً وقلت: "تواضعك يدل على حكمتك". هزّ رأسه وأخرج سيجارة من جيب جبته، أشعلها وشفط نفساً عميقاً، وقال: "ومن قال لك إن التواضع يدل على الحكمة؟". انطفأت سيجارته بسبب الرطوبة، أشعلها ثانية وتابع كلامه: " لست حكيماً ولست متواضعاً، ما أنا إلا عالة على نفسي وعلى هذا المجتمع الممزق".

أحسست أن قلبه الهرم مملوء بالأسرار، وأنها الفرصة المناسبة لأعرف من يكون. أردت أن أهزّ الورد لأشم عبيره وأستمتع بعبقه، فقلت بأدب: "حدِّثني عن نفسك أيها الرجل الطيب". وكأنه لم يسمع ما قلت، أو أنه قصد تجاهل سؤالي لغاية لا أعرفها. أخذ ينفخ ويتأفف مردداً عبارات مبهمة: "كثرتهم لا تسمن ولا تغني من جوع، إنهم كغثاء السيل لا وزن لهم". سألته باستهجان عمن تتكلم، أشاح بوجهه، وقال متجاهلاً سؤالي: "أعتقد أن أسلحتهم وذخائرهم قد صدئت ولم يعد لها قيمة". عرفت أنه يتحدث عن الأنظمة العربية، ورغم ذلك سألته

باندفاع: "من هم؟". نفض يده بفظاظة وأشاح بوجهه عني وكأنه يطردني. شعرت أنه متضايق جداً، ولم أعرف إن كان غاضباً مني أو غاضباً لما أصابني أو حزيناً على وضعه، أو أنه لا يرغب في مجالستي. اختصرت جملة من التساؤلات الفضولية التي سيطرت عليّ واستأذنته بالانصراف. لا أريد أن أثقل عليه في اللقاء الأول، رغم أنني كنت متلهفاً لمعرفة أشياء كثيرة عن شبابه، وعن سبب قدومه إلى هذا المخيم البائس.

أتدري يا أبي؟

أثناء انشغالي بنصب الخيمة سمعته يتكلم عن أشياء غامضة لم أفهمها، ويحدث نفسه كثيراً لدرجة أنني اعتقدت أنه فعلاً مخبول، لكن سرعان ما انجلى اعتقادي مع أول كلمة قالها : "أعلم أنكم تنعتونني بالمجنون والبخيل، لكنني لست مجنوناً ولا بخيلاً، بل مهموماً، مقهوراً، شريد الذهن، ممزق القلب، فقير الحال". أخذ يتحدث ويتحدث... يتحدث عن ذكرياته الغامضة بلغة كلها ألغاز، يحلم بشمس حيفا وجسده معرّى أمام صقيع الخيمة، يحلم بظل شجر زيتون يافا وجسده معرّى تحت لهيب شمس حارقة، يحلم بدفء عكا وجسده يرتعش من شدة البرد، يحلم بالحرية وجسده يقبع تحت سيطرة سكارى الليل ومجرمي النهار، يداه مكبلتان بسلاسل الفقر والحرمان، وحبل المشنقة الإلهية يلتف حول عنقه، وخُطى المخبر تطارده ليلَ نهار، وعلى مدار الزمان والمكان كونه لاجئاً مشرداً.

أردت أن يكون اللقاء الأول خفيفاً ولطيفاً. عدت لأتمشى على الثلج وعقلي يفكر بكل كلمة قالها، ولا أنكر أني تمنيت لو يطول اللقاء وأعرف من يكون.

obeikandi.com

أنا لم أنس زيارتك يا أبي، أردت أن آتي إليك بنفسية شجاعة، لا بنفسية محطمة منهارة، فاخترت أن أؤجل زيارتك قليلاً.

في طريقي رأيت جرعوش يحمل زجاجة فارغة ويختبئ في نهاية زقّاق تؤدي إلى شارع فرعي غير معبّد. اختلجني شعور أحمق بمقدمات إهانة جديدة. رغم ذلك أسرعت إليه لأرى ماذا يفعل. وما أن اقتربت منه حتى قذف الزجاجة بكل قوته وفرّ هارباً.

لم أعرف على من قذفها إلا بعد أن سمعت أزيز الرصاص يدوي على مقربة من المكان الذي أسير فيه. غصصت بريقي وأردت الهروب خوفاً من أن يظن الجنود أنني مَن قذف الزجاجة عليهم وأتورط في أمر لا ناقة لي به ولا بعير. وما كدت أستدير للخلف بغية الهروب حتى أطلق الجنود الرصاص في الهواء طالبين مني التوقف ورفع يديّ للأعلى.

صدق إحساسي، وعرفت أنني سأدخل نفقاً مجهولاً ربما يكون السجن نهايته، وحقيقة لم أترك مسبة قبيحة أو بذيئة إلا وسببت بها جرعوش الغبي. كان عليه أن يحذرني لأنجو بنفسي.

توقفت خشية إصابتي برصاصة طائشة، وتقدمت نحو الجنود المستنفرين بحذر وأنا أرفع يدي المصابة بيدي السليمة إلى الأعلى. فوجئت بفرقة جديدة، يصبغون جباههم ووجناتهم بخطوط سوداء متعرجة، ويعتمرون على رؤوسهم قبعات حمراء. اقتربت منهم أكثر فسقط بصري على أكمام بزاتهم العسكرية، رأيت شعار شجرة الزيتون ذات الخلفية الصحراوية مطرزاً على الأكمام. عرفت أنهم تابعين للواء جولاني الشهير. اضطرب قلبي وقلت في نفسي: "هذه نهايتك يا

obeikandl.com

صابر!". كان علي أن أشعر بالتوتر والخوف، فلقد وقعت فريسة في يد أحد ألوية النخبة في إسرائيل، بل اللواء الذي يتصدر قمة الألوية العسكرية. ذلك اللواء الذي خاض الكثير من المعارك ضد الجيوش العربية، وهو من احتل شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان، وهزم القوات السورية في حرب عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين وقام بدحرها، بل كاد يدخل العاصمة السورية دمشق لولا وصول اللواء العراقي السادس، لواء المدرعات. تقدَّم جندي أبرص الوجه وأحمر اللحية نحوي. كانت عيناه تقدح شرراً، وبدون أية مقدمات أو تضيّع للوقت أمسك بشعري وأخذ يدق رأسي بجدار مدبب لمنزل قريب من المكان حتى أسال الدم من جبيني، وبلهجة غاضبة صاح في وجهي: "ترشق علينا الزجاج؟ سأربيك!". حاولت أن أدافع عن نفسي لكنه لم يسمح لي بالكلام.

تدخل جندي شرقي الملامح ويبدو درزياً، وقال كلمة حق كانت بمثابة طوق النجاة: "ليس هذا من قذف الزجاجة". صاح الجندي الأبرص مؤكداً: "بل هو، أنا متأكد!". قال الجندي الطيب مدافعاً: "ليس هو، رأيت وجه من قذفها وأستطيع أن أميزه من بين ألف رجل". أجاب الأبرص محرجاً: "حسناً، ليس هو لكنه يعرف من قذفها"، وخزني بفوهة بندقيته وقال وهو يكز على أسنانه: "أليس كذلك؟!". قلت بتوتر إنني لا أعرفه، ولم أره أصلاً.

دق رأسي ثانية بالجدار وصاح: "كيف لا تعرفه وقد هرب من أمامك؟". قلت بتلعثم إنني رأيت أحدهم يهرب لكن لا أعرف من يكون. ترك شعري وأمسك بقبة قميصي وأخذ يهزني بقوة قائلاً: "عندما ترى فرقة جولاني تسير في شارع ما، عليك تغيير طريقك، ألا تعرف ذلك؟!". قلت ببرودة أعصاب وقلبي

يخفق خوفاً: "لا أعرف..." قاطعني وقال بصوت متهدج: "هل سمحت لك بالكلام؟". قلت: "سألتني سؤالاً فأجبتك عليه".

انتزع الهراوة المعلقة على خاصرته وأخذ يلوح بها وينظر إليّ وهو يكز على شفته السفلى، وعيناي تلاحق حركة هراوته بحذر مخمناً أين ستهبط. فجأة وبحركة سريعة لسع ركبتي اليسرى. تبخر صبري، فصِحت بأعلى صوتي: "لماذا أنتم متسلطون عليّ؟ ألا يوجد غيري في هذا المخيم؟". تجاهلني، وسأل بلهجة فظة: "ماذا أصاب رسغك؟". قلت بغضب: "كسره الجيش". قطب حاجبيه، وقال وهو يهزّ رأسه الأحمر: "لماذا كسروه؟ هيا أجب!". قلت مستهزئاً: "لم يخبروني، اسألهم".

لم يعجبه أسلوبي في الكلام. ركلني في معدتي ركلة قوية. انحنيت من الألم، وبكل قوة ضرب ظهري بكعب بندقيته. اعتدلت مجدداً وأنا أسب عليه بكلمات مختنقة متقاطعة: "توقف يا بن العاهرة، فأنا لم أفعل شيئاً". وضع حزام بندقيته على رقبتي، وشدّ الحزام حتى كدت أختنق. رأى الجندي الطيب وجهي محمراً، فصاح طالباً منه إرخاء الحزام قبل أن تخرج روحي. أرخى الحزام وأفلت عنقي وهو يتقهقر كمومس وصلت ذروة النشوة.

شكرت الجندي الذي تدخّل وأنقذني من موت مُؤكد: "سيكافئك الله على إنقاذك حياتي!". فأجاب بصوت خافت:" أنا درزي وسأحاول أن أخلصك منهم". استغل الجندي الأبرص انشغالي مع الجندي الطيب فصفعني على مؤخرة عنقي صفعة مهينة وصاح طالباً مني الانتباه إليه. نظرت إليه بغضب فرأيته يمد يده. ابتلعت ريقي، وقلت في قرارة نفسي: "لن أمد يدي، المؤمن لا يلدغ من

جحر مرتين". صاح بملء حنجرته طالباً مني مصافحته. ظننت أنه فعلاً يود مصافحتي. ولأني غير مؤمن وثقت به ومددت يدي اليسرى في نفس الجحر، فإذا به يفاجئني بلكمة قوية على وجهي. غضبت بشدة، وصحت بعصبية: "أنا بشر مثلك! لماذا كل هذه الضغينة؟ ماذا فعلت لكم؟!". قال مستهزئاً: "أنت لست بشراً!".

تمالكت نفسي وسألته بهدوء: "إذن ماذا أكون؟". ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: "قل بأنك حيوان خلق لتلقى الإهانات". اهتز بدني وقلت: "أنا إنسان متعلم أنهيت الجامعة، وأحمل درجة بكالوريوس، احترم هذا!". أغرق في الضحك، وقال: "مهما تكن ستظل حيواناً خُلقت لتهان". صحت: "حتى الحيوان لم يخلق ليهان!". لوى فمه، وسأل: "كيف تفسر معاملتكم للحمير؟". قلت موضحاً: "نضربه حتى يمشي". قال ساخراً: "وأنا أضربك حتى تفهم". سألت مندهشاً: "أفهم ماذا؟". شدني من أذني وأجاب: "إنك حيوان". قلت محدثاً نفسي: "إذا كان القاضي غريمك فلمن تشكو؟".

ابتلعت تلك الإهانات، وتحمَّلت تلك الركلات لأختصر شر ذلك الأبرص الذي رفض أن يضع حداً لشروره، بل أصرّ على أن يجعل نهاية النفق موتاً وليس سجناً كما اعتقدت. وقعت الفريسة في شِباك الصياد، ومن حقه أن يفعل بها ما يحلو له. لم يكتف الجندي الأبرص بما فعل، بل أمرني أن أصنع له رجُلاً من الثلج. صنعت واحدا ولم أضع له عينين، ولا يدين. لم يعجبه ذلك، ركلني على مؤخرتي ركلة موجعة، ووصفني بالغبي. قذفته بنظرة حاقدة تعاتبه على ضربته الموجعة،

وقلة إحساسه. رآني أبحلق في وجهه بكراهية، فجنّ جنونه، وبأعلى صوته صاح: "لماذا تنظر إليّ هكذا أيها الأحمق؟!".

شعرت بقوة غريبة تسيطر عليّ. قوة أخمدت خوفي وأشعلت فتيل غضبي. ربما لم تعد كرامتي تحتمل جبروته وعنفوانه أكثر، أو ربما أدركت أنني سأُقتل في جميع الأحوال، فقلت لنفسي دعني أموت بكرامة على الأقل. لم أعد أكترث إن كانوا من لواء جولانى، أو لواء جفعاتى، أو لواء المظليين، أو لواء نحال، أو لواء كفير. صحت في وجهه الحاقد بملء حنجرتي: "أحتقرك حتى النخاع!". سأل بصوت أشبه بنهيق الحمار: "ماذا قلت؟". أجبت بصوت شديد اللهجة: "أبغضك، أكره وجودك هنا، أتمنى موتك!". كأنه لم يسمع ما قلت، وأصرّ على أن أحسن شكل الرجل الثلجي. رفضت تحقيق رغبته وقلت إنني لست عبده ولن أكون. ضربني على ظهري بكعب بندقيته فوقعت على وجهي. داس عنقي وأخذ يفركه بنعله. أمسكت قدمه ودفعته بقوة حتى كاد أن يقع على وجهه. لم يزده ذلك إلا عنفواناً، انقض عليّ بشراسة، تناولني عن الأرض، وأمرني بفتح فمي. رفضت تنفيذ أمره وذهني يسأل بصمت إن كان طبيب أسنان. اهتاج كالثور وفتح فمي بالقوة وبصق فيه. ضقت به ذرعاً فأعدت إليه البصاق، وتأهبت لضربه حتى لو دفعت حياتي ثمناً لذلك. الغريب أنه لم يتفوه بكلمة. ربما أخفته أو اعتقد أن زميله رشقه بكرة ثلجية.

تبادلوا الأدوار: جاء آخر وطوق عنقي بذراعيه، وتقدَّم آخر ووضع فوهة بندقيته في فمي، وسأل بسخرية: "هل تحب عرفات؟". لم أجب. صاح بانفعال: "تكلم أيها الجبان!". لم أجب. استشاط غضباً وصاح بقوة: "قلت لك تكلم!".

أشرت بسبابتي إلى بندقيته المحشوة فوهتها في فمي، ليسحبها وأتمكن من الكلام. شعر بالإحراج أمام زملائه الذين انفجروا بالضحك منه. احمر وجهه وسحب بندقيته من فمي وكرر سؤاله إن كنت أحب عرفات. سألته ساخراً: "حدد سؤالك؛ ياسر عرفات أم عرفات اللداوي؟".

أجاب باستهزاء: "ياسر عرفات، زعيمك". قلت بشجاعة: "أحب كل الناس". سأل ساخراً: "حتى اليهود؟". قلت: "حتى اليهود". وخزّ مقدمة رأسي بسبابته وقال: "كاذب!". قلت بجرأة: "بل صادق". قال مستهزئاً: "إذن تحبني". قلت بصراحة: "لا! أبغضك بكل مشاعري". قال: "هه! الآن قلت إنك تحب اليهود". أجبت ببرودة أعصاب ولهجة فيها تحدٍ: "قلت أحب اليهود ولا أحبّ المحتلين، أنت صهيوني لذا أكرهك".

نظر إلى زملائه وسألهم ماذا تعني كلمة صهيوني. لم يعرف أحد معناها، نظر إليّ وسأل بتجهم: "ماذا تقصد بكلمة صهيوني؟". قلت: "أنت تحتل أرضي، إذن أنت صهيوني". سأل بسخرية: "ومتى أصبح غير صهيوني؟". قلت بشجاعة: "عندما تغادر أرضنا وتعود من حيث جئت". سحب أقسام بندقيته في محاولة لإرهابي، وقال: "إذن أنت ضد وجودي هنا؟". قلت: "بالضبط! ولو كنت أنا نفسي محتلاً لأرضك فسوف تنظر إليّ كما أنظر إليك الآن". صاح بغضب: "هذه أرضنا وليست أرضكم". قلت بلهجة غاضبة: "بل أرضنا منذ الأزل وأنت تعلم جيداً أنها أرضنا". مسح وجهه بكف يده وسأل باستهزاء: "أين أرضي إذن؟". قلت مخمناً: "ربما بولندا، أو روسيا، أنت أدرى من أين جئت!".

انفجر ضحكاً ومن معه وسألني مغيراً مجرى الكلام: "هل أنت من جماعة حبش؟". قلت مستخفاً بسؤاله: "مَن هو حبش؟". قال وهو يشير لصورة معلقة للقائد جورج حبش على جدار قريب منا: "الرفيق جورج حبش". قلت ببساطة: "لا، لست من جماعته لكني أحترمه جداً". سأل بسخرية إن كنت أحبه. قلت باندفاع: "أنا لا أكره إلا المحتل والفاصوليا الجافة". قال متهماً: "إذن أنت حماس". قلت: "لا! أنا لا حماس ولا غيرها، أنا مجرد إنسان ذاق الأمرين منكم كاحتلال، وليس ضرورياً أن أكون منتمياً لإحدى الفصائل حتى أكرهكم". قال مهدداً: "ألا تخشى أن أفرغ رصاص رشاشي في صدرك أو أعتقلك؟". قلت بتحد: "أنا لا أخشى إلا مَن خلقني، لأنه هو من أعطاني الحياة وهو من يستطيع أخذها ثانية". ضحك بأعلى صوته، وقال: "هراء! حياتك بيدي أنا، رصاصة واحدة من بندقية جولاني وسينتهي أمرك". قلت مصرّاً: "حتى لو أفرغت رصاصك كله في جسدي وخالقي يريد لي الحياة فلن أموت". قال وجسده ينتفض من الضحك: "أجزم أنك غبي". قلت باستهزاء: "هذا ما تعتقده أنت".

تقدَّم آخر نحوي وقال بنبرة جادة: "عليك أن تقتنع أن نهايتك بأيدينا وليس بيد ربك". قلت ساخراً: "هذا ما لا يمكنني أن أقتنع به، نعم أنت تمتلك وسيلة للقتل، لكن الله وحده يمتلك روحي". رمقني بنظرة جافة وسأل: "هل حقاً تعتقد أن ربك يستطيع أن يمنع عنك الموت لو أنا أردته". قلت واثقاً: "نعم أعتقد ذلك بشدة، فأنت ورصاصك والعالم كله لو أرادوا موتي والله يريد لي الحياة فلن أموت، ولو أراد العالم كله أن يمنحوني الحياة وربي يريد لي الموت فسوف أموت". ملوا من ضربي بألسنتهم، وأرادوا الكلام بلغة الأيدي. حاول الجندي

obeikandi.com

الطيب أن يوقفهم، لكنه كان الحلقة الأضعف بينهم، لم يأبهوا بكلامه، فآثر الجلوس بعيداً عنهم.

حاصروني من كل الجهات، التفُّوا حولي وكأنهم ذئاب مسعورة ظفرت بفريسة بعد طول مجاعة. استطعت أن أحصر عددهم وهم متحلقون حولي، كان عددهم ثمانية، وتاسعهم يجلس بلا حول ولا قوة وينظر إليّ بحزن. بلغ السيل الزبى، لم أحتمل أكثر، صحت غاضباً وأنا أضم قبضة يدي: "سأضرب من يضربني". قال أحدهم مهدداً: "ضرب الجندي تهمة تكلفك ستة أشهر في السجن". قلت غير مكترث: "سأموت مرة واحدة". قال الكابتن متحدياً: "هيا اضربنا!". قلت متأهباً: "أقسم بالله، لو ضربتم سأضرب... ".

ابتدؤوا يلتفّون حولي كالمكوك ويسددون لي الضربات الخاطفة بهراواتهم، حتى سببوا لي الدوار وفقدت توازني وسقطت على وجهي مغشياً عليّ.

أيقظني أطفال الحارة وهم يسبّون الجنود. لم أرد أن أشعرهم بضعفي وقلة حيلتي، تظاهرت بأنني قوي. حاولت الوقوف دون مساعدتهم فلم أستطع. حاولت النهوض ثانية وجسدي يرتجف من البرد، لكنني وقعت مرة أخرى.

لاحظني أحدهم وأنا أرتجف، فهرع إلى منزله وأحضر لي ملاءة لفها حولي. شعرت بعميق السعادة من فعلته ونخوته فحضنته، وبصوت ناعم حزين سألني: "لماذا هم متسلطون عليك؟". قلت محرجاً: "ربما شكلي يستفزهم". قال طفل آخر: "هذه المرة الثالثة التي يضربونك بها. لماذا يضربونك؟!". قلت: "لا أدري!". سألني الطفل الذي جلب الملاءة: "لماذا لا تضربهم؟ هل تخاف منهم؟". قلت بحماس: "ضربتهم، ألم تر؟". علّق طفل آخر: "لم نر ذلك". قلت

مـدافعاً: "ربـما جئـتم متـأخرين". قـال آخـر: "أعـرف لمـاذا يـضربونك". قلـت مستغرباً: "ليتك تخبرني". ابتعد قليلاً عني وقال: "لأنك تضاجع الفرشة". قالها وهرب.

غضب منه باقي الأطفال. علّق أحدهم: "جرعوش كذاب! أنـا لم أصـدقه". قلت موضحاً: "كنت أتمرغ من الألم". علّق آخر: "انس ما قاله ذلك الطفـل فهـو تربية رجل عميل". قلت منفعلاً: "يـا للخجـل! لا يجوز أن تقـول هـذه الكلمـة، فهي كبيرة جداً".

شعر بالخجل واعتذر، وفي محاولة من الطفل الذي جلب الملاءة لتغيـير مجـرى الكـلام، قـال: "الليلـة سـوف ننـتقم مـن الجنـود الـذين ضربـوك". وقـال آخـر: "سـنذيقهم غـضب المخيم". وعلـق آخـر: "أيظنـون أنهـم يـستطيعون أن يفعلـوا بشبابنا ما يحلو لهم دون حساب؟ سُنريهم!".

حزنت كثيراً على أولئك الأطفـال المحـرومين مـن كـل شيء، حتـى الابتـسامة البريئة قد اغتيلت فيهم.

ساعدوني في النهوض، واقتادوني إلي حجرتي، وانصرفوا وهـم يسبون الجـيش واللحظة التي احتلوا بها وطننا. لم أنظر إليهم كأطفال أبداً، بل كرجال أشداء...

بعد برهة، أقبل إلي الطفل الذي جلب المـلاءة. دخـل الحجـرة مطأطئـاً رأسـه. حيّاني بتحية الإسلام، وبـصوت مكـسوف قـال: "عـماه، أنـا. أنـا... أنـا!". سـألته بلطف: "مـاذا تريـد يـا حبيبـي؟". قـال بـتردد ووجهـه قـد طفـح بـالحمرة: "أريـد الملاءة، فلا يوجد عندنا واحدة احتياطية". انتزعت المـلاءة عـن ظهـري وأعطيتـه إياها وأنا أبتسم له محاولاً امتصاص حرجه.

غادر الحجرة محرجاً. تمنيت في تلك اللحظة لو أن الفقر رجلاً، لأقتله ولأقطعه إرباً.

عاد ثانية ومعه زجاجة صغيرة من اليود وبعض القطن. جلس بجانبي وبرفق وضع الدواء على الخدوش والكدمات، وابتدأ يحدثني عن طموحاته وآماله في الحياة. يتحدث كرجل طاعن في السن رغم أنه لم يتجاوز التاسعة من عمره. سألته باهتمام عن اسمه، فأخبرني بأنه محمد. سألته ماذا يريد أن يصبح عندما يكبر. أطلق وجهه بابتسامة بريئة، وقال: "طيارا". سألت مندهشاً: "لماذا طياراً؟". أجاب بحماس: "لأقض مضاجع الاحتلال"، استغرقت في الضحك، وسألت: "ماذا فعلوا بك؟".

اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: "قتلوا عمّي يوسف". توقفت عن الضحك. اقتربت منه وطوقته بذراعي وباهتمام، سألته: "كيف قتلوه؟". قال مهتاجاً: "أثناء صلاته في المسجد الأقصى".

تابع يحدثني عن عمه يوسف ويبكي. قال: إن عمه كان أقرب له من أبيه. اعتاد أن يجلب له الهدايا والألعاب، ويأخذه من وقت لآخر إلى الملاهي في المدينة، ويلاعبه كرة القدم كل مساء خميس.

شعرت بعميق الحزن المحشو في قلبه الصغير. وتمنيت لو أن الاحتلال يفكر مرتين قبل أن يزهق حياة إنسان ويحرم أحبته منه إلى الأبد.

فركت شعره، وقلت له إن للدنيا وجهين: وجها عابسا، ووجها ضاحكا. ففي الوقت الذي يموت فيه شخص فتعبس وجوه، يولد شخص جديد في مكان ما فتضحك وجوه. ابتسم ابتسامة صفراء، وقال ساخراً: "لم تريني الدنيا سوى

الوجه العابس". قلت مشجعاً: "يبتلي الله من يحب". قال مندهشاً: "لا يميت الله إلا الطيبين، أما الأشرار فيبقون". صمت قليلاً وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم استطرد قائلاً: "لماذا يعجل الله في قبض أرواح الطيبين؟".

قلت موضحاً: "تخيل أن هناك شجرتين من اللوز، واحدة ثمارها مرة المذاق، والثانية ثمارها حلوة المذاق، فبرأيك أي شجرة تُأكل ثمارها بشكل أسرع؟". صفن قليلاً، وقال: "طبعاً الحلوة". قلت: " لهذا السبب يُفنى الطيبون قبل الأشرار". قال بحزن: "هل على المرء أن يكون شريراً حتى يطيل الله في عمره؟". قلت: "بالعكس! عندما يأخذ الله روح الطيب يأخذها ليكافئها بالجنة. أما الشرير فيمهله الله قليلاً، لأن سعادته هي الدنيا فقط، وجهنم هي مصيره الأبدي". قال بألم: "هذا لا يمنع أنهم حرموني من رؤية عمي".

كلامه دفعني للتساؤل بجنون عن ذنب أولئك الأطفال حتى يُحكم عليهم بالمكابدة والضياع منذ ولادتهم. انتفخ قلبي بالحزن على ذلك الطفل، فلعنت كل واحد ساهم في نكبتنا. كل واحد دون استثناء. كلهم مجرمون. ستظل خيانتهم تطاردهم في أحلامهم وصحوتهم وقبورهم إلى يوم يبعثون. باعونا بثمن بخس، تآمروا علينا وهم من فصيلتنا. قلبي يسبهم ويلعنهم وجسدي يتحرك حسب الإيقاع، والطفل ينظر إليّ بشفقة وخوف، أو ربما ظن أنني جننت.

أخبرته أن البرد يهز جسدي وليس شيء آخر. لم يقل شيئاً، اكتفى بالابتسام في وجهي. شعرت أن في عينيه كلاماً كثيراً فسألته عمّا يشغل ذهنه. وقف على مقربة مني، وقال وهو ينظر إلى الشمعة وهي تحترق: "لدي أسئلة كثيرة أحب أن أوجهها إليك". قلت له أن اسأل ما تشاء فنحن أصدقاء. صفن قليلاً، وسأل

بلهجة غاضبة: "هل العرب مسلمون؟!". أجبت متعجباً سؤاله: "غالبيتهم مسلمون، لماذا تسأل؟". أخرج تنهيدة من أعماق روحه، وسأل: "هل الأقصى لنا وحدنا؟". قلت موضحاً: "الأقصى لجميع مسلمي العالم". استدار وسأل بلهجة محبطة: "ألا يوجد عندهم مثل صلاح الدين؟".

عرفت ما يجول في خاطره، فأردت أن أختصر عليه الطريق. قلت له بلهجة مقهورة: "دعك من هذه الأمور، عندما تكبر، ستفهم كل شيء!". قطب حاجبيه متضايقاً من إجابتي، وعلق بانفعال: "لماذا تتهربون من الإجابة؟". قلت بجدية: "سؤالك قضية".

نظر إليّ بعين واحدة، وقال: "لا أفهمك! وضِّح كلامك". قلت متوتراً: "حتى أنا لا أفهم نفسي أحياناً". جلس بجانبي ثانية، وقال: "أجبني أرجوك". تعجبت من إصراره وقلت في نفسي: "ليتني أستطيع!". قال: "ما دام زعماؤنا لا يريدون مساعدتنا، لماذا لا يمدونا بالسلاح فنقاتل عنهم؟ أو يفتحون الحدود لمن يرغب في القتال معنا".

كان يحرجني كثيراً بأسئلته الذكية. وكنت أحاول التهرب من إعطاء بعض الأجوبة. أدركت أن أطفالنا مثقفون، ويختزنون من الثقافة ما يكفي لمناظرة زعماء الاحتلال، وكيف لا وهم يعيشون في نفس السفينة. يسمعون الرصاص ليلاً ونهاراً حتى أصبح أزيزه موسيقاهم المفضلة، ويرون من المشاهد ما يفجع أعينهم ويدفعهم للتساؤل لماذا عليهم أن يفقدوا آباءهم وأحباءهم؟ لماذا عليهم أن يُجبروا على تعلم الكراهية؟ كيف لهم ألا يتساءلوا وهم يرون العسكر الغريب يحكمهم بالهراوة والبندقية والعالم صامت لا يحرك ساكناً.

obeikandi.com

من حقهم أن يتساءلوا... يتألموا... يشتموا... ومن العيب أن أمثالي يمتنعون عن قول الحقيقة المُرة. نخاف الكلام حتى لا تنهش كلاب الصيد أجسادنا في السجون. نخاف الكلام حتى لا تُزرع حقول الزيتون بالجماجم والألغام. نصمت حتى لا يحترق ضوء الصبح فيصبح ناراً تكوي العيون. نصمت كي لا ينتفض الصغار ضد عروبتنا فنراهم من العرب يتبرؤون، وعلى مشانق الظلم يُصلبون.

صمتُنا لم يجد نفعاً ولم يغير شيئاً. بقينا نرى وجه المحتل القبيح يزداد حقداً وقمعاً وتعسفاً، يقتحم المساجد والكنائس والبيوت، فكان صمتنا الذي زرعه آباؤنا وأجدادنا في قلوبنا، فحصاده حرماننا من رؤية الحقيقة، من رؤية زهرة بيضاء تُشرق فوق غصون اللد والرملة ويافا وحيفا... حرماننا من رؤية فرحة في عين طفل يحلُم أن ينام بهدوء دون أزيز رصاص أو صوت قنابل...

ما دام الجيش الغريب يحتل أرضنا فسنرى أطفالنا في حزن وتحدٍ يرفعون أصوات الغضب، وفلسطين تبكي في أيدي الصهاينة، تصيح، تستجير: "ترابي يُغتصب، ثرواتي تُنهب، أشجاري تُقتلع، مقدساتي تُدنّس، أين العرب؟!

والأطفال بجنون يتساءلون: أين العروبة؟ أين السيوف القديمة والخيول الضواري والمآثر والنسب؟ أين من تعلمنا عنهم في كتب التاريخ. أين صلاح الدين؟ أين عمر؟ أين المعتصم؟ أين كهّان العرب؟

يتساءلون عن زعامات رخيصة ضلت الصراط، تبتهل في معبد الطغاة وتطوف حول كعبتهم الجديدة. زعامة مخمورة تتعبد في مرقص الداعرات تنتظر وحياً غربياً يحدد لهم قبلتهم الجديدة، وإلههم الجديد! زعامة لن يروا منها غير الاستغراب والعجب. زعامة حبيسة الشجب والاستنكار والإدانة، تعودت على

obeikandi.com

الخزي والهرب. خلعت ثياب عروبتها، وابتاعت السيوف والخيول الضواري وقايضت الفرسان في سوق القمم والخطب... زعامة هرولت إلى ساحة الاستسلام العارية ومرغت ضميرها وقيمها وعروبتها في وحل الدولار. زعامة لا مسرى لها سوى الغنائم والذهب والبترول، والشعوب التائهة تسأل عن بقايا أمة تدعى العرب. كانت تعيش ذات يوم بشموخ من المحيط إلى الخليج، لا يرهبهم عدو ولا يخضعهم دولار...

رحم الله ما مضى، فلم يعد في الكون شيء من مآثر أهلها ولكل مأساة سبب. فليسقط التاريخ، فليسقط التاريخ، فليسقط التاريخ، ولتسقط القمم والخطب. هل بعد اغتيال الضحكة العذراء فينا، في قمحنا، في زيتوننا، سماؤنا ملأى بطائرات مغتصبينا، بحرنا تجوبه سفنهم، عرضنا مباح، كرامتنا ضاعت، كيف يأتينا حلم النهار، وطائرات الطغاة تسد عين الشمس والأحلام في دمنا مجرد انتحار أو دمار أو حصار...

لا دين، لا إيمان، لا حق، لا ضمير، لا نخوة، لا موقف، ولا شرف مَصون. هان عليهم أطفالنا وشعبنا ونساؤنا وأقصانا وضيَّعونا بصمتهم المخجل الرهيب إلى الأبد!

أخبرني يا أبي، بأي حق يسمحون لهم بتدمير بيوتنا؟ وكيف يسكتون عن إحراق المساجد والكنائس؟ ولماذا تمضي بنا السنون العجاف من جوع إلى جوع، ومن ظمأ إلى ظمأ، ومن موت إلى موت ووجه فلسطين جوع، دمار، أو حصار. أخبرني يا أبي لماذا كذبت عليّ وقلت إنهم عرب؟!

ذكَّرَني ذلك الطفل بنفسي عندما كنت صغيراً. كنت أسألك يا أبي، نفس الأسئلة، لكنك كنت تتهرب دائماً من الإجابة، أليس كذلك؟ أصبح عمري عشرة أعوام وأنا أعتقد أن جيش الاحتلال هو جيشنا بسبب تهربك وخوفك عليّ من إقحام نفسي في صفوف المقاومة. أجبرتني على العيش في جهل تام بسبب الخوف، لدرجة أني لم أعرف من أين تلد المرأة وكيف إلا بالصدفة. على كل حال ها أنا قد كبرت وأدركت سبب تهربك من الإجابة. أنا لا ألومك، لأنني أدركت أنه توجد بعض الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها حتى لا نكفر بعروبتنا. فليمت الآلاف ليعيش الملايين.

غادر محمد حجرتي مكتئباً، محتاراً من أسئلته التي يريد لها إجابات شافية. ربما كان عليّ أن أجيبه عن أسئلته لكن خفت عليه أن يفقد الثقة في العرب والمسلمين وبالتالي يفقد الثقة بدينه ووجوده، فيبيع كل شيء وتهون عليه نفسه فيصبح عميلاً للاحتلال!

(4)

غادر الصبي حجرتي مكسور الخاطر، تحتل الحيرة قلبه الصغير وتكويه بِهمّ كبير وثقيل عجز أجداده عن حمله. خرج يدمدم بكلمات غاضبة، وبقيت جالساً مثل كهل لا يقوى على الحراك. اجتاحت مخيلتي أشياء كثيرة لا تخصني لا من قريب ولا حتى من بعيد. ركلتها بقدم النسيان وسرحت أفكر بنفسي، بوجودي، بماضيّ، بحاضري ومستقبلي الأسير بقيود المجهول.

أتأمل أيام عمري وهي تتدلى أمامي كلوحة طبيعية تعج بألوان الزمن مع كل تناقضاته. ألوان فيها الفصول الأربعة وموسيقاها المختلفة. المُرة والعذبة، والصاخبة والمكتومة.

فيها الربيع؛ وهي أجمل أيام عمري، تلك الأيام الخضراء التي أمضيتها وأنا أمارس طفولتي بثوب الشقاء؛ أتنقل من حارة إلى أخرى وأنا أحمل على رأسي صينية الحلاوة وأنادي: "حلاوة شهية، حلاوة طرية للصغار والعجائز" أو اذهب برفقة صبيان الحارة في رحلة محظورة ومحفوفة بالمخاطر، إلى مزبلة جيش الاحتلال، ننبش القمامة بأيدينا باحثين عن أواني الألمنيوم والنحاس البالية أو أيّ شيء يمكن بيعه للحاج منصور مقابل قرش أو قرشين لنشترى البوظة أو شعر البنات أو النواعم. كانت أياماً جميلة ومسلية رغم الغيوم السوداء التي كانت تخيم في رأسي وتحرمني الابتسامة، وتعكر صفوة طفولتي ما بين الفينة والأخرى.

فيها الخريف؛ وهي أقسى ما يسكن مخيلتي، بل أقسى تجربة مررت بها. هي تلك الأيام الصفراء الناشفة التي فقدت بها أمي، فأصبحت كشجرة عارية، يتيمة لا أوراق تؤنسها غير تلك الأوراق الصفراء المتناثرة فوق وتحت ترابها.

فيها الصيف؛ وهي أكثر أيام عمري توهجاً وتألقاً، هي تلك الأيام التي أمضيتها في الجامعة حيث الأحلام الوردية بمستقبل مرموق، والشعور بالقوة والتحدي. كانت أياماً جميلة رغم أنها شُيِّدت فوق ركام الوهم وطيف الخزعبلات.

فيها الشتاء؛ وهي تلك الأيام الصفراء الجرداء التي استسلمت بها لجبروت الفقر والفشل. أيام النوم بمعدة تتضور جوعاً. والسهر القهري بعيون ذابلة ناعسة تتحدى النوم. أيام الشعور بأن لا قيمة لأمثالي في زمن استفحل فيه الفساد، وبنى مملكته فوق ظهور الفقراء، فاستوْطَنت زاوية حجرتي وانطويت على ذاتي لفصول شتوية عديدة.

آه يا أبي! ما أتعس أن يختلي المرء بنفسه، يستحضر أرواح أيامه المدفونة في ذاكرة الماضي، يراجع أوراقه المطوية في خاصرة الزمن بدقة متناهية، أو يقرأ بإرادته أسطراً كلها أوجاعاً وهموماً. لا ضيم! أحياناً يضطر المرء لشرب المرّ من أجل الشفاء. ومن الشجاعة أن يعتصر المرء كل آلامه وأحزانه ليتخلص منها أو لتتخلص منه.

جلوسي مع نفسي لم ينعقد له زهر ولا ثمر، لكن جعلني أدرك أني مررت بمراحل كثيرة؛ مراحل ضعف وقوة، حزن وسرور، مد وجزر؛ مراحل ثقة عالية بالنفس، ومراحل ضعف من جديد، احتجت فيها يداً تشد على يدي وتنفخ في

روحي بصيص أمل. تماماً كأي إنسان ابتدأ يمشي على أربعٍ، ثم على اثنين، ثم على ثلاثٍ وبالتالي يمشي محمولاً على ظهره، وقد لا يجد من يقوى على حمله فيُجر إلى قبره جراً كما تجر المواشي المتمردة إلى زريبتها، أو يُترك في المكان الذي هجرته فيه روحه ليكون غذاء لحشرات غريبة.

ضاق صدري من تصفح أيام عمري ومن وجودي في غرفة لا يقل بردها عن البرد المنتشر خارج جدرانها. لذا أردت أن أفعل شيئاً ينسيني البرد والوجع ويرفع من مستوى معنوياتي المنهارة. لم يكن أمامي سوى تشغيل رفيقي الثرثار الذي يتكلم كثيراً دون أن يسمح لي بالكلام. رفيقي الذي يجلب لي أخبار العالم وأنا مستلق على فراشي. لطالما أدهشني ذلك الترانزستور ذو الحجم الصغير والكلام الكثير بأخباره الحلوة أحياناً والسيئة في أغلب الأحيان. شغّلته وجلست أستمع إلى نشرة الأخبار. سمعت خبراً غريباً عجيباً لم أسمع به من قبل؛ شاب يفجر نفسه في شاحنة محملة بالمواد المتفجرة في معسكر لقوات البحرية الأمريكية في الجنوب اللبناني، يقتل نفسه ويقتل معه عدداً من الجنود.

لم أستطع تخيل ذلك، كيف يمكن أن يُقبِل إنسان على تحميل سيارته بالمتفجرات ويقوم بتفجير نفسه وهو يعلم أنه سيتحول ويحول غيره إلى أشلاء؟ هل كان يدرك أن جسده سيصبح أشلاء متفحمة متناثرة؟ ظننت أن الخبر غير صحيح، فربما لم يقصد ذلك الشاب تفجير نفسه بالحافلة، ربما كان يحمل عبوات غاز واصطدمت سيارته بجدران المعسكر صدفة. قلبت إلى إذاعة أخرى لأتأكد مما سمعت. سمعت الخبر ذاته، لم يكن مجرد حادث بل عمل لم أعرف ماذا أسميه، أهو عمل انتحاري أم استشهادي كما قالت بعض الإذاعات.

لا أنكر أن ذلك الخبر صدمني وجعلني أفكر بعمق فيما حدث. تساءلت مع نفسي: ما رأي الدين في هكذا عمل؟ أهو انتحار أم استشهاد؟ لو كان استشهاداً ماذا عن الآيات التي تحرم قتل النفس؟ لم أستطع فهم شيء، أغلقت الترانزستور ووضعته في جيب معطفي وغادرت الحجرة أتمشى ميمماً إلى خيمة العجوز وأنا أدمدم مع نفسي، أحاول إقناعها بأن للسعادة في هذا العالم مكان، وعليّ أن أجد هذا المكان وأبني لي حجرة صغيرة في رحمه أو حتى في مؤخرته لأعيش كغيري.

وصلت خيمة العجوز. سمعته هو الآخر يستمع إلى مذياعه الصغير ويشتم قيادات العرب، ويلعن حظه وشيخوخته وأشياء أخرى!

تنحنحت لألفت انتباهه. التفت إليّ وجسده يرتعش، رمقني بنظرة دافئة وأشار بسبابته طالباً مني الدخول. أقرأته السلام وجلست بجانبه. أخذت أحدق به، متأملاً تقاسيم وجهه وتجاعيده الحبلى بمحيطات من الذكريات. شعرت أن وراء هذا الوجه أسراراً كثيرة. نظرت إلى قامته فبدت هزيلة، وإلى ثيابه المرقعة المتسخة فشعرت أن فقره يفوق فقري. انبسطت أسارير وجهي بابتسامة زائفة، متأملاً منه مبادلتي بابتسامة صادقة.

أغلق المذياع والتفت نحوي وجسده يرتعش بشدة، وأسنانه تصطك. وبصوت مختنق مرتجف، سأل: "ما بك تبحلق بي؟". قلت محرجاً: "أرى في وجهك ملامح تشبه ملامح جدي رحمه الله". لم يعر كلامي جانب انتباه. حككت فروة رأسي بأظافري الصلبة، ورحت ابحث في مخزون ذاكرتي عن شيء يجبر العجوز على مجاذبتي أطراف الكلام. تذكرت الخبر الذي سمعته فسألته إن كان قد سمعه. هزّ رأسه، وقال معجباً: "نوع جديد من المقاومة". قلت مندهشاً:

obeikandl.com

"أليس انتحاراً؟". انتفض جسده وعلق باستياء: "أسمى أنواع الجهاد أن يضحي الإنسان بنفسه؛ هذا عمل استشهادي وليس انتحاراً". قلت إن الدين يرفض قتل النفس. تأفف وقال: "هذا النوع من العمليات ذكي جداً؛ لو انتقل إلى الساحة الفلسطينية فسوف يجبر الاحتلال على إعطائنا حقوقنا. هم يعيشون برفاهية وآمان في أراضينا المحتلة ويُعيّشوننا في الضفة وغزة بجحيم. عليهم أن يتذوقوا طعم الموت، طعم العذاب الذي يذيقوننا إياه. عندما يشعرون أن لا مكان آمن لهم، عندها سيعطوننا حقوقنا". قاطعته بحزم أو ربما بغباء: "ما تقوله لا يلغي أنه انتحار ودينا يرفضه". رمقني بنظرة جافة وأشاح بوجهه عني: "لا تفتِ بغير علم، أنا نفسي لا أعرف رأي الدين في هكذا عمليات، لكن ما أعرفه جيداً أنهم لو استخدموا هذا الأسلوب في أرضنا فسوف ننتصر بلا شك، هذا ما سيحقق مبدأ توازن الرعب!".

صمت قليلاً، ثم تابع موضحاً: "كما أن هذا النوع من العمليات ليس جديداً، استخدمه اليابانيون وغيرهم في الحروب، الفرق أنهم كانوا ينفذون هذا النوع من العمليات بالطائرات، ألم تسمع بالكميكازي؟". رآني أبحلق كالأبله غير مستوعب ما يقول، نفض يده وكأنه تقزز من غبائي. صمت لدقائق، وفجأة أخذ يضحك ويتمتم دون أن يُسمِعَني ماذا يقول.

سألته ماذا يتمتم. تجاهلني واستمر في تمتمته. سألته ثانية، فاستدار إليّ بانفعال، وقال بصوت فيه نبرة لم تَرُق لي: "ليس كل قاتل مجرم". سألته: ماذا تقصد؟ طوى شفتيه، وقال بضجر: "ماذا تريد مني؟ قدمت لي مساعدة وأنا قدمت لك جزيل الشكر. أنا لا أملك شيئاً غير الكلمات، لو كان لدي مال لما

obeikandl.com

بخلت به عليك." أمسك طرف قبة جبته بأطراف أصابعه وتابع: "لكنني كما ترى فقير الحال لا أملك حتى لقمة تخرس ضجيج معدتي".

امتزجت مشاعري... شعرت بعميق الأسى والحرمان اللذين يحتلان قلبه الهرم، وشعرت بنوع من الإهانة المبطنة في كلامه، وكأنه تعمد أن يجرح كرامتي بحديثه عن المال. فأنا لم أساعده من أجل المال، بل من أجل كسب مودته وثقته أو بالأحرى كسب صداقته لأهزم وحدتي، وأشبع فضولي. شعوري بالإهانة دفعني للوقوف أمامه وقفة شاب يعتز بكرامته وكبريائه، وقلت بنبرة مجروحة: إنني لا أريد مالاً، بل أريدك أن تثق بي وتحدثني عن ذكرياتك دون غموض، عن آلامك دون خجل، عن أحزانك دون ملل، أن تخبرني عن شخصك الغامض المجهول. من أنت؟ من أين أتيت؟ وكيف تقضي يومك وأنت وحيدٌ دون ابن أو زوجة أو حتى صديق؟ وأن تحدثني عن سرّ خيمتك الغريبة، المعزولة عن المخيم، والتي تبدو أسيرة بين أنياب القضاء الظالم، والإفلاس الساخر.

قطب حاجبيه وعلق: "ما قصدت إهانتك أبداً، لكني...". قاطعته منفعلاً: "بل تعمدت الإساءة لي". أجاب وجسده ينتفض: "يا بني! إنك تطلب مني الشيء الكثير وأنا قد بلغت من العمر عِتياً. أن أحدثك عما تجهل والذي لن يسمن ولن يغني من جوع، بل إن حديثي سوف يفتح جراح القلب وأنا لست بقادر على تضميدها إذا فُتحت".

قاطعته وقلت بمودة: "أيها العجوز الطيب، أعتذر إن كنت قد أثقلت عليك. أعتذر رغم فضولي لمعرفة المجهول ومرارته، هل تريد أية خدمة قبل انصرافي؟".

أحسّ أنه قد جرح مشاعري. اعتذر، وقال مبرراً: "لم أقصد أن أردك، لكني لا أريد أن أفجر ثورتك!".

قلت مدافعاً عن شخصيتي: "إن كنت تخاف على ثورتي، فثورتي هامدة صامتة، وإن كنت تخاف أن أفشي لك سراً، فأعدك أن لساني لن يخون من ائتمنه، وإن كنت تخشى أن تفتح جروح ماضيك، فأعدك أن أشاطرك الأحزان المدفونة دون انفعال، فأنا شاب ناضج بما فيه الكفاية، أستطيع أن أفرغ ثورتي بشكل مسالم". ابتسم من كلماتي، وقال بصوت خافت: "جيل وقح وغبي..." قلت مبتسماً: "بل جيل متفتح يريد أن يتذوق ما تذوقتموه ليفهم". طلب مني أن أهدأ من روعي والجلوس بجانبه ثانية، فجلست ووجهي يتصبب عرقاً كما لو كنت أعدو في جو خانق حارق.

ابتسم ونظر إلى وجهي نظرة طويلة، طويلة جداً، كأنه يبحث عن عيب فيه، أو أنه يدرس تقاطيعه بدقة لعلّه يجد فيه ما يشبه شبابه. ظل يحدق فيه حتى طفح وجهي بالحمرة من الخجل. لاحظ أن صفحة وجهي ممتلئة بالخدوش والكدمات، استغرب ما رأى. وبصوت خشن سأل: "ما هذه الخدوش والكدمات، لم أرها من قبل؟". قلت في نفسي: "ألم ترها عيناك الضعيفتان إلا الآن؟"، ثم أخبرته بنبرة ضاحكة إن الجيش تسبب بها. قلّب كفيه على بعضهما، وسأل مستغرباً: "الجيش ثانية؟!". ابتسمت وقلت: "بل المرة الثالثة! والرابعة في طريقها إلي".

ضحك بشكل هستيري ولا أدري لماذا بالغ في ضحكه. أزعجتني ضحكاته، أشعرتني أنه يسخر مني فأردت مغادرة خيمته. أمسك بيدي وشدني إليه، وقال

محاولاً امتصاص غضبي: "هذه كأس مرّة المذاق وعلى كل فلسطيني الشرب منه!". قلت غير مبالٍ: "اعتدت على ضربهم...". سأل مستفسراً: "هل قاومتهم؟". أخبرته أنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، فقدرتي تكمن في الاستقبال ولا تجرؤ على الإرسال. ابتسم وسأل مندهشاً: "إذن، لماذا هم متسلطون عليك؟". لم أرد أن أخبره أن جرعوش تسبب في ضربي، قلت ساخراً من نفسي: "لا أدري. ربما مظهري يستفزهم". قال مطيباً خاطري: "مظهرك يدل على أنك شاب طيب. وطيب جداً". قلت في نفسي: "بل غبي، وغبي جداً". وكأنه سمع ما همسته لنفسي، سأل باستغراب واهتمام: "ماذا قلت؟". قلت والمفاجأة قد ابتلعت نصف وجهي: "لم أقل شيئاً".

طبطب على كتفي وسأل سؤالاً غريباً: "هل تعرف كيف يشعر الجلاد حين يجلد العبد بسوطه، وكيف يشعر العبد حين يُجلد؟". قلت في نفسي: "عدنا للاستهزاء". أجبته بنبرة مضطربة: "لا أعرف، فأنا لم أُجلد بالسوط من قبل، ولم أجلد لا عبداً ولا سيداً". أطلق وجهه بابتسامة بدت حزينة وعلق: "ليس بالضرورة أن تجلد أحداً أو تُجلد حتى تحس بما يحسه كلاهما، فالإحساس ينبع من نوعية المضغة المزروعة بين أضلعك".

لم أفهم إلى أيِّ مدى أراد أن يصل سهمه، أو أيّة غاية أراد تحقيقها، سألته محاولاً فهم قصده: "هل تختبر حساسيتي للأشياء؟". أرعد ضحكة مجلجلة وأجاب بسؤال: "هل تؤمن فقط بما تراه؟". قلت بثقة: "نعم! أنا لا أؤمن إلا بما تراه عيناي". أغمض عينه اليمنى وقلب رأسه ناحية منكبه الأيمن وعلّق: "إذن لا تؤمن بالله؟".. قلت بدهشة: "لا!". حاصرني بتعليق: "قلت إنك لا تؤمن إلا

بما تراه، وأجزم أنك لم تر الله". أجبت بعجلة: "الذات الإلهية مسألة أخرى، نحن عرفنا الله من خلال خلقه". هزّ رأسه وكأنه أعجب بما قلت، وداهمني بسؤال آخر: "ماذا عن الهواء؟ هل تراه؟". أجبت بثقة عالية: "طبعاً لا أراه". تابع سؤاله: "أنت لا ترى الهواء، لكن تحس به أليس كذلك؟". أجبت بلا تفكير بنعم. تابع بذكاء: "إذن هناك أشياء لا تراها، ولا يمكنك حتى أن تلغي وجودها، كالهواء مثلاً، أنت لا تراه لكن تحس إن كان دافئاً أم بارداً، أليس كذلك؟".

أحسست أنه يريد أن يشغل ذهني في أمور لم أفكر بها من قبل، أو أنه يريد أن يثبت لي أنه عجوز مثقف، وله خبرة في الحياة أكثر مني. معركة من التساؤل والتخمين اندلعت في رأسي، فلم يكن أمامي سوى سؤاله مرة ثانية إلى أي قارة أو عالم يريد أن يقتاد ذهني. تجاهل سؤالي وأجاب بسؤال آخر: "ماذا ستفعل لو وصفتك بالأحمق؟". حمي وطيس المعركة فقلت في غضب: "لست أحمقَ". بحلق في وجهي لمدة دقيقة تقريباً ثم قال: "قلت لو، ولم أقل إنك أحمق".

نفَّست بالون غضبي وتناولت سؤاله كما هو فأجبت غير مقتنع بما أقول: "سأقول سامحك الله، فأنت في عمر جدي". تابع السؤال: "وماذا لو قالها لك شاب من عمرك؟". أجبت دون تفكير: "ربما أضربه". ابتسم وتابع السؤال: "وماذا لو قالتها لك فتاة جميلة، مثيرة؟". فكرت قليلاً وأجبت: "سأبتسم لها، وأعتبر ما قالته مجاملة". طبطب على كتفي وشكرني على صدقي، ثم تابع أسئلته الغريبة: "ماذا ستفعل لو صفعك شاب عربي على وجهك؟". أجبت بانفعال:

"سأرد له الصاع صاعين". علقّ بنبرة فيها استهزاء: "وهل صفعت من رسموا على وجهك خريطة من الخدوش والكدمات؟".

استحيت من نفسي وسكت. تابع كلامه: "هيا أجب، أم هل بلع الفأر لسانك؟". أجبته بصوت مهزوم: "لم أصفع من صفعوني ووشموا وجهي بحقدهم". علَّق بلهجة المنتصر: "إذن أنت لا تكون الشخص ذاته في جميع المواقف. أنت متقلب ومزاجي وجبان". بلغ السيل الزبى، ولم أعد أحتمل سخريته. قلت وبدني ينتفض: "لولا شيبتك لما سكت عن إهاناتك لي". ضحك وكأني أسمعته نكتة وعلَّق: "وهل كان الشيب يغزو رؤوس من ضربوك وهشموا ملامح وجهك؟". شعرت أنه يريد مني أن أضرب من ضربوني، قلت: "سأضربهم لو ضربوني في المرة القادمة". تجاهل ما قلت تماماً، وقال: "هل قلت لي أن ثورتك هامدة وتستطيع ضبط أعصابك؟".

أخيراً فهمت غايته من كل تلك الأسئلة، سكت وطال سكوتي. يبدو أنه أدرك أنه أسقاني جرعة زائدة، قال: "هو العين بالعين. هو الصبر والإحساس وضبط النفس في كل المواقف". شعرت أن مسألة العين بالعين تتناقض تماماً مع مسألة الصبر، قلت: "لا يمكن أن يلتقي الصبر مع مبدأ العين بالعين". هزّ رأسه ولم يعلق ولم أدر لماذا اختار السكوت. طلبت منه أن يسرد لي حكايته مرة أخرى. سأل باهتمام: "هل لا زلت مصراً على سماعها؟". هززت رأسي ببراءة، وقلت مؤكداً: "مصرّ جداً".

obeikandi.com

تنهد وقال بصوت المغلوب على أمره: "سأحدثك عن قصتي، وأطلعك على أسراري المدفونة! وكيف أصبحت لاجئاً مشرداً، فقير الحال، مشتت الأحوال، لكن احتفظ بما سأقوله لنفسك، هل تستطيع؟". ابتسمت وقلت: "أعدك".

obeikandl.com

(5)

ابتدأ حديثه بتنهيدة عبّرت عن شيء مؤلم. أخذت صور الماضي تقفز في ذهنه الكهل بحدة مخيفة، انتفضت الذكريات المحتبسة في صدره برعب. رمقني بنظرة المغلوب على أمره، نظرة توحي بصوته المجروح، لماذا أود أن أقلب جراح الماضي. مسح لحيته البيضاء بكفِّه المتجعدة، لفَّ جسده ببطانية تنتشر فيها الثقوب، أسند كوع يده على وسادته وبدأ يروي قصته:

"ولدت في مدينة جميلة تدعى اللد، هل سمعت بها؟". قلت بحماس: "طبعاً هي معروفة جداً".

تابع حديثه:

ولدت في بيت ساده رغد العيش، وغمرته السعادة. كنت أقطن فيه مع والديّ وشقيقتي فاطمة التي كانت تصغرني سنا وتكبرني عقلاً. اعتدت وقت طفولتي أن ألعب مع فاطمة في حديقة منزلنا الخضراء الرحبة، ألعابا عديدة: لعبة "الحجلة"، "والغماية"، واللوكس... ذات مرة صنعت لها دمية كبيرة من القماش بمساعدة أمي، وبنيت لدميتها بيتاً من التبن والطين في وسط الحديقة. زيّنته بخزف البحر والقواقع الملونة الجميلة. أمضيت أسبوعاً كاملاً في صناعة الدمية، وأتممت بناء بيت الدمية سراً دون معرفتها، أردت أن أفاجئها. بعد أن انتهيت من إعداد تلك الدميّة، غطيتها بملاءة، وهرعت إلى فاطمة وقلبي يرقص من

obeikandi.com

السعادة. وجدتها تكنس المنزل، أمسكت بيدها وانطلقت مسرعاً إلى الحديقة، حين اقتربت من مكان المفاجأة، طلبت منها أن تغلق عينيها بكفيّها، أغلقت عينيها وهي تبتسم وتتساءل عما أخفيه تحت الملاءة.

فتحت عينيها ورفعت الملاءة بلهفة وشوق. رأت المفاجأة، كَبَرَتْ عينها، وصاحت بصوت يملؤه الفرح: "يا إلهي! لقد حققت حلمي!". حضنتني والدموع تبرق في عينيها من الفرحة، والافتخار بي.

تعاملت مع الدمية وكأنها طفلة، حتى أنها سمتها؛ "دلال". وكل يوم تطعمها، وتسقيها، وتسرح شعرها الصوفي الأصفر، وتغير لها ثيابها المتسخة. وفي المساء تمضي وقتاً طويلاً وهي تهلل وتطبطب على صدرها بحنان حتى تنام. تضعها في سرير صنعته لها من أغصان البلح، وتمشى على أطراف أصابعها خوفاً من إيقاظها.

حبها الشديد لدميتها، دفعها لتطلب مني أن أمثل دور الطبيب. خضعت لرغبتها، اخترت مكاناً في الحديقة وجعلته عيادتي. تارة تأتي فاطمة بدميتها وتقول: "لم تغمض عيناي ليلة أمس. أمضت دلال ليلتها وهي تسعل، أرجوك يا دكتور، عالجها". كنت أمدد دميتها على حجر وأقوم بفحصها ثم أصف لها العلاج. كنت أعبئ قنينة صغيرة بالماء، وأعطيها إياها على أنها الدواء المناسب لدميتها، وأحياناً تصر فاطمة على إعطاء دميتها حقنة، فاضطر لاستخدام عيدان الكبريت على أنها حقن، وأحياناً أخرى تأتي إلى العيادة وتقول: "وضع دلال الصحي غير مطمئن، أرجوك يا دكتور، افحصها وقل لي ما علتها". أقوم بفحصها وأقول مطمئناً: "دلال بصحة جيدة، عليك أن تخففي اهتمامك بها

قليلاً..."‏. أصبحت الدمية شغلها الشاغل، لدرجة أن أمي تمنت لو تموت دلال فيرتاح رأسها قليلاً.

تقدَّمت عجلة الأيام بي، اشتد عودي، نما شاربي، فصرت أرافق أبي كل يوم إلى بيارات البرتقال والليمون وحقول الزيتون التي ورثناها عن جدي. بيارات كريمة تجود علينا بثمارها اللذيذة، وتنعش أرواحنا بجمالها الساحر وألوانها الجذابة...

اغرورقت عينا أبي العبد بالدموع، ارتشف قليلاً من الماء واستطرد قائلاً: "آه يا ولدي، فوق كل حفنة تراب يوجد لنا حكاية.

أتيحت لي الفرصة بأن أذهب وأتعلم في الكتّاب. رفضت مسألة التعليم رفضاً قاطعاً. فضّلت أن أكون فلاحاً وأقف بجانب والدي، لأني أدركت أهمية الأرض فعشقتها. شعرت أنني جزء لا يتجزأ منها. أحببتها كحبي لأمي. لم تكن الأرض مجرد قطعة من الجماد نزرعها فتعطينا ما زرعنا، بل كانت أكثر من ذلك بكثير؛ هي الصديقة الوفية التي حملت أسرار طفولتي وصباي في جوفها بإخلاص، هي الأم التي علمتني الصبر وشحنت جسدي بالطاقة والنشاط. كنا نسميها العرض.

يا لها من أيام جميلة! في النهار نعمل في أرضنا بجد، وفي المساء نذهب إلى مضافة أبي السعود الزّجال، حيث يلتقي هناك معظم فلاحي المدينة. ومن أهم ما تميّزت به مضافة أبي السعود "الزجل الشعبي"، و"الأوف"، و"العتابا" التي تدور حول الفلاح والأرض وتعظم شأنها. كان الفلاح يحظى باحترام كبير آنذاك، لأنه يشكل الوجه الصادق للجدّ والتعب، أمّا اليوم فقد أصبح البعض

obeikandi.com

ينظر إلى كلمة "الفلاح" على أنها مسبّة أو كلمة لتقليل شأن رجل ما، أليس كذلك؟!".

قلت باندفاع وثقة: "على العكس تماماً، فالفلاح يحظى بتقدير كبير." هزّ رأسه وتابع حديثه قائلاً:

"ظللت أذهب إلى مضافة أبي السعود حتى أصبح عمري قرابة العشرين عاماً. اعتدت الذهاب لزيارة جدتي في حيفا حيث كانت تعيش وحيدة في منزلها الكبير. لقد رفضت العيش معنا رغم محاولاتنا إقناعها بذلك، مبررة رفضها بأنها ولدت في حيفا، وتريد أن تدفن فيها.

كانت عنيدة، لذا لم يكن أمامنا أيّ خيار سوى زياراتها المتواصلة للاطمئنان على صحتها وتفقد أحوالها، وقضاء حاجاتها إلى أن اختارها الله إلى جواره، فدفنت جثتها في بطن حيفا مثلما أرادت. لم أحزن كثيراً لموتها، فقد توفيت عن عمر يناهز الثمانين عاماً تقريباً. عند وفاتها جاء والدي وفاطمة للمشاركة في مراسيم الدفن، وبعد ثلاثة أيام عادت عائلتي إلى المدينة، وبقيت هناك من أجل بيع منزلها.

جدتي لم تنجب سوى أبي. توفي جدي قبل أن يرى أبي. رفضت جدتي الزواج من بعده، مع أنها ترمّلت وهي في العشرين من عمرها. كانت تحبه حباً جماً.

انتهيت من بيع المنزل، وعدت إلى مسقط رأسي، إلى عشيقتي الأم التي أحببتها أكثر من نفسي. وصلت في لحظة متأخرة من الليل، لم أجد والدي في المنزل، عرفت أنه في مضافة أبي السعود، فهو كثير الذهاب إليها، وكثيراً ما كان ينام هناك لأسباب لا أعرفها حتى اللحظة.

obeikandl.com

تناولت وجبة العشاء المتأخرة بصحبة فاطمة، ثم أويت إلى فراشي مستغرقاً بالتفكير في نوم والدي في المضافة وأسبابه. لم أتوصل لشيء، ولم أستطع النوم. نهضت من فراشي وأخذت أفكر بالبيارات. لقد افتقدتها في الأيام القليلة التي ابتعدت فيها عنها، تذكرت أنها تحتاج إلى سواعد شديدة، وجسد متين، فعدت إلى فراشي ثانية محاولاً النوم. عددت حتى المائة مرتين، فإذا بي أغط في سبات عميق.

استيقظت مبكراً في صباح ذلك اليوم الموافق الحادي عشر من تموز عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، استيقظت وأنا ما زلت أحلم بالأرض. اتجهت إلى النافذة آخذ نفساً عميقاً من الهواء النقي، وألقيت نظرة خاطفة. لاحظت أن سماء المدينة مكتظة بالطيور المهاجرة، تطلق أصواتاً تعبِّر عن حزن، لم أعتد أن أسمع تلك النغمة الحزينة من قبل. كانت دائماً تغرد بفرح وسرور إلا في ذلك اليوم، وكأنها كانت تحاول أن تخبرنا بكارثة ما ستحدث. أشعرتني تلك الأصوات بالاكتئاب الشديد، أشعرتني بالضيق.

ارتديت ملابس الفلاحة واتجهت ميمماً إلى بياراتنا، فوجئت بوالدي هناك- ظننت أنني ذهبت مبكراً، لكنه كان قد استيقظ مع آذان الفجر ليثبت لي وللأرض بأنه الأكثر نشاطاً وإصراراً. رأيته يحمل فأسه ويعزق به الأرض ويقلّبها، حتى تظل الخضرة ثوبها الذي لا يموت إلا عندما تهدم العزائم ويقتل النشاط. كان يرتدي جبة سوداء، وسروالاً أسودَ، وكوفية بيضاء يلفها على رأسه كالعمامة. طرحت عليه السلام وحاولت أنتزع الفأس من يده، دفعني وتابع عمله وجسده يتصبب عرقاً.

حاولت انتزع الفأس مرة أخرى، أبى أن يعطيني إياها، وقال وهو يلهث: "الأرض عطشى". هززت رأسي وقلت مطمئناً: "ستروى في فصل الشتاء." مسح عرقه بكم جبّته، وقال: "سأرويها بعرقي". قلت ممازحاً: "العرق مالح". علق متفلسفاً: "الملح بارود الأرض". سألته: ماذا تقصد؟ فلم يجب. تجاهلني وتابع عمله وهو يهزّ رأسه ويضحك. رغم أنه كان رجلاً جاداً إلا أن سنّه كان ضحوكاً. سألته عمّا يضحكه فلم يزده سؤالي إلا ضحكا. تظاهرت بالغضب وفي محاولتي لاستدراجه للكلام قلت: "لو كنتُ فاطمة لأجبتني، أليس كذلك؟".

توقف عن عزق الأرض وقال إنه لا يميز بيني وبين فاطمة أو خالد. سألته مندهشاً: " من خالد ؟". قال وهو يضحك: "لم أقل هذا الاسم". صمت، لبرهة ثم عاد يضحك ثانية. سألته عما يضحكه، قال إنه يضحك لأن الضحك يطيل العمر. قلت بصمت خافت: "علمتني أن الضحك بدون سبب قلة أدب". وكأنه سمع ما قلت. رمقني بنظرة عميقة، وقال: "الضحك بلا سبب قلة أدب، أليس كذلك؟". احمرّ وجهي حين قال ذلك ولم أعرف ماذا أقول. صمتي وتغيُّرُ لون وجهي جعله يتأكد أنني فكرت بتلك الطريقة. قال ملاطفاً: "وجهك يفضحك يا بني". قلت إن وجهي مرآة صافية تعكس ما يدور في قلبي، لكنه أخطأ في قراءته هذه المرة. ضحك وقال: "إذن ظننت أني قليل الأدب!".

تمددت تحت ظل شجرة الزيتون وقلت بنبرة جادة: "حاشا لله أن أصفك بقليل الأدب". التقط نواة بلح عن الأرض وقذفها علي ليلفت انتباهي ثم سأل: "هل تريد مساعدتي؟". قلت بحماس: "هذا ما جئت من أجله. فأنا أحب الأرض مثلما تحبها". ضحك بسخرية، وقال: "هذا ما تعتقده!". نهضت وقلت

obeikandl.com

بانفعال: "أنا جاد، دعني أساعدك". هزّ رأسه وطلب مني أن أجمع الأعشاب التي اقتلعها وأضعها في مكان واحد. اقترحت عليه أن يجمع هو الأعشاب وأنا أعزق الأرض. قطب حاجبيه وقال: "عزق الأرض يحتاج إلى سواعد ناعمة".

ظننت أنه يقصد العكس فقلت إن سواعدي صلبة بما فيه الكفاية. ضحك وقال إنه قصد ما قال. قلت إن الأرض لا تحتاج إلى سواعد ناعمة بل سواعد صلبة. صاح بغضب: "بل ناعمة!". سألته لماذا ناعمة. قال موضحاً: "لأنها كالمرأة تماماً تحتاج إلى من يلاطفها بأيدٍ ناعمة لا أيدٍ خشنة وقاسية". قلت مستغرباً: "الأرض لا تشبه المرأة في شيء". رمقني بنظرة، وقال: "بل مثل المرأة تماماً، توطَأ وتُحرث وتُبذر وتُسقى فتحمِل وتلِد وتضع نباتها إلى حين تمامها، وهي أمنا لأنا خلقنا منها".

أعجبني قوله كثيراً وتحمست أكثر لانتزاع الفأس من يده لمداعبة الأرض بحنان، دفعني وطلب مني أن أجمع الأعشاب. تضايقت من عناده وذهبت لأجمع الأعشاب التي اقتلعها. سمعته يغني لشجرة الزيتون ويتغزّل بها وكأنها فتاة:

(زيتونتي يا مظللة تراب الجدود،

يا موشّحة بالعز في سفح الجبل

يا خفقة الموال على شفاف الخلود،

يا حلم أشواق العذارى للقبل

في كرمك الفلاح غنى للوجود،

كلمات خلو الكون يصحا من الخبل)

obeikandl.com

كان صوته رائعاً ذا نبرة جبلية حزينة. أذكر أن قلبي خشع لتلك النبرة التي شحنته بمشاعر مفعمة بالحنين.

بعد ساعة من العمل الشاق المتواصل، أقبلت أمي تحمل صرّة الطعام، تحملها على عصا مرفوعة فوق كتفها. ألقت التحية، وطلبت منا التوقف عن العمل من أجل تناول وجبة الإفطار. سألها والدي وهو يلهث عن فطور اليوم فأجابت مبتسمة، إنها أحضرت لنا، الجبن الذي صنعته بيدها، والطماطم التي اقتطفتها من حديقة بيتنا، وبعض الزيت والزيتون، وإبريقاً من الشاي. رفع يديه إلى السماء، وقال: "الله يديمها من نعمة ويحفظها من زوال". تربعنا على الأرض وتناولنا وجبة الإفطار، أكلنا بشراهة.

بعد أن انتهينا من تناول الإفطار، التقط والدي فتات الخبز عن الأرض، ووضعه على صخرة ليطعم الطيور كعادته.

تذكَّرت أمي حلماً سيئاً رأته، قالت محدثة أبي: "حلمت البارحة حلماً غريباً وعجيباً، ألا فسرته لي؟". ابتسم والدي وطلب منها أن تَقَصهُ عليه. قالت: "رأيت الأرض تنشق ويخرج منها سبع ثم رأيتها تنشق ثانية فلا يخرج منها شيء ولا يدخل فيها شيء". امتقع لون وجه أبي حين سمع الحلم، وقال: "تعوذي بالله من الشيطان الرجيم". سألته بإلحاح ما تفسيره فقال: "انشقاق الأرض وخروج سبع منها يدل على ظهور سلطان ظالم، أما انشقاقها دون أن يخرج منها شيء أو يدخل فيدل على وقوع شر في الأرض". غصت أمي بريقها وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. تذكَّرت حلمي أنا أيضاً، حلم رأيته من قبل ولم أعرف تفسيره. قلت بتوتر: "وأنا رأيت حلماً غريباً، رأيتك يا أبي تفر من سفينة إلى جبل شامخ".

obeikandi.com

قاطعني وطلب مني ألا أكمل. سألته مستغرباً لماذا لا يريد سماعه. قال: "لأن تفسير حلمك سيء". صمت قليلاً ثم استطرد قائلاً ولون وجهه قد شحب: "ما بكم، الكل يحلم أحلام قاسية". أصرت أميّ على معرفة تفسير حلمي، فقال بغضب إن تفسيره يعني إما هلاكه أو هلاكي. سألته مندهشاً كيف توصل إلى ذلك التفسير، فذكر قصة ابن نوح حين رفض أن يدخل السفينة مع والده وهرع إلى الجبل ليعصمه فهلك.

وما هي إلا ساعة من الزمن وإذا بفاطمة تركض نحونا صارخة بأعلى صوتها: "أبي! أبي!". أصابنا الذعر، فركضنا مذعورين نحوها لنستطلع الخبر. رأينا وجهها مكسواً بملامح لا تدل على الخير. وهي وجها مصفرَ مذعوراً، تلهث بشدة، لدرجة أنها لم تستطع التفوه بكلمة لمدة وجيزة. أجلسها والدي بيدين مرتعشتين، وقلب ينتظر الخبر. سألها بلهفة عن سبب ذعرها وصراخها، فقالت ووجهها يتصبب عرقاً: إن جحافل الموت اجتاحت المدينة، وأن فلاحي القرية حملوا أسلحتهم وتمركزوا في أراضيهم. شحب وجه والدي وسألها بتلعثم: "ماذا قلت؟". أجابت بقلق: "الفلاحون في حالة استنفار!". سأل باستغراب: "استنفار؟! ماذا تقصدين؟". قالت بتوتر وخوف: "البريطانيون سلّمونا لليهود". جنّ جنوني وصحت بقلق: "ماذا؟ متى؟ كيف؟! وبأي حق يفعلون ذلك؟!" انتفض والدي غضباً، امتقع لون وجهه، وقف مستنفراً. ضرب رأسه بكفه وأخذ يردد: "لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا". وأمي تصفع وجنتها صفعات متتالية خفيفة وتقول: "ضاعت الأرض، ضاعت الأرض". رمقها والدي بنظرة غاضبة ونظر إلى أرضه نظرة خاطفة حزينة، وقال مخاطباً أمي:

"تحقق الجزء الأول من حلمك، بقي الثاني". وانطلق بأقصى سرعته متجها نحو منزلنا. وبعد قليل عاد ومعه بندقيته.

وقف ونظر إلينا بعينين يملأهما القهر، وقال بعد أن أقسم بالله: "لو اقترب أحدهم من أرضي فسوف أمزقه". أجابته فاطمة والدمع يفيض من عينيها: "لن تستطع مقاومتهم يا أبي". طوقها بذراعيه، وقال: "سأقاومهم حتى الشهادة". حاولت فاطمة أن تلين عقله، قالت مقترحة والدموع تسيل على وجنتيها: "دعنا نهرب قبل أن يصلونا". رمقها أبي بنظرة مستغرباً كلامها، وقال بغلظة: "عرفتك شجاعة يا فاطمة". قاطعته فاطمة: "الهرب هو ثلثا الشجاعة". تنهد وقال بلهجة غاضبة: "بل الجبن عينه!".

كنت في حالة صعبة، لست أدري إن كنت قد خفت على والدي من الضياع أم على نفسي من مواجهة موقف قد يكون أشد قوة مني. لم أعرف ماذا أفعل، أو كيف أتصرف، ومع ذلك ذهبت إلى المنزل وأحضرت "طبنجة" جدي، وعدت لأقف بجانب والدي وبين الفينة والأخرى كنا نسمع زخات من الرصاص. لم تستطع أمي التحمل، شرعت تلطم وجهها بقسوة وتصيح: "ضاعت الأرض! ضاع العرض!". نفذ صبر والدي ولم يعد قادراً على تحمل كلمات أمي، أمسك بيدها وضغطها بقوة، وصاح بأعلى صوته: "طاب الموت يا عرب!". رمقني بنظرة جادة، وأمرني أن أذهب إلى المنزل برفقة فاطمة لنحضر ما يكفينا من الطعام والفراش، وأن أغلق الباب جيداً.

قرر والدي عدم مغادرة الأرض في ذلك اليوم المشؤوم حتى ولو كلفنا الأمر حياتنا".

obeikandi.com

توقف العجوز عن الكلام وعيناه قد اغرورقتا بالدموع. أمسكت بيده وضغطتها بمودة. ابتعد عني قليلاً ثم وقف ينظر حوله وكأنه يبحث عن شيء. قفزت دمعة ساخنة من عينه، وعلقت أنفاسه في الحلق غير قادر على الكلام. سقط متشنجاً على فراشه، شعر بقشعريرة تجتاح جسده. لم أفهم ماذا يحدث معه، سألته بفضول وأنانية: "ثم ماذا حدث أيها العجوز؟". مسح دموعه وأجاب بصوت متعب: "يا بني أدركنا الوقت، تعال غداً حتى أكمل لك قصتي". تأففت وقلت: "أرجوك استمر في حديثك! فأنا أكره الغموض". نفخ أنفاسه بقوة غير معجب بأسلوبي: "بل أنا أرجوك". وضع يده على معدته، وابتدأ يعضّ على شفته وكأنه يعاني من المغص المعوي الحاد. خفت عليه، أمسكت بذراعه بلطف وبتوتر واضطراب سألته ما دهاه، قال وهو يتأوه: "معدتي تؤلمني". سألته إن كان جائعاً، أجاب: "ربما". اقترحت أن أحضر له شيئاً يأكله، ليسكت جوعه، قال مستسلماً: "النوم سيهزم جوعي". قلت: "لا تقل هذا! دعني أحضر لك شيئاً تأكله". ابتسم وقال: "ومن يمسكك؟".

شعرت بإحراج وقلت: "إذن سأذهب الآن". أمْسَك بيدي وقال: "لا تذهب! الحزام سيحل مشكلتي". سألته مستغرباً ماذا يقصد بالحزام. تجاهل سؤالي وطلب مني أن أعود إلى بيتي لأنه سيخلد للنوم. ألححت عليه أن أجلب له شيئاً دون فائدة. عرضت عليه أن أمكث معه في الخيمة لأقوم بخدمته. سأل مستغرباً: "أليس لك أهل؟". أخبرته بأني يتيم. أجاب غير مكترث بما قلت أو أنه

obeikandl.com

لم يسمع: "أنا متعب". قلت في نفسي: "عجوز غريب، على الأقل، قل رحم الله أمواتك...".

غطى رأسه بالملاءة مستعداً للنوم. تضايقت من أسلوبه الفظ. سمعني وأنا أتأفف، فقال ووجه مغطى مخمناً أني أبحلق به: "لا تبحلق بي، مع السلامة".

obeikandl.com

(6)

نظرتُ إليه نظرة المطرود المهان وغادرتُ خيمته دون أن أعرف إلى أين سأذهب. لم يكن أمامي سوى المقهى. ذهبت إليه على أمل أن أسمع خبراً يسعدني. وصلت المقهى فرأيت الشبان يحيطون بالمجنون جرعوش من كل جانب. يصغون إلى حديثه ويضحكون بصمت. تمنيت لو أمسكه من شعره وأمسح به الأرض. كظمت غيظي، تناسيت فعلته وجلست كغيري استمع إلى حكاياته الخيالية.

سمعته يتحدث عن مغامراته المختلقة. قال إنه تمكن من سرقة بندقية أحد الجنود الذين يقيمون في الثكنة العسكرية المنتصبة على الهضبة المطلة على المخيم. سرقها وسرق معها صندوقاً من الذخيرة، وإنه استخدمها عدة مرات في قنص عددٍ من الجنود والعملاء. سأله أحدهم ساخراً: "كيف قتلتهم؟". أرعد ضحكة هستيرية وقال: "نصبت لهم كميناً في قعر الجبل، فوقعوا فيه". سأله آخر: "وضِّحْ لنا كيف نفَّذت العملية". هزّ رأسه وقال: "هذه أسرار ثورية". علَّق آخر: "ثق بنا فنحن ثوار مثلك". تجاهله وابتدأ يحكي لهم حكاية فتاة إسرائيلية وقعت في غرامه. قال إنها أم لولد من صلبه. سأله أحدهم عن اسمه، فأجاب محرجاً: سميته "شامير". علَّق آخر ساخراً: "يبدو أنك محكوم لعشيقتك الإسرائيلية". استشاط جرعوش غضباً وبصق في وجه الشاب قائلاً: "أبوك هو المحكوم لمؤخرة أمك

العريضة". شتيمته أضحكت جميع الشبان المحيطين به إلا الشاب المقصود، فقد أعصابه وقام بصفع جرعوش على وجهه صفعة قاسية ومهينة. اهتاج جرعوش وتناول كرسياً ودكّ به ظهر الشاب أثناء عودته إلى مقعده وطرحه أرضاً. عمَّت الفوضى المكان وعلت صيحات الغضب المندّدة بفعلة جرعوش، فأقبل صبي الخدمة مسرعاً، شد جرعوش من شعره وقذفه خارج المقهى وكأنه يقذف كيس قمامة، وصاح مهدداً: "إياك أن تأتي إلى المقهى مرة أخرى أيها المعتوه". أحس جرعوش بالإهانة الكبيرة. داهمته نوبة الجنون، أخذ يلطم وجهه ويصيح بصوت باك: "سوف تندم يا ابن العاهرة!". هرع إلى حاوية القمامة القريبة من المقهى، نتش منها كيساً من الخيش وعبَّأه بالحجارة وهجم بطريقة هستيرية على المقهى يرشق زجاج نوافذه بالحجارة، ويشتم من طرده قائلاً: "لست أنا من يُطرد يا عميل، يا غشاش، يا حرامي لمبات الجامع!". بقي جرعوش أسيراً لجنونه لأكثر من ربع ساعة، هو يرشق المقهى بالحجارة، وصبي الخدمة يلطم ويصيح: "خرَّب بيتي، خرَّب بيتي!".

أشفقت على صبي الخدمة فخرجت مسرعاً إلى جرعوش لأهدِّئ فورة جنونه. اقتربت منه أمشي بخطوات حذرة خوفاً أن تصيبني حجارته التي تهطل على المقهى بغزارة. رآني أقترب منه فحمل لي حجراً كبيراً وهدد بشج رأسي إن تقدمت خطوة أخرى. قلت محاولاً تخفيف غضبه: "أنا صديقك! ألا تخجل من تهديد صديقك؟". قال مهدداً: "ابتعد وإلا أخبرتهم ماذا كنت تفعل مع الفرشة". قلت موضحاً: "كنت أتمرغ من الألم". انفجر ضحكاً وقال: "رأيتك بأم عيني وأنت...". قلت في نفسي: "استعد يا صابر لسماع التعليقات".

ابتدأ الشبان يصيحون على جرعوش ويسألونه بفضول محاولين جرجرته في الكلام: "ماذا كان يفعل يا جرعوش؟"، "هل كان في رفقته أحد؟". هززت رأسي غاضباً من جرعوش، وقلت معاتباً: "هيا افرح! لقد فضحتني وأنا بريء". أسقط الحجر من يده وفرّ هارباً يقلدّ صوت السيارة.

عدت إلى المقهى، وقلت لصبي الخدمة: إنك أسأت لجرعوش وطردته، وإنه ليس من شيم الرجال الاستهزاء بمن هم أضعف منهم ذهناً وجسداً. لم يعجبه ما سمع. رمقني بنظرة غاصبة، وقال متهماً: "أنت من حرَّضته على تكسير نوافذ المقهى! وعليك أن تعوضني عن الخسائر". سألت مستغرباً: "ولماذا أحرضه؟". دفعني بغلظة وصاح: "لأنك حسود تكره الخير لغيرك". شعرت بالاستفزاز الشديد: "بل أنت مريض ومهووس". أرعد ضحكة مجلجلة، وقال ساخراً: "المريض من يضاجع فرشته". لم أستطع تحمل سخريته، صحت بانفعال: "اخرس يا وقح!". انقض عليّ كالثور الهائج وأراد صفعي على وجهي، ففاجأه نضال بركلة مهينة على مؤخرته. نظر خلفه بغضب ليرى من تجرّأ على ركله، فوجد وجهاً منتفخاً بالغضب يبحلق به. نظر إليه بانكسار ومشى مطأطئاً رأسه وكأنه رأى عفريتاً. صاح نضال بصوت خشن: "ألا تريد أن تردّ لي الركلة؟"... رمقه بنظرة حاقدة، وقال بصوت مرتعش: "سيردها لك من هو أقوى مني ومنك"، قالها ودخل المقهى وقد بدا عليه التوتر. اقتربت من نضال، صافحته بحرارة واعتذرت له عن سوء تصرفي وقت الجنازة. قبل اعتذاري، وقال بمودة: "لا تقلق! التمست لك الأعذار وسامحتك". سألته: لماذا ركلت صبي الخدمة

بتلك الطريقة المهينة؟ قال بثقة: "ركلته لأنه عميل ومنحط، وعليّ أن أقطع لسانه الذي ينقل أخباري إلى أجهزة المخابرات". سألت مندهشاً: "هل هو حقا عميل؟"... أكَّد لي أنه مرتبط مع الاحتلال منذ أعوام وأنه حقق معه في السجن. قلت متعجباً: "ظننت أنه مناضل!". ضحك وقال: "ليس كل من يدخل السجن مناضلاً! المخابرات تعتقل عملاءهم ويضعونهم بين الأشراف حتى يكتبوا تقارير عن نشاطاتنا التنظيمية داخل السجون". سألته مذهولاً: "وكيف عرفت أنه مرتبط؟". تأفف وقال: "هذه قصة طويلة يصعب سردها في لقاء واحد". قلت متحمساً: "لدي الوقت الطويل فلا عمل لدي ولا أسرة تنتظرني". ابتسم، وقال: "هل سنتحدث في هذا البرد؟". نسيت أننا نقف في الشارع فدعوته إلى شرب فنجان من القهوة.

دخلنا المقهى وجلست لأستمع إلى قصة صبي الخدمة شريف. جلسنا إلى طاولة تبعد قليلاً عن حطام الزجاج وباقي الطاولات لنأخذ حريتنا في الكلام. سألني نضال إن كنت أفضِّل شرب القهوة أو الشاي أو السحلب الساخن، فاخترت السحلب مع القرفة وجوز الهند. صاح نضال منادياً على شريف بطريقة مستفزّة: "تعال يا ولد، لترى ماذا يريد أسيادك". ارتبك شريف، وتظاهر أنه لم يسمع نداء نضال. كرر نضال نداءه مرة ثانية بنبرة جافة. ازداد شريف توتراً، وأخذ ينظر حوله وكأنه يبحث عن شيء. أعاد نضال نداءه مرة ثالثة قائلاً بنبرة عصبية لفت انتباه الزبائن: "تعال يا حيوان، لتر ماذا نريد!". تناول شريف المكنسة وشرع يكنس حطام الزجاج والتوتر يفضح وجهه. استشاط نضال غضباً، ضرب الطاولة بقبضة يده وهرع إليه، أمسكه من قبة قميصه وصاح في

وجهه: "هل أنت أطرش؟" أجابه شريف بتلعثم وخوف: "عليَّ أن أكنس الزجاج قبل أن يأتي صاحب المقهى ويطردني". رمقه نضال بنظرة حادة، وقال: "اترك المكنسة واجلب لنا كوبين من السحلب الطازج، هيا!". هزّ شريف رأسه بطريقة لا تبشر بالخير، وهرع لتنفيذ أمر نضال. عاد نضال وجلس وهو يشير بسبابته إلى شريف قائلاً: "أراهنك على أنه سيبلّغ عني أسياده ليعتقلوني". قلت بدهشة: "يبدو أنه مسكين، هل أنت متأكد؟". قاطعني، وقال مؤكداً: "نعم متأكد إنه عميل!". قلت مشوقاً: "إذن حدثني قصته". طلب مني الانتظار حتى يجلب لنا السحلب. انتظرنا قليلاً حتى جاء وأحضر ما طلبناه وضعه على الطاولة وتركنا وكأن قلبه كان يدعو على نضال بالموت. وما أن تركنا حتى شرع نضال يحدثني عن قصته. قال إنه أمسك به في السجن وهو يسلِّم أحد الجنود تقريراً عن نشاطات المعتقلين. وروى لي قصة ارتباطه مع المخابرات.

قال إنه كان على علاقة بشاب من مخيم آخر يدعى حسني. دعاه حسني ذات مرة إلى حفلة سُكر في إحدى بارات القدس. وافق شريف على الدعوة. وهناك شرب حتى ذهب عقله. في منتصف تلك الليلة استيقظ شريف من سكرته ليرى أن فتاة عارية تماماً لم يرها من قبل نائمة بجانبه. سألها بدهشة ماذا تفعل في حجرته، فأخبرته أن عكس سؤاله هو الصحيح. نظر إلى الحجرة فأدرك أنه في مكان لا يعرفه، وأن الحجرة ليست حجرته. مباشرة سأل الفتاة عن ذلك اللغز. أخبرته أنه قابلها في الحفلة، وطلب منها أن يمضي معها تلك الليلة. حاول شريف أن يتذكر أحداث ليلته الماضية. لم يستطع أن يتذكر إلا ما حدث معه قبل أن يحشو

رأسه بالخمر. شعر بالخجل من نفسه، فارتدى ثيابه وعاد إلى بيته وهو يفكر بما جرى معه.

في اليوم التالي زاره حسني في بيته. كان بحوزته مغلفاً فيه مجموعة من الصور طلب من شريف النظر إليها. ألقى شريف نظرة على الصورة الأولى فصعق حين رأى نفسه في صورة خليعة وكأنه يمارس الجنس مع تلك الفتاة. جُنّ جنونه وغرز أصابعه في عنق حسني طالباً منه تفسيراً لتلك الصور. دفعه حسني وقال له إنه ليس من مصلحته التصرف بغباء، وهدده باستخدام الصور التي نسخ عنها عشرات النسخ. اضطر شريف للسكوت والإصغاء لما يحمله حسني له في جعبته. عرض عليه التعامل مع الاحتلال وإلا سوف يلصق صوره على جدران منازل المخيم ويفضحه في كل مكان. وما كان أمام شريف سوى الموافقة على التعامل مع المخابرات. حددوا اللقاء الأول مع أحد ضباط المخابرات في القدس. هناك كلفه الضابط بجمع معلومات عن كوادر المخيم: أسمائهم، انتماءاتهم السياسية، أصدقائهم، الأماكن التي يترددون عليها. وهذا ما فعله شريف بإخلاص.

في اللقاء الثاني كلَّفه ضابط المخابرات بمهمة جديدة أكثر قذارة وإجراماً، إسقاط فتاة أخلاقياً ليلة زفافها عن طريق صالون للعرائس لإجبارها للتعامل معهم. لم يستطع شريف قول كلمة "لا" لأسياده، بل نفَّذ ما طُلب منه بولاء مطلق. نجح بإسقاط الفتاة مستعيناً بإضافة مادة منومة أذيبت في فناجين القهوة التي قُدمت للعروس ومن يرافقها قبل أن يقمن فتيات التزين بتزينها. شربته العروس ومن معها وغطوا في سبات عميق. تم نقل العروس المستهدفة إلى غرفة سرية تحتوي على سرير مزدوج، وشرع شريف بتعريتها وتعرية نفسه ومن ثم

obeikandi.com

تمثيل أدوار منحطة ليبدو وكأنه يمارس الجنس معها. قامت إحدى الفتيات المسقطات بالتقاط مجموعة من الصور بطريقة فنية تظهر وكأن العروس منهمكة في ممارسة الجنس، مع التركيز على عدم إظهار وجه شريف، وفي الوقت ذاته قامت عميلة أخرى بتصوير فلم فيديو. أنهى العملاء مهمتهم الأولى مع العروس، ألبسوها فستان زفافها. أعادوها إلى مقعد التزين، وقاموا بتزينها وكأنه لم يحدث شيء. ذهب مفعول المنوم واستيقظت الضحية ومن معها، لتجد نفسها لا زالت جالسة على مقعد الزينة. لم تتذكر شيئاً غير أنها تجزم أن النعاس غلبها فأخذت غفوة قصيرة أثناء تسريح شعرها.

بعد مرور أسبوع استدعى ضابط المخابرات العروس وعرض عليها التعامل معه. رفضت العروس عرضه جملة وتفصيلاً. وقالت بشجاعة إنه طرق الباب الخاطئ. حاول ضابط المخابرات إغراءها بالنقود حيث عرض عليها مبلغاً طائلاً من المال وشقة راقية في المدينة التي تختارها. قالت له: "لن أخون وطني حتى لو أعطيتني مال قارون!".

فشل باستخدام أسلوب الترغيب فلجأ إلى أسلوب الترهيب. أخرج مجموعة من الصور التي تبدو العروس فيها عارية وفي وضع مشين. صدمت العروس، لم تصدق ما رأته. لطمت وجهها، ثم أجهشت بالبكاء. اقترب منها ضابط المخابرات، وطبطب على كتفها وقال: "التعامل معنا هو الحل". استجمعت قواها ونفضت يده وصاحت قائلة إن الصورة ليست لها. ابتسم ضابط المخابرات ابتسامة ساخرة، وتناول شريط الفيديو عن مكتبه ووضعه في جهاز الفيديو، وقال بسخرية: "لنرى إن كانت الصور لك أم لفتاة تشبهك...". شغل الشريط، رأت

obeikandi.com

مقطعاً قصيراً، صعقت، صدمت، انهارت تماماً. هرعت نحو جهاز الفيديو محاولة تحطيمه. اعترض الضابط طريقها، وقال مهدداً: إن تحطيم الجهاز أو شريط الفيديو لن يفيدك في شيء، لأن هناك ملايين الأجهزة، وعشرات النسخ عن الصور والشريط. أصابها الجنون، أدركت أن نهايتها اقتربت بسبب تلك الصور التي لا تتذكر كيف وأين تم التقاطها. أُغلقت كل الأبواب في وجهها. نَفَذَت كل الخيارات، إلا خياراً واحداً؛ وهو الموافقة على الارتباط. جُنِّدت في صفوف المخابرات، وقامت بتسليم شقيقها المطارد للوحدات الخاصة. نفَّذت كل مخططاتهم ونجحت في إسقاط فتيات أخريات.

صدمني نضال بهذه القصة، وبالأساليب الدنيئة التي يستخدمها رجال المخابرات في اصطياد فرائسهم البشرية. انفعلت مما سمعت، وقلت غاضباً: "لو كنت مكانها لقتلت نفسي". أرعد نضال ضحكة، وقال: "ولماذا تقتل نفسها؟ كان بإمكانها أن تخبر رجال المقاومة بما حدث، وبهذا تصبح بطلة، مثل فتاة أعرفها". شعرت بالفضول، طلبتُ منه أن يحدثني عن تلك الفتاة. أشعل سيجارة، وقال: "ليت الظروف تسمح، لقلت لك اسمها، إنها فعلاً أنموذج للفتاة العاقلة والذكية". ازداد شوقي لمعرفة قصة تلك الفتاة المجهولة، ألححت عليه أن يحدثني قصتها، فلبَّى رغبتي.

قال إن هناك فتاة جامعية تصوَّرت عدة صور في إحدى استوديوهات المدينة، وبعد يومين ذهبت لتأخذ صورها. أعطاها المصور مغلفاً يحتوي على مجموعة من الصور. فتحت المغلف لترى كيف تبدو صورها. فوجئت بأن رأت نفسها بصور عارية وأوضاع مشينة. هزَّت رأسها، وفجأة خلعت نعلها وانقضت على المصور

تضربه به على وجه ورأسه ثم مزقت الصور ورشقت الفتات في وجهه وهي تكيل له الشتائم. أخبرها أن بحوزته عشرات الصور، وأن من مصلحتها الخضوع إلى ما سيمليه عليها، وإلا الفضيحة. تمالكت نفسها وسألته ماذا يريد منها بالضبط. عرض عليها التعامل مع جهاز المخابرات فوافقت ببرود أعصاب.

في اليوم ذاته، لجأت الفتاة إلى نضال وهي منهارة تماماً، أخبرته ما حدث معها. أوضح لها نضال أن الصور ليست أكثر من حيل وأساليب مكشوفة يستخدمها المخابرات لإسقاط الفتيات وتحديداً الجاهلات. وقال إن المصور قام "بدبلجة" الصور عن طريق استخدام برنامج خاص في الكمبيوتر. اطمأنت الفتاة، وطلبت من نضال النصيحة. نصحها بأن تنسى أمر الصور تماماً، وشكرها على شجاعتها وكشفها أحد كبار العملاء، ووعد أن المصور الخائن سيلاقي ما يستحقه قريباً.

آه يا أبي! أهلكني نضال بالقصص القذرة التي يتم فيها إسقاط الصبايا والشباب وتجنيدهم للعمل لصالح مخابرات الاحتلال...

تبادلنا أطراف الكلام في مسائل مختلفة غير مسائل الإسقاط. شعرت أنه شاب رائع، وقريب مني فكرياً واجتماعياً. عرضت عليه مصادقتي فوافق دون تردد. خرجت من المقهى، وذهني مشغول بما سمعته من حكايات غريبة وكأنها خرافات.

في طريقي إلى حجرتي قابلت جرعوش. هذه المرة رأيته يطارد دجاجة جيرانه ويلهث بشدة، وفي اللحظة التي أوشك فيها على الإمساك بالدجاجة، فاجأته بصرخة مجلجلة أخافته ومكنت الدجاجة من الهرب.

obeikandl.com

انتفخت أوداجه من الغضب وراح يسبني بكلمات نابية: "أنت سافل وتافه وستدخل النار". حاولت الاقتراب منه لأمتص غضبه، ازداد غضباً ونعتني بكلمة نابية وقاسية جداً. قلت: "إذا جاءتني المسبة من ناقص، فهذا دليل على أني كامل". ابتعد عني بضعة أمتار، وقال: "يا بن... حرمتني من وجبة دسمة". رمقته بنظرة، وقلت متناسياً تلك الكلمة البذيئة: "عيب عليك أن تسرق دجاجة الجيران". قاطعني: "العيب أن تضاجع الفرشة يا...". قاطعته بغضب: "سيحرقك الله بنار جهنم، لأنك اتهمتني كذباً وتسببت لي بالضرب". فقال ضاحكاً: "أنا مناضل والله لا يحرق المناضلين!". قاطعته: "المناضل لا يرشق الجنود بالزجاج ويوقع غيره في مصيبة". صاح بانفعال: "وماذا أنا إذن؟". قلت مداعباً: "أنت عميل". جن جنونه وشرع يرشقني بكرات ثلجية وأنا أحاول تجنبها حتى تعبت وجلست فوق الثلج مستسلماً لكراته. انتهز الماكر فرصة جلوسي، فاتخذ من ظهري مرمى لكراته. استمتع باللعبة، ارتفعت نسبة مزاجه إلى درجة عنيفة، فرشقني بكرة ثلجية محشوة بحجر أصاب مؤخرة رأسي. مزق فروة رأسي. أسال دمي، جعلني أرى الواحد اثنين والاثنين أربعة ومن ثم غشاوة.

استشطت غضباً وحاولت الوقوف لأمسك به. لم أستطع موازنة نفسي، سقطت على الأرض كلوح من الخشب وأنا أتأوه وأسب عليه. يبدو أنه أشفق عليّ، فأخذ يمشي إليّ بخطوات حذرة، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. تظاهرت بالألم الشديد أصيح: "قتلتني! قتلتني!". أرعد ضحكة هستيرية، وقال محدثاً نفسه بصوت خافت: "سأحشد أطفال الحارة حتى نحمله على أكتفنا ونهتف: بالروح بالدم نفديك يا صابر". صمت قليلاً وشرع يحك رأسه: "لكنه ليس ميتاً! أرى

جسده يتحرك، سأنتظر حتى يموت". توقفت عن الحركة في محاولة لاستدراجه والإمساك به واستلقيت على ظهري. قال مخاطباً ذاته: "تكون عينا الشهيد مفتوحتين عند الموت، وأنا أرى عينيه مغلقتين، لم يمت بعد". فتحت عينيّ. صاح فرحاً: "لقد استشهد الآن، سأغمض عيناه وأحشد الأطفال لتشيع جنازته". اقترب مني محاولاً إغماض عينيّ، وما كاد يمد يده حتى أمسكت به من قبة قميصه وشددته إليّ بقوة. كزّ على أسنانه وألقى ثقله إلى الوراء يغرز أقدامه في الثلج محاولاً الإفلات دون جدوى. وفي حركة سريعة مفاجئة أرخى نفسه وركلني في إليتي ركلة موجعة وفلت من قبضة يدي.

بقيت دقيقتين أتمرغ على الثلج من شدة ضربته. ضغطت على نفسي وانطلقت وراءه أطارده من حارة إلى حارة، ومن زقاق إلى آخر حتى شعرت بشيء ساخن يمشي على ظهري. توقفت ومددت يدي إلى ظهري لأرى ما ذلك الشيء. نظرت إلى كف يدي فرأيتها حمراء. عدلت عن فكرة ملاحقته وهرولت إلى عيادة الوكالة مسرعاً. كشف الطبيب على الجرح، وقال وهو يصفر إن الجرح عميق ويحتاج إلى أربع غرز. سلَّمت رأسي له وقلبي منتفخ بالغضب على جرعوش. جرعوش اللئيم. سرحت أفكر فيه متمنياً لو أنه يقع في قبضة يدي لألقنه درساً قاسياً لن ينساه أبداً.

أنهى الطبيب قطب الجرح ولفّ رأسي بالشاش الأبيض وطلب مني أن أعود إليه في اليوم التالي؛ ليغير الشاش وينظف الجرح.

غادرت العيادة وأنا أشعر بدوخة بسيطة، ورغبة في التقيؤ. فوجئت بجرعوش يجلس قرب باب العيادة جلسة حزينة. وما أن رآني حتى أسرع إليّ

obeikandi.com

وحضنني وهو يعتذر لي عما فعل، قائلاً: "أتوسل إليك أن تسامحني، لم أقصد أن أسيل دمك". رغم أن قلبي كان يغلي غضباً وأقسمت أن أردعه إلا أن وجوده أمام العيادة في تلك الحالة وشعوره بالندم على ما فعل جعلني أشفق عليه، انطفأت نار غضبي فغفرت له طيش جنونه.

وصلنا دوار المخيم. رآني بعض الشبان – المنحلين أخلاقياً– أمشي متكئاً على جرعوش، فانفتحوا بالكلام. علَّق الأول: "يبدو أن الفتاة التي كانت برفقتك قد أتعبتك". علَّق آخر: "قل اثنتين أو ثلاث"، علَّق ثالث بسخرية: "أخشى أن حجرته مأوى للداعرات". استشطت غضباً وصحت بهم طالباً منهم التوقف عن ترويج تلك الإشاعات المغرضة. سكتوا من نظرات الناس إليهم لا من حياء ثم أسرعوا إلى جرعوش وسحبوه إلى المقهى ليجعلوا منه أضحوكة. سببتهم في نفسي ومشيت على قدمين متعبتين أفرك قطن السماء وأفكر بكلمات أولئك الحثالة، وبكيفية ردعهم.

حقيقة خفت أن يصدقهم الناس فأخسر سمعتي وهيبتي، فمجتمعنا لا يرحم، وليس هناك شيء أسوأ من الإشاعة. ألم تقل لي إنها ككرة ثلج صغيرة كلما تدحرجت أخذت معها طبقة من الثلج، حتى ينتهي بها الأمر إلى كرة كبيرة؟ بل هي أسوأ من ذلك، إنها كحريق شبّ في حقل كبير، أصله شرارة صغيرة، ولأن الشرارة لم تخمد على الفور تحولت إلى حريق مرعب يصعب إخماده.

أتدري؟ دفعني هذا التخيل إلى الرجوع إلى المقهى لردع أولئك الشبان، لعمل أي شيء يمكنني من إيقاف الكرة وإطفاء الشرارة. فكرت ثم قررت. مشيت بضع خطوات باتجاه المقهى والغضب يسيطر علي، وتوقفت فجأة. فكرت

بعقلانية، فانتصر العقل على عاطفتي الهائجة. خفت أن يحتدم الصراع بيني وبين أولئك الحثالة فتنتشر الإشاعة بشكل أسرع. قمعت ما تتوق إليه نفسي من رغبة في ضربهم. نعم ضربهم. وعدت أمشي باتجاه حجرتي أسبّ جرعوش وأتوجع من ألم رأسي ورسغي حتى وجدت نفسي أقف أمام جثمان غرفتي.

فوجئت ببابها محطماً، محطما تماماً! ضاق صدري، صحت بملء حنجرتي: "هذا ما ينقصني! هل كل هذا ضريبة الطيبة ؟!".

اعتقدت أن جرعوش قد حطَّمه، أو صبيان الحارة أثناء لعبهم. لم أعرف أيّة مقولة أطبق، العين بالعين أم الصبر. تخليت عن المجرد ولجأت للمحسوس. لملمت أشلاء الباب المتناثرة فوق الثلج، ودلفت عتبة غرفتي أحملها واليأس والحيرة تحملاني. لم أعرف ماذا أفعل بتلك الأشلاء. كومتها في زاوية الحجرة وجلست انتظر حلاً يسقطه علي الإلهام.

أرهقت مخيلتي وأنا أفكر بطريقة تمكنني من إعادة الباب إلى سابق عهده، بدت العملية صعبة ومعقدة. تناسيت الأمر، واستلقيت على الفراش، ورحت أفكر بكلمات العجوز. تلك الكلمات الحلوة في الفم، والعذبة في القلب، والخالدة في مخيلة العجوز ومخيلتي خلود الحق.

ادلهمّ الليل وأنا أقلب كلماته في ذهني، أراجعها، أرددها محاولاً أن أنسج منها أغنية يرددها الأجيال. قاطعني ذلك المخفي المحسوس بشراسة. ابتدأ يلسعني بأذياله الباردة. وقفت أفكر، ألتفت يميناً ويساراً أبحث عن حل يسعفني ويوقف هبات الهواء المثلج، حتى سقط نظري على ملاءة بالية. تناولتها وثبتها بالمسامير مكان الباب لتخفف وطأة البرد. إلا أن ذلك المحسوس بقي يتسلل إلى جسدي

عبر الثقوب المنتشرة في الملاءة. خطر على بالي فكرة تخيط الثقوب. لم تمت الفكرة في مهدها، تناولت خيطاً وإبرة وشرعت أخيط الثقوب وأغني. أغني من قهر لا من سعادة. أنهيت المهمة بنجاح، وبقي الهواء الغاضب يزمجر خارج جدران الحجرة وكأنه يعترض على منعه دخول حجرتي لمداعبة جسدي. صحت بانفعال: "القافلة تنبح والكلاب تسير! ". شعرت بوجود خطأ فيما قلت، وكأن الجملة ناقصة. سرعان ما أدركت أن الخطأ يكمن في توزيعي للكلمات. ضحكت من نفسي وعلى نفسي.

أردت أن أفعل شيئاً ما حتى أتخلص من وحدتي وكآبتي الموحشة، أي شيء عدا أن تستفرد بي الوحدة فتهلك ما تبقى من عقلي. أشعلت شمعة وجلست بقربها لتؤنسني بنورها وأدفئ جسدي، وفي لحظة استرخاء وقع بصري على جدار الحجرة، رأيت شيئاً عملاقاً له رؤوس مدببة مرتسماً عليه. شيء غريب يمتد من أسفل الجدار إلى أعلاه. اضطرب قلبي. ظننت أن الحجرة مسكونة بعفريت ما، رفعت يدي لأفرك عيني فتحرك الشيء المرتسم على الجدار بعشوائية. أدركت أن العفاريت بريئة من هواجسي، وأن ما رأيته ما هو إلا ظل يدي يعكسه لهيب الشمعة. ضحكت من نفسي ثانية، وتمنيت لو أن حجم يدي يتمدد كظلها، لأصفع وجع رأسي وأخدره لساعة واحدة. ساعة واحدة لا أكثر! وكأني أحببت وجود ظلي معي. بل أحببت وجوده.

ابتدأت أجمع أصابعي وأفرقها، لأرى أشكالاً مثيرة ترتسم على الجدار. أحببت اللعبة، أحببتها كثيراً. تارة أرى زرافة وأخرى أرى فيلاً. شعرت وكأني في مسرح مثير، أشاهد مسرحية صامتة. مسرحية أبطالها أنياب حادة ولحم طريّ.

ازداد استمتاعي فرحت أحرك أصابعي بكل الاتجاهات وأقلّد أصوات الخصوم. أصوات خشنة ومخيفة وأخرى باكية ومستجيرة. وكما هو الحال في حقيقة الأمور، ينتصر الناب، ويصبح اللحم فتاتاً كروث الحمام دون أن يحظى بمكافأة. تألمت على حالي، أدركت أن الوحدة تسبب الجنون!

أتدري يا أبي، ماذا سمعت أثناء انهماكي بمواساة نفسي الضائعة؟

سمعت الدوريات الإسرائيلية تجوب شوارع المخيم وتفرض نظام حظر التجوال، رغم أننا نخضع لحظر التجوال الإلهي بسبب تساقط الثلوج. لم أكترث كثيراً، تجاهلت ما أسمع وشغلت ذهني بالباب. أصبح إعادته إلى مكانة ضرورة ملحة، ملحة جداً، ولا أدري كيف نجحت في ترتيب حطامه بالشكل الصحيح، ربما يعمل عقلي بشكل أفضل تحت الضغط. انتزعت الملاءة ووضعت الباب في مكانه دون أن أثبته. اضطررت لفعل ذلك فقط لأمنع عربدة الجنود أو على الأقل لأعطيهم انطباعاً أن غرفتي ليست مهجورة.

ارتميت على فراشي متهالكاً وغفوت قليلاً، ويا ليتني لم أفعل.

استيقظت على صراخ جنود الاحتلال عبر مكبرات الصوت، يأمرون الذكور من سن الرابعة عشر عاما وما فوق بالتوجه إلى ساحة المخيم، ومن يخالف الأوامر سوف يعرِّض نفسه إلى العقاب الشديد.

كم كرهت ذلك العقاب الجماعي! لكن لا معنى لمشاعري في قاموس الاحتلال، ولا خيار أمام صابر إلا الصبر...

مجبر ابنك لا بطل. نهضت من سريري بنفس متثاقلة. ارتديت معطفي بسرعة وتوجهت إلى ساحة المخيم أمشي بخطوات طويلة وسريعة، أسابق الزمن وكأني ذاهب لمقابلة حبيبتي.

رأيت الناس يهرولون إلى الساحة وهم يشتمون الجنود وأساليبهم القذرة التي يستخدمونها في إذلالنا. منهم من يرتجف جسده من شدة البرد، ومنهم من يضحك بشكل هستيري، ويقول باستهزاء: "حفلة في جو رومانسي دافئ!"، ومنهم من كان يسب الزعامات العربية ويصفها بالمخصيَّة لعدم تدخلها في رفع الظلم عن شعبنا، ومنهم من يدعو الله أن ينتزع روحه ويريحه من تسلط الاحتلال وعربدته، ومنهم من كان يصف إسرائيل بالعاهرة التي لا حدود لعهرها!! ومنهم من كان يلوم إسحاق على تصرف أبنائه مع أولاد عمهم إسماعيل بتلك الوحشية، غير آبهين بصلة القرابة التي تربطنا!

ظلت كلماتهم تتطاير من أفواههم الغاضبة إلى مسامعي المسالمة حتى وصلت دوار المخيم. فوجئت بمئات البشر يجلسون مجبرين فوق الثلج. شيوخ تئن، وصبيان تصطك أسنانهم ببعضها، وشبان يتجاذبون أطراف الكلام، تارة يضحكون وأخرى يتساءلون عمّا يخبئه لهم الجيش في جعبته.

جموع كبيرة متراصة في ساحة صغيرة لا تتسع لربعهم، ينتظرون بفارغ الصبر ما سيمليه عليهم الحاكم العسكري، ودوريات كثيرة تقف أمامهم مسلطة أضواءها الساطعة نحو رؤوسهم، وجنود اتخذوا من أسطح الحوانيت والمقاهي أبراجاً لمراقبة ضيوفهم. سلَّمت هويتي للجنود وجلست كغيري لأنتظر ما يحمله الحاكم العسكري لنا في جعبته من تهديدات ومفاجآت حقيرة.

انتظرنا قرابة الساعة ونحن نشاهد الجنود يجلبون المرضى من بيوتهم ويضربونهم دون رحمة بسبب تأخرهم عن تنفيذ الأمر العسكري. الكل فينا مستهدف حتى الأموات في قبورهم.

بينما كنا ننتظر رأيت جرعوش يزحف على بطنه كالأفعى باتجاه جيب عسكري، صحت بصوت مكتوم: "ارجع أيها الغبي!". وصل الجيب ولم يصله صوتي. شرع المجنون بإفراغ الهواء من إطارات الجيب الواحد تلو الآخر دون أن ينتبه إليه الجنود. تجمد قلبي من الخوف عليه حين رأيته يفعل ذلك. خفت أن يمسكوا به ويعتقلوه أو يضربوه أو حتى يقتلوه.

رآه الناس فانفجروا بالضحك، صحت في نفسي ثانية: "اسكتوا! ضحكاتكم ستلفت انتباه الجنود ويخرب بيت جرعوش". ازدادوا ضحكاً وكأني قلت اضحكوا لتنقذوا جرعوش. ظنّ الجنود أن الناس يسخرون منهم، حمل أحدهم مكبر الصوت وراح يشتمنا ويهدد برشقنا بقنابل الغاز المسيّلة للدموع. لم يأبه الناس بتهديداته، على العكس ارتفع همسهم وضحكهم أكثر. استشاط الضابط غضباً وصاح بأعلى صوته: "ماذا يضحككم يا بقر؟". ثم شرع برفقة مجموعة من الجنود يضربون كل من يجلس في الصفوف الأولى بعشوائية.

حمدت الله أني لم أكن من محبي الصفوف الأولى، وكم كره محبو خطوط المواجهة اختيارهم في ذلك اليوم بالذات. فلا كاميرا تصورهم، ولا إمام شهد لهم بالتقوى، بل امتلأت وجوههم بالكدمات والخدوش.

obeikandl.com

في تلك الأثناء تسلل شريف إلى الضابط وهمس في أذنه، أخذ بعض الشبان يصيحون: "عد إلى مكانك أيها العميل!". حين سمع شريف صيحات الشبان تظاهر أنه نسي أن يعطي الجنود بطاقته الشخصية، فأخرجها من جيب معطفه وأعطاها للضابط...

لم يفلح في خداعنا، عرفنا أنه وشى بجرعوش. هزّ الضابط رأسه وهرع إلى جرعوش، رآه منبطحاً على بطنه تحت الجيب. ركله على مؤخرته بالهراوة، وصاح وهو يصوب بندقيته نحو رأسه: "ماذا تفعل أيها الغبي؟!". أرعد جرعوش ضحكة هستيرية، وقال: "أود أن أعرف إذا كان الجيب ذكراً أم أنثى".

سحبه الضابط من تحت المركبة العسكرية بطريقة مذلة، وصفعه على وجهه ومن ثم انقض عليه بالهراوة يضربه بقسوة وعشوائية غير آبه بصراخه. ابتدأ الناس بالصياح يحثون المختار على التدخل لإنقاذ حياة جرعوش. لم يكن أمام المختار غير الإصغاء لصيحات الشبان الغاضبين، فقام من مكانه مهتاجاً وهرع إلى الضابط مسرعاً. أخبره أن جرعوش مختل عقلياً ولا يعرف ماذا يفعل. هزّ الضابط رأسه وأخذ يحلق في وجه جرعوش المضرج بالدماء وجرعوش يرتمي على الثلج، يقلص جسده ويطوق رأسه بذراعيه ليحميه من هراوة الضابط الغاضب.

هرع الضابط إلى صندوق الجيب وتناول الرافعة ومفتاح فك الإطارات، أعطاهما لجرعوش وأمره أن يصلح ما أفسده. رمقه جرعوش بنظرة، وقال: "لا أعرف كيف أفكّ الإطارات". أشار الضابط لأحد الجنود طالباً منه مساعدته. فك الإطار الأول بمساعدة الجندي ووضع مكانه الإطار الاحتياطي وقام بتثبيته.

وقف ووضع يديه على خاصرتيه، وقال مخاطباً الجندي: "ماذا عن باقي الإطارات يا ذكي؟". صفن الجندي قليلاً ثم نادى على الضابط وسأله كيف سيتدبر أمر باقي الإطارات. تدخل جرعوش، وقال: "هذا الجندي غبي، لو فكر قليلاً لأدرك أن كل جيب فيه إطار احتياطي". صاح الضابط طالباً من الجندي استخدام الإطارات الاحتياطية لباقي المركبات. أمسك الجندي بشعر جرعوش وسحبه نحو باقي المركبات ليحمل الإطارات. كان منظره محزناً ومضحكاً في الوقت ذاته.

انتهى جرعوش من المهمة التي أوكلت إليه، فصاح مخاطباً الضابط: "يا أخ! كل شيء على ما يرام، هل أستطيع الذهاب إلى البيت؟". أسرع إليه الضابط، أمسكه من قبة قميصه ودفعه باتجاه الناس طالبا منه الجلوس وعدم التحرك من مكانه.

بعد طول انتظار ومعاناة، أقبل الحاكم العسكري بمركبة عسكرية مصفحة، حمل مكبر الصوت وخطب بنا بلهجة غاضبة: "يا أهل المخيم، أسمعكم تتساءلون عن سبب دعوتكم لهذا الاجتماع؟ وعن سبب منع التجوال؟ ببساطة لقد جلبناكم إلى الساحة لنعلمكم أن أبناءكم قاموا اليوم بإلقاء ثلاث زجاجات حارقة على حافلة إسرائيلية وأحدثوا أضرارا فادحة. كنت قد حذرتكم في الأيام الماضية من عواقب الاعتداء علينا، لكنكم لم تحاولوا منع تلك الأعمال التخريبية؛ لذلك، قررنا نحن الحاكم العسكري لمنطقة رام الله فرض العقوبة الجماعية على جميع أهل المخيم، وهذه العقوبة تنصّ على إخراجكم من بيوتكم في مثل هذا الجو البارد، وحجزكم في هذه الساحة لساعات طويلة تتلقون فيها الإهانات

والتوبيخ، إضافة إلى استمرار عقوبة منع التجوال إلى إشعار آخر، واعتقال كل المشتبه بهم. ولن نكف عن ممارسة هذه العقوبات إلا إذا توقف أبناؤكم المشاغبون عن أعمالهم التخريبية؛ الحل في أيديكم. الآن أترككم برفقة الجنود لتقضوا معهم وقتاً ممتعاً في هذا الجو المنعش، وأخيراً أحذركم من محاولة خرق منع التجوال، فلدى جنود الدفاع أوامر بإطلاق النار على كل من يحاول خرق قراراتنا".

ألقى خطابه وانصرف، وبقينا طوال الليل نتلقى الإهانات والتوبيخ من الجنود. جفّت أجسادنا من شدة البرد والصقيع اللذين اخترقا عظامنا وجمداها. من يَرَنا يظن أننا أعجاز نخل خاوية، أجساد بلا أرواح. لا يسمع منا سوى الأنين، واصطكاك الأسنان ببعضها من شدة البرد لا الخوف.

ظللنا على تلك الحالة إلى أن جاء أحد الضابط وهو يحمل في يده مجموعة من البطاقات، جلس فوق مقدمة الجيب، وقال: "كل من يسمع اسمه عليه أن يأتي إلى هنا بهدوء". همس إلي عرفات اللداوي حيث كان يجلس بجانبي: "أعتقد أنه يحمل بطاقات من يريدون اعتقالهم". ابتدأ الضابط ينادي الأسماء، وكل من يذهب إليه يقوم الجنود بتقييد يديه خلف ظهره. همست لعرفات: "أصبت!". اعتقلوا مجموعة كبيرة من الشبان المشتبه بهم، كان نضال أحدهم. حين نادى الضابط اسمه، اضطرب قلبي، وقلت في نفسي: "فعلتها يا شريف!". تألّمت حين رأيت الجنود يقيدون يديه خلف ظهره، ويغمون عينيه، ويضعونه في الجيب. حزنت على اعتقاله فلم يمّر على صحبتنا إلا يوم واحد، لكن ما باليد حيلة.

obeikandl.com

وضعوا المعتقلين في مركباتهم العسكرية، وبقينا ننتظر لحظة الإفراج عنا بفارغ الصبر. وأخيراً أقبل جندي يحمل بطاقاتنا. همست لعرفات: "هذه بطاقات المفرج عنهم". ضحك عرفات بصوت مرتفع، وكأني قلت نكته. أخذ الجندي ينادي على أسمائنا، وكل من يسمع اسمه يذهب إليه، يتناول بطاقته ويعود إلى منزله. جاء دوري. نادى اسمي، فعادت إليّ روحي. هرعت إليه مسرعاً، تناولت هويتي وحمدت الله؛ لأنني لم أعتقل أو أتعرض لضربهم. يبدو أنني قد حسدت نفسي، نجوت من الاعتقال ونلت نصيبي من التوبيخ من فرقة مشاة تضرب بلسانها. التقيت بها أثناء هرولتي إلى حجرتي. مسحوا الأرض بي بحجة أن هويتي رطبة وأحرفها غير واضحة. قلت لهم مدافعاً: "كانت سليمة، لكن الجنود أفسدوها". لم يأبهوا بما قلت، أمروني بتجديدها في أسرع وقت ممكن وإلا أجبروني على مسح مؤخرتي بها.

تابعت سيري. وما أن دلفت قدماي عتبة حجرتي حتى لمعت في ذهني فكرة زيارة العجوز والاستماع إلى حكايته، فالفرصة لا زالت سانحة، ولو أمسك بي الجنود سأقول لهم إنني كنت في الساحة وأنا ذاهب إلى منزلي، وهذا ما فعلته.

obeikandi.com

(7)

أسرعت إلى خيمة العجوز وكلي فضول لمعرفة أحداث قصته رغم الخجل من الإثقال عليه، لكن فضولي كان أقوى من كل المشاعر. ظللت أمشي حتى التقيت بناقلة جنود توقفت بجانبي، أخرج أحدهم رأسه من نافذة المركبة وسألني: "أين كنت؟!". قلت بجرأة: "في الساحة". هزّ رأسه وسأل بنبرة جافة: "أين منزلك؟". أشرت بسبابتي نحو الجبل وقلت كاذباً: "على قمة الجبل". صاح مهدداً: "اركض نحو منزلك، وإذا التقينا بك ثانية سنقتلك". قلت هامساً: "الموت يريحني من النظر إلى وجهك القبيح"، ثم قلت بصوت مسموع: "حاضر يا كابتن!". انطلقت راكضاً بأقصى سرعة نحو خيمة العجوز. دخلت الخيمة فوجدته مستغرقاً بالشخير، أدركت أنه لم يخرج إلى الساحة ربما بسبب عمره. أردت أن أوقظه من نومه، ترددت. آثرت الجلوس على حافة فراشه حتى يستيقظ.

أثناء جلوسي لمحت شيئاً مرّ من أمامي كسرعة الريح. ظننت أن التعب جعلني أهلوس وأتخيل أشياء لا وجود لها. بعد برهة سمعت صوتاً غريباً، بدا كأنه صوت فأر يقرض في أسنانه. أجفلت. غصصت بريقي متمنياً أن لا يكون فأراً، فأنا لا أطيق رؤية الفئران. صوبت بصري وأرخيت سمعي متتبعاً مصدر الصوت، لم أر شيئاً، ابتسمت وقلت: "هي الهلوسة!". ازداد الصوت أكثر وكأن

هناك عش للفئران. انسحبت بخوف أرجع بظهري إلى الوراء. نظرت إلى يميني فوجدت نفسي مقابل العجوز تماماً. رفعت الملاءة عنه بحذر شديد وتمددت بجانبه أشاركه الوسادة والملاءة. تململ العجوز في نومه، واستدار بوجهه إلى جهتي، فأصبح وجهه مقابل وجهي تماماً، ولا يفصل وجهه عن وجهي إلا مسافة عقلة أصبع. رفس معدتي بركبته بقوة بدون قصد. ضحكت بصوت خافت، وقلت محدثاً نفسي: "ركبة العجوز في بطني، والفئران من خلفي، يا لها من ورطة!". تنفس، فبدا نَفَسه كخلوف فم الصائم. أزحت وجهي قليلاً وضممت كفيّ حول فمي ونفثت نفساً وشممته، فكانت رائحة فمي أكثر سوءًا من رائحة فمه. أردت أن أبعد وجهي عن وجهه حتى لا توقظه رائحة فمي، وما كدت أفعل وإذا به يفتح عينيه فرأى وجهاً يلاصق وجهه. جفل، وفجأة صاح بأعلى صوته صيحة مجلجلة: "من أنت؟". أرعبتني تلك الصيحة، وجعلتني أقفز من الفراش مذعوراً، قائلاً بخوف: "هذا أنا!، أقسم بالله هذا أنا". نفض الملاءة عن جسده، وصاح بغضب: "لماذا تنام بجانبي؟! لقد أرعبتني". لم أجب. كرر سؤاله ثانية: "تكلم، لماذا تنام بجانبي؟!".

اقتربت منه وأنا أقفز قفزات متواصلة متخوفاً من ذلك الفأر. قعد القرفصاء في فراشه ورمقني بنظرة مستغربًا تصرفاتي، وسأل: "ما بك تتقافز وكأنك تخشى أن تلامس قدماك الأرض". قلت بتوتر: "ألا تسمع الخشخشة؟". ابتسم، وقال ساخراً: "ما هي إلا أصوات الفئران تقرض حذائي!". قالها وكأن وجود الفأر في خيمته شيء طبيعي. صحت مستغربا: "وتقولها ببرودة أعصاب؟". ابتسم وقال ساخراً: "لم أقل أفعى أو عقرب!". قلت مضطرباً: "العقرب لا ترعبني مثل

الفأر". تجاهلني وقام يمشي إلى زاوية الخيمة. اقترب من حذائه فتفرقت الفئران شذر مذر في أنحاء الخيمة.

ابتعدت عن مكاني مفزوعاً أتقافز وأنظر حولي، ألتمس النجاة. رأيت طاولة صغيرة، ركضت إليها واعتليتها. رآني أعتلي الطاولة، ضحك ضحكة مجلجلة وجلس على الفراش وهو يقلّب كفيه. لم أر العجوز يضحك بهذا الشكل من قبل، علّقت مستغرباً: "هذه أول مرة أراك تضحك بهذا الشكل!". لم يجبني، ظل مستغرقاً في الضحك. شبع ضحكاً، ونهض ثانية، مشى بضع خطوات نحو حذائه، تناوله عن الأرض واقترب مني وهو ينظر للحذاء ويقلبه، صحت بعفوية: "أرجوك انفضه خارج الخيمة، ربما في داخله فأر". رمقني بنظرة وألقى الحذاء خارج الخيمة، وقال: "لقد أكلوه تماماً". ابتسمت، وقلت: "سأجلب لك غيره". شكرني وقال إن عنده حذاء آخر، يخبئه تحت وسادته. ابتسمت، وقلت في نفسي: "ربما كانت رائحة الحذاء وليس رائحة فمه". عاد وجلس ثانية على فراشه، وطلب مني النزول عن الطاولة والجلوس بجانبه، ففعلت بحذر شديد.

ألقى نظرة على وجهي فرآه شاحباً مصفراً، سأل بدهشة: "كأنك مصاب باليرقان!". قلت موضحاً: "بل جسدي متجمد". ابتسم وقال: "من الفئران؟"... قلت: "لم تغمض لي عين ليلة أمس". سأل مستغرباً: "لماذا؟ هل في بيتك فئران؟"... قلت ساخراً من نفسي: "كنت مدعوا إلى حفلة أقامها أولاد عمي". استغرب إجابتي وعلّق: "قلت لي إنه لا أهل لك!". أخبرته أني قصدت الجيش في كلامي. لف ظهره بالملاءة، وسأل بمودة: "هل ضربوك؟". قلت متباهياً وأنا أطبطب على صدري: "لا! هزؤوني فقط!". ابتسم وهو يهزّ رأسه،

وسأل بدهشة: "لماذا أرى رأسك مضمداً؟". أخبرته أن جرعوش أصابني بحجر. أطلق ضحكة مجلجلة، وقال: "حتى جرعوش يستخف بك!". قلت مدافعاً: "لم يقصد، اعتذر لي". ازداد ضحكاً وكأنه يحاول استفزازي أو أنه ابتلع مخدراً ما. ظننت أنه يسخر مني. قمت منفعلاً لأغادر خيمته. قام من فراشه وتأبط ذراعي. اعتذر لي وأجلسني بجانبه قائلاً إنه يمازحني. ثم ضغط ذراعي وطلب مني أن أحدثه عن ليلتي من ألفها إلى يائها.

حدَّثته عما جرى معنا بالتفاصيل المملة. لم يرق له ما سمع، تألم على ما أصابني، شتم الاحتلال وشتم اللحظة التي استعبدونا بها.

أخبرته عن جرعوش فانفجر بالضحك قائلاً: "شر البلية ما يضحك!". تحسس ثيابي فرآها مبتلة، قال بقلق: "ثيابك مبتلة، لماذا لم تغيرها؟". قلت غير مكترث: "ستجف وحدها". مسح وجهه بكف يده، وقال: "ستصاب بالبرد". قلت بفتور: "أصبت". هزّ رأسه وطلب مني أن أشعل ناراً، وأجففها دون عناد أو جدال. غادرت الخيمة وأنا أتفحص الأرض بعيون حذرة، جمعت بعض الأغصان المبتلة وعدت إليه مبتسماً. سألني عن سبب ابتسامتي العريضة، فقلت: "لقد رحلوا!". قطب حاجبيه مستغرباً: "من هم؟!". قلت مبتسماً: "الفئران". تنهد وطلب مني إشعال النار. استهلكت علبة كبريت كاملة حتى نجحت في إشعالها. كان يراقبني ويضحك مني، وينعتني بعود الريحان الأخضر، يقولها من باب الملاطفة والتودد، لا من باب السخرية بقدراتي.

لفّ سيجارة وأشعلها ثم سأل بصوت نحيف: "ألا تحتسي معي فنجاناً من القهوة؟".قلت: "لا، وأشكرك". سأل مستفسراً: "ألا تحب القهوة؟" قلت:

obeikandi.com

"أحب أن أحتسى أحداث قصتك". نهض عن فراشه تناول الغلاية من تحت الطاولة، وقال: "لكنني اعتدت احتساء فنجان من القهوة كل صباح!". أدركت أنه أراد أن أصنع له فنجاناً من القهوة بطريقة مهذبة، قلت بأدب: "كم أنا غبي! سوف أصنعه لك حالاً". ابتسم ابتسامة دافئة، وبصوته المختنق: "يا لك من شاب عجول وغريب الأطوار!". قلت مناوراً: "من؟".ابتسم وطلب مني أن أصنع له فنجاناً من القهوة حتى تستيقظ جمجمته.

قمت بعجلة وصنعت له فنجاناً من القهوة، وما أن ارتشف أول رشفة حتى قام ببصقها، وبسخرية أبوية: "هل تشرب القهوة مالحة؟". قلت بغباء: "مالحة؟ ربما كان السكر مغشوشاً". أطلق ضحكة، وقال: "أو ربما كان ملحاً صافياً". شعرت بالإحراج الشديد. أدركت أنني وضعت له الملح بدل السكر. اعتذرت له عما فعلت، وشرحت له سبب توتري وخطئي، فقال وهو يضحك: "لا عليك يا ولدي، هذا يحدث مع أفضل العائلات". قلت مبرراً: "اعتقدت الملح سكراً". هزّ رأسه، وقال: "الملح والسكر توأمان في المنظر، ومختلفان في المذاق!". علقت مبتسماً: "صدقت! هل أصنع لك فنجاناً غيره؟".تناول فنجان القهوة، وقال: "لا! سأحتسي قهوة اليوم بالملح، فالملح يشد عضلات المعدة". قلت مراوغاً: "أسمع أن المعتقلين عندما يضربون عن الطعام يشربون الماء المالح، هل يفعلون ذلك حتى لا يشعروا بالجوع؟". قال موضحاً: "حتى لا تتعفن أمعاؤهم". هززت رأسي وطلبت منه أن يكمل لي قصته. أمسك بلحيته يشدّها بعصبية وتوتر، اتكأ على وسادته، فانزلقت الوسادة. رأيت تحتها مفتاحاً كبير الحجم

obeikandl.com

وقديم الصنع يأكله الصدأ، استغربت أنه يحتفظ بمفتاح، فلا يوجد في خيمته شيء يستدعي وجوده.

تناولت المفتاح، وسألته وانا أتفحصه لماذا يستخدمه. تنهد تنهيدة حزينة، وقال: "كنا نستخدمه ذات مرة". لم أفهم ماذا قصد. سألته مستغرباً: وماذا تقصد؟ فأجاب وقد بدا غاضباً: "هذا مفتاح منزل والدي، هل فهمت؟". سألته بفضول أو ربما بغباء: لماذا تحتفظ به حتى الآن؟ رمقني بنظرة لم أفهمها وأجاب باستياء: "لهذا المفتاح قفل، ولذاك القفل هذا المفتاح! من يعلم متى سيلتقي هذا المفتاح بذاك القفل". قلت بعفوية وسذاجة: "أجزم أنهم كسروا القفل". انتزع المفتاح من يدي، وقال ساخراً: "وأنا أجزم أن أمامك الكثير لتتعلمه، أسأل الله أن نستخدمه ثانية في المكان الذي أُعدّ له".

شعرت أنه تضايق من أسئلتي. اعتذرت له، فقال بنبرة جافة: "لا تخطئ كثيراً حتى لا تعتذر كثيراً". أدركت أنني أخطأت فعلاً، لم أعرف كيف أتصرف. آثرت السكوت، السكوت التام. أدرك أنه كان قاسياً معي، فقال بمودة: "لا عليك! الكل يخطئ. الأموات هم فقط من لا يخطئون". قاطعته، وقلت مضيفاً: "والأنبياء". ابتسم، وقال: "والأنبياء".

تشجعت وطلبت منه أن يكمل حكايته لي. ابتسم وسألني ممازحاً: "وكم ستدفع ثمن إكمال حكايتي؟".قلت متحمساً: "عمري!". طبطب على كتفي، وقال متفلسفاً: "البحر الهائج لا يخيف أحداً". لم أعرف ماذا قصد، رغم ذلك قلت إن كلامه صحيح.

obeikandi.com

وضع المفتاح تحت الوسادة. اتكأ عليها، وقال: "أخبرتك بقصة ذهابي وفاطمة إلى المنزل. أمضينا ما يقارب الساعة في منزلنا- ويا ليتني أمضيت وقتا أطول- ملأنا سلة القش الكبيرة بما توفر في مطبخنا من طعام وخبز. حملت فاطمة السلة على رأسها، وأنا حملت الفراش والأغطية على ظهري وعدنا إلى والدي بأخبار سمعتها من المارة. أخبار ظننت أنها ستسرهم. سمعنا أن قوات الحرس الوطني واقفة للأعداء بالمرصاد، تقاومهم بكل قوة. فرح والدي بما سمع وتمنى أن يواصل المقاتلون قتالهم حتى يهزموا المحتلين ويردوهم إلى نحورهم خاسئين، وأن يقضوا على شرهم قبل أن يكبر ويصعب السيطرة عليه.

لم تدم فرحته طويلاً. بل ماتت في مهدها. تناهى إلى مسامعنا أن القوة الصهيونية أجبرت قسماً كبيراً من المقاتلين على الاستسلام. انتفخت أوداج والدي من الغضب وصاح مبرراً: "إنما يقيس القوي قوته إلى أمثاله من الأقوياء، أما أن يقيسها مع الأضعف منه قوة وسلاحاً فهذا هو الجبن عينه". معه حق، لم يكن يملك ثوّارنا سوى بنادق قليلة وقديمة الصنع، لا يمكنها أن تضاهي سلاح العدو المتطور.

بضعة أيام فقط من المقاومة العقيمة كانت كافية لسقوط مدينة اللد في أيدي المحتلين. سقطت اللد فابتدأت قواتنا بالهرب. حاصر الذعر قلوبنا من كل جانب قبل أن يحاصرنا الاحتلال. صار الهاربون يتناقلون الإشاعات العديدة، منهم من قال إن الصهاينة يقتلون الصغير قبل الكبير، ومنهم من قال إنهم أبادوا القرى المجاورة، مثل دير ياسين، ومنهم من قال إن جنود الاحتلال يغتصبون النساء، ومنهم من نصحنا رفع رايات بيضاء فوق أسطح منازلنا حتى نعبِّر للمحتلين عن

استسلامنا، ومنهم من نصحنا بالرحيل قبل أن يصل الزحف إلينا. لكن لم يحدث شيء في أرضنا من هذا القبيل، على الأقل في الأيام الأولى من احتلال مدينتنا. بعدها اقترب الزحف الغاشم إلى أرضنا، حدث اشتباك عنيف بين أصحاب الأراضي المجاورة لأرضنا وبين جنود الاحتلال، أسفرت عن خسارة فادحة تكبدتها القلة القليلة المقاومة. قتل عدد لا بأس به من الفلاحين، وجرح الكثير.

ذات ليلة باغتتنا عصابة من الجيش ونحن جالسون فوق تراب أرضنا. أشهروا أسلحتهم العمياء في وجوهنا، قائلين لنا بلهجتهم الكريهة: "هيا اتركوا أرضنا وارحلوا إلى أريحا، لقد اشترينا أرضكم بقرش ونصف!". نظرت إلى والدي فرأيت وجهه يتصبب عرقاً، وجسده يرتعش من العصبية والاستفزاز، صرخ بهم قائلاً: "هذه أرضي وأرض أجدادي، لن أتركها مهما قلتم أو فعلتم". تقدَّم أحدهم إليه وركله في معدته ركلة قوية، وصاح في وجهه وهو يعصر عنقه بين ذراعيه: "غادر الأرض الآن، قبل أن أفجر رأسك برصاصي!". لم يستطع والدي أن يرى عرضه يسلب منه بهذه البساطة، أو أن يكون مرهوناً بكلمة تلفظها جندي حاقد. تملص من ذراعيّ الجندي وانحنى على الأرض. التقط خشبة مرصعة ببقايا خلطة إسمنتية وبعض المسامير النافرة، وانقضَّ على الضابط بشراسة وما أن اقترب منه حتى أوشكت رصاصة أحدهم أن تنال رأسه. قبل أن تطلق الرصاصة الثانية كان والدي قد تمكن من ضرب الضابط بالخشبة ضربة قوية جداً، نهشت مساميرها النافرة مقدمة رأس الضابط فأسقطه أرضاً. ضربه وشعر بشيء ساخن يجري على جسده، أصبحت ساقاه أضعف من أن تحمله فسقط على الأرض بجانب الضابط بجسد مضرج بالدماء بعد أن أطلق كل

جندي على جسده رصاصة. حمل حفنة من تراب أرضه وقبّلها ثم نثرها على رأسه، وقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "لا تفرطوا بأرضكم". رمقه الضابط بنظرة متجهمة، وقال وهو يحتضر: "هذه أرضي". قال أبي: "بل أرض أجدادي". قال الضابط بصوت يرتجف: "بل أجدادي!"، وحكى عن جدته وشعر ببرودة الأرض تفتت عظامه. كان أبي يحس بدفء لا مثيل له. قال الضابط: "الأرض باردة". ضحك أبي ضحكة طويلة، طويلة جداً وقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "بل دافئة!". شهق ثم تابع: "هناك سر كتمته يخص رقية...". أراد أن يقول لنا شيئاً يخص رقية بنت أبي السعود الزجّال. فات الأوان، وافته المنية قبل أن يفصح عن السر ويفهمنا ماذا يريد. وما أن همدت حركة كل منهما حتى سحبته الأرض إليها، شدته بعمق. وبقي الضابط معلقاً على طرف بندقيته الباردة.

استشهد أبي ليضيف رقماً آخر في سجل شهداء النكبة. فقدت أمي أعصابها. لم تستطع الكلام، أو الوقوف على قدميها، وفاطمة أخذت تصرخ منادية عليه، متوسلة إليه أن يعود إلى الحياة. لكن لا حياة لمن تنادي. لم أحتمل المشهد الذي رأيت فيه والدي ذبيحاً، دمه يتدفق من كل شبر في جسده، من فمه ورأسه وصدره. أردت أن أهاجم الجنود بصدر عار، إلا أن فاطمة أمسكت بي في اللحظة الأخيرة، هزت جسدي بقوة طالبة مني التحلي بالصبر.

وقفتُ منتصب القامة، مرفوع الهامة، قائلاً لمن قتل أبي وسلب أرضي، إنه سوف يرى حتفه قريباً، وإن ظلمه سيذبح فوق تراب الأرض التي اغتصبها بقوة السلاح. سمع الجنود كلماتي، فقاموا بتأديبي. انقضوا علي يكيلون لي اللكمات

والركلات الموجعة حتى وقعت أرضاً. ركلاتهم زرعت في قلبي حقداً لن يزول ما حييت.

ارتمت فاطمة فوقي تصرخ بأعلى صوتها: "قطع الله أيديكم وأرجلكم يا قتلة". هددونا بالقتل إذا لم نغادر أرضنا على الفور، صممنا أن ندفن جثة والدي أولاً، ومن ثم نرحل. بعد إلحاح منا وافقوا.

دفنا جثمانه الطاهر في رحم الأرض التي أحبها وعشقها، ثم طُردنا من أرضنا ولم يسمح لنا بأخذ شيء من ملبس، أو مأكل، أو نقود. طُرِدنا جياعاً، فقراء، شبه عراة.

غادرنا أرضنا مجبرين، منكسرين. نسير مسافات طويلة تحت لهيب شمس حارقة، لا نعرف أي معنى للمسافات التي نقطعها. كل ما نعرفه أننا أصبحنا مهاجرين بلا وطن. أننا فقدنا كل شيء بلمح البصر، كل شيء، كل شيء.

مشينا مسافة فتوقفت أمي عن السير. لم تستطع أن تسير أكثر، تورمت قدماها، وتعب قلبها. كانت تلهث غير قادرة على لفظ أنفاسها. اضطررنا لأخذ استراحة قصيرة حتى أدركتنا الليلة الأولى. كنا عطشى نتمنى قطرة من الماء تبلل حناجرنا الجافة، أو قطعة خبز تسكت عويل أمعائنا. في الصباح الباكر قررنا متابعة سيرنا، إذ لم يكن أمامنا أي خيار. مشينا حتى وقعت أمي مرة ثانية. أصابني الهلع، شعرت أنني سأفقدها، نعم سأفقدها. ضربت رأسي بقبضة يدي حتى أشتت ذلك الشعور، وخزتني فاطمة بإصبعها تدعوني إلى الصمود في وجه محنتنا. تظاهرت بالقوة، بالإرادة الصلبة. حملت أمي على كتفي فبدت خفيفة جداً، كأني أحمل ريشة. تابعنا السير إلى أن وصلنا ينبوع ماء، التففنا حوله فرحين،

شربنا حتى ارتوينا. ذهب الظمأ، لكنّ إخطبوط الجوع بقي يدق أمعاءنا الخاوية ويعصرها بأذياله، نظرنا حولنا فلم نر سوى أوراق الأشجار، لم نتردد في أكلها.

مر اليوم الثاني والثالث ونحن لا زلنا نمشي بين الجبال والوديان غير مكترثين بالتعب أو بنوعية الورق الذي نحشو به أمعاءنا لنسكت جوعنا. وقعت أمي مرة ثالثة وأخيرة، وقعت لتعلن استسلامها للموت، جاءتها المنية على حين غرة، ماتت من القهر والجوع والتعب. موتها هدم أعمدة عزيمتي، حرق قلبي وقلب فاطمة، جعلنا نصرخ في قلب الجبال نطلب معجزة من الله أن يعيدها إلينا. فقدنا أحب الناس إلى قلوبنا في بحر أسبوع.

آه يا بني! ما أصعب أن يفقد المرء والديه بتلك السرعة! شرعنا نحفر الأرض بأظافرنا وأغصان الشجر الجافة حتى تمكنا من حفر قبر يضم جثمانها. تيممت وصليت عليها صلاة الجنازة، ثم خلعت معطفي وكفّنت جثمانها. دفنتها في مكان لا أعرفه. كل ما أعرفه أنني دفنتها تحت شجرة خروب سامقة. دفنتها وهممت بالسير إلا أن فاطمة أصابها الجنون وأبت أن تفارق قبر أمها. جلست فوق قبرها تنوح وتمزق ثيابها وتنثر التراب على رأسها. تبكي بدموع مؤلمة، تقول كلمات موجعة، تتوسل لأمها بأن تعود. بقيت يومين على هذه الحالة البائسة، إلى أن أقبل آلاف المشردين من مدن وقرى عديدة... التحمنا بهم وأكملنا سيرنا. التزمت فاطمة الصمت لتخفي ألماً عميقاً يحتبس بين أضلعها، كنت خائفاً من أن أفقدها هي الأخرى، لذا كنت أسالها كل لحظة عن حالها، فتجيب أنها بخير وتستطيع السير أكثر...".

آه يا أبي!

obeikandi.com

فجأة غرقت الخيمة بالسكون التام. اغرورقت عينا العجوز بالدموع، فبدا لي كأنه يغرق في البكاء، وشعرت أنه لم يعد قادرا بالاستمرار في الحديث. لم أدر ماذا أفعل. ربتُّ على كتفه، نفض يدي بقوة، ثم ثاب إليه شيء من هدوء فصرخ بصوت أشبه بصوت الرعد "آه يا رب!". قالها وأخذته غشية كفّت لسانه عن النطق لدقائق عديدة حتى ظننت أنه مضى أو كاد. ثم رُدّ إليه شيء من حياة، مسح عيناه بطرف كوفيته البيضاء كقلبه وتابع حديثه:

يا بني لو كل نساء العالم أنجبن في اليوم مليون مرة فلن ينجبن مثل فاطمة. فاطمة السمراء الهيفاء، ناعسة الطرف، رقيقة الخصر، رشيقة الخطى، الكحلاء، النجلاء؛ إن أقبلت سحرت، وإن أدبرت فتنت، تأسر القلوب بأخلاقها، وتأخذ الألباب. لأجلي وحدي كانت تبتسم، لقد عاشت آمالنا وآلامنا، وغدت لي كل شيء في حياتي، وأمست سلوتي وعزائي، وأهلي ورجائي.

توقف العجوز عن الكلام مرة أخرى. ضم رأسه بين كفيه ثم تابع كلامه وفي صوته بحة بكاء:

لكنها مضت تغوص في بحر الألم والمآسي تبحث عن حياة لم تجدها. هي فاطمة التي تصغرني سناً وتكبرني عقلاً وطيبة، ومهما قلت لك عن خلقها وأخلاقها سأظل أشعر دوماً بالعجز أمام عظتها. آه يا فاطمة!

فرك العجوز وجهه بخشونة وتنهد تنهيدة عميقة وتابع:

قطعنا مسافات طويلة ووعرة، نمشي بين آلاف المشردين بأمعاء خاوية وحناجر جافة. نمشي بتثاقل ونجر أجسادنا جراً، تارة اتكئ على فاطمة وتارة تتكئ علي.

لقي المئات حتفهم على الطريق نتيجة الجفاف والظمأ. اضطررنا لعمل المستحيل من أجل النجاة؛ أكلنا الجيف المتعفنة وشربنا بولنا... إلى أن وصلنا مدينة رام الله. فوجئنا بآلاف اللاجئين- الذين سبقونا- يقبعون تحت ظل خيام ذليلة، يبكون متحسرين على ما فقدوه. تراهم فتظن أنهم موتى خرجوا من قبورهم استعداداً ليوم الحساب. وجوههم شاحبة، أجسادهم هزيلة، أطفالهم تتلوى من الجوع، وشيوخهم يرفعون أيديهم وهم يحملون مفاتيح بيوتهم، يتضرعون إلى الله ويأملون منه أن يعيدهم إلى ديارهم المغتصبة.

بين ليلة وضحاها تحوَّل هؤلاء الفلاحون إلى أشباه بشر، أصبحوا أذلاء يستجدون الطعام والشراب بعد أن كانوا أعزة في ديارهم. تناسيت أحزاني لدى رؤيتهم، شعرت أن مأساتي ومأساة شقيقتي لا تساوي شيئاً أمام مأساتهم، يكفيهم أطفالهم الجوعى، وشيوخهم المرضى، ونساؤهم الحوامل.

أمضينا الأيام الثلاثة الأولى مستلقين تحت ظلال الأشجار، إلى أن حصلنا على خيمة تؤوينا، وتستر عوراتنا. أقمنا مع أولئك المشردين قرابة ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر سوداء، صفراء، جرداء، أمضيناها في بحر الألم الدامي نبحث عن أمل يعيد لنا ما فقدناه. ثلاثة أشهر نتخبط بين لظى العودة ولظى المستحيل. نحلم عبثاً بالرجوع. أصبحنا عالة نعيش على خدمات وكالة الغوث. ننتظر صرة الثياب المستعملة، ومئونة شهرنا من طحين وسكر وزيت وحليب مجفف وبعض علب السردين، ونتحمل نظرات المواطنين القاسية التي تحتقرنا وتتهمنا بالهروب من أرضنا.

كان الوضع مأساوياً، مذلاً، مهيناً يخلو من أية خصوصية شخصية سواء للرجل أو للمرأة. إذا غازل رجل زوجته عرف الجميع، وإذا اخرج أحدهم غازاً سمعه الجميع. بقينا على هذا الحال إلى أن سمعنا أحد المهاجرين يقول إن وضع المهاجرين في غزة أفضل من الوضع الذي نرزح تحت ظلامه. لم يكن أمامنا سوى التشبث بقشة الغريق، الرحيل إلى غزة من أجل وضع أفضل يعيد لنا إنسانيتنا على الأقل.

كانت هناك عربة تنقل المهاجرين إلى غزة مقابل ليرة ونصف فلسطينية، لحسن الحظ كانت فاطمة تملك خاتماً ذهبياً تساوي قيمة المبلغ المطلوب، قايضته مقابل نقلنا. رحلنا إلى غزة وأقمنا في مخيم النصيرات. حصلنا على غرفة ومطبخ. لم نكن نطمع بأكثر من ذلك. الحجرة تكفينا وتستر عوراتنا وتمنحنا بعض الخصوصية.

آه يا بني!، لقد ذقنا الأمرّين.

بعد أيام قليلة من سكننا في شقتنا الجديدة، أرادت فاطمة زيارة جيراننا للتعرف إليهم فشجعتها على فعل ذلك. تعرَّفت إلى أم عاصم، امرأة أرملة في الخمسين من عمرها، متدينة وودودة. أحبتها فاطمة كثيراً، فأصبحت تربطهما علاقة اجتماعية وطيدة. ذات ليلة أقبلت أم عاصم برفقة ابنها عاصم لزيارتنا، وطلبت يد فاطمة لابنها. قلت لها إن فاطمة هي صاحبة القرار الأول والأخير. ابتسمت أم عاصم، وسألت فاطمة عن رأيها بمودة: "هل تقبلين بعاصم زوجاً لك؟". طفح وجه فاطمة بالحمرة وهرعت راكضة إلى المطبخ. علَّقت أم عاصم بتفاؤل وثقة: "السكوت علامة الرضا".

لحقت بفاطمة إلى المطبخ وسألتها إن كانت ترغب بالزواج منه. لم تجب. قلت محاولاً استفزازها على سماع رأيها: "إذن سأقول لهما إنك غير موافقة". قلتها وهممت بمغادرة المكان منتظراً ردة فعلها. تنحنحت. توقفت واستدرت نحوها، وسألتها ثانية: "هل تريدين الزواج من عاصم؟". هزت رأسها بالموافقة. عدت إليهما وقلت إنها موافقة وطلبت منهما أن يمهلاني بعض الوقت للسؤال عن العريس. قالت أم عاصم واثقة: "سل عنه من تشاء".

سألت عنه جيرانه قبل النكبة، وصفوه بالشجاع، وحسن الأخلاق. لم يكن أمامي سوى الموافقة عليه، واحترام رأيها. تغير حال فاطمة، عادت إليها الحياة والابتسامة. بعد فترة وجيزة تزوجا وقرر زوجها الهجرة للعيش في مصر. فوجئت بقراره، وقلت لعاصم إنه لم يخبرني بمسألة الهجرة من قبل. قال مبرراً: "لم أكن أفكر بالهجرة من قبل". سألت فاطمة عن رأيها، فقالت إنها ترغب بمرافقة زوجها أينما يذهب. اضطررت للموافقة ويا ليتني منعتهما. هاجرا إلى مصر بوساطة الباخرة. بعد ساعات تناهى إلى مسامعي أن الباخرة غرقت ومات من فيها. ذهبا على أقدامهما وعادا إليّ محملين على ظهورهما"...

ثقل لسان العجوز عن الكلام. أجهش بالبكاء. لم يستطع كظم أحزانه أكثر من ذلك. كنت أبكي معه بصمت. لم أدر كيف أواسيه أو كيف أخفف عنه وطأة الحزن الذي اكتسح قلبه. نظر إليّ، وقال بصوت حزين تقشعر منه الأبدان: "فقدتها. فقدتها هي الأخرى! فقدت وحيدتي، فقدت سلوتي وعزائي، فقدتها وأنا بأمس الحاجة إليها". قلت محاولاً مواساته: "المؤمنون أشد بلوة! اصبر

واحتسب"، صمت قليلاً ثم قال: "اللهم اجعلني من الصابرين!". قلت متألماً: "آسف أيها العجوز الطيب، يبدو أنني قلبت جروحك كثيراً".

نهض عن فراشه، يجرجر خطاه بتثاقل، يمشي وكأنه يكنس الأرض بثوبه إلى زير الماء. انتزع كأساً معلقاً على مسمار في وسط عامود الخيمة. غط الكأس في الزير، وانتشل قليلاً من الماء. شرب رشفه. حمد الله ثم رمقني بنظرة عميقة، وقال: "لا تأسف يا ولدي. هكذا هي الدنيا مثل الحية ناعم ملمسها، قاتل سمها". خطا بضع خطوات نحو صندوق خشبي قديم، فتحه وأخرج منه صرة واقترب مني، فتح الصرة وأخرج منها ثياباً نسائية وقال: "هذه ثيابها! هي كل ما تبقى لي من رائحتها". لم يستطع أن يتمالك نفسه أو أن يكظم حزنه. حمل ثياب شقيقته وعاد إلى الصندوق بنفس حزينة، عاجزة، نفس لم تعد تعرف بصمات دقائقها، ولا سرائر خطاها. أعاد الصرة إلى الصندوق وعاد وجلس على فراشه. سيطرت الكآبة والتعاسة على تفكيره، أصبحت عيناه كشقاق ينبجس منه سيل من الدموع. وفي محاولة غبية مني لتغيير مجرى الكلام، سألته: "ماذا فعلت بعد أن أصبحت وحيداً؟".

تنهد تنهيدة عميقة، وقال: "يا بني، أنا تعب جداً، تفضل بعد غد لأكمل لك قصتي". سألته مستغرباً: "بعد غد؟ لماذا بعد غد؟!". أجاب بلسان متعب: "أريد الذهاب لزيارة ابنتي فاطمة". سألت مندهشاً: "ابنتك؟ هل لديك ابنة تدعى فاطمة؟". هز رأسه، وقال: "نعم، تعيش في غزة". طلبت منه أن يحدثني عنها، أشاح بوجهه عني، وقال: "عد إلى منزلك، أرجوك!". طردني العجوز بأسلوب مهذب. لم ألمه على تصرفه، يكفيه الحالة السيئة التي انتابته أثناء حديثه...

آه يا أبي! تختبئ حكايات مريرة خلف وجه ذلك العجوز الهرم، حكايات تعجز الجبال عن حملها من شدة قسوتها ومرارتها. حديثه عن ماضيه جعلني أدرك حقيقة واحدة: أن الحرية والعبودية، الفقر والغنى، الضعف والقوة، السعادة والحزن أشياء فانية لا تدوم، أما ذكريات الأحبة وتراب فلسطين، فهي خالدة لا تفنى مهما تقدَّم الزمان وتغير المكان، وهلكت الأجيال بعد الأجيال.

obeikandl.com

(8)

غادرت خيمة العجوز بمخزون من المشاعر الغامضة والمتضاربة. مشاعر اختلطت بين الحزن على ما أصابه والفخر بصبره على المحن. مشيت بضع خطوات، سمعت وابلاً من الرصاص. كدت أنسى أن المخيم يرزح تحت نظام حظر التجوال، لولا تلك الطلقات. للوهلة الأولى خفت أن أقع في قبضة الجنود فيضربوني أو يعتقلوني أو يقتلوني. سمعت صوتاً يخرج من داخلي يقول لي: "وماذا لو اعتقلوك أو ضربوك أو حتى قتلوك، ما الجديد؟". أما الضرب فقد اعتدت عليه. أما الاعتقال فأنت تعيش في سجن كبير، لن يختلف الأمر لو وضعوك في سجن أصغر. أما القتل فهو رحمة لك. فكَّرت وتخيَّلت كل الاحتمالات. انتصر الخوف في البداية، ولا أنكر أن فكرة العودة إلى خيمة العجوز قد راودتني، لولا شعوري بالخجل.

تذكرت قول الله -عزّ وجل-: "قل لن يصبنا إلا ما كتب الله لنا". تشجعت وانتصرت على الخوف. تابعت سيري أتسلل بخفة وحذر بين الأزقة، متمنياً أن أصل حجرتي دون متاعب.

حرب أعصاب مع توكل استمرت ربع ساعة، حتى تمكنت من وصول حجرتي بسلام. دخلت الحجرة وذهني مشغول بحكاية العجوز. كأن العجوز يحاول أن يعلمني درساً في الصبر، مع أنني صابر على كل شيء إلا معرفة حكايته.

obeikandi.com

لا أدري لماذا أنا دائماً في عجلة من أمري، مع أن العجوز قد أخبرني بأني لن أستطيع معه صبراً. ادعيت الصبر والرجولة حين قال إنه لم يقصد أن يردني وإنما يريد أن لا يفجر ثورتي، قلت إن ثورتي هامدة. هراء! أنا أعجز عن تزويد نفسي بصبر يومين، يومين فقط!

أنا لم أجنّ يا أبي بل جميل أن يحاكي المرء ذاته أحياناً.

جلست دون أن أعرف ماذا أفعل أو كيف سأصبر حتى بعد غد. تناولت كتاباً لأقرأ فيه، لكن سرعان ما قذفته في سلة القمامة، فما هي فائدة العلم إذا كان المرء لا يستطع أن يجني ثماره؟ ارتميت على فراشي ككيس من القمامة، وجدت فراشي مبتلاً ومثلجاً. نهضت عنه مفزوعاً أشد شعري كأرملة فقدت زوجها وهي في ريعان شبابها.

شعرت بالبرد الشديد، مشيت إلى زاوية الحجرة حتى أجلب بعض الأخشاب لأشعل النار. أشعلت عوداً من الكبريت فوجدت نصف أرض الحجرة تغصّ بالمياه وكأنها بحيرة لا ينقصها إلا الأسماك. عضضت على شفتي، وصرخت كأحمق لا يعرف ماذا أصابه، أسب وألعن نفسي، وقلة حيلتي؛ أيّة حياة هذه؟ النافذة لم تعد نافذة، بل أصبحت مروحة كهربائية تلسعني بهوائها المثلج. الباب فقد اسمه، أصبح أرجوحة للأطفال. لم تبق سوى الجدران تحتفظ بعذريتها مع أن الرطوبة التي تحتلها تجلب لي القشعريرة. ومع ذلك أعيش في وضع أفضل بكثير من غيري؛ العجوز مثلاً يعيش في خيمة تهاجمها الأمطار من كل جانب، لكنه صابر على ما هو عليه.

صمّمت، قررت عدم المبالغة في معاناتي.

فكرت بإصلاح وضع حجرتي، لكن الوقت لا يسمح، فالضجة التي سأحدثها ستدعو الجنود لزيارتي بلا شك، وأنا في غنى عن زيارتهم.

ومع ذلك نفضت غبار الخوف والكسل عن جسدي وحاولت إصلاح الباب حتى تمكنت من إعادة الاسم له، على الأقل أصبح يقفل ولا يفتح إلا بدفعة قوية. تدبرت أمر النافذة بتثبيت قطعة من النايلون حول إطارها حتى تقي جسدي من هوائها المثلج. وما هي إلا دقائق وإذا بي أسمع مكبرات الصوت الإسرائيلية تقول: "يرفع منع التجول لمدة ساعة فقط، يمكنكم فيها شراء حاجاتكم". سررت بهذا الخبر، خرجت لشراء بعض الطعام، والشموع وما يلزمني.

دخلت السوق فرأيت الناس منقضة على الحوانيت بكثافة، يتزاحمون ويتدافعون بخشونة، يشترون البيض والطحين والمعلبات، كأنهم كانوا يعيشون في مجاعة لسنوات طويلة. شعرت أن البضائع قد نفدت من الحوانيت. كان منظرهم مثيراَ للغاية، أفواج خارجة ركضاً للتسوق وأفواج راجعة لا تقوى على المشي من كثرة المئونة التي يحملونها. من يَرَهم يظن أنهم يتزودون بالمئونة استعداداً لحرب طويلة الأمد.

لم تمض نصف ساعة وإذا بالجنود يفرضون حظر التجوال من جديد. كانوا في حالة استنفار؛ لأن بعض الشبان رشقوهم بالحجارة. فجأة يتبدّل الحال، يتغير المشهد فلا تسمع سوى صوت الرصاص يرعد في السماء، والناس في حالة رعب وهلع يهربون بما يحملون من طعام بتثاقل، يدخلون منازلهم ويغلقون الأبواب وراءهم. وصياح الجنود يلاحقهم عبر مكبرات الصوت: "ممنوع التجول! ممنوع التجول". سمعت بعض الناس يسبون على من رشقوا الحجارة ويتهمونهم بعدم

obeikandi.com

الوطنية. معهم حق كان لا بد من تأجيل ذلك حتى يتمكن الناس من قضاء حاجيّاتهم. بقيت الحجارة تتساقط على الجنود كحبات البرد، والجنود يردون بالعزف على آلاتهم الأوتوماتيكية، وقذف قنابل الغاز المسيلة للدموع لأكثر من ساعة. أخيراً تمكن الجنود من السيطرة على الوضع، فعاد الهدوء المصحوب بالحذر إلى المخيم.

بعد ساعات قليلة، سمعت الأبواب تطرق بقوة، عرفت أن الجنود يقتحمون المنازل لمعاقبة أهل المخيم على ما فعلوه. وصلني الدور، فتحت الباب للجنود. أخذوا يتصفحون تقاسيم وجهي بدقة. طلبوا مني الاستدارة، فاستدرت. أمروني بالخروج من الحجرة، ففعلت. طلبوا مني الاستدارة نحو الحائط مع رفع يديّ إلى الأعلى فنفّذت أوامرهم دون احتجاج. ليس خوفاً منهم بل لأدفع عن نفسي شرورهم. فتشوني بدقة فلم يجدوا شيئاً في جيوبي غير الثقوب. سألوني عن سبب لف رسغي ورأسي بالشاش الأبيض، قلت لهم أنني وقعت. أمسك أحدهم بشعري، ودقه بالجدار، قائلاً لي بصوت متهدج: "وقعت أم أصبت برصاصة أثناء المظاهرات؟". قلت كاذباً: "بل وقعت". صاح أحدهم: "كاذب! هيا فك الشاش عن رسغك لنرى". خفت أن يكون أحد الفرقة التي كسرت رسغي فأورط نفسي. قررت أن أخبرهم الحقيقة: "سأقول لكم الحقيقة"، رمقني أحدهم بنظرة جافة، وصاح: "ماذا تنتظر، هيا قل الحقيقة"، قلت ببساطة: "كسره زملاؤكم". أمسكني الضابط من قبة قميصي: "لماذا كسروه؟".قلت ببراءة: "لم أفعل شيئاً! كسروه بلا سبب". هز رأسه بسخرية: "بلا سبب؟"...

انهالوا عليّ بالضرب حتى أفقدوني وعيي، وجروني على الأرض من قدمي كما لو كانوا يجرون كيساً من القمامة. ألقوني في الحجرة وانصرفوا ليروا غيري ويعطوه نصيبه. صحوت فإذا قطرات الماء المثلج تتساقط على وجهي من خلال الصفائح المثقوبة. شعرت بدوار قوي، وألم في معدتي يدفعني للتقيؤ. تقيّأت حتى شعرت بأن روحي ستهجرني. كان ما تقيأته ممزوجاً ببقع من الدماء، وكأن معدتي أصيبت بالتمزق. كان بودي أن أرى طبيباً ليفحصني ويعطيني العلاج المناسب، إلا أن الوضع خارج جدران حجرتي خطير بما فيه الكافية، لذا تنازلت عن حقي في العلاج ورجوت الله أن تكون حالتي بسيطة.

تمضمضت حتى شعرت بنوع من الراحة. سمعت صراخ شاب يدوي في الخارج ويطلب النجدة، نظرت من ثقب الباب وأطلقت بصري لأرى ماذا يحدث. فوجئت بخمسة جنود يحاصرون شاباً من كل الجهات ويكيلون له الصفعات واللكمات القاسية. يضربونه بقسوة وكأنهم ذئاب أمسكوا بفريستهم بعد طول مجاعة، ينهشون لحمها من كل الجهات وبدون رحمة. يتحلَّقون حوله فكأنه فريسة مذعورة مغلوب على أمرها، مستسلمة تماماً لقدرها المؤلم. كنت أشعر بكل ركلة يكيلونها إليه، ويرتعش جسدي من كل صفعة تهز وجهه وتلوى عنقه. ظلوا يضربونه حتى أفقدوه وعيه فسقط أرضاً وكأنه جثة هامدة. كنت أسبُّهم، ألعنهم وألعن اللحظة التي استعبدوا فيها أرضنا وأجسادنا، وأتساءل: ماذا يريدون منا؟ سرقوا أرضنا، نهبوا خيراتها، منعونا من رؤيتها، حاصروا سماءنا، حتى أجسادنا لم يرحموها. أذاقوا الشاب مرارة كراهيتهم وانصرفوا. هرعت إليه لأمد له يد المساعدة، متناسياً الألم الذي يتقاسمني. قلبت جسده

المزخرف بالكدمات يميناً ويساراً فلم يتحرك، فركت جبينه بالثلج فلم يستيقظ، حاولت أن أحمله فوق كتفي فلم أستَطِعْ. لم يكن أمامي سوى جره على الأرض، أمسكت بقدميه وجررته إلى حجرتي. حاولت إيقاظه دون جدوى. عصرت له شريحة من البصل في منخاريه، لم يستيقظ، اعتقدت أنه قد فارق الحياة.

جلست بجانبه أندب حظي السيئ، أضع يداً تحت ذقني، والأخرى على صدري، حتى غفوت. وبعد دقائق خيّل إلي أن يدا ما تلامس كتفي، اعتقدت أنني أحلم، وسرعان ما انجلى اعتقادي عندما سمعت الباب يُفتح ويحدث ضجة وصفيراً مزعجاً. فتحت عينيّ رأيت الشاب يهم بالخروج، وما كاد يضع قدمه على العتبة حتى شددته للداخل وبادرته بالسؤال: "ما بك؟ هل تريد أن تُضرب مرة أخرى؟". نفض يدي بقوة، وقال: "أريد العودة إلى قريتي". وضعت يدي على كتفه، وسألته: "قريتك؟ من أين أنت؟". أجاب بلسان ثقيل: "من قرية سردا". وضعت يدي على كتفه ثانية وسألته مندهشاً: "وكيف أمسك بك الجنود؟". نفض يدي عن كتفه، وقال: "كنت أرعى الماشية في الجبل الذي يطل على مخيمكم، فإذا بالجنود يطلقون النار نحوي، ويأمرونني بالذهاب إليهم، ذهبت إليهم، ويا ليتني لم أفعل. عن إذنك عليَّ أن أذهب لأتفقد الماشية، لقد تركتها ترعى في الجبل". استغربت كلامه، وسألت مستغرباً: "وكيف ترعى الماشية في الثلج؟". ضحك وقال: "لا أدري، كل مخلوق يعرف كيف يجد رزقه". وضع يده على معدته وأخرج أنيناً وكأنه يتوجع، سألته بغباء: "هل يؤلمك شيء؟". قال ساخراً: "وهل لا يؤلمني شيء؟". قلت في محاولة لمواساته: "أخذتُ نصيبي من الضرب قبلك". سأل مستغرباً: "هل ضربوك؟". جلست على حافة

obeikandi.com

السرير، وقلت: "اعتدت على ضربهم". سأل: "هل قاومتهم؟". قلت مستغرباً من سؤاله: "ومن يجرؤ على ذلك؟". قال بثقة: "الشجاع". قلت مبرراً: "الاستسلام نصف الشجاعة". قطب حاجبيه، وقال بانفعال: "بل الجبن عينه". صحت: "أنا لست جباناً". ابتسم وقال: "ولا أنا...".

صمتُّ قليلاً ثم سألته: "هل أنت متزوج؟". انفجر ضحكاً وكأنني أدغدغه، وعلق ساخراً: "متزوج؟ قل شيئاً غير هذا". وضع يده على رأسه وصاح: "آه! أكاد أموت". سألته: "ماذا يؤلمك؟". قال متألماً: "رأسي". قلت: "اذهب إلى المستشفى إن استطعت. سأل مستغرباً: "لماذا؟". قلت: " لتطمئن على رأسك". تأفف وقال: "أكره المستشفيات". قلت: "أنت حرّ". رمقني بنظرة جافة، وقال ساخراً: "حُرّ؟ قل: كُرّ؟". قلت: "أنت عنيد". قال بانكسار: "ضد نفسي فقط".

أشعلت النار وسألته: "ما رأيك بفنجان من القهوة؟". قال: "ماشيتي ستضيع". قلت بلهجة ضجرة: "ماشيتي! ماشيتي! ألا تهمك نفسك؟". تنهد وقال بلهجة حزينة: "وهل لنفسي قيمة حتى أهتم بها؟". سألته مستفسراً: "ماذا تقصد؟". أجاب موضحاً: "للماشية قيمة أغلى من النفوس". أطلقت وجهي بابتسامة، وقلت: "أنت غريب الأطوار". هزّ كتفيه مستخفاً بكلامي وقال: "وأنت أكثر غرابة مني". وضعت إبريق القهوة على النار، وقلت: "فليساعدنا الله". احتدّ وقال: "لن يساعدنا". سألت ساخراً: "لماذا؟". أجاب ببرودة أعصاب: "لأننا خونة وأولاد كلب". قلت بدهشة: "خونة؟ وأولاد كلب؟". هزّ رأسه، وقال بنبرة فيها تحدٍ: "نعم خونة وأولاد كلب خائن". سألت مندهشاً:

obeikandi.com

"لماذا تقول ذلك؟". أجاب بعصبية: "لأن الإسرائيلي لا يعرفني ولا يعرفك، فمن برأيك يشي بالمناضلين؟". فهمت ما قصد، هززت رأسي مؤيداً.

رمقني بنظرة غريبة، وسأل بشجاعة: "هل أنت طبيعي؟". لم أفهم ماذا قصد، فسألته أن يوضح كلامه. قال: "حين رأيتك اعتقدت أنك مجنون، شكلك يوحي بذلك". كدت أصفعه على وجهه، لكني اكتفيت بالسؤال: "هل تسخر من شكلي؟". قال متعجباً: "شكلك ليس طبيعياً". قلت ممازحاً: "هل أنت مجنون؟". أخرج من جيبه قمعة سيجارة وأشعلها من الموقد وقال: "ليتني كنت مجنوناً". سألت مستغرباً: "أتتمنى الجنون؟". قال: "نعم أتمناه بشدة". سألت باستهزاء: "لماذا؟". قال: "لأعيش في نعيم". شفط قمعة السيجارة على نفس واحد، وألقاها في الموقد واستطرد قائلاً: "ألا تسمع الناس يقولون المجانين في نعيم؟". ضحكت بصوت مستفزّ، لوى فمه، وسأل ساخراً: "لماذا تضحك يا سيد؟". قلت: "هكذا". جلس على حافة السرير، وقال: "أتدري أن الجنون أكبر نعمة؟". قلت بدهشة: "لماذا يا فيلسوف؟". رمقني بنظرة كبرياء، وقال: "المحتلون يسلطون أحدهم على قتلنا وبالجنون يبرئونه". أعجبت بما قال وعلقت: "صدقت، لكن لا أحب أن أكون مجنوناً". قال ممازحاً: "لو كنت عاقلاً لتمنيت الجنون". نهض عن حافة السرير، شرب رشفة ماء وقال: "أخي، أرجوك دعني أذهب فالماشية ستضيع". قلت: "هل أجد عملاً لي عندك؟". ضحك وقال: "عندما أجد عملاً لي سأنظر في أمرك". قلت: "أنا جاد". قال: "وأنا كذلك".

أثناء حوارنا العقيم سمعنا الدوريات الإسرائيلية تجوب شوارع المخيم وتنادي برفع حظر التجوال لمدة ساعة. يبدو أنهم تلقوا أمرا بإعادة رفعه ساعة أخرى. فرِحنا جداً بهذا الخبر، نظرت إلى الشاب الغريب، وقلت: "لو انتظر القاتل على المقتول لمات وحده". قطب حاجبيه وسألني مستغرباً عن قصدي. قلت موضحاً: "كنت مصراً على الخروج لتخاطر بنفسك، وها قد أجدى التأني بك نفعاً، فَرُفع حظر التجوال لتعود إلى قريتك بأمان". هزّ رأسه، وقال: "معك حق، خلق الإنسان عجولاً".

مد يده لمصافحتي مستعداً للرحيل. قلت له: إني سأنتعل حذائي وسأرافقك حتى المقبرة. ظن أني أستخف بشجاعته ورجولته، فصاح غاضباً: "أنا لست طفلاً حتى ترشدني إلى الطريق". ضحكت وقلت: "لم أقصد أن أرشدك إلى الطريق، بل سأذهب لزيارة ضريح والدي". شعر بالخجل من تسرعه واعتذر لي على سوء فهمه لمقصدي ثم طلب مني أن أجهز نفسي لنسلي بعضنا. انتعلت حذائي بلمح البصر وخرجت برفقته متوجهاً نحو المقبرة.

أمضينا تلك المسافة ونحن نتجادل. فلم أر طوال حياتي شاباً شديد الشكيمة مثله. كلما قلت شيئاً، اعترض عليه. خمنت أنه أستاذ فلسفة، فأكد لي أن تخصصه فلسفة، لكن لم يجد شاغراً في مجال تخصصه، فلجأ إلى جاره وعمل عنده راعياً للغنم معتقداً أن كل الأنبياء مارسوا هذه المهنة لما فيها من فلسفة وحكم. وصلنا المقبرة وافترقنا وكلانا يضحك بجنون.

(٩)

آه يا أبي! حظك السيئ أبى أن يفارقك حتى في مماتك. وجدت قبرك يبعد كثيراً عن باقي القبور، أصر القدر أن يبقيك وحيداً حتى في مماتك، تألمت كثيراً من ذلك المشهد، أردت أن أحفر قبرك وأخرج جثتك وأدفنها بجانب قبر أمي لتواسيك في وحدتك، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لفعل ذلك، كنت خائفاً، فأنت تدري أنني أخاف الأموات.

جلست قرب قبرك، قرأت لروحك ما تيسر من القرآن الكريم، ثم توجهت بعدها إلى الجبل أبحث عن شيء يمكنني اصطياده.

ظللت أمشي غير مكترث بالثلج الذي يلسع قدمي ببرده القارس، إلى أن اقتحمت عيناي أرنباً بريّاً بدا وكأنه لا يقوى على الركض. أخذت أطارده، وسرعان ما تحول إلى أرنب فائق السرعة، أهلكني ذلك الخبيث وأنا أطارده. جعلني مسرحاً للسخرية، تارة يركض بسرعة فائقة ويتوقف فجأة، أعتقد أنه قد استسلم وحان وقت الإمساك به، وبمجرد اقترابي منه يفرّ بسرعة الريح. وتارة أخرى يختبئ فأظن أنها نهايته، يشدني الحماس فأسرع إلى المكان الذي اختبأ فيه. أصل المكان فلا أجد سوى آثار أقدامه.

توقفت عن الركض وأكملت سيري متحسراً على لحمه. مشيت حتى تعبت. جلست فوق صخرة يغطيها الثلج لألفظ أنفاسي. ظللت جالساً إلى أن شاهدت

أرنباً آخر قررت الإمساك به مهما كلفني الأمر. انطلقت بسرعة نحوه متلهفاً ومصراً على الإمساك به. انزلق من فوق صخرة وسقط أرضاً ليعانق قطن السماء. فرحت جداً بما أصابه، قلت محدثاً نفسي: "سيكون العشاء دسماً هذه الليلة"، وعندما اقتربت منه أتضح لي أنه قط لعين.

جلست بجانبه أندب حظي وألعنه. انتزعت منديل الحاجة صالحة عن رسغي المكسور وقددته إلى قسمين: قسم علقت بها رسغي المكسور، وقسم لففته على ساق القط الجريح رغم أنه أهلكني. نظرت إلى ساعتي فوجدت أن ساعة رفع حظر التجوال قد انتهت. فزعت وانتابني شعور بأنني سأتلقى الضرب مرة أخرى أو السجن، لذا قررت العودة.

أثناء سيري رأيت غزالاً هزيلاً. التقطت حجراً وقذفته نحوه قاصداً إخافته ليهرب. لم يهرب، أعدت الكرة ثانية، لم يهرب، ركضت إليه لأرى ما علته فوجدته عالقاً في مصيدة. حررته منها وأسرته. حملته فوق كتفي. حقيقة أشعرني منظره بالشفقة، رغم أن لعابي سال لمجرد التفكير بشواء لحمه. ظللت أمشي وأتلفت حولي حتى سمعت صوت رجل غاضب جداً، بدا وكأنه يتعارك مع أحد ما. مشيت بضعة أمتار لأرى ماذا يجري. رأيت رجلاً ربما في الخمسين من عمره يتعارك مع حماره، تارة يجلده ويصيح: "تحرك أيها القذر" وأخرى يحاول أن يدفعه بكل قوته، والحمار متمسمر مكانه يرفض الحراك تماماً.

تقدمت نحو الرجل وطرحت عليه السلام فلم يجب. كررت التحية ثانية، لكن بصوت عال، لم يجب. قلت مخمناً: "يبدو أنه أطرش". تجاهلته ومررت من أمامه، رآني فصاح بأعلى صوته يعاتبني: "السلام لله". التفت إليه مستغرباً،

وقلت بلهجة ضجرة: "طرحت السلام مرتين ولم ترد". أمسك أذنه وصاح: "ماذا تقول؟ ارفع صوتك". ظننت أنه يسخر مني، تجاهلته ومشيت بضع خطوات للأمام، صاح ثانية: "أنا لا أسمع جيداً"، قلت بصوت خافت: "ولا أنا". صاح مرة أخرى: "يا شاب، هل تريد بيع الغزال؟". اعتقدت أنها فكرة جيدة، عدت إليه وسألته: " بكم ستشتريه؟". صاح: "ارفع صوتك فأنا أطرش". قلت في نفسي: "يبدو أن صراخه سيجلب لنا الجيش، الأفضل أن أتركه قبل أن يخرب بيتي". أشحت بوجهي وهممت بمتابعة سيري، لحق بي وشدني من ذراعي، وقال بغضب: "من تظن نفسك حتى تتجاهلني وتمشي؟". شعرت أني ورطت نفسي معه، حركت شفتيّ وكأني أتكلم، فصاح في وجهي: "اخفض صوتك أنا لست أطرشاً حتى تصرخ". يا له من رجل ماكر، شعرت أنه يريد أن يتعب قلبي. صحت بصوت عال: "اتركني وشأني، لا أريد بيع الغزال". صاح بانفعال: "هل تظن أنني غبي حتى أشترى هذا الغزال بالثمن الباهظ الذي طلبت؟". وكأنني عرضت عليه شراءه! نفضت يده ومشيت وهو يسبني ويصفني بالانتهازي والاستغلالي.

لم أكترث بشتائمه، بقيت أمشي حتى اقتربت من المخيم. رأيت مجموعة من الجنود يقفون فوق الهضبة التي تطل مباشرة على المخيم. رجعت إلى الوراء واختبأت وراء صخرة حتى ينصرفوا. وفي خطوة احتياطية أقفلت فم الغزال بكف يدي، وظللت أنتظر وأنتظر حتى غادروا الهضبة.

دخلت المخيم أتسحب بحذر الملدوغ، وخفة الذئاب، أتنقل بين أزقته الضيقة إلى أن وصلت حجرتي، وما كدت أدخلها حتى شعرت بيد تهزّ كتفي بقوة

obeikandi.com

وصوت يطلب مني أن أرفع يديّ للأعلى. خفق قلبي بقوة، أدرت رأسي إلى الوراء معتقداً أني سأرى الجنود، فوجئت بجرعوش ينتصب ورائي كالقرد، راح يقلب كفيه ويضحك ضحكات هستيرية، مفتخراً أنه نجح في إخافتي. غضبت منه، شتمته بكلمات سوقية ونابية، ولأول مرة في حياتي أستخدم هكذا كلمات. نظر إلي بعينين حزينتين وقال بصوت منكسر: "سامحك الله! فأمي امرأة طاهرة". شعرت أني قسوت عليه، اعتذرت منه، وقلت معاتباً: "كدت أجلط بسببك". قطب حاجبيه، وسأل مستغرباً: "من أين جلبت هذا الماعز؟".

تجاهلته ودخلت الحجرة وأقفلت الباب ورائي، ظل يطرق على الباب حتى أجبرني على فتحه. أدخلته وطلبت منه أن يتوقف عن مزاحه الثقيل. ابتسم وقال: "واحدة بواحدة". سألته ماذا يقصد، فقال: "أخفتني وأخفت دجاجتي وها أنا أردها لك". قلت بغضب: "ليس دجاجتك". ضحك وقال: "وهذه الماعز ليست لك، سرقتها أليس كذلك؟". قلت بقهر: "هذه ليست ماعزاً بل غزال بري لا أصحاب له". نظر إلى الغزال وصاح: "سيموت الغزال". رأيته في حالة صعبة وكأنه يحتضر، وضعت له قليلاً من الماء في وعاء حتى يشرب. رفض أن يذوق الماء. أدركت أنه على وشك الموت، تناولت سكيناً وذبحته حتى لا يحرّم لحمه عليّ. رأى جرعوش الدم تغير لون وجهه، سألته ما به، رمقني بعيون خائفة وفرّ من المنزل مذعوراً.

سلخت جلد الغزال وانتزعت العظام من لحمه. قطعته قطعاً صغيرة ومتساوية. أخذت ما يكفيني لوجبة العشاء، ووضعت الباقي في وعاء كبير وغطيته بالثلج حتى لا يتعفن. ثم جمعت بعض الأخشاب وأشعلت ناراً في زاوية

الحجرة، وابتدأت بالشواء. أنعشتني رائحة الشواء. أكلت حتى شعرت بالتخمة ثم ألقيت بنفسي فوق الفراش، وإذا بي أغط في سبات عميق.

رأيت كابوساً فظيعاً، فلقد رأيت العجوز ممداً في سفح الجبل، وجسده مغطى بالثلج. شرعت أزيل الثلج عنه بجنون ليتبين لي أنه ميت. بكيت عليه بحرقة وألم حتى أنني استيقظت من نومي والدموع تتساقط من عينيّ. تعوذت بالله من الشيطان الرجيم من ذلك الكابوس المرعب، ودعوت الله أن يكون بخير. وفجأة قررت أن أذهب لخيمته لأطمئن عليه، رغم أنه أعلمني أنه سيذهب إلى قطاع غزة. لم أتردد، ولم أفكر بموضوع زيارته مرتين. تناولت بعض اللحم وذهبت به إلى خيمته لأقدمها له كهدية.

obeikandl.com

(10)

وصلت خيمة العجوز فوجدته جالساً على فراشه، يرتجف من شدة البرد، أسنانه تصطك ببعضها، ووجهه شديد الاصفرار. ذعرت من منظره فخيّل إلي أنه سيفارق الحياة، وضعت يدي لأحس جبينه فوجدته مصاباً بالحمى، ابتلعت ريقي، وسألته بقلق: "هل يؤلمك شيء؟". أجاب متفلسفاً: "نعم، حقيقتنا تؤلمني". قلت بصوت خافت: "عدنا للفلسفة". رغم ذلك سألته ماذا يقصد، فأجاب بسؤال متجاهلاً سؤالي: "ماذا تحمل بيدك؟". أخبرته أنني أحمل لحم غزال كنت قد اصطدته البارحة. صاح منبهراً: "اصطدته؟ هل تحب الصيد؟!". قلت كاذباً: "أحياناً...". فأنا لا أجيد شيئاً غير الإصغاء لعفويتي وسذاجتي!

الجائع دائماً ينظر إلى ما تحمله اليد. اطمأن على معدته وابتسم ثم نظر إلى وجهي فرآه ملوناً ببقع زرقاء. سأل مندهشاً وكأنه لم يره حال دخولي الخيمة: "لماذا وجهك منتفخ وكأن دبوراً لسعك؟!". أخبرته أنني تعرضت للضرب. تنهد تنهيدة عميقة، وقال بصوت مقهور: "لعنهم الله! أصبحنا شغلهم الشاغل!". سألته بغباء لماذا يسبهم، فأخبرني أنهم أمسكوا به البارحة وهو يسلك الطريق الجبلية متوجهاً إلى المدينة وأعادوه إلى المخيم بالقوة. سألته إن كانوا قد ضربوه، فقال: "ليس تماماً، اكتفوا بدفعي وإلقائي على الثلج كالقمامة".

obeikandi.com

وفي محاولة مني لتغير مجرى الكلام سألته إن كان جائعاً، فأجاب بسؤال وهو يطبطب على بطنه: "هل ستطعمني من لحم الغزال؟". قلت بحماس: "بكل تأكيد، كل هذا اللحم لك". رمقني بنظرة استغراب، وقال: "وماذا أفعل به؟". قلت ببساطه: " تأكله طبعاً". ابتسم وسأل بذكاء: "ومن سيطهوه لي؟". عرفت أنه يضع مقدمة كي أطهو له الطعام.

غادرت الخيمة بحذر وجمعت بعض الحطب وأشعلت ناراً لتدفئه وتدفئ خيمته وجسدي المتجمد. رأى النار متوهجة فاعتدل في جلوسه وتمنى فنجاناً من القهوة. تناولت غلاية القهوة ووضعتها فوق النار. فاحت رائحة القهوة، وما أجملها من رائحة!

أخذ العجوز يلف سيجارته استعداداً لتناولها مع فنجان القهوة. ولأول مرة في حياتي أحس برغبة قوية تدعوني لتناول سيجارة مع فنجان القهوة. رآني أنظر إليه فبادرني بالسؤال: "هل ألفّ لك واحدة؟". وكأنه يقرأ أفكاري، أو يعرف ما تشتهيه نفسي. هززت رأسي وقلت: "أشتهي واحدة مع فنجان من القهوة، لطالما رغبت بتجربة ذلك". ابتسم وأعطاني السيجارة التي لفها، وأخذ يلف لنفسه واحدة أخرى. أصبحت القهوة جاهزة، تناولت الغلاية عن النار وسكبت للعجوز فنجاناً ولي آخر. تناولت علبة الكبريت كي أشعل سيجارتي، أمسك العجوز بيدي وقال ناصحاً: " أشعلها من الموقد كي تمنحك مذاقاً لن تنساه". أخذت بنصيحته وأشعلتها من الموقد، ثم ارتشفت قليلاً من القهوة وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتي، وإذا بي أسعل بقوة حتى كدت أختنق. أرعد العجوز ضحكة مجلجلة وقال: "النفس الأول يحرق رئتيك، والنفس الثاني يعدل المزاج

فترى نفسك تلتهم السجائر الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً تجد نفسك عبداً للسيجارة، فلا تقدر على هجرها أبداً!". ألقيت السيجارة في الموقد، وقلت: "لا أريد أن أصبح عبداً لأحد، ولا أريد أن أضيع نقودي على ما يُتلف صحتي!". ربت على كتفي، وقال معجباً: "أحسنت يا بني! ما هي إلا أذى للصحة والجيب!".

تناول فنجان قهوته وتذوقه بحذر، أعجبه المذاق، فقال: "بوركت يا ولدي". قلت له إنني مقصر معه. رمقني بنظرة حزينة وقال: "لا تقل! فولدي فلذة كبدي لم يفعل لي ما تفعله". أخذ نفساً من سيجارته، وقال: "تريد أن تسمع ما تبقى من حكايتي؟". قلت بمودة: "لا أظن أنك تقوى على الكلام فأنت محموم". ضحك وقال: "لا تبالغ، أنا بخير". قلت إن مظهره يوحي بعكس ما يقول. لم يكترث بما قلت. قعد القرفصاء وشد لحيته كالعادة، وقال:

بعد وفاة وحيدتي فاطمة قمت بدفنها جوار ضريح زوجها. دفنتها ودفنت قلبي معها. انقلبت حياتي رأساً على عقب، شعرت بالوحدة الدموية القاتلة، فقررت الذهاب إلى مصر للتطوع في الجيش. كانت علاقة مصر طيبة جداً مع الفلسطينيين وقتئذ، حيث ظهر رجل عظيم يريد أن يعيد بلاده إلى زمن الثورات والتغيرات الجذرية بأدواته الثورية، الإصلاح الزراعي والتأميم ومناطحة الاستعمار، إنه الرئيس جمال عبد الناصر.. وصلت مصر، وفور وصولي توجهت إلى قيادات الجيش أعرض عليهم تطوعي. رحبوا كثيراً بي، وأرسلوني لإجراء فحص طبي حيث تأكدوا من سلامتي الصحية للانضمام إلى صفوف العسكريين، بعدها أرسلت إلى مركز التدريبات العسكرية المكثفة.

بعد مرور ستة أشهر تم إفرازي على سرية قوات الصاعقة. سررت جداً بهذا الخبر، فسرايا الصاعقة كانت أمل كل جندي رغم أنها شاقة جداً، حيث القفز من الطائرات الحربية بالمظلات، والعيش لفترات طويلة في قلب الصحراء تأكل كما تأكل الوحوش، وتشرب مما تشرب. كنت أتقاضى أربعة جنيهات مصرية شهرياً، كانت تكفيني.

حصلت على رتبة عريف. كنت جندياً ماهراً، أثْبتّ جدارتي في كل شيء: في الرماية، والسباحة، والقفز بالمظلات من الطائرات الحربية، والتسلق. بعدها شعرت بالملل، فقررت الهرب إلى غزة برفقة أربعة أشخاص كانوا في دفعتي. في ذلك اليوم لم يكن "النبطش" موجوداً، قدمنا التحية العسكرية للعلم الفلسطيني والعلم المصري ولذنا بالفرار عن طريق الأسلاك الشائكة، ولدى وصولنا مستشفى "البريج" خلعنا ملابسنا العسكرية ودخلنا الحدود المحرّمة حتى وصلنا عرب "الهزيل". دخلنا إحدى الخيام فرحبوا بنا، وقدموا لنا اللبن الطازج والحليب، استضافونا لمدة ثلاثة أيام دون أن يسألونا شيئاً، متقيدين بتقاليد العرب الأصيلة في إكرام الضيف.

بعد أن انتهت فترة الضيافة العربية الكريمة، قدم إلينا شيخ القبيلة ومعه أربعة رجال من وجوه القبيلة. جلس في منتصف الخيمة وبادرنا بعدة أسئلة بعد أن أخبرنا أن مدة الضيافة قد انتهت وجاء وقت السؤال. سأل باهتمام: "من أين أنتم؟". أخبرناه أننا من غزة. سأل مستغرباً: "كيف وصلتم عربنا؟". أخبرناه أننا دخلنا عربهم عبر الأسلاك الشائكة متجاوزين الحدود. رمقنا بنظرة غريبة، وسأل: "هل أنتم فدائيون؟". أخبرناه أننا مجرد لاجئين هربنا من الجيش. نهض

obeikandi.com

ومن معه ومشى خارج الخيمة، وأخذ يهمس لهم دون أن نتمكن من سماع كلمة. لعب الفأر في عبنا، خفنا أنه سيفعل شيئا ضدنا. همست لأحد رفاقي قائلاً: "أخشى أنه يدبر لنا مكيدة، أسلوبه في الكلام لا يبشر بالخير". أجابني همساً إنه هو الآخر قلق.

بعد قليل دخل شيخ القبيلة الخيمة ثانية وأمر رجاله بتكبيلنا بالسلاسل. استغربت أمره، فقلت: "منذ متى يأمر شيخ القبيلة رجاله بإهانة ضيوفه؟". أجاب منفعلاً: "شكلكم يوحي أنكم مخربون، ونحن نتعامل مع المخرب كعدو لا كضيف". قلت مستغرباً كلامه: "لسنا كما تقول، وإذا كنت لا ترغب بوجودنا، فسوف نرحل على الفور، لكن لا داعي لتقيدنا وتذلنا". صاح برجاله يأمرهم بتكبيلنا بالسلاسل بشكل جيد وحراستنا. أعطى الأوامر وغادر الخيمة يخطو بخطوات كبيرة. لم يتأخر رجاله عن تنفيذ أوامره. قيدونا بالسلاسل ووقفوا فوق رؤوسنا حتى لا نهرب. تبين لنا فيما بعد أن شيخ القبيلة أبلغ قوات الاحتلال الإسرائيلي بوجودنا، وفجأة وجدنا أنفسنا في قبضة ضباط إسرائيليين.

كان من بينهم ضابط يدعى "أبو داهود"- كان أفضلهم- حيث عاملنا معاملة حسنة؛ فك قيودنا واقتادنا إلى معسكر الظاهرية قرب الخليل. قبعنا هناك ثلاثة أيام، تم بها استجوابنا والتحقيق معنا بشكل مكثف. لم يثبت شيئاً ضدنا، فأطلق سراحنا. خرجنا من السجن ووقفنا في منتصف الشارع ننتظر مرور سيارة تنقلنا إلى غزة. لحق بنا الضابط أبو داهود، رأيناه يقترب منا بسرعة قلت متخوفاً: "ربما غيروا رأيهم".

لم يكن الأمر كذلك، جاء أبو داهود ليدعونا إلى منزله لتناول الطعام معه. لم نرفض دعوته، ذهبنا معه، أكلنا وشربنا، وأعطى كل واحد منا خمسة جنيهات مصرية، ومائة دينار أردني، شريطة أن لا نخبر أحداً وإلا سيعاقب. نصحنا بعدم الذهاب إلى غزة لسوء الأوضاع فيها. سألناه أين سنذهب، اقترح علينا الذهاب إلى الأردن. استشرت رفاقي في الأمر، فوافقوا على فكرة الذهاب للعيش في الأردن. لم يكن معنا وثائق تثبت شخصيتنا، أخبرنا أبو داهود بذلك. صفن قليلاً وقال إنه سيرشدنا إلى طريق تدخلنا الأردن دون وثائق.

اصطحبنا إلى جبل الأردن، أرشدنا إلى الطريق وانصرف. أخذنا نسير ونسير إلى أن وصلنا عرب "العزازمة" في الأردن. فجأة وجدنا أنفسنا محاصرين بين الفرسان، قبضوا علينا واقتادونا إلى سجن "الجفر". استدعانا ضابط يدعى "نواف" كان يضع تاجاً على كتفه، طلب من الجنود عدم إيذائنا وأمرهم بأن يحسنوا معاملتنا حتى يُبتّ في قضيتنا. بعد فترة لا بأس بها من الانتظار، أمر العاهل الأردني الملك حسين بإطلاق سراح المعتقلين. أصدر ذلك العفو العام بمناسبة تعيين الحسن وليّا للعهد.

قبل أن يطلقوا سراحنا، طلب مدير السجن أن نأتيه بكفيل، لم نكن نعرف أحداً حتى يقوم بكفالتنا، فكفلتنا الغرفة التجارية. دفعت غرامة مالية قدرها مائة دينار أردني عن كل واحد. أطلق سراحنا فذهبنا مباشرة إلى السفير المصري، أخبرناه ما حدث معنا. تفهم الأمر وعمل لنا وثائق مصرية وأرسلنا إلى مصر.

في مصر قبض علينا "بوليس القطار" حيث أن أسماءنا كانت مدونة في لائحة المطلوبين للقضاء. تم تحويلنا إلى قسم المخابرات العامة ولقينا ما لقيناه من

ضرب، وتعذيب وحشي، وإهانات. أرادوا أن يلصقوا بنا تهمة لا تمت لهروبنا من الجيش بصلة، لا من قريب ولا من بعيد. اتهمونا بالتجسس لصالح إسرائيل. وضعوا كل واحد منا في زنزانة انفرادية، وكل يوم كنا نعذّب بأشعة الضوء القوية، حيث كانت تصوب نحو أعيننا في زنازين مظلمة، وفي الليل يسكب علينا الماء المثلّج ونحن عراة تماماً كما ولدتنا أمهاتنا. ظلوا يعذبوننا إلى أن قُدّمْنا إلى محكمة عسكرية في "العريش". حاكمنا قاضي أركان حرب يبلغ من العمر عشرين عاماً، بالسجن لمدة ستة أشهر.

أمضينا فترة الحكم، وأطلق سراحنا. لم تدم فرحتي أكثر من أيام قليلة، تمّ اعتقالي مرة أخرى وقدّمت للمجلس العسكري. تم تحويلي إلى جهاز الاستخبارات العسكرية لإعادة التحقيق معي، وكل يوم كانت قضيتي تزداد تعقيداً، فيزداد رجال الاستخبارات تعذيباً لي، مصرّين على أني جاسوس أعمل لصالح إسرائيل.

كنت أنكر صحة تلك الاتهامات الباطلة والظالمة. لم يصدقوني، لم يقتنعوا أني قد هربت بسبب الملل. استمروا طويلاً على هذا المنوال الممل:

- لماذا هربت؟

- من شدة الملل.

- كيف هربت؟

- عن طريق الأسلاك الشائكة.

- كذّاب!

انهالوا عليّ بالضرب المبرح دون رحمة، ركلوني على معدتي فأصيبت بالنزيف الحادة، تقيأت دماً حتى ذبل جسدي، كسروا أنفي، لم يكتفوا بذلك بل خلعوا أظافري بالكماشة. كنت كالدجاجة الذبيحة انتفض بين أيديهم، أقول لهم: ارحموني يرحمكم الله.

- بيننا وبين الله سقف.
- من أجل محمد اتركوني.
- محمد عند سعود، وسعود خائن.
- من أجل الرئيس عبد الناصر.
- عبد الناصر شريف، لا تنطق باسمه يا بن العاهرة.
- أنا لست جاسوساً.
- بل جاسوس.

بعدها وضعوني في سجن "لومان طرّه" حتى قدوم عيد الثورة الذي أقرّه الرئيس جمال عبد الناصر في الثالث والعشرين من يوليو من كل عام بعد انتهاء حكم الملك فاروق وإعلان قيام الجمهورية. أفرج عني بهذه المناسبة، خرجت من السجن بمظهر مثير للاشمئزاز. جسدي ملطخ بالدماء ومتورم بالكدمات، ظهري شبه مكسور وجلدي مسلوخ من الأسياخ الحديدية التي كانوا يحمونها على النار ويصلون ظهري بها. حتى القمل نلت منه حصة كبيرة، احتل رأسي وجعل منه معسكراً حربياً. كان الشحاذ يشفق عليّ فيمدّ يده إلى جيبه؛ ليعطيني شيئاً مما تصدق به غيره عليه.

obeikandl.com

بعد طول معاناة، عدت إلى غزة برفقة من هربوا معي من الجيش. عدنا بوساطة الصليب الأحمر. وصلت غزة ورحت إلى البيت الذي كنت أقيم فيه قبل سفري. وجدت رجلاً يسكنه. أخبرت الرجل أن البيت لي. قال إنه قد اشتراه من أم عاصم بعد أن سمعت أني استشهدت. ضحكت بصوت عال ولا أدري لماذا ضحكت. قلت له كيف أكون قد استشهدت وأنا أقف أمامه. دخل البيت وأحضر لي ورقة تثبت أنه اشترى البيت من أم عاصم. قلت له إني سأفهم كل شيء من أم عاصم. طأطأ رأسه، وقال بلهجة حزينة إنها قد توفيت قبل عام. حزنت لخبر وفاتها وسألته إن كان أحد يسكن بيتها. قال إنه أغلق البيت بعد وفاتها، والمفتاح بحوزته. كان ينتظر أحداً من أقاربها ليعطيه له. دخل البيت ثانية وعاد ومعه مفتاح بيت أم عاصم، أعطاني المفتاح، وقال: إن البيت تحت تصرفك.

شكرته وسكنت في بيت أم عاصم. عشت بين الناس وحيداً، مجهول الهوية. بعد أن أعاد الله عافيتي، خرجت أجوب المحلات التجارية والمزارع أبحث عن عمل دون جدوى. بقيت عاطلاً عن العمل لمدة ستة أشهر إلى أن استطعت الحصول على وظيفة شيّال. لم يكن يعنيني نوع الوظيفة بقدر ما كنت مهتماً ألا أمدّ يدي للمارة. عملت ليلاً ونهاراً حتى استطعت أن أجمع مهراً لرفيقة دربي.

التقيت بامرأة قروية كريمة الأخلاق، طيبة النسب، فتزوجتها. أنجبت منها ثلاثة أولاد، وبنتاً واحدة. أما الولد الأول فلقد أسميته عبد القادر نسبة إلى والدي. والثاني صابر نسبة لمعاناتي. والثالث ظافر نسبة لتغير حالي، أمّا البنت فأسميتها فاطمة نسبة لشقيقتي، وهي أكبرهم سنا.

وكأن الألم لشعبنا صديق وفيّ، لم يكتف المحتل بما سلبه ونهبه منا. أرادوا أكثر فهاجموا قطاع غزة واحتلوه، وفي العام الذي يليه قتلوا ثمانية وأربعين فلسطينياً أعزَلَ في كفر قاسم لنفاجأ فيما بعد بحكم المحكمة على العقيد "يشخار شدمي" بغرامة قدرها قرش إسرائيلي واحد. تصور إلى أين وصل الاستهتار بدماء الأبرياء!

ضيقوا علينا الخناق واستهتروا بدمائنا شر استهتار. لم نعد نملك شيئاً نخاف عليه. أخذوا كل شيء: الأرض، والبحر، وخيراتنا. كل خيراتنا! أغضبوا شبابنا فثاروا. أسسوا المجموعات العسكرية لترد لنا اعتبارنا. تسلحوا بالإيمان وما تيسر من الأسلحة المتواضعة. قاموا بضرب مستعمرة "ريشون ليتسيون" بقوة. عملية فدائية حفرها التاريخ في ذاكرته. اشترك في تنفيذها ثلاثمائة فدائي، واستشهد منهم مائة. أصبحت العمليات الفدائية بمثابة بلسم لجراحنا. ليس عشقاً في سفك الدماء وإنما لقناعتنا أن المقاومة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها المحتل جيداً وهي الطريق الأسرع لنيل حريتنا واستعادة كرامتنا التي مرغوها في الوحل. فما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد إلا بالقوة.

توالت الأحداث، وضاقت جمجمة التاريخ النازف ولم تعد ذاكرته تحتمل ذاك الكم الهائل من المؤامرات والمجازر. فإنّ ما أثلج صدرنا قد حدث، تبعه عشرة أحداث لتغمنا. انسحب المحتلون من سيناء وقطاع غزة بعد فشل العدوان الثلاثي. ترك انسحابهم شعاع أمل في نفوس تطفو فوق شبر ماء. لم أكن واحداً منهم، ربما لأني كنت أفكر بعمق بكل مجريات الأمور، وأحلل الحدث من زوايا

عديدة. بالرغم من ذلك أردت أن أعيش ولو بقليل من التفاؤل، على الأقل من أجل أطفالي.

أصبح عمر فاطمة عشر سنوات. أراد الاحتلال أن يبارك لفاطمة بعيد ميلادها العاشر، فأصدر قراراً بضم القدس الشرقية للقدس الغربية لتكون عاصمة إسرائيل الموحدة. أثار قرارهم سخطنا. سخط من يصارع ظله. لم يكتفوا! أرادوا أن يحقنوا قلوبنا بجرعة أكبر وأكثر دسماً، فاحتلوا باقي الأراضي الفلسطينية، لتصبح كل فلسطين أسيرة بين أنياب زناة الليل وسكارى النهار. حرب حزيران تشهد على جرائمهم. أيقنت أن أسرها سيطول كثيراً. حيّرني المفتاح، مفتاح منزلنا البعيد. البعيد جداً! فكرت... قررت... حفرت قبراً صغيراً في بطن شقتي ودفنته، راجيا من الله ألا يكون مثواه الأخير.

لم يكن احتلال باقي فلسطين بالأمر السهل على المشردين أمثالي، بل زادت هذه الجرعة المأساوية وجعهم أكثر وأفقدتهم الأمل في العودة. رغم ذلك بقيت هناك محاولة أخيرة وهي المقاومة الشديدة والمستمرة. تحوّل الفلاحون من مزارعين إلى مقاتلين، استبدلوا بالفأس البندقية واستعاضوا عن زراعة الأرض بزراعة الخناجر والرصاص في قلب المحتل. أعلنوا ثورتهم ضد الاحتلال، مشهرين خناجرهم وأسلحتهم الفقيرة في غزة هاشم. وهناك ظهر محمد الأسود الملقب بجيفارا غزة، علّمهم ذلك الثائر دروساً يصعب نسيانها في فن النضال والتصدي. كان النهار لهم، وكان الليل لجيفارا.

جعل ذلك الأسمر من رمال غزة قنابل موقوتة تنفجر تحت أقدام الغزاة. لم تستطع إسرائيل بكل قوتها وجبروتها أن تواجه رجالاً أحبوا الشهادة أكثر من

حبهم للحياة. لقد طاردهم ذلك الأسمر برصاصه. قضّ مضاجعهم، وطيّر النوم من أعينهم إلى أن استشهد في عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف. كان استشهاده انتصاراً لقيادة العدو المحتل. شربوا نخب شهادته. قرعوا الكؤوس، وهزوا الرؤوس. لكنهم نسوا أن غزة أنجبت جيفارا وأن غزة قادرة على إنجاب ألف جيفارا.

كنت أحد أفراد تلك الطلائع فتمّ اعتقالي. ليس لاكتشافهم أمري، بل نتيجة عراك نشب بيني وبين أحد جنود الاحتلال. أنهيته بطعنة خنجر زرعته في عنقه. طعنة قاسية منحته سريراً دافئا في العناية المركزة، ومنحتني قيداً بارداً وراء القضبان.

جاء يوم الحساب لأحصد ما زرعت. قُدِّمت للمحكمة العسكرية. طالب المدعي العام بالحكم المؤبد. أرادوا ردعي وتأديب غيري بي. ضعفت زوجتي حين سمعت ذلك. أجهشت بالبكاء طالبة الرحمة من القاضي. أرته أولادنا الصغار وقالت زوجي المعيل الوحيد لهم وتوسّلت إليه ألا يحرمهم مني. يبدو أنه أشفق على أطفالي. صفن قليلاً وبادرني بالسؤال: "هل أنت مذنب؟". قلت في نفسي: "لست مذنباً". بكاء زوجتي وأولادي جعلني أضعف وأقول شيئاً آخر... سألني ثانية: "هل أنت نادم؟". نظرت إلى زوجتي فرأيتها تهز رأسها وعيونها تتوسل إلي أن أقول "نعم". هززت رأسي وقلت: "نعم نادم". اكتفى بثماني سنوات فعلية وعشرين سنة مع وقف التنفيذ. لم أكن في حقيقة الأمر مقتنعاً بأنني مذنب أو نادم، ولم أكن مستعداً لخوض ألم جديد سيستمر لمدة ثماني سنوات خلف القضبان وبعيداً عن أسرتي. لكن مع الأيام اعتدت على السجن.

obeikandl.com

بعد مرور عام من اعتقالي وأثناء زيارتي أخبرتني زوجتي أن "مايكل روهان" قام بإحراق المسجد الأقصى. جُنّ جنوني لدى سماعي ذلك الخبر المفجع. فقدت السيطرة على أعصابي، فرحت أضرب رأسي بقضبان السجن حتى أسلت الدم من جبهتي. لم أستطع احتمال جرائمهم المتواصلة وتحديداً تطاولهم على المقدسات.

بقيت الأخبار المفجعة تلاحقنا باستمرار، تقتحم جدران السجن وقضبانه لتهز قلوبنا وتؤرق نومنا. كم تمنيت لو يطلقون سراحي لأرى ما يجرى خلف قضبان السجن. كنت أعرف جيداً أنني لن أغير شيئاً، إنما أن تحدث تلك الجرائم وأنت خارج السجن أهون بكثير وأنت أسيرٌ بين أربعة جدران حقيرة.

بعد أربعة أعوام اندلعت حرب أكتوبر. انطلق صفيرنا يدوي في سماء السجن حين عرفنا أن الجيش المصري اقتحم قناة السويس ودمّر خط بارليف. أفراحنا وأحزننا كمعتقلين كانت تعتمد دائماً على نوع الخبر، فإن كان ساراً رأيتنا ننقاد وراء عواطفنا نغني ونرقص، ونمضي ساعات الليل بالابتهالات والأناشيد، وإن كان سيئاً أعلنا الحداد وأضربنا عن الطعام.

آه يا بني! ما أصعب أن يكون المرء سجيناً وقت الفرحة أو الحزن. وكم هو شجاع من كان يسيطر على عواطفه فيتقبل الخبر السيئ بروح رياضية.

بقيت الأحداث السيئة تتدفق علينا كالسيول الجارفة بلا رحمة أو شفقة. بعد مدة وصَلنا خبر هز كياننا؛ مجزرة جديدة لكنها ليست بجديدة على شعبنا؛ مجزرة تل الزعتر. وكأن الكل يتسابق على أخذ حصته من دمائنا. ربما لدمائنا مذاق خاص وبدونه تتوقف عجلة حياتهم! أو ربما لأن مصاصي دمائنا أدركوا أن

مجازرهم لن تحرك قلوب العرب الميتة، فتمادوا إلى أبعد الحدود. صمد تل الزعتر قدر المستطاع، أمام الهجمات والقصف الشامل الذي تعرض له. أعملت الكتائب وحلفائها القتل والتمثيل بأبناء شعبنا. قتلوا أكثر من ثلاثة آلاف بدم بارد.

المجزرة يتبعها مجزرة أكبر وأكثر شناعة، والقرار يناطح القرار، والزعامة العربية ثملة لا تقوى إلا على الشجب والاستنكار، وشعبنا هو الضحية دائماً.

أطلق سراحي بعد شهرين من ارتكاب تلك المجزرة. لم يكن قرار الإفراج عني بالشيء المميز أو المثير. خرجت أحمل جسداً بلا روح. تلك الأحداث أهلكتني وتركت أثراً سيئاً في نفسيتي. اضطررت لكبح جماح نفسي وتظاهرت بالقوة والشجاعة على الأقل أمام من ظلوا ينتظرون عودتي بفارغ الصبر.

اجتمع لَمُّ شملنا من جديد. عدت إلى زوجتي وأولادي الذين تركتهم صغاراً، وعدت لأراهم شباباً يسرون العين ويثلجون القلب. أنستني رؤيتهم أيام السجن البغيضة، ولياليه الطويلة والمؤلمة. كان عليّ أن أتعرف إليهم وأتقرب منهم لأعرف كيف يفكر كل واحد منهم. أعجبت جداً بأخلاق عبد القادر وثقافته التي اكتسبها من المطالعة واحتكاكه بزمرة المثقفين. أعجبت بتواضع ظافر، وصدقه في الكلام وتفانيه في كسب رضا الناس ومحبتهم. أعجبت أكثر بفاطمة، رأيت فيها أخلاق شقيقتي، ذكاءها، إخلاصها، حنانها، حتى ملامح وجهها. أما صابر فلم أعجب بتصرفاته الصبيانية، وحبه للهو والسهر خارج المنزل. رأيته يختلف عن إخوته في كل شيء؛ أناني، شجاع، مسرف لا مبال. لطالما جلست معه أحذره من عواقب لهوه وسهره وأنانيته لكنه لم يكن يتجاوب معي. كان يصرّ على

obeikandl.com

أنه قد أصبح شاباً ويستطيع أن يتحمل مسؤولية نفسه. تركته يتصرف كما يريد. أردت أن يستخلص النتائج بنفسه ويتحمل مسؤولية اختياره وقراراته وتصرفاته.

كان من الصعب عليّ أن أنسى روتين السجن الذي ظللت أمارسه لمدة ثماني سنوات، ومع الأيام ابتدأت أتعود على حياتي الطبيعية. بعد مرور شهرين من الإفراج، تقدَّم أحد شبان المخيم لخطبة ابنتي فاطمة. شاب مثقف ومن عائلة كريمة. استشرتها بالأمر فوافقت على الاقتران به. بعد شهرين أعلن حفل زفافهما. وما أن مر عام حتى أصبحت جداً لحفيدتي الأولى.

بعد إطلاق سراحي بعام، لدغ الشوق قلبي فقررت الذهاب إلى اللد لأزور قبر والدي ومنزلنا. حاول أولادي منعي، لكن العناد ركب رأسي فذهبت لأطفئ شوقي ولو بنظرة خاطفة. ابتلعت المسافة وأنا أتساءل ماذا حل بمنزلنا وبأرضنا. وأخيراً أنزلتني الحافلة في مكان يبعد بضعة أمتار عن أرضي. مشيت إليها بقلب مضطرب وجسد يرتجف وحفنة من الذكريات الجميلة تتلألأ أمامي وتغيظني بشراسة. جاءت لحظة المواجهة، فاستيقظ الوجع المدفون بين ثنايا الماضي البعيد. انقلبت على وجهي أُقبِّل ترابها وأُعاتبها. عتاب الحبيب للحبيبة. لملمت شتات روحي ووقفت أدور حول نفسي أنبش ذاكرتي وأبحث عن زمن ضاع في خاصرة أرضي. خانتني الذاكرة ولم أعرف أين دفنته. بحثت عن قبره في كل بقعة من الأرض فلم أجده، خمنت أنهم جرفوا قبره بعد رحيلنا! طأطأت رأسي وقرأت لروحه الفاتحة.

داهمت قلبي لوعة لرؤية منزلنا بعد طول فراق. قررت رؤيته مهما كلّفني الأمر. مشيت ميمما إليه بخطوات سريعة.. وجدته كما هو. شعرت بارتياح كبير،

مددت يديّ إلى السماء وشكرت الله. طرقت بابه فخرجت امرأة عجوز شمطاء. سألتني ماذا أريد، قلت لها إني مزارع وأبحث عن عمل. عرضت عليّ أن أعمل في أرضها المزعومة. عملت مزارعاً في أرضي التي طُردت منها. مجرد أجير يتقاضى أجرة بخسه من عجوز بخيلة. لم أتخيل أبداً ولا حتى في الكوابيس أن مثل هذا الشيء يمكن أن يحدث معي. لكن الجميل في الأمر أن تلك المرأة الروسية أجَّرتني غرفة في منزلي لأنام فيها بعد انتهاء عملي، وأصرّ القدر على أن تكون غرفة فاطمة هي مسكني الجديد."

أدهشني العجوز بقصته، قاطعته بفضول: "يا إلهي! كيف كان شعورك؟!".

انتزع كوفيته عن رأسه الهرم، حك جلدة رأسه، وقال بصوت ضجر:

"شعور ميت حيث يفارق بين الذكريات البائسة والجميلة، كنت أرى طيف فاطمة في كل ركن من أركان الحجرة. أَتُصَدِّق لو قلت لك إني وجدت الحجرة كما تركتها فاطمة تماماً؟ الخزانة منتصبة مكانها، وفيها كل ثياب فاطمة، وصندوق حليها في مكانه، والسرير كما هو، غير أنها كانت تعج بالغبار وخيوط العناكب المنتشرة في جميع زوايا السقف. يبدو أن تلك العجوز لم يكن لديها الوقت حتى لفتح باب الحجرة، أجزم أن يدها لم تلمس بابها منذ أن طردنا. قررت أخذ ثياب فاطمة. عبَّأت حقيبتي بثيابها وحليها، فبعض ما سُلب بالقوة رجع إلى صاحبه بالسرقة، إن كان استرداد الحق سرقة! كنست الحجرة ونظفتها من الغبار وخيوط العنكبوت ثم خلدت للنوم حتى أكون مستعداً للعمل في صباح اليوم التالي.

عملت خمسة أيام متواصلة. استمتعت كثيراً بالعمل في أرضي رغم بعض نوبات المشاعر الحزينة، وضيق الصدر التي كانت تنتابني من حين إلى آخر. وذات

يوم خرجت أتمشى لأرى ماذا فعلوا بالمدينة بعد أن سلبوها منا. وجدت أن معالم مدينتنا قد تغيَّرت نوعاً ما، حيث أقام الاحتلال أربع مستوطنات على أراضيها.

آه يا بني! وجدت الحال في المدينة هو ذاته على صعيد الوطن المحتل كله، خطوط متعرجة تفصل أحياء اليهود الأغنياء عن أحياء العرب الفقراء، في مشهد يبدو فيه التناقض الصارخ وكأنه شعار الاحتلال الذي يمتلك مقدرات سخية ويمارس عنصرية يرفضها المنطق. إذا تفحصت مدينة اللد من علٍ، وجدت في المشهد مفارقة ساخرة، فقراء العرب أو ما يسميهم الاحتلال بعرب إسرائيل، غزو المرتفعات المطلة على المدينة وكأنهم يناطحون الأغنياء في أبراجهم العالية، لكن المسألة ببساطة أن جموع العرب الفقراء لم تجد لها متسعاً بين بنايات المدينة أو أجبروا بالقوة على التخليّ أو بيع منازلهم الأصلية، فلجأوا إلى المرتفعات في حركة عشوائية ليبنوا بإمكاناتهم بالغة التواضع ما يمكن أن يضمّ أجسادهم. المفارقة ليست في المشهد فحسب، بل في الحال بأكمله، فأغلبية العرب من سكان هذا البلد فقراء، يعيش نصفهم تحت خط الفقر، أما الطبقة المتوسطة فإنها تمثل نسبة ضئيلة جداً من السكان، ناهيك عن سياسة التمييز العنصري المتخذة ضدهم سواء في التعليم أو في مجالات الحياة الأخرى.

رأيت ما رأيت من مشاهد مزقت قلبي وعدت إلى المنزل بعيون دامعة أحرقتها لحظة الحقيقة. رأتني العجوز حزيناً، استغربت وبفضول سألتني عن سبب حزني. لم أستطيع السكوت أكثر. أخبرتها أنها تحتل منزلي، وأنني أعمل مزارعاً في أرض أبي وأجدادي التي طردونا منها بقوة السلاح. جنّ جنونها، وقالت: "هذه أرضنا منذ الأزل، أنتم سرقتموها ونحن استعدناها!". قلت

منفعلاً: "كذبتم كذبة وصدقتموها، هي أرضنا ولم تكن أبداً لكم أو لغيركم". صاحت في وجهي: "اخرج من بيتي الآن!". قلت بغضب: "سيأتي يومٌ وسيعود الحق لأصحابه، وسأطردك...".

هزت رأسها وهي تكز على أسنانها وغادرتِ الحجرة لتعود إليّ وهي تحمل بندقيتها. سحبت الأقسام وصاحت: "اخرج الآن وإلا قتلتك". تناولت حقيبتي وهممت بمغادرة منزلي، أوقفتني وطلبت مني فتح الحقيبة وهي تصوب بندقيتها نحو صدري. فتحتها، فرأت ثياب فاطمة وحليها، صاحت بي: "أسكنتك بيتي لتسرقني؟!". قلت مدافعاً: "تلك ثياب شقيقتي وحليها". انتفخت أوداجها، وصاحت: "أترك كل شيء وغادر فوراً". قلت لها لن أغادر قبل أن تدفعي لي أجرة الأيام الخمسة. رفضت أن تدفع لي قرشاً واحداً بحجة أنني خائن. ابتلعت إهاناتها وقررت مغادرة المكان.

مشيت خطوتين فأوقفتني وأمرتني بخلع ثيابي لتفتيشها. رفضت بقوة. أطلقت رصاصة باتجاه السقف، فاضطررت لخلعها. فتشت ثيابي ولم تجد شيئاً ومع ذلك بقيت تحتفظ بها. طلبت منها أن تعيدها لي، فأبت. كانت تنظر إلى جسدي بطريقة لم ترقني. سألتها ساخراً إن كانت ترغب في تفتيش لحمي، لعلّي أخبئ شيئاً في قلبي أو كبدي أو خاصرتي. لم يكن الأمر كذلك، أرادت شيئاً آخر... وافقت على تحقيق رغبتها الدنيئة مقابل البقاء في منزلي. جن جنونها ورمت إلي ثيابي وصاحت: "اخرج الآن وإلا...". تلكأت قليلاً في ارتداء ثيابي، فأطلقت رصاصة أخرى مرت من جانبي، أدركت أنها جادة ويمكن أن تطلق الرصاصة الثالثة على رأسي فتقتلني، لذلك هربت من أمامها.

obeikandi.com

ظللت أبحث عن عمل جديد حتى نجحت، عملت مع مزارع يهودي يغتصب أرض أبي السعود. وذات يوم جاء إلى الأرض غاضباً، طلب مني هويتي فأعطيته إياها. أخذها وذهب ليفحصها عند القيادة. ظللت أنتظره حتى عاد وعلى جنبه يضع مسدساً لم يكن موجوداً من قبل. امتشقه وصوب فوهته نحو رأسي ورمى البطاقة في وجهي وأمرني بمغادرة المدينة على الفور. ويبدو أنه قد عرف أني كنت معتقلاً، أو أن العجوز الشمطاء أخبرته حكايتي. اضطررت إلى التخلي عن عنادي في البقاء في مسقط رأسي والعودة. ألقيت النظرة الأخيرة على مدينتي وعدت إلى غزة والحسرة تمزق قلبي.

أخبرت أولادي بما حدث معي. جُن جنونهم وأرادوا الذهاب إلى اللد لردع تلك العجوز الشمطاء. كنت متفهماً لمشاعرهم جيداً. أجلستهم حولي، وأطفأت النار التي اشتعلت في قلوبهم. لكن الاحتلال أشعل ناراً جديدة في قلوبنا. ارتكبوا مجزرة جديدة أضافوها إلى سجلهم الإجرامي؛ مجزرة صبرا وشاتيلا تحت إشراف شارون. سمع ولدي عبد القادر خبر المجزرة ورأى ما رأى من صور تقشعر لها الأبدان، فقام بمهاجمة حافلة إسرائيلية، واستشهد أثناء الاشتباك العسكري. عزّ عليَّ فراقه كثيراً، لكنني آمنت بجهاده وتقبَّلت شهادته التي سأظل أفتخر بها حتى يختارني الله إلى جواره.

فقد ظافر أعصابه لدى سماعه نبأ استشهاد شقيقه، لذا تدرب على السلاح، ودرَّب عواطفه على حب فلسطين، جعل من جسده النقي خادماً لقضيته رغم صغر سنِّه، وبعقله المتزن خطط لسحق عدوه. كثيراً ما كان يذهب في الليل ويعود

obeikandi.com

في الصباح، لم أكن أعلم أين يذهب ولم أعط لنفسي الحق بالسؤال أو التدخل في شؤونه الخاصة، مع أنني كنت أشك في أنه يذهب لمقارعة العدو مع رفاق دربه.

ذات يوم عاد إلى المنزل مبكراً. كانت عيناه تقدح شرراً من شدة الغضب، ووجهه شديد الاحمرار. سألته عما أصابه، فقال إنه سمع خبراً أليماً عكّر مزاجه وسبب له تلك الحالة، رفض أن يذكره. سألني بلهفة عن أمه فأخبرته أنها نائمة، جلس ينتظرها وكان بين الفينة والأخرى يتأفف ويقول شيئاً بصوت خافت، كلمات لم أستطع سماعها جيداً.. أثناء حديثنا استيقظت أمه من نومها، أسرع إليها وخرّ على ركبتيه يمسك بيدها ويقبِّلها، ثم نهض وقبّل جبينها، وبصوت مختنق سألها: "هل يمكنك أن تطهي لي ملوخية بالأرانب خلال ساعة؟". اضطرب قلب أمه وعانقته: "ما بك يا فلذة كبدي، وكأنك تودعني؟". أجابها بأن نفسه تطلب أكلة ملوخية ليس إلا. قالت بمودة: "سأصنعها لك حالاً، لكن لا يوجد معي نقود لشراء أرنب". ابتسم وقال: "لا عليك سآكلها عند ربي!". أحسسنا أنه يودعنا. تقدمت أمه نحوه بخطوات ثقيلة، وسألت باضطراب ماذا يقصد. أجابها بعزة نفس وشجاعة: "عليَّ أن أقوم بواجبي!". قبّل جبينها مرة أخرى، وقبّل يدي وهمّ بالخروج والدموع تملأ عينيه. أوقفته برهة وسألته عن سبب تجاهله لشقيقه صابر، فأجاب وهو يتنهد: "الأيام ستخبرك ما تجهله". حاولت أن أعرف منه الإجابة دون جدوى. ألقى نظرة أخيرة وخرج. شعرنا أنه لن يعود.

بعد مرور ثلاث ساعات جاءنا خبر استشهاده. لم أحتمل سماع ذلك الخبر، انهمرت الدموع من عيني، بكيت عليه حتى ذبلت عيناي؛ أمّا أمه فعاشت حالة يرثى لها، حالة صعبة للغاية، تارة تصرخ بأعلى صوتها قائلة: "ليتني طهوت له ما

طلب"، وأخرى تعتكف في حجرتها وتأبى الخروج. حاولت عبثاً أن أواسيها وأخفف عنها ألمها، لم أنجح، كنت بحاجة إلى من يواسيني ويزحزح صخرة الألم السمجة عن صدري.

شيّعنا جثمانه الطاهر بجنازة شارك بها آلاف الناس. جنازة تعلوها الأناشيد الوطنية والزغاريد. جنازة تزف العريس الخالد وتبشره بالجنة. كظمت حزني وحبست دموعي وألمي حتى وصلنا المقبرة. رأيت قبره مفتوحاً ينتظر جثمانه الطاهر. ضعفت وعلا صوتي بالصراخ: "خذني معك يا ظافر!".

أنزل الشبان جثمانه عن أكتافهم. ارتميت فوق جسده أُقبِّله آخر قبلة في هذه الحياة. رأيت وجهه يشع نوراً وإيماناً، وكأنه نائم. ودّعه أحبته مرة أخرى وأنزلوا جثمانه في منزله الجديد. بينما كنت جالساً أراقب الرجال وهم يهيلون التراب على جثته، ابتدأت أسمع همساً، التفت إلى الوراء لأرى ماذا يحدث، رأيت أعين الناس تلاحق صابراً بتجهم وكراهية. لم أفهم لماذا كل تلك النظرات. وقفت منتفضاً وسألتهم عن سبب نظراتهم المتجهمة لصابر. طأطؤا رؤوسهم دون التفوّه بكلمة. بعد إلحاح مني تطوع أحدهم بالكلام. فذكر بأن صابراً قد شارك رجال الشين بيت في تصفية شقيقه ظافر. سألته بعصبية مستهجناً اتهامهم: "وكيف شارك في تصفية شقيقه؟"، فأجاب: "اسأله، أو لا داعي لسؤاله، سأخبرك". صحت بغضب: "وماذا تنتظر هيا أخبرني الحقيقة!". اقترب مني، وقال بألم: "رأيناه يخرج من الإدارة المدنية، و يضع لثاماً على وجهه، صعد إلى الجيب، وقاد المخابرات إلى موقع ظافر ومجموعته العسكرية، لحقنا به دون أن يشعر محاولين سبق الجيب وتحذير المناضلين منه، لكننا لم نتمكن من إنقاذهم، فقد كانت

obeikandi.com

شهادتهم أسرع إلى الله من سيارتنا، كانت رصاصة صابر هي الرصاصة الأولى التي فجّرت صدر شقيقه". جُنّ جنوني، قلت منكراً: "هذا كذب، وافتراء، أنتم تضعون الشك في غير موضعه، ولو كان ظافر حياً لفكرتم وقدرتم قبل أن تقولوا هذه الكلمات". اقترب أحدهم مني وطوقني بذراعه، وقال: "يا عماه أخبرناك الحقيقة القاسية لنحذرك من شروره"، نفضت يده بغلظة وصحت: "أنت مجنون! لا يمكن أن يقتل صابر أخاه"، أجاب بحزن: "لو كان قول الحق جنوناً، فأسأل الله ألا يخرجني من زمرة المجانين".

فقدت السيطرة على نفسي حين سمعت ما سمعت، نظرت إلى جموع المشاركين في الجنازة أبحث عن صابر بعيون ذبحتها المفاجأة، لم أجده. لم أستطع الكلام، ثقل لساني، ضعفت قواي تماماً فوقعت على الأرض أعفر التراب فوق رأسي، وألطم وجهي بجنون، غير مصدق أن يقتل الأخ أخاه. تذكرت ظافراً عندما قال إن الأيام ستخبرني ما أجهله، فهمت لماذا رفض مصافحته، ويا ليتني لم أفهم شيئاً! زحفت على ركبتي إلى قبر ظافر، أقسمت له بالانتقام من ذلك الوغد. طلبت منه أن ينام قرير العين، هادئ البال. ثم وقفت، وقلت للحضور: "لا عزاء لظافر إلا بعد أن أقتل قاتله". وانطلقت لأبحث عن ذلك الخائن.

لم تكن قصة قابيل وهابيل هي الأخيرة من نوعها، فقد حدثت معي رغم اختلاف السبب. الأخ يقتل أخاه من منطلق الغيرة، فلأي سبب قتل صابر أخاه؟ ظللت أبحث عنه لمدة ثلاثة أشهر في المقاهي والأسواق دون جدوى حتى اعتقدت أن الأرض انشقت وابتلعته. خطر على بالي فكرة تردده على الإدارة المدنية، فتربصت له على بعد أمتار قليلة من بوابتها الرئيسة. كنت أنتظر ظهوره

obeikandi.com

بقلب يغلي كقدر الماء وعيون لا تسهو عن كل من يدوس عتبتها أو يغادرها. أسبوع كامل وأنا أرصد حركة الداخل والخارج، أنتظر قدومه بفارغ الصبر دون فائدة. مللت من وقوفي المشبوه وقررت العودة إلى منزلي والقهر يجلدني بسياطه.

في مساء ذات يوم أقبل أحد الجيران إلى منزلي وأخبرني أنه رأى صابراً يدخل الإدارة المدنية. حال سماعي ذلك، غادرت منزلي أركض إلى الإدارة المدنية دون وعي أو تفكير. اختبأت وراء شجرة سرو أنتظر خروجه بفارغ الصبر. بعد ربع ساعة تقريباً شعرت بيد تطبطب على كتفي، وصوت باك يتوسل إليّ بالعودة إلى البيت. إنها أمه التي لم يطاوعها قلبها على أن أفعل شيئاً بولدها الخائن. لم أصغ لها، رفضت العودة حتى أحقق ما جئت من أجله. طلبت منها أن تعود إلى البيت فرفضت. أصرّت على أن تظل معي حتى أعود. أثناء حواري معها رأيت الخائن يخرج من الإدارة المدنية ويضحك. صبرت عليه حتى تجاوز سورها، لحقت به مسرعاً دون أن يلحظ ذلك، وحاولت طعنه بخنجر مسموم في ظهره. صاحت أمه بأعلى صوتها تناشدني بعدم قتل ابنها الأخير. صياحها أفشل محاولتي، جعله ينتبه خلفه ويسحب مسدسه ويطلق النار نحوي، أصابني برصاصة في كتفي الأيسر. رأت أمه الدم يسيل من كتفي إلى صدري، فظنت أنه أصابني في قلبي. لم تستطع احتمال المشهد. أصيبت بنوبة قلبية وماتت على الفور. قتل أمه وفرّ هارباً إلى داخل الإدارة المدنية ليحتمي بأسياده. حملت جثة زوجتي والعار يغمرني كونه ولدي. حملتها غير مصدق ما حدث وكأنه كابوس فظيع. دفنت جثتها الطاهرة بجانب ولديها عبد القادر وظافر. أصبت بعدها بانهيار عصبي حاد، اضطررت

على إثره المكوث في المصحة النفسانية لمدة سنة كاملة. عندما عافاني الله وشفاني عدت لأبحث عن ذلك الملعون في كل مكان دون جدوى.

في العام ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين، التقيت بصديق عبد القادر، سلّم علي ودعاني إلى شقته لاحتساء فنجان من القهوة. لم أرد كسر خاطره؛ فهو بمعزة عبد القادر. احتسيت معه فنجاناً من القهوة وتبادلنا الحديث عن ذكرياته مع ولدي الراحل. وفي محاولة ظننت أنها غير مجدية سألته إن كان يعرف مكان الخائن. لحسن الحظ تبين أنه يعرف أين يسكن. أمسكت بيده وجررته راكضاً أسابق الريح إلى مكان صابر. وصلت شقته وأجبرت صديق عبد القادر على مغادرة المكان. صعدت الدرج بهدوء وحذر، وفي اللحظة المناسبة اقتحمت عليه باب حجرته وهاجمته بخنجري وهو نائم. طعنته مائة طعنة، كنت أعدّ الطعنات واحدة واحدة. لم أترك شبراً من جسده دون أن أغرس فيه طعنة. كنت أسدد له الطعنات دون وعي وأبكي على سوء حظي وقدري القاسي!"

اغرورقت عينا العجوز بالدموع، صمت قليلاً، لف سيجارة ثانية، أشعلها ثم استطرد قائلاً: "آه يا بني! ما أصعب أن يقتل المرء ابنه بيده. لكن كان عليَّ أن أغسل عاره بيدي. نعم، قتلته... قتلته. أحياناً يضطر المرء لفعل أشياء تفوق الخيال من أجل تطهير الحقيقة من شوائب قذرة. وجوده حياً كان يجثم على صدري كصخرة بليدة. ظل طيف ظافر يطاردني في اليقظة والأحلام، يطالبني بالثأر له.

قتلته! قتلت ابني ودفنته في حديقة الشقة التي كان يسكن فيها. لا أنكر أني بكيت بعد أن تلطخت يداي بدمائه، مهما يكن فهو ولدي. دفنته ودعوت الله أن

يغفر لي وله. قتلته وحرمت على نفسي البقاء هناك. فضلت الرحيل بعيداً. اخترت الضفة. هل تريد معرفة أشياء أخرى؟".

ربتُّ على كتفه بيد مرتعشة، وقلت مواسياً: "يا إلهي! ما أصابك يجنن الجنون".

شرع يبكي. لم أستطع تمالك نفسي، بكيت معه. تزامن البكاء مع سقوط الأمطار تهطل بشكل قوي، تذيب الثلج ليظهر المخفي. قلت محدثاً نفسي: "حتى السماء تبكي معك". مسكين ذلك العجوز، لقد عانى الكثير في حياته، ذاق الأمرين بل أكثر.

آه يا أبي! وما هي معاناتي بالنسبة له؟ لا شيء! لا شيء! فعلاً من يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته، أليس كذلك؟

لم أعرف ماذا أفعل أو كيف أضمد جراحه العميقة. أدركت أنني حفرت أخاديد في قلبه الهرم. أشعلت ناراً في صدره ولا أقوى على إخمادها. لم يكن أمامي غير تقبيل يده والاعتذار. قبّلت يده ووضعتها فوق رأسي، وقلت وقد غلبتني الحيرة: "سامحني!". رمقني بنظرة، وسألني مستغرباً: "على ماذا؟". قلت بتوتر: "فتحت جراحك". مسح دموعه بكفه، وقال: "المصائب محك الرجال". قلت في قرارة نفسي: "أبيع رجولتي أمام هكذا مصائب". ثم قلت بصوت مسموع: "إذن أنت مطلوب للاحتلال". ابتسم وقال: "لم يبق من العمر مثل ما مضى". قلت متحمساً: "لو يفكر أحدهم بمس شعرة منك، فسوف أضحي بنفسي من أجلك". طبطب على كتفي بمودة، وقال: "سلم الله عمرك يا بني. حياتي انتهت منذ زمن". وفي محاولة مني لتغيير مجرى الكلام، سألت: "هل كان اليهود

obeikandl.com

يعيشون معكم قبل الاحتلال؟". صفن قليلاً وقال: "كنت أعرف أنه يعيش في اللد أحد عشر يهودياً. لم يحدث وأن رأيت أحداً منهم غير كوهن جار أبي السعود. كان يعمل أجيراً في مزرعته. أذكره جيداً. كان رجلاً طيباً، اعتاد أن يأتي إلى المضافة ويستمع إلى الزجل، ويشاركنا أفراحنا وأحزننا. لا أدري ماذا حل به بعد الاحتلال، ليتني أراه وأسأله عن رأيه فيما فعله الصهاينة بنا."

تمدد على الفراش، تنهد بعمق، وقال: "رحم الله ما مضى". سألته بفضول: "هل تنظر ل "كوهن" كعدو؟". أجاب: "أبداً! كان واحداً منا، يعيش بيننا، وكثيراً ما كنا نتقاسم الخبز والملح. حتى أني مدان له بحياتي". سألته باستغراب: "وكيف ذلك؟". أجاب: "وقعت ذات مرة في البئر وكدت أغرق لولا أنه قفز في البئر وأنقذني". قلت مخمناً: "إذن كنتم تعيشون بسلام مع اليهود". جلس القرفصاء، وقال: "لم نكن أبداً ضد اليهود، وحتى هذه اللحظة، نحن ضد الاحتلال فقط".

ابتدأ يطبِّل على معدته. بدت وكأنها طبلة رنانة قلت بغباء: "أعتقد أنك جائع، أليس كذلك؟". رمقني بنظرة، وقال: "بل أتضور جوعاً". سألته إن كان يرغب في الشواء. ابتسم بمرارة وقال إنه نسي رائحته وأنه لم يذق اللحم منذ خمس سنوات أو أكثر. سألته مستغرباً: " وماذا عن لحم الأضاحي؟". ابتسم وقال: "لم يطعمني أحد من أضحيته". فكرت في أمر لم أفكر به من قبل؛ قوت يومه. سألته بفضول كيف يحصل على طعامه. استغرق في الضحك، وقال: "كنت أحصل عليه عن طريق القوى الضاربة. كانوا يفتقدونني كل أسبوع. يحضرون لي المعلبات والقهوة، والخبز، لكن منذ شهر لم أر شيئاً منهم". سألته باستغراب:

obeikandi.com

"لماذا توقفوا عن تزويدك بالمؤونة؟". قال مخمناً: "ربما اعتُقِل الشاب الذي كان يزودني بالتموين أو استشهد". خطر على بالي أسئلة كثيرة لم أعرف أجوبتها، فسألته مندهشاً: "أين تستحم؟". ضحك وقال: "في زاوية الخيمة، هل تود الاستحمام؟". قلت محرجاً: "لا! مجرد سؤال". ثم أردت أن أسأله سؤالاً آخر، قاطعني وقال: "دعك من الأسئلة فأنا أتضور جوعاً".

نهضت محرجاً وجمعت كمية من الحطب وطلبت منه أن يجهز النار. انسللت بخفة وحذر نحو حجرتي لأجلب بعض الخضراوات. لم يتوقف عقلي عن التفكير لحظة واحدة في حياة هذا الرجل العجوز ومصائبه التي لا يمكن تصورها. والله إنه لرجل شديد، يستحق كل الاحترام والتبجيل. يا الله، كم أنا معجب بشخصه! أعتقد أنه قد حصل على تربية حرة، وأنه قد تمرس في طفولته وشبابه حتى وصل به الأمر أن يصبح خادماً لإرادة صلبة. والله، إن عقله ليختزن كل المعارف التي ترتبط بالحقائق الأساسية للإنسان المكافح. إنه مفعم بالحياة والصبر رغم كل ما عاناه وما زال يعانيه. يا لروعة حديثه! ويا لقوة عزيمته! وبالرغم من أنه يفتقر للقوة البدنية وللحيوية، ويفتقر للبنية المتينة لدعمه في صراع الحياة، إلا أنه صلب بإرادته. إنني أحسده رغم مرارة ما حدث له، وإنني لأشعر بأنه مثلك يا أبي، لأنه حقاً عوضني عن فقدانك.

obeikandi.com

(11)

تركت العجوز جائعاً، أمعاؤه خاوية. لذا هرولت إلى حجرتي مسرعاً كي لا أطيل عليه. حال دخولي الحجرة، فوجئت أن أرضها تغرق بالماء. ابتسمت، ولا أدري لم ابتسمت، أمن الضجر أم من النشوة؟ تناولت المسحة وشرعت أجفف الأرضية. أمضيت قرابة الساعة منشغلاً بهذه المهمة المرهقة، المرهقة جداً.

وضعت إناء تحت كل ثقب، ليكون مرمى لقطرات الماء المتساقطة بكثافة من صفائح الزينكو. تلك القطرات التي بدت وكأنها سيول جارفة. ابتدأت أسمع موسيقى جميلة، سميتها موسيقى الفقراء، تعزفها قطرات الماء المتساقطة من الثقوب عند ملامستها للأواني، "طق طق، طق طق". وقفت أستمع وأبتسم. غمرتني النشوة وأنا أستمع لتلك المعزوفة. نسيت نفسي، نسيت موعدي، أغلقت عينيّ ورحت أبحث في ذاكرتي عن كلمات تناسب اللحن. قد أكون الرجل الأكثر غرابة في هذا الكون، لكني الأكثر سعادة بلا شك!

قطرة من الماء صفعت جبيني، وأعادتني إلى واقعي. تنهدت بعمق، وحمدت الله أني لا أملك إلا غرفة واحدة، وإلا لتمنيت أن أكون إلهاً هندياً، لي أكثر من يدين اثنتين لأتمكن من تدارك ما في السقف من ثقوب.

وما زاد الطين بلّة، وزاد بؤسي جرعة جديدة، هو انزعاج جاري العجوز من جدار حجرتي الملاصق لغرفة نومه مباشرة. احتلت الرطوبة جداره فجعلت منظر

obeikandl.com

حجرته مثل حظيرة الخنازير كما قال. اقتحم عليّ الحجرة ومسح الأرض بكرامتي. لم يترك شتيمة إلا وشتمني بها وكأني أنا من تسبب بتلك الرطوبة. قلت له في محاولة لتذكيره بشيء أسوأ من الرطوبة، إن رائحة زريبة ماشيته كادت تخنقني فلم أحتج أو أشعره ولم أذكِّره برائحتها التي تضايقني، حتى أنه لاحظ ذلك بنفسه حين دخل حجرتي: "ما هذه الرائحة النتنة؟"...

نسي أن زريبته تقع مباشرة وراء نافذة حجرتي، وهي المتنفس الوحيد للغرفة. قال باستكبار: رائحة الزريبة مثل العنبر، فإذا كانت الزريبة تضايقك فارحل من هنا. قلت في غضب: مثل العنبر!!! فلنفرض أن الرائحة مثل العنبر -رغم أنك وصفتها بالنتنة حال دخولك- فماذا عن أصوات ماشيتك والفوضى التي تحدثها كلما أغمضت عينيّ، والله إني لأقوم مفزوعاً منها كل ليلة ولا أشكو.

قاطعني وقال بتهكم: "أنت مفزوع منذ أن ولدتك أمك، أما ماشيتي فهي هادئة ولا....، لم أستطع سماع كلامه أكثر، وحتى أختصر شره قاطعته قائلاً: "ماشيتك هادئة هدوء الليل، ورائحتها أجمل من رائحة العنبر، لكن اتركني وشأني. وكأني بردي هذا قد لطمته على وجهه، اهتاج وأخذ يصيح بأعلى صوته: لو كان النبي حياً لأمر برجمك، أين حق الجار على الجار؟ أين الإسلام؟. خرج وهو يسبني ويخطب عن الإسلام، رغم أن الإسلام بريء من أمثاله، إذ لم يمرّ يوم دون أن يسب زوجته أو يضربها، أو يسب الذات الإلهية، إلا أنه مثل غيره يعرف الإسلام عند المصلحة الذاتية.

آه يا أبي! أحياناً لا يدرك المرء قيمة ما يملك إلا بعد فقدانه. أدركت أنك كنت المظلة التي تحميني من لهيب الشمس الحارقة ومن زخات المطر. المظلة التي

تحميني من ألسنة طويلة وشريرة. تحولّ ذلك الجار الجائر إلى وحش كاسر بعد وفاتك، صرت أنا شغله الشاغل. تارة يتهمني بتحريض أطفال الحارة ضده، وأخرى يتهمني بوضع الأوساخ أمام عتبة بيته. إلا أني كنت ألتمس له الأعذار بسبب هرمه.

كل يوم يمرّ يزداد إدراكي لمعرفة معاني كل من: مشرد، لاجئ، مهدد الإقامة، مسلوب الراحة والطمأنينة. أعيش ضيفاً منبوذاً في الضفة، وسائحاً محروماً وغير مرغوب فيه في اللد، والرملة، ويافا، وكل فلسطين. لا تقلق يا أبي! هذه المشاعر تملّكتني، وأيقظت مارد الأمل المدفون في جوفي.

تناولت ما لدي من خضراوات وكسرات خبز جاف، وانطلقت مسرعاً إلى خيمة العجوز متشوقاً لحديثه.

في الطريق رأيت سحباً من الدخان تتصاعد من منزل الحاجة صالحة. هُيئ إلي أن بيتها يحترق. اضطرب قلبي خوفاً، فرحت أركض بأقصى سرعتي إلى منزلها لأرى ماذا يجرى وأمد يدي للمساعدة. طرقت باب منزلها برقة كي لا أحدث ضجة، لم تجب. برقت في ذهني فكرة دخول منزلها عبر السور، لم أتردد. تسلقت السور وعند النزول التوتْ قدمي فسقطت في حديقة منزلها على وجهي. وما كدت أرفع رأسي قليلاً حتى رأيت قدمين تنتصبان أمامي، ويد تلمس شعري بلطف وصوت يسألني باهتمام: "هل أنت بخير؟". انفجرت ضحكاً وقلت: "ظننت أن بيتك يحترق، فاضطررت لتسلق السور". ساعدتني على الوقوف وقالت: "نفد الخبز من بيتي فاضطررت لإشعال فرن الطابون". سال لعابي حين ذكرت خبز الطابون، فأنا مغرم به جداً. سألتها لخلق حوار لماذا لا تستخدمين

الفرن الكهربائي. ضحكت وقالت: "كيف سأخبز والجيش قطع الكهرباء منذ فرضه حظر التجوال؟!". سعلت واستطردت قائلة: "أنا محظوظة جداً، فغيري يشتهون الخبز حين يقطع التيار الكهربائي".

دعتني للجلوس معها فجلست. رأيت وعاء فيه كمية كبيرة من العجين، سألتها باستغراب لماذا كل تلك الكمية؟ قالت إنها تود أن توزع منها على جيرانها، فالخبز نفد أيضاً من بيوتهم. قلت معجباً بكرمها: "ما أطيب قلبك!". أجابت بمودة: "النبي -عليه السلام- وصّى بالجار، وهذا واجب". ابتسمت حين ذكرت كلمة الجار ولم تر ابتسامتي. جلست بجانبها أرقبها وهي تخبز. أدهشتني سرعتها وفنها في استخدام فرن الطابون. سألتها بدهشة: "من علمّك خبز الطابون؟". ابتسمت وقالت: "لن تصدق لو أخبرتك أن جارة يهودية كانت تسكن بجانب بيتنا هي من علمتني، كنت في الثانية عشرة آنذاك". سألتها غير مقتنع بما تقول: "لماذا لم تعلمك أمك؟". قالت موضحة: "أمي علمت جارتنا اليهودية، وجارتنا علمتني". سألتها كيف كانت العلاقة مع جارتك اليهودية. تنهدت بعمق وقالت: "كانت كواحدة من أفراد عائلتنا، نتزاور في الأعياد والمناسبات". سألت بفضول: "وماذا حدث بعد الاحتلال؟".

أجابت ودمعتها قد سبقت كلامها: "خبأتنا في بيتها لحظة اقتحام القرية والسيطرة عليها، كانت تشعر بالخجل الشديد مما أصابنا بسبب قومها. وحين رحلنا بكت بكاء شديداً، وتمنت أن نبقى على اتصال".

سألتها باهتمام: "وهل رأيتها منذ ذاك الحين؟".

أجابت بحزن: "لا، انقطعت أخبارها تماماً". صمتت قليلاً ثم قالت: "كان لها بنت من جيلي تدعى راشيل، ليتني أراها قبل أن أموت، كانت صديقة حميمة".

تناسينا الموضوع وعدت أستمتع بمشاهدتها وهي تخبز، رأتني أبحلق بها باستغراب فسألتني: "هل تود أن تجرب؟". هززت رأسي بالموافقة. أعطتني وسادة مستديرة، وقالت: "مد قطعة العجين على الوسادة حتى تصبح رقيقة ثم لفها بيديك في الهواء حتى تتمدد وأسقطها في الفرن". بدت المسألة معقدة جداً، فقلت مبرراً: "لا أستطيع استخدام يديّ الاثنتين". ابتسمت، وقالت ممازحة: "حُجة الراقصة التي لا تجيد الرقص أن الأرض مائلة. أستطيع فعل ذلك بيد واحدة، جرب". حاولت عدة مرات مستخدماً قطعة العجين ذاتها، لم أوفق. كانت تتجعد كلما حاولت لفها في الهواء. ابتسمت وقالت: "عندما تشفى يدك سأعطيك فرصة لتجرب مرة أخرى".

فجأة سمعنا صراخاً ينبعث من بيت جيرانها. سألتها بدهشة عمّا يجري، قالت غير مبالية: "هذا جاري أبو عليّ، نفدت سجائره". ضحكت بعفوية وسألتها كيف عرفت ذلك. أجابت بثقة: "جاري منذ عشرين عاماً وأنا أعرفه جيداً، هل تدخن؟". أخبرتها أني لا أدخن إلا في المناسبات. هزّت رأسها، وقالت: "إذن علي أن أضع القطن في أذني".

اختلجني غم مفاجئ ترك أثاره على وجهي بوضوح، أحست الحاجة صالحة بذلك، فسألتني عمّا يضايقني. قلت لها إنني بخير. أصرّت على أني أخفي شيئاً في صدري، أكدت لها أنها مخطئة. قالت بحنان: "أنا مثل أمك، افتح لي قلبك وأطلعني على ما يوجعك". قلت بتقزز: إن الدنيا تلعب بي وكأني كرة قذرة،

obeikandi.com

والناس يستهترون بي ويهزؤون من طيبتي. ووجهي يجلب لي النحس ولا أعرف ماذا أفعل، غير أني أعلم جيداً أن صدقي وطيبة قلبي هما السبب، فلو كنت كذاباً لاحترمني الناس، ومنحني أصحاب العمل وظيفة أستر بها نفسي ولما سخر أحد مني. تنهَّدت بعمق وقالت: "الكذَّاب يرضي الناس ويغضب من خلق الناس، أما الصادق فيغضب العباد ويرضي رب العباد، أيّ بني، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة".

رغم أن كلامها لفت انتباهي إلى مسألة مهمة، إلا أن الحقيقة بقيت تلدغ جسدي بسياط اليأس، قلت بيأس: "دفعني الناس إلى حافة الكفر وأنسوني ذكر الله. كيف لا وأنا أعاملهم بالحسنى ويعاملونني بالسوء". ضغطت كتفي بلطف، وقالت: "من أقوى التحديات أن تُحسِنَ إلى من أساء إليك، أن تبتسم للأمل والألم يمزقك، أن تعطي وأنت محتاج".

أدهشني كلامها وأشعل فتيل عقلي. حقاً يا أبي، أسعدتني تلك العجوز بكلامها العذب، ولولا أني تذكرت أبا العبد وجوعه، لبقيت معها لوقت أطول لأستمتع بكلامها العذب.

تعلَّمت منذ نعومة أظافري أن أكون عبداً لمن يعلمني حرفاً، لطالما كرهت سماع كلمة عبد، تلك الكلمة التي كلما قالها الأستاذ لنا، اهتجت وصحت فيه: "لا عبودية لبشر، العبودية لمن خلق البشر وبيده حياتهم وموتهم". كان يجيب بالضحك ويقول إن الأيام ستعلمني معنى تلك العبارة. نجحت الأيام في إقناعي أن عبودية الله شيء وأن تكون عبداً لمن يعلمك حرفاً شيئا آخر. أدركت أن كل

obeikandl.com

معلومة جديدة يلتقطها عقلي هي رصاصة لقتل الجهل، ذلك العملاق المروع. وجدير من يعطيني تلك الرصاصة باحترامي العظيم.

قبَّلت يدها الهرمة وشكرتها بحرارة على كلاماتها المجانية الطيبة التي تسللت إلى عقلي واستوطنت فيه دون أي مقاومة أو احتجاج. قبل مغادرتي أوقفتني وأعطتني رغيفين ساخنين. شكرتها بحرارة وانصرفت. ما أن تجاوزت عتبة بيتها حتى ابتدأت أشم رائحة الخبز الشهية، وانتف أطراف الرغيف بأسناني وأهمهم.

على بعد أمتار من منزلها سمعت صياح جارها المدخن مرة أخرى. بدا وكأنه يجلد أولاده بحزامه، حيث سمعت أولاده يصيحون ويتوسلون إليه بأن يتوقف عن جلدهم. قلت في نفسي: "كان الله في عونهم!". بقي صراخهم يطن في رأسي وكأنه يستغيث بي. برقت في ذهني فكرة لإنقاذهم من حزام والدهم أو الشيء الذي يجلدهم به، فتظاهرت أني جندي. التقطت حجراً عن الأرض وطرقت باب بيته الحديدي بشدة، وصحت بأعلى صوتي مقلداً لهجة الجنود: "اسكت! اسكت!". سمعت الرجل يهمس لأولاده: "هل ارتحتم الآن؟ ها قد جلبتم الجيش بصراخكم". صحت ثانية: "إذا سمعت أولادك يصيحون، سوف أعتقلك، مفهوم؟". أجاب بصوت مرتجف: "حاضر يا كابتن". صحت بسخط: "سأعود بعد قليل". ضحكت وقلت بصوت خافت: "لكل داء دواء".

مشيت مسافة قصيرة، سمعت مشادة كلامية بين رجل وزوجته. الزوجة تقول: "أتوسل إليك أن تنام". يجيب الزوج: "والله لأطلقك بالثلاث بعد رفع حظر التجوال". ترد الزوجة غاضبة: "طلقني الآن وأرحني من جنونك". قلت بصوت خافت ما لهم سوى الحجر. التقطت حجراً وطرقت نافذتهم الحديدية

obeikandi.com

وصحت مقلداً صوت جندي ساخط: "اسكت!". سكت كلاهما وكأنهما سمعا صوت عفريت. ابتسمت، وقلت في نفسي: "أحياناً يحتاج المرء لمن يخيفه كي يتوقف عن جنونه".

تابعت سيري أمشي بتلكؤ حتى وصلت الخيمة. رأيت العجوز متكئاً على وسادته المرقعة، مشعلاً النار بشكل رهيب. نظر إليّ وسألني: "ماذا يدهشك؟". سألته وأنا أبحلق بالنار بذهول: "كيف أشعلتها؟". تجاهل سؤالي وسألني مستغرباً: "من أين لك خبز الطابون؟". أخبرته أن الحاجة صالحة أعطتني إياه. انتزع رغيفاً من يدي وسألني عن سبب تأخري. أخبرته فتفهم الأمر. جلست بجانب الموقد، وبادرني بسؤال: "لم تخبرني عن اسمك بعد؟". اهتزَّ بدني حين سأل عن اسمي. لم أعرف ماذا أجيب، أردت أن أكذب عليه حتى لا أضايقه باسمي الذي سيفتح جراحه كلما اضطر لمناداتي. لكن لم يهن عليّ أن أكذب عليه. رآني متوتراً، فكرر سؤاله. أجبت بتلعثم:اسمي، اسمي...

- هل نسيت اسمك؟
- ستكرهه.
- صابر؟.
- نعم!
- اغرب عن وجهي!
- حاضر!
- الآن...
- لمْ أختر اسمي.

obeikandl.com

وقفت منكسر الخاطر لأغادر الخيمة تحقيقاً لرغبته. دخل الدخان في عينيّ، ففركتهما. ظن أنني أبكي. أمسك بيدي وأجلسني، وسأل بدهشة: "أتبكي؟". قلت مدافعاً: "لا أبكي، الدخان...". قاطعني، وقال بشفقة: "لا يهمني اسمك، أردت أن أمازحك فقط". سألته إن كان يقصد ما يقول. فأجاب مؤكداً: "هل تظنني سأغير رأيي فيك لأن اسمك صابر، لا يا بني، تحاسب الناس على أفعالهم لا على أسمائهم". ارتاح قلبي فاسمي كان حملاً ثقيلاً يهدد علاقتي بالعجوز أو هكذا اعتقدت.

رحنا نشوى لحم الغزال وننشد أناشيد وطنية قديمة. تارة ينشد العجوز، وأخرى أنا، وأحياناً ننشد سوياً. شعرنا وكأننا نشوي اللحم على شاطئ يافا. انتهينا من الشواء بعد أن أحرقت أصابعي عدة مرات بسبب العجلة والجوع. وضعنا الشواء أمامنا لنأكل وما كدنا نهضم اللقمة الأولى حتى فوجئنا بعصابة من الجيش قادمة نحونا. وخزت أبا العبد بسبابتي وقلت ساخراً: "شرّفوا أولاد عمنا". قال غير مكترث: "رأيتهم قبل أن تراهم".

دخلوا بأسلوب همجي وأخذوا يفتشون الخيمة، يقلبون محتوياتها رأساً على عقب، وكأنهم يبحثون عن شيء ما يهدد أمنهم المزعوم! تضايق أبو العبد فرمى اللقمة من يده وصاح بانفعال: "كفوا عن بعثرة الخيمة والعبث بمحتوياتها". لم يأبهوا به، واصلوا تفتيشهم. رفعوا الحصيرة وأرادوا أن يروا ماذا يخبئ العجوز في رحم الأرض. صاح أبو العبد ثانية: "عن ماذا تبحثون؟". تقدّم الضابط من أبي العبد وبأدب قال: "نبحث عن مطلوبين". أرعد أبو العبد ضحكة ساخرة،

obeikandi.com

وسأل باستغراب: "وهل يختبئ المطلوبون في رحم الأرض؟!". أجاب الضابط بتلعثم: "هذا عملنا ونعرف جيداً ماذا نفعل".

أشاح أبو العبد بوجهه، رمقني بنظرة وطلب مني أن آكل وأن أنسى أنهم موجودين في الخيمة. همست قائلاً: "أخشى أن تعلق اللقمة في حلقي". قاطعنا الضابط: "شممنا رائحة اللحم من مسافة بعيدة". عرفت أنهم جياع، همست لأبي العبد: "هل أعرض عليهم مشاركتنا في الطعام؟". رمقني بنظرة، وقال بفظاظة: "اسكت!".

نظر إلى الضابط وسأله بلهجة جلفة: "هل انتهيتم من التفتيش؟". هز الضابط رأسه ولعابه يسيل. فقال العجوز وهو يأكل: "إذن تفضلوا". ظن الضابط أن العجوز يعرض عليه مشاركتنا في الطعام، سأل بلهفة: "للأكل؟". أشار العجوز بسبابته إلى باب الخروج، وقال بقسوة: "لا! تفضلوا بالانصراف". غصّ الضابط بريقه وقال: "تكلم معنا باحترام". لوى العجوز فمه مستغرباً ما سمع وقال: "احترام؟ وهل احترمتم حرمة خيمتي؟". أجاب الضابط ولا زالت عيناه تأكل معنا: "إنها أوامر، وأنا أنفذها". ابتسم العجوز وقال: "ها قد نفذتها ماذا تنتظر؟". فرك الضابط وجهه وقال: "سمعت الكثير عن الكرم العربي، يبدو أن ما سمعته ليس صحيحاً". رمقه العجوز بنظرة استغراب، وقال: "بل صحيح، لكنه مع الضيوف". قال الضابط: "وأنا ضيفك". أجاب العجوز بسخرية: "ضيفي لا يقتحم خيمتي ويشهر السلاح في وجهي".

على ما يبدو كان الضابط يتضور جوعاً، فحاول أن يمدد فترة وجوده بالخيمة قدر الإمكان لعلّنا نشفق عليه وندعوه ليشاركنا في الطعام. وفي محاولة منه

للتخلص من ورطة الكرم العربي التي أقحم نفسه فيها سأل العجوز بلهجة ساخطة: "من هذا الشاب؟". أجاب العجوز ببرود أعصاب: "ابني!". هز الضابط رأسه وقال: "نريد أن نفحص بطاقته الشخصية، فربما يكون مطلوباً للمخابرات". نظر إلي العجوز، وطلب مني أن أعطيه هويتي. تناولت بطاقتي من جيب معطفي وأعطيتها للضابط ويدي ترتجف. قارن اسمي بلائحة أسماء المطلوبين، فلم يجد لي اسماً. هز رأسه وقال مخاطباً العجوز بلهجة لينة بعض الشيء: "يبدو أنك أحسنت تربية ولدك، كل شيء عنده على ما يرام". أجاب العجوز بضجر: "مع السلامة". ملّ الضابط من وجوده في خيمة صاحبها بخيل، فخرج وهو يدمدم باللغة العبرية. أرعد العجوز ضحكة ساخرة. وبصوت خافت علَّق:

- إنهم مثل القطط يركضون وراء الرائحة.

- أنت على حق يا أبي.

- أبوك؟

- نعم، ولي الفخر أن أناديك بأبي.

وكأنه تذكر أني إنسان ومن المفروض أن يكون لي أب، سأل:

- أين والدك؟

- توفي قبل عدة أيام.

- رحمه الله.

- آمين!

- هل ترغب بالحديث عن نفسك؟

obeikandi.com

- سأحدثك عن نفسي أثناء تناولنا الطعام.

أثناء حوارنا سمعنا صدى صراخ أحد الشبان يرعد في قلب الجبل، يطلب الاستغاثة ممن يسمع صراخه: "يا ناس، أنقذوني! أغيثوني!". اعتقدت أن الجنود الذين كانوا في خيمتنا أمسكوا أحد الشبان ويعتدون عليه بالضرب. نظرت إلى أبي العبد نظرة استغراب وسألته عن مصدر ذلك الصراخ. أجاب غير مكترث: الثورة تأخذ حقها!

- لا أفهمك.

- إنهم يحاسبون العميل شريف.

- من الذي يحاسبه؟

- قوات الثورة الضاربة.

- سمعت عنه الكثير.

- المخفي أعظم.

- ألا يخشون الجيش؟

- الله معهم.

- هل سيقومون بإعدامه؟

- نعم!

- كيف عرفت هذه المعلومة؟

- لا شأن لك! قصّ عليَّ قصتك وأنس أمرهم.

obeikandi.com

(12)

قمعني العجوز بإجابته الفظة، وشرعنا نأكل بشراهة، متناسين صراخ العميل واستغاثته بأحد يخلصه من محكمة الثورة. كان عليه أن يفكر ألف مرة قبل تورطه في الخيانة. فلا شيء أفظع من الخيانة. لولا الخيانة لما تمكن الاحتلال من السيطرة على أرضنا أو تصفية واعتقال جنود الثورة. تناسيت أمر ذلك الوغد تماماً. نظرت إلى العجوز، رأيته يأكل ويهمهم مستمتعاً بالشواء.

توقف لحظة عن الأكل وطلب مني أن أقص عليه حكايتي مرة أخرى. قلت بصوت خافت محدثاً نفسي: "عجوز خبيث، يريد أن يشغلني بالحديث ليلتهم الأكل وحده". ابتسم وقال: "اسرد لي حكايتك، سآكل على مهلي". ضحكت، قلت محدثاً نفسي: "كأنه يقرأ أفكاري". وخزني بسبابته وقال: "كل وتكلم". طفح وجهي بالحمرة، لم أعرف ماذا أقول وكيف أبدأ. تنحنحت لأنظف حنجرتي، وابتدأت بتلعثم وتوتر أقص حكايتي:

قصتي في هذه الدنيا أبسط من سفك الدماء عند المحتلين وقطف الرقاب عند زعماء العرب، وأكثر تعقيداً من قضيتنا الفلسطينية. أمضيت حياتي أغوص في مستنقع الفقر كغيري من أولاد اللاجئين المشردين، حتى أصبح اليأس ثوبي الذي لا أستغني عنه. أمضيت طفولتي ألعب بنفايات الأغنياء أبحث عن لعبة تسعد قلبي فلم أجد سوى فتات الألعاب البالية. جمّعت نفايات كثيرة لأصنع منها دمية

واحدة، فكان الرأس من دب بالٍ، والجسد من حمار منصهر، وكانت الأرجل من دمية مطاطية، والأيدي من دمية ثرية محطمة. خَيَّطْتُ كل الأجزاء البالية بخيط موحل نسلته من كيس خيش يحتوى على دقيق وكالة الغوث. وكم كنت سعيداً حين تمكنت من صناعة تلك الدمية التي بدت وكأنها تحفة فنية.

أمضيت مرحلة الصبا ألعب بين الأودية والمجاري، أستنشق عطرها القاتل، وأسبح بمائها المخمر. أما ثيابي فكانت مستوردة، وفيها عشرات الرقع الجذابة. وكان حذائي مصنوعاً من البلاستك، إذا ما انتعلته أيقظت الموتى وأسمعت الصم موسيقاه العذبة. وإذا ما جعت أكلت أوراق الأشجار، وركضت كالوحش في البر أبحث عن طير دائخ لأشوي لحمه أو أرنب تائه لأطحن عظامه قبل لحمه.

عندما كبرت وأصبحت شاباً، شاخ همي وصغر عقلي. أصبحت كدميتي التي صنعت حين كنت طفلاً؛ الوجه لا يطابق الجسد، والأرجل لا تطابق الاثنين، واليدان لا تطابقان الكل. نسيت نفسي فزعمت أنني كالنبات ما لي زارع، ولا لاختلاف صور فصيلتي والبهائم صانع، لم ألجأ إلى حجة فيما ادعيت. أنكرت وجود الخالق، وتبرأت من كل دين بسبب فقري. وكل يوم يمرّ يزداد كفري إلى أن قابلت رجلاً تقيا، أيقظني من جهلي: "أيها الأحمق أجبني، هل يكون بناء من غير بانٍ؟ أو جناية من غير جانٍ؟ أو سفينة من غير قبطان؟ أعلم أن الفقر في الوطن غربة ولكني أعلم أيضاً أن لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل. لملم عقلك المبعثر واعلم أن هذه الدنيا هي الطريق التي ستوصلك إلى برّ الأمان إذا ما سلكتها بما يرضي الله، وأنها رغم شراستها هي حلقة الوصل بين الفناء والدار الباقية". أعجبني منطق ذلك العالم رغم أسلوبه الفظ في الكلام، يكفي أنه حررني

من شرور نفسي. عدت إلى الله بقلب تائب مكسور أسأله المغفرة، وأطمع في أن يتقبَّل توبتي ويغفر زلتي ويصلح شأني بعد ضياع دام سنين.

لم أنكر وجود الله لسبب منطقي الذي يثبت أو ينفي وجوده، بل نتيجة الفقر والتمايز المريع بين البشر. الفقر والإيمان هل يجتمعان؟ للإيمان دهشة وجمال وخيال وقوة، وللفقر آهات وذل وقمع وعبودية، تماماً كالشعوب المُستعبدة والأوطان المُستباحة. للفقر أنظمة ديكتاتورية، وثوار يرفضون وجوده في كل مكان. قتلني التمييز بين الدول أيضاً، تلك دول حباها الله بالطبيعة الرائعة: فيها أنهار وجبال وغابات وشلالات ونفط، غنية إلى حد الترف، وتلك دول فقيرة إلى حد العدم، أكواخها من صفيح تجاور ناطحات للسحاب، مواطنوها يموتون جوعاً وآخرون مُصابون بالتخمة."

قاطعني العجوز، وقال بدهشة: كأنك نسيت أن الله لم يميز بين أحد، وأنه ساوى بين الغني والفقير، الأبيض والأسود، الطويل والقصير، وكأنك نسيت أننا نحن البشر من تسببنا في كل ما ذكرت.

- لم أنس ذلك، بل أهلكني الظلم وعدم المساواة بين البشر. فالنور والظلام لا يجتمعان، إذا دخل النور فرّت الظلمة.

صمت العجوز قليلاً، ثم طلب مني أن أحدثه عن أمور تخصني: عن أهلي، بلدي، طفولتي دون اللجوء إلى الألغاز أو الفلسفة. ابتسمت وقلت:

شُرد أبي من قرية الدوايمه. تلك القرية التي جمع الاحتلال غالبية سكانها في مسجد القرية وأطلقوا عليهم النار بدم بارد. قضوا على أكثرهم، وشرّدوا من بقي حياً فيها ثم دمروها، وأقاموا على أنقاضها مستعمرة أماتزياه.

obeikandi.com

بعد النكبة قدِم والدي إلى هذا المخيم وتزوج من لاجئة مثله. أنجبت شقيقي أسامه ثم أصيبت بصدمة نفسية حرمتها من الإنجاب لمدة طويلة. منّ الله عليها بالشفاء فأنجبتني ويا ليتها لم تفعل! توفيت بعد أن وضعتني بأشهر قليلة، ولا أعرف كيف كان شكلها.

ولدت في أحضان أسرة فقيرة، كل ما تملكه منزلاً يتكون من غرفة كبيرة ومرحاض. عمل والدي معلماً في مدرسة إعدادية لوكالة الغوث لمدة عشرين عاماً. عندما أصبحت ابن اثني عشر ربيعاً، أصيب بالشلل النصفي وفقد بصره فتمّ الاستغناء عن خدماته. أردت أن أترك المدرسة لأعمل من أجل مساعدته في مصاريف علاجه على الأقل، لكنه رفض أن أترك مدرستي، لذلك لم يكن أمامي سوى العمل سراً بعد انتهاء دوام المدرسة. شعرت بمسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقي، فأخذت أجوب المحلات التجارية والحوانيت أسأل أصحابها عن عمل. جعلوا حاجتي للعمل موضع سخريتهم، مستهجنين رؤية طفل يبحث عن عمل، حتى أنهم لم يعطوا أنفسهم لحظة للسؤال عن سبب بحثي عن عمل. ظللت أبحث عن عمل لمدة شهر تقريباً. محاولات كثيرة باءت بالفشل، غُلّقت الأبواب في وجهي، فلعنت سني الصغير، وتمنيت لو أن والدي قد شلّ وأنا في عمر أكبر. بعد محاولات بائسة يائسة، ذهبت إلى المسجد. أنهى المصلون صلاتهم وبقيت جالساً أدعو الله أن يرزقني بعمل حتى أستطيع أن أوفر الدواء لوالدي. أثناء دعائي جلس رجل وسيم الطلعة بجانبي، وسألني عن سبب جلوسي وحيداً، فأخبرته حكايتي...

obeikandi.com

تأثر كثيراً. مدّ يده على جيبه وأخرج منها بعض النقود وعرضها عليّ. تألمت كثيراً من فعلته، وقلت له: إنني لست متسولاً، ولا أقبل الصدقة، جلّ ما أريده فقط مساعدتي في إيجاد عمل أقوم به بعد انتهاء الدوام المدرسي. هزّ رأسه متفهماً مرادي، اعتذر لي ووعد بمساعدتي. كان محتاراً بنوعية العمل الذي يمكنني القيام به. أبديت استعدادي وحماسي لتأدية أيّ عمل شريف؛ أكنس المحلات، أجلي الأواني في المطاعم، أو أنظف السيارات. هزّ رأسه متفهماً وطلب مني أن أزوره في بيته في مساء اليوم التالي.

في اليوم التالي وبعد أن غادرت المدرسة، ذهبت إلى منزله متلهفاً لمعرفة النتيجة. طرقت باب منزله فخرجت لي امرأة عجوز. سألتني عن حاجتي فقلت لها إنني أريد أن أقابل الشيخ محمدا. أخبرتني أنه لم يعد من عمله بعد. سألتها عن إمكانية انتظاره في منزلهم، فوافقت برحابة صدر. ظللت أنتظره لمدة ساعتين حتى عاد. فور وصوله بادرته بالسؤال بلهفة حتى أني نسيت أن أسلم عليه: "هل وجدت لي عملاً؟"، طبطب على كتفي، وقال إنه وجد لي عملاً يناسبني. صحت بحماس أسأله: "أين؟ وما هي طبيعة العمل؟ ومتى سأبدأ؟ وكم سأتقاضى؟"... رأى حماسي فابتسم ابتسامة عريضة وأخبرني أن العمل سيكون في سوبر ماركت، وكل المطلوب مني هو تنظيف الأرض، ومسح الغبار عن المعلبات وترتيبها على الرفوف، وقال إنه يمكنني مباشرة عملي في اليوم التالي بعد انتهاء دوامي المدرسي. أجاب عن كل أسئلتي لكنه لم يجب عن سؤالي المتعلق بالأجر الذي سأتقاضاه، وحقيقة شعرت بالخجل من طرح السؤال مرة أخرى.

لا يمكنك أن تتصور مقدار فرحتي آنذاك. قدمت جزيل الشكر للشيخ محمد، ودعوت الله له بالخير، ثم عدت إلى حجرتي وأنا في غاية السعادة. لم أخبر والدي بذلك، أبقيت الأمر سراً.

في اليوم التالي وبعد أن غادرت المدرسة توجهت إلى مكان العمل لمباشرة عملي. وجدت أن صاحب السوبر ماركت رجل تقي، يعرف الله حق المعرفة. أرشدني إلى المهام التي يجب القيام بها، فنفذتها على أفضل ما يكون، لدرجة أن صاحب السوبر ماركت أبدى ارتياحه وإعجابه بعملي.

كنت أعمل وأحافظ على دراستي في الوقت ذاته. واجهت أسئلة كثيرة من والدي في بداية الأمر، كلها كانت تدور حول سبب تأخري عن البيت. كنت أكذب عليه وأخبره أنني أدرس مع زملائي. أخيراً جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر. في نهاية آخر الشهر تقدم صاحب السوبر ماركت نحوي، يحمل بيده مغلفاً صغيراً، وباليد الأخرى كيساً أسودَ كبيراً مملوءاً بالمعلبات المختلفة، وبصوت يملؤه الحنان قال: "أجرتك في هذا المغلف الصغير، وهذه المعلبات هدية لك". تناولت المغلف وعانقته بحرارة وقلت: "جازاك الله خيراً". طلب مني أن أفتح المغلف وأرى إن كان المبلغ يعجبني. ابتسمت وقلت مجاملاً: "مهما كان مقداره فهو خير لي وسيسد حاجة!". بعد إصرار منه، فتحت المغلف فوجدته يحتوي على أجرة لا تقل عن أجرة أيّ عامل كبير. دهشت من ذلك وباستغراب قلت: "هذا كثير جداً، وأنا لا أستحق هذا الأجر". ربت على كتفي وقال: "من قال إنك لا تستحقه؟". انتابني شعور غريب ورعشة قوية وإحساس مروع فقلت: "ربما قصدت أن تتصدق به علي". ضغط يدي بمودة وقال: "لا يا

obeikandi.com

ولدي، هذا حقك، وأشهد الله أنك عملت بجد ونشاط تستحق عليه أجراً عادياً غير منقوص".

فرحت جداً بذلك، وشكرت ذلك الرجل الطيب على إنصافه لي، وعدت إلى حجرتنا أسابق الرياح وكلي شوق لمعرفة ردة فعل والدي.

اقتربت من والدي وجعلته يتحسس ما في الكيس، عرف ما بداخله وسألني باستهجان: "من أين لك هذا؟ هل مددت يدك إلى الحرام؟". تضايقت وقلت: "أنت تؤلمني بكلماتك يا أبي". تحسس وجهي وقال: "آسف يا بني، لكن أخبرني من أين لك كل هذه المعلبات؟". تجاهلت سؤاله وطلبت منه أن يتحسس مغلف النقود. أخذ يتحسس ما فيه، فتغير لون وجهه وقال: "نقود؟ يا ولدي أخبرني ولا تدخل الشك إلى قلبي!". قلت بفخر: "أنا أعمل يا أبي". قال بغضب: "تعمل! وماذا عن المدرسة؟". قلت موضحاً: "أعمل بعد انتهاء الدراسة، لا تقلق فأموري الدراسية تسير على أفضل حال؛ أما بالنسبة للعمل، فلقد ساعدني الشيخ محمد بإيجاد عمل عند رجل تقي يعرف الله، وأتقاضى أجراً جيداً". سألني عن المبلغ فأخبرته، طأطأ رأسه وقال مندهشاً: "هذا أجر كبير يا ولدي". أجبته بثقة: "قلت لك إن صاحب العمل رجل تقي". اغرورقت عيناه بالدموع، وضمني إلى صدره وأخذ يتحسس تقاسيم وجهي، ويبكي قائلاً كلمات يعاتب بها مرضه وقلة حيلته: "عذبتك وأنت صغير". عانقته وقلت: "لا تقل هذا يا أبي! مهما عملت فسأظل أشعر بالتقصير اتجاهك". رفع يديه إلى السماء وحمد الله على نعمة الولد الصالح.

بقيت أعمل في السوبر ماركت حتى توفي الرجل الصالح، بعدها طردني أولاده من العمل دون أي سبب. تعقَّدت أموري أكثر، أغلقت الأبواب في وجهي، فاضطررت شراء صندوق لمسح الأحذية، وباشرت عملي في المدينة.

لطالما تلقيت الإهانات من الزبائن أثناء مسح أحذيتهم، كنت مجبراً على تحمل كل إهاناتهم من أجل الحفاظ على قوت يومنا وتسديد الفواتير. بعض المارة كانوا ينظرون إلى بعين الشفقة يظنون أني محتاج، يضعون بعض النقود على الصندوق، مقابل الدعاء لهم. لم أقبل أبداً صدقاتهم، كنت أعيد لهم النقود وأدعو الله لهم بالخير دون مقابل.

ذات يوم، حالفني الحظ وتعرَّفت إلى زبون طيب القلب وحلو اللسان، يرتدي زياً رسمياً وتفوح منه رائحة الثراء. كان ينتعل حذاءً إيطالياً ثميناً، بادلني التحية وطلب مني أن أنظف حذاءه. لم يكن لدي فرشاة نظيفة، خفت أن استخدم فرشاتي القديمة وافسد حذاءه. استأذنته واشتريت فرشاة جديدة وعدت إليه مسرعاً. سألني بدهشة: "لماذا لم تستخدم الفرشاة القديمة؟". قلت مبرراً: "هي ليست نظيفة فخشيت أن أفسد حذاءك الثمين". صافحني بحرارة ووصفني بالصبي الأمين. لمّعت حذاءه وسألته بفضول عن عمله. أخبرني أنه أستاذ جامعي يدّرس في جامعة بير زيت. سعدت جداً به وأخبرته أنني أرغب بالدراسة في تلك الجامعة عندما أكبر. ابتسم ووعد بمساعدتي عندما أُنهي التوجيهي. أصبح ذلك الدكتور زبوناً دائماً وقريباً إلى قلبي. لطالما تبادلنا الكلام حول أمور عديدة؛ سياسية واجتماعية وثقافية. كان واسع الصدر، ودوداً لدرجة كبيرة جداً. وكثيراً ما كان يسألني عن رأيي في أمور عديدة رغم حداثة سني.

obeikandi.com

بقيت أمسح الأحذية، وأتلقى الإهانات من الزبائن، والسخرية من زملائي في المدرسة حتى المرحلة الثانوية. تقدمت لامتحانات التوجيهي ونجحت بتفوق فأردت الالتحاق بالجامعة بناء على رغبة والدي. لم أكن أملك النقود لتمويل دراستي، إلا أن الصدفة لعبت دورها. ذهبت لزيارة الدكتور الطيب في الجامعة. أخبرته حكايتي، فقال مطمئناً: "أنا ملتزم بوعدي، وكونك حصلت على الدرجة الأولى في التوجيهي، سوف أسعى لك بمنحة دراسية". سعدت بسماع ذلك، رغم أنني لم أكن متفائلاً كثيراً، فهي ليست أكثر من محاولة ربما تنجح وربما تفشل. بعد أيام قليلة جاء الدكتور إلى المخيم يحمل لي في جعبته خبراً ساراً جداً؛ بأن وافقت الجامعة على إعطائي منحة دراسية. لم يكن مطلوباً مني سوى شراء الكتب الدراسية، وحتى هذه فقد وعد الدكتور بتوفيرها لي.

التحقت بالجامعة والسعادة تغمرني. كنت أدرس وأعمل في "كافتيريا" الجامعة، لم يكن الأجر كافياً لتغطية مصاريفي الخاصة إلا أنه كان يسد حاجة ما. بعد مرور أربع سنوات تخرَّجت وحصلت على درجة البكالوريوس بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف. لا يمكن لأحد تصوُّر فرحة والدي، الذي عبر عنها بالبكاء والصلاة حمداً لله، فأُمنيته قد تحققت. أخذت أبحث عن وظيفة، وبعد طول معاناة تم توظيفي مدرساً في إحدى المدارس الحكومية الإعدادية. درّست لمدة عامين بعدها تمّ فصلي من المدرسة بحجة أمنية.

عملت بعدها في البناء عاملاً مهمته رفع الباطون. بقيت متشبثاً في هذه المهنة الشاقة إلى أن وقعت عن السلم وانكسرت يدي. مكثت شهراً في الفراش لا

obeikandl.com

أقوى على العمل. بعد أن منّ الله علي بالشفاء، أردت الرجوع إلى الباطون إلا أن المتعهد رفض أن يشغلني معه بحجة أن عظامي طرية ولا أصلح لتلك المهنة.

ضاقت بي الدنيا. لم أيأس، بقيت أبحث عن عمل حتى أتيحت لي الفرصة بالعمل في وكالة الغوث كعامل تنظيفات. لم أكترث بنوعية العمل. كانت لي رغبة قوية في أن أعمل زبّالاً، فهم يتمتعون بالاستقرار الوظيفي ويتقاضون أجوراً جيدة ولهم ضمانات حتى بعد التقاعد. عرضت الأمر على والدي فجنّ جنونه، رفض الفكرة جملة وتفصيلاً. لم يستطع أن يتصور أن ابنه الوحيد والحاصل على درجة الامتياز في الجامعة يريد أن يعمل زبالاً. تخليت عن الوظيفة بناء على رغبته، ورحت أبحث عن وظيفة تتلاءم مع تخصصي دون جدوى.

وأخيراً فُتحت الأبواب في وجهي، عملت في مصنع البسكويت لمدة عام. أحببت ذلك العمل رغم أجره الضئيل. يكفي أني كنت أحصل على علبة بسكويت مجاناً كل أسبوع. لم تدم فرحتي طويلاً، عبس الزمن في وجهي وطردت من العمل بسبب فتاة لعينة ومخادعة. دبّرت لي مكيدة قذرة كنت ضحيتها.

- ماذا فعلت؟

كانت تلاحقني من جهة إلى أخرى مدعية أنها تحبني وتريد الزواج مني. أخبرتها مراراً وتكراراً أن ظروفي المعيشية صعبة للغاية ولا يمكنني الارتباط بأية فتاة، لم تصدق. قلت إن والدي مصاب بالشلل ويحتاج إلى أن أكون جانبه طوال الوقت لأطعمه وأغسّله وأغيّر ثيابه. اقترحت بكل وقاحة أن أكبّه في دار العجزة والمسنين. تصور أنها استخدمت مصطلح "كبَّه" وكأنها تتحدث عن كيس من القمامة! قلت لها ليس أنا من يكبّ من سهر الليالي الطوال من أجلي، أطعمني وأنا

obeikandi.com

طفل، ونظفني كلما وسّخت نفسي وحرّم على نفسه الزواج بعد وفاة أمي. كشَّرت عن أنيابها وصاحت طالبة مني التوقف عن سرد أحداث فلم هندي. اعتبرت مأساتي فيلماً هندياً وحاولت أن تقنعني بشتى الوسائل بالفوز بها، مستخدمة أساليب قذرة عديدة. أساليب ترغيب وأخرى ترهيب وكأنها رجل مخابرات مخضرم. تارة تقول إن أبواب السماء ستفتح لي لو تزوجتها، فلها شقة مسجلة باسمها، وأموال كثيرة مكدسة في البنوك تنتظر من يصرفها ويستمتع بها، وتارة أخرى تهددني وتقول إذا لم ارتبط بها فسوف تتهمني باغتصابها وبالتالي سأتزوجها رغماً عن أنفي. قلت غير مكترث بتهديداتها: "افعلي ما يحلو لك".

باءت كل محاولاتها بالفشل، فقرّرت الانتقام مني. دبّرت لي مكيدة طردت على إثرها من العمل بطريقة مذلة ومهينة. ذات يوم جاءت إليّ وأنا منهمكٌ في العمل، تحمل بيدها رسالة. ادعت أن عينيها تؤلمانها، فطلبت مني أن أقرأ الرسالة لها. ففعلت عن حسن نية. لم أكن أدري أنها كانت تنصب لي كميناً وتسجل قراءتي للرسالة. أعطت التسجيل لمدير المصنع. طلبني إلى مكتبه. أجلسني في وسط الحجرة وبدأ يدور حولي كالمحقق، قال لي بلهجة جلفة: "هنا مكان عمل وليس مكان غزل وتحرش ببنات الناس!". لم أفهم ماذا يدور، سألته باستغراب ماذا يقصد. جلس وراء مكتبه وهو يبحلق بي باحتقار. فتح درج مكتبه واخرج جهاز تسجيل وأسمعني ما لم أتوقعه. صدمت، أخبرته أن الفتاة طلبت مني قراءة رسالة ففعلت عن حسن نية. لم يصدقني. ظن أني رجل سيء الأخلاق، بل اتهمني بالعمالة. قلت له بانفعال: "لست أنا من يخون وطنه". أعطاني حسابي وأمسك

بياقة قميصي يجرني كالخروف إلى بوابة الخروج، وأمام مرأى جميع الموظفين. قذفني خارج المصنع وهو يسبني مسبات تنفر منها الأسماع."

تنهد أبو العبد، وقال: هكذا هم مدراء العرب، يعطون أنفسهم الحق في استعباد موظفيهم.

- صدقت، على كل حال، منذ تلك المؤامرة وأنا عاطل عن العمل. أحصل على قوت يومي من خلال تطريزي لبعض اللوحات الفنية، وأحياناً أصنع عقوداً من عجم الزيتون وأبيعها لمحلات تعنى بالإبداع اليدوي.

أمسك يدي وضغطها بمودة، وقال: يؤسفني سماع ما أصابك أيها الابن البار.

- ماذا تساوي معاناتي أمام معاناتك؟

- المعاناة هي معاناة مهما اختلفت أشكالها وألوانها.

لم أعقب على كلامه، تابعت تناول طعامي، بعد برهة علّق قائلاً:

- لم تخبرني سبب شلل والدك.

- صدمته سيارة أثناء قطعه شارع المدرسة.

صمت قليلاً، وقال:

- أرى أنك أحببته كثيراً.

- أحببته حباً لا يوصف... أحسست بطريقة ما بأنني القلق الحقيقي وربما الأكبر الذي يعيش في رأسه، أو العبء الثقيل الذي ولد في وقت خاطئ وفي مكان لم يكن لي فيه مكان. لعل قدومي الخاطئ إلى هذه الدنيا قلب موازين كثيرة كانت محسوبة بدّقة متناهية، أهمها على الإطلاق؛ البقاء على قيد الحياة. كبرت

بصمت، لم أمرض في حياتي، لم يكن لي رفاق ولا أصدقاء. حرص أبي جعله يبعدني عن رفاق السوء. كلما سمع عن صديق جديد لي، طلب مني أن أدعوه إلى البيت ليعاين أخلاقه. ودائماً يفشل رفاقي في كسب مودته فأخسرهم. إذا ما غضبت منه يقول: "يا بني، إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة".

- هذا صحيح.

- وهل كل الأصدقاء سيئون؟

- لا! ما قصد والدك أن يحرمك من أصدقائك، بل أراد أن يعلمك كيف تختار الصديق الصالح.

- لا أدري... لو كان لي صديق واحد لكانت حياتي أسهل.

- ليس أيّ صديق. الصداقة هي ماء الحياة، لكنها يمكن أن تكون سم الحياة لو اخترت الصديق الخطأ.

أردت التملص من الحديث عن نفسي، فأنا أعرف جيداً من أنا. كان كل همّي أن أتعرف إليه أكثر. ربما لأنانية في نفسي، أو لشغف في قراءة كتاب حياته المشبع بالأسرار والإثارة. أردت أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عنه وعن شقيقته فاطمة. لا أدري لماذا انشغل ذهني بشقيقته، لماذا أردت أن أعرف عنها كل شيء. صنعت له فنجاناً من القهوة وقلت بمودة: حدثني عن فاطمة.

- أية فاطمة؟

- شقيقتك.

- لماذا أنت مهتم بطفولتها؟

- أحب أن أعرفها أكثر.

استغرق في الضحك، وقال: يبدو أنك تريد النوم هنا هذه الليلة؟

- ليتك تقبل.

- الخيمة وصاحب الخيمة تحت أمرك.

ظننت أنه يجاملني فقط:

- هل أنت جاد بالموافقة؟

- طبعاً! أنت وحيد وأنا كذلك، لماذا لا نطرد كابوس وحدتنا؟

- الوحدة أشد قسوة من الموت.

- لكن لا يوجد عندي فراش يكفي لاثنين.

قلت وقلبي يغني فرحاً:

- سوف أحضر فراشي.

- الآن؟

- نعم!

- كن حذراً، لا أريدك أن تُضرب مرة أخرى.

(13)

obeikandi.com

ذهبت إلى حجرتي كي أحضر فراشي المتواضع متجاهلاً حظر التجوال. كنت في غاية السعادة، تحققت أمنيتي بالمكوث مع أبي العبد تحت سقف واحد، ولم لا؟ وقد علمني ذلك العجوز دروساً عظيمة في الصبر على البلاء، والتحدي، دروساً لا تُعطى في المدارس ولا حتى في الجامعات.

وصلت حجرتي، تناولت وسادتي المبتلة، وفراشي المتجمد، وملاءتي المرقعة، وخرجت بحذر متوجهاً إلى خيمة العجوز.

في أحد الأزقة، التقيت بفرقة من الجنود. كانوا بعيدين عني بضعة أمتار، رأوني فطلبوا مني التوقف. لم أفعل، انطلقت بأقصى سرعة، وانطلقوا ورائي يطلقون النار نحوي قاصدين إصابتي. دخلت الخيمة بجسد يرتجف من الخوف، ووجه مصفر، خائف من معرفتهم مكاني رغم أنني أوهمتهم وضللتهم الطريق. نظر إلى العجوز مستغرباً الطريقة التي دخلت بها الخيمة، وسألني: "ما بك؟". قلت وأنا ألهث: "الجيش يطاردني". سأل مستغرباً: "هل فعلت لهم شيئا؟". ألقيت الفراش على الأرض، وقلت: "طلبوا مني التوقف فلم أفعل، لذا أطلقوا النار نحوي، أعتقد أنني ضللتهم".

سمعنا أزيز الرصاص يدوي على مقربة من الخيمة، غصصت بريقي، وقلت: "أخشى أن يعرفوا مكاني وأسبب لك مشاكل أنت في غنى عنها".

نهض أبو العبد من فراشه مسرعاً. هرول نحو صندوق خشبي يضع فيه ثيابه. أخرج منه فستاناً ومنديلاً، رماهم لي، وقال بلهجة تستعجلني: "ارتدِ هذا الفستان، وضع هذا المنديل على رأسك". نظرت إليه مستغرباً ما يطلبه مني. بل فكرت فيه بالسوء. صاح بي بانفعال: "هيا! من الآن فصاعداً أنت بنت".

صعقني ما قاله. أطلقت لساني فيه إطلاقاً شنيعاً وقلت: "هل جرى لعقلك شيء، أمجنون أنت؟". رمقني بنظرة لم أفهمها وصاح بسخط: "افعل ما أمرتك به". قلت منفعلاً: "صحيح أني طيب، لكن لست أهبَلَ ولا...!. خجلت أن أكمل، فسكتُ من حياء. كرر طلبه مرة ثالثة: "ارتدِ هذه الثياب، سأثلج صدرك". قلت في نفسي: "اللعنة! يبدو أنه عجوز داعر". تناول عكازه وراح يغرزه في صدري، ويقول: "نفذ ما طلبته منك قبل فوات الأوان". حقيقة أردت أن أغرز أصابعي في عنقه حتى أخرج روحه من جسده. جعلني أظن فيه ظن السوء. حتى أنني فقدت السيطرة على أعصابي، وقلت له: "ما دامت شهوتك قائمة، فابحث عن امرأة لتنكحها". وكزني بعكازه وقال: "ظننت أن عقلك أكبر من ذلك". قلت بسخط: "عن أي عقل تتحدث وأنت تطلب مني أن ألبس ثياب امرأة". لم يجب. هدّأت من روعي قليلاً وطلبت منه أن يشرح لي لماذا يريدني ارتداء الثياب النسائية. تجاهلني وطلب مني أن ألبسها فوراً، ووعد أني سأفهم بعد دقائق لماذا أخرجها لي.

نفَّذت أمر العجوز غير مقتنع بما أفعل. جلب قليلاً من الطحين ودهن وجهي، كأني عروس تتزين لعريسها. تمالكت نفسي وقلت دعني أرى ماذا ينوي. أخرج من جيب معطفه قلم روج أحمر، وصبغ شفتيّ. قلت محدثاً نفسي: "سأقطع يدي إن لم يكن عجوزاً داعراً". انتهى من تزييني. أمسك بيدي وأجلسني بجانبه، ثم قال: "حاول أن تقلد صوت المرأة". نظرت إليه بعينين يقدح منهما الشرر. وقلت: "عيب عليك، احترم شيخوختك". انفجر ضحكاً، وكأنني قلت نكتة.

استغربت وجود الملابس النسائية وقلم الروج، وتساءلت مع نفسي لماذا يمتلكها، دون أن أتوصل لإجابة.

اقتحم الجنود الخيمة وأنا جالس بجانبه وأبدو وكأني امرأة ساذجة. فور مداهمتهم الخيمة تظاهر العجوز بالغضب الشديد، صاح بهم وسألهم بلهجة غاضبة: ماذا تريدون؟

- نبحث عن شاب رأيناه يدخل الخيمة.

- وهل ترون أيّ شاب هنا؟

- من هذه المرأة ؟

- لا شأن لك.

- قلت لك من هذه المرأة؟

- ابنتي، هل تريد شيئاً منها؟

- معاقة؟

- نعم! هل ستعالجونها على حساب دولتكم؟

- ولماذا تعالجها دولتنا؟

- ألستم شعب الله المختار؟

- بلى! ما علاقة ذلك بالأمر؟

- كونكم هكذا، فلماذا لا تمدون يد العون للبشر من الدرجة الثانية؟

- تقدَّم بكتاب إلى رئيس الحكومة، لعله يساعدك.

- رئيس الحكومة؟

- نعم، إسحاق رابين.

obeikandl.com

- إسحاق رابين؟

- ألا يعجبك؟!

- لم أقل شيئاً.

- على كل حال نأسف لاقتحامنا خيمتك.

رمقه العجوز بنظرة جافة، وقال بصوت ساخر: تعذّبوننا وتعتذرون.

- ماذا تقصد أيها العجوز؟

- لا شيء.

- اهتم بنفسك وابنتك الجميلة.

- لا تقلق.

أشاح العجوز بوجهه عنهم في محاولة لتجاهلهم. أحس الضابط وجنوده بالإهانة فغادر الخيمة وهو ينظر إليّ باشمئزاز. لم ألُمْهم على تلك النظرات. لا شك أن شكلي كان بشعاً للغاية، ولا يمت للأنوثة بأية صلة.

فهمت متأخراً ماذا أراد العجوز. شعرت بالندم الشديد على كلماتي المتسرعة، وسوء ظني به. لم أعرف ماذا أقول له، وكيف أعتذر. نجوت من قبضة الجنود بفضل أفكاره.

لاحظ أني متوتر وأشعر بالخجل الشديد من نفسي. بادرني بالسؤال: "تشعر بالندم، أليس كذلك؟". قلت محرجاً: "نعم، سامحني أرجوك". أشاح بوجهه عني. أمسكت بذراعه وتوسلت إليه أن يسامحني. نظر إليّ بعيون دافئة وابتسامة خفيفة، وقال: عليك أن تحمد ربك أنه لم يخلقك فتاة.

- لكنت فتاة بشعة، أليس كذلك؟!

- بل أبشع!!

- أنت عبقري.

- لماذا؟

- نجوت بفضلك.

- بل بفضل الله.

- أريد أن أخلع هذه الثياب.

أشاح بوجهه عني، وقال وكأنه غضب: ما يمنعك؟

- أخشى أن يعودوا.

- سأتدبر الأمر.

- تمنيت هذه اللحظة منذ زمن بعيد.

سأل ممازحاً: اللحظة التي تتقمص بها شخصية امرأة؟

- لا! بل العيش معك في هذه الخيمة.

- لماذا؟

- أنت خبير في كل شيء.

- أنت تبالغ.

- أنت ذكي للغاية.

- يبدو أنك لا تعرف غيري.

- بل عرفت. وجدتهم أغبياء.

قال إني مخطئ، معتقداً أن هنالك الكثيرين من الناس ممن عانوا ولا زالوا يعانون، منهم من قاوم وقارع معاناته بالصبر والإرادة، ومنهم من لم يستطع تحمل

obeikandi.com

معاناته فطلب المشاطرة لأحزانه، وكلاهما أقوياء؛ الأول كظم غيظه، وألمه وعاش وحده، والثاني أعلن استسلامه لمعاناته فطلب من البشر مشاطرته أحزانه، حتى لا يكون ضحية لها.

أمضيت الساعات القليلة الأولى من الليل وأنا أستمع إلى حديثه الحلو، وفلسفته في الحياة، لدرجة أنني أحسست أن حديثه جعلني فيلسوفاً في ليلة وضحاها. كان يتحدث بلباقة فيلسوف، يبرهن مداخلاته بعقلية عالم، يهزمني في الحوار بفن مقاتل. أحياناً يضحك مني، وأحياناً يضحك عليّ.

حقاً يا أبي، شعرت أنني أقف أمام مارد حكيم يبهرني دائما بذكائه وعلمه.

بينما كنا جلوساً، سمعنا قرع أقدام على مقربة من الخيمة، استرقت النظر عبر ثقب في الخيمة لأرى ماذا يجري. رأيت رجال القوى الضاربة يحملون أكياساً كبيرة على ظهورهم ويمشون بحذر. قدِم أحدهم إلى الخيمة، وقدَّم للعجوز كيساً كبيراً من الخيش يحتوي على معلبات مختلفة، وبعض الأرز، والسكر، وعلبة من الحليب المجفف. قدَّم الكيس للعجوز، وقال بصوت خافت: "هذه المؤونة مقدمة من رجال القوى الضاربة". شكره العجوز بحرارة وطلب منهم توخي الحيطة والحذر. طبطب الملثم على كتف أبي العبد وشكره على اهتمامه بسلامتهم، وقال له إن الله يحرسهم ويرعاهم.

خرج الملثم يتلفت حوله بحذر. التحق بباقي رفاق دربه ودخلوا المخيم ليوزعوا المؤونة، يحملون أرواحهم على أكفهم من أجل إيصال الطعام والحليب للأطفال، ورفع معنويات الناس الذين يقبعون تحت نظام حظر التجوال دون ماء أو كهرباء لليوم الرابع على التوالي.

obeikandi.com

حال خروج الملثم سمعت العجوز يدعو الله لهم بالحماية، ويعبِّر عن إعجابه برجولتهم وشجاعتهم. سألته بفضول بماذا تتمتم؟ قال ووجهه يبتسم فخراً: "ما أروع أولئك الرجال، يخاطرون بحياتهم من أجل مخيمهم الصامد، يقطعون المسافات الطويلة متنقلين بين الجبال، يحملون المؤونة على ظهورهم رغم الثلج وحظر التجوال".

سألته متعجبا: "هل تراهم دائماً؟". أجاب: "يأتون هنا ليتلثموا عندما يريدون تنفيذ مهمة ما، وعندما يفرض نظام حظر التجوال أراهم يشيلون المؤونة على ظهورهم دون كلل أو ملل، فليحفظهم الله". هززت رأسي وقلت: "موقع خيمتك استراتيجي، من هنا يمكنك أن ترى كل شيء". ضحك وقال: "بل مكان مشبوه". سألت باستغراب ماذا يقصد، قال موضحاً: "يكاد الجنود لا يفارقون هذه المنطقة لأنها الطريق المؤدية إلى الجبال".

وما أن قالها وإذا بدوريات الاحتلال تقتحم المخيم. يبدو أن أحد أعوانهم أخبرهم عن تحركات رجال القوى الضاربة فاقتحموا المخيم ليمسكوا بهم. رأى العجوز تلك الدوريات، تناول بوقاً من تحت وسادته وأخذ ينفخ فيه. استغربت فعلته، سألته عن سبب نفخه في البوق، ابتسم وقال: "هذه إشارة لتحذير رجال القوى الضاربة". قلت مندهشاً: "هل تعمل معهم؟". تنهد وقال متحسراً: "لو كنت شاباً، لما ترددت في الانضمام إلى صفوفهم". قاطعته وسألت: "ماذا لو عرف الجيش أنك تساعدهم؟". رمقني بنظرة، وقال ساخراً: "فليشربوا مجاري المخيم".

obeikandi.com

زخـات قويـة مـن الرصـاص أطلقتهـا الـدوريات باتجاه المناضـلين قطعـت حوارنا. قام العجوز عن فراشه مفزوعاً وهرع إلى الخارج وهـو يقـول: "استر يا رب! استر يا رب!". بقيت جالساً أدعو لهم بالنجاة. ازدادت زخات الرصـاص، فازداد خوفي عليهم.

آه يا فلسطين! أترين شبابك الثائرين؟ انظري إليهم، ها هم يناطحون المخرز بصدور عارية، يأملون أن تجعلي من حبات رملك درعاً صلباً يحميهم من بطش المحتلين، ليتك تمدينهم بقوتك المدفونة تحت رمال السنين. انظري إليهم، هـا هـم خطـوة خطـوة يتسللون إلى عضو في جسدك، يخاطرون بأرواحهم إلى حيث تكـونين، يفرحـون بنظـرك إلـيهم ويحلمـون بـالبحر والفجـر وينـشدون قـصائد المحبين. انظري إليهم مرة ثانية وثالثة ومديهم بأمل ضاع منذ عشرات السنين. ها هم يلهون كما الأطفال في حضنك، يعشقونك كما الشباب، يفكرون بخلاصك كما الشيوخ ودوماً يفتشون عن حريتك المأسورة بين أنياب الغرباء المحتلين، ويفتشون عن الثورة والثائرين. من أجل خلاصك يفعلون المستحيل...

تندهشين؟ متعبون هم يا سيدتي، من أنصار الحل المهين، أتفهمين؟ ألمح في عينيك الجميلتين لؤلؤتين، يخفق قلبي عند انحدار الدمعتين، أسألك، تجيبين: واحدة لحريتي، والأخرى على رفاق مازالوا تحت الاحتلال اللعين. نعم يا حبيبة الثائرين المخلصين. نحن على أبواب نصر لا هزيمة بعكس ما يوحي به المشهد السائد في العالم العربي. مشهد البكاء والنواح والعويل ولطم الخدود. نعم يا حبيبتي، ها هم رجالك المنتفضون. استعادوا قوتهم، وأبحروا رغم العواصف معلنين؛ أن انتفاضة الشعب ستبقى حتى تحقيق النصر المبين.

obeikandi.com

لحظات وإذا بي أسمع قرع نعال رجال القوى الضاربة تدب جانب الخيمة، خرجت مسرعاً لأراهم وأطمئن على سلامتهم. رأيتهم يركضون بسرعة الرياح، يبتلعون مسافة الخطر بشغف، متوجهين إلى قلب الجبال. توقفوا على قمة الجبل وراحوا يلوحون بأيديهم إلى العجوز يعبرون له عن شكرهم لتحذيرهم. لوح العجوز لهم، وشد قبضة يده ورفعها للأعلى بشموخ وكبرياء ثم هزها ثلاث مرات. رفعت قبضتي مثله وهززتها. انتبه لقبضتي فأنزلها بغلظة دون أن يخبرني لماذا فعل ذلك. أردت أن أسأله لماذا فعل ذلك، لكن كلما وصل السؤال طرف لساني، ابتلعته ثانية خوفاً من إحراج العجوز، فلو أراد أن يخبرني لماذا أنزل قبضتي لأخبرني دون أن أسأله. تلاشى ظل الملثمين، قال بصوت خافت: "الله معكم!".

اطمئن قلبه ودخلنا الخيمة فرحين.

جلسنا نتبادل كلمات الفخر بشجاعة شباب المخيم. لم يتوقف أبو العبد عن امتداحهم والافتخار بهم حتى تمنيت لو كنت واحداً منهم. يكفي أنه وصفهم بملائكة فلسطين وجندها المخلصين.

بعد مرور ربع ساعة تقريباً- وصل الجيش إلى الجبل، رأينا أضواء دورياتهم تسطع بل تقتحم الخيمة وكأنهم قادمون نحونا، تناول العجوز البوق وخبأه تحت فراشه، وأشار إلي بعجلة، طالباً مني ارتداء الفستان والمنديل ففعلت بسرعة. لحظات وإذا بقائد الدورية يدخل الخيمة، ويسأل العجوز بلهجة عصبية: "هل رأيت المخربين؟"، أجاب العجوز ببرود أعصاب: "لم أر أحداً غيركم". صفن الضابط قليلاً ثم قال: "ما رأيك بإبرام اتفاقية؟". ضحك العجوز ساخراً: "أيّة اتفاقية؟". تقدم الضابط من العجوز وطوقه بذراعه وقال: "تساعدنا في القبض

obeikandi.com

على عناصر القوى الضاربة". نفض العجوز ذراعه بغلظة وسأله بنبرة ساخرة: "مقابل ماذا؟". أجاب الضابط: "مقابل مبلغ من المال". رمقه العجوز بنظرة جافة وقال: "اخرج من خيمتي، يبدو أنك أعمى لا ترى هرمي". قال الضابط: "من أجل هرمك أعرض عليك التعامل معنا". صاح العجوز وهو يشير بسبابته نحو باب الخروج: "اخرج من خيمتي، وابحث عن كلب يطيعك". رمقه الضابط بنظرة، وقال بانفعال: "أنت الخاسر". كرر العجوز عبارته بسخط: "قلت لك اخرج من خيمتي".

هزّ الضابط رأسه بغضب، وغادر الخيمة وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة. ابتعدوا عن الخيمة بضعة أمتار، وانبطحوا على بطونهم ينصبون كميناً لرجال القوى الضاربة. ظلوا منبطحين قرابة الساعة حتى ملُّوا من الانتظار وغادروا المكان وهم ينادون بمكبرات الصوت: "ممنوع التجول، ممنوع التجول".

كنت خائفاً من عواقب قسوة العجوز معهم. طلبت منه مسايرتهم لو اقتحموا الخيمة مرة أخرى، حتى لا يتسببوا له بمصيبة ما. طبطب على كتفي وابتسم وقال: خائف؟

- لا.

- وجهك أصفر...

- تحرجني هذه الثياب.

- ابقها عليك.

- يا إلهيّ

- أنت ترى بعينك كل لحظة يداهمون الخيمة.

obeikandi.com

- وليكن.

- إذن عد لبيتك.

- لا أريد.

- شرط بقائك عندي مرهون بهذه الثياب.

- لكن...

- بدون لكن! هذه الطريقة الوحيدة التي تمكنك من المحافظة على سلامتك.

لم يكن أمامي أي خيار سوى أن أقبل هذه الحقيقة من أجل الحفاظ على نفسي من الاعتقال أو عربدة الجيش. لم يكن الأمر سهلاً، لكن الضرورات تبيح المحظورات.

في وقت لاحق أقبل رجال القوى الضاربة إلى الخيمة. نظرت إلى الساعة عرفت لماذا رفع العجوز قبضته وهزها ثلاث مرات. كانت إشارة بينهم، ثلاث هزات معناها ثلاث ساعات. قلت في قرارة نفسي: "لست عميلاً يا أبا العبد كي تخفي عني سراً".

شرب رجال القوى الضاربة قليلاً من الماء، وطلبوا من العجوز متابعة المراقبة حتى ينتهوا من توزيع المؤونة على أهل المخيم. أكد لهم العجوز أن عينه ستظل تراقب تحركات الجيش حتى ينتهوا من مهمتهم. شكروه بحرارة وغادروا الخيمة ودخلوا المخيم لمتابعة توزيع المؤونة.

جلسنا خارج الخيمة في جو بارد نراقب الوضع حتى انتهوا من مهمتهم وعادوا إلى العجوز. قال أحدهم: "كنا نوزع المؤونة في شارع، والجيش يفتشون المنازل في الشارع المجاور". أجاب أبو العبد ولون وجه قد تغير: "لم أر أية مركبة

عسكرية تدخل المخيم" ، أشار بسبابته نحو مدخل المخيم وتابع: "انظروا! لا زالت دورياتهم واقفة مكانها لم تتحرك". علق شاب آخر مخمناً: "ربما دخلوا المخيم راجلين"... هزّ أبو العبد رأسه مؤيداً. صافحوه وانطلقوا إلى الجبل.

حال انصرافهم، دارت في رأسي حرب من التساؤلات حول شخصية العجوز. كلما ظننت أني اقتربت منه أكثر وأعرفه جيداً، أثبت لي العكس. ذكّرني بنفسي حين كنت صغيراً. كنت أرى الشمس واقفة على قمة الجبل. واقفة تنتظر من يذهب إليها ليأخذها. أهرع إليها مسرعاً لآخذها قبل أن يسبقني غيري. وكلما اقتربت منها أو ظننت أني اقتربت كانت تبتعد أكثر، حتى أيقنت أنها بعيدة جداً رغم ما توهمني به.

رآني العجوز سارحاً في عالم آخر، سألني عمّا يشغل ذهني. قلت إني أفكر بما قاله الشبان حين كانوا يوزعون المؤونة في شارع، والجيش يداهم البيوت في شارع مجاور. سألني باستغراب إن كنت لا أصدق ما قالوه. قلت إني أصدقهم بلا شك، لكن أتساءل إن كانوا لحظتها خائفين أم لا. أرعد ضحكة وقال ممازحاً: "لولا الخوف لما عرفنا الشجاعة".

أحسست أنها فرصة ذهبية للحديث عن الخوف، أردت أن أعرف كيف يتعامل العجوز مع الخوف، لعلّه يستطيع تحريري منه.

بادرته بسؤال: هل حدث وأن خفت من شيء في شبابك؟

- طبعاً!

- حدثني.

صفن قليلاً ثم قال: أذكر حكاية أخافتني حتى الموت.

- أسمعني.

أمسك بلحيته يشدّها كالعادة وأخذ يحدثني عن تلك القصة، قائلاً:

أذكر ذات مرة طفلاً كان يقف أمام جثة رجل صالح، توفي فجأة في سن مبكرة من عمره. رأيت الطفل دامع العنين، طاوي المنكبين، يحدق باستغراب في جثة الرجل الصالح. كنت أتساءل عن الذي يتخيَّله الطفل من أشياء، ولماذا هو صامت حزين. غلبتني الحيرة، واتجهت نحوه لعله يعرب لي عما يجول في داخله. سألته بلطف عما يشغل باله، لم يجب. عبَّر عن حزنه بدموع متواصلة، بدت وكأنها سيل يتدفق من قمة جبل، متنهداً، مستغرباً من حومة الإملاق، مندهشاً من حكم القدر. سألته مرة أخرى: أهو قريبك؟

- لا.

- ماذا يبكيك إذن؟

تأفف وطلب مني عدم الكلام. شعرت أنني قد ضايقته بأسئلتي. لم أقصد إزعاجه بل أردت أن أشاطره الحزن الذي يكتنف قلبه الصغير، ويرتسم على وجهه البريء. نظرت إليه مرة أخرى فوجدته يحدق بكره في ثلة الرجال الذين كانوا يهيلون التراب فوق جثة الميت. وفجأة أخذ يصرخ بهم قائلاً: "توقفوا أيها المجرمون! حرام عليكم، اتركوه وشأنه! لماذا تهيلون التراب عليه وتدّعون الحزن؟". لم أستطع الاحتمال أكثر. لجأت إليه مرة أخرى محاولاً إقناعه بأن يتفهَّم الموت، أمسكت بيده حتى أجلسه. عض يدي بشراسة ودفعني بقوة حتى كدت أقع. تماسكت نفسي وكررت المحاولة مرة أخرى دون جدوى. أغلق أذنيه بأصابعه حتى لا يسمع ما أقول، تركته وجلست على مقربة منه. رأيته ينظر إلي،

obeikandi.com

اعتقدت أن أعصابه قد هدأت ويمكنني الكلام معه. مشيت إليه ودعوته إلى بيتي، رفض دعوتي بشدة. كررت دعوتي، فاستشاط غضباً وصرخ في وجهي: أنت مجرم مثلهم!

- يا بني، الموت علينا حق.

- اخرس!

قالها وابتدأ يسب على الرجال مسبات تنفر منها الأسماع، محاولاً إعاقة عملهم. اضطررت إلى الإمساك به، حشرته بين ذراعي حتى انتهى الناس من إتمام مراسيم الدفن وانصرفوا إلى بيوتهم، لكنه لم يغادر المقبرة، ظل جالساً بجانب القبر، تارة يبكي، وأخرى يسبّ عليّ. دَعْوته مرة أخرى إلى بيتي، أبى وظل مصراً على رأيه. استمر يشتمني ويسبني حتى ضاق صدري ومللت منه فتركته.

تناولت وجبة العشاء وحدثت فاطمة عن ذلك الطفل، استغربت أمره وطلبت مني ألا أزعج نفسي بمسائل لا تخصني. تناسيت أمره وخلدت إلى النوم.

في لحظة متأخرة من تلك الليلة استيقظت من نومي مذعوراً. رأيت كابوساً أقلقني فلم أستطع النوم ثانية. تذكَّرت الطفل، سيطر الفضول على مخيلتي فأسرعت راكضاً نحو المقبرة لأرى إن كان الطفل لا يزال موجوداً في المقبرة. وصلت فسمعت حركة غريبة، حاولت أن أرى من أين تصدر تلك الحركة، لم أر شيئاً بسبب الظلام الدامس. اقتربت أكثر، سمعت صوت الطفل وكأنه يُحدِّث أحداً. اختبأت وراء قبر لأستمع إلى حديثه. سمعته يقول: "هيا استيقظ من نومك قبل أن يعودوا إليك، أخبرني عما يؤلمك؟ هل أنت جائع؟".

obelkanali.com

سمعت صوته ولم أسمع أحداً يجيبه. احترت في أمره. تساءلت بجنون مع من يتكلم ذلك الصبي، حتى أنني ابتدأت أشك في أنه جني. انتابني الخوف، قررت أن أعود إلي بيتي، وما كدت أفعل حتى سمعته يصرخ بأعلى صوته : "مجرمون، مجرمون!". عدلت عن فكرة عودتي إلى البيت، وعدت أتساءل: "يا ترى، من هم المجرمون الذين يلعنهم ويسبهم؟". اقتربت منه بروح خائفة وجسد يرتعش، فأنا أكره زيارة المقابر ليلاً، ولا أدري كيف ذهبت إليه في تلك الليلة.

كلما سمعت صراخه، ارتعدت فرائصي من الخوف أكثر. خُيِّل إليَّ أن تلك الأصوات ما هي إلا أصوات العفاريت. أردت الهرب، لكن سرعان ما استجمعت شجاعتي واقتربت منه قدر الإمكان. رأيت ما لم أتوقعه على الإطلاق؛ أخرج المعتوه جثة الميت من قبره! سألته بجنون: "ما هذا؟ ماذا فعلت أيها المعتوه؟ لماذا أخرجت الجثة؟ أيّ مجنون أنت؟".

دفعني بغضب وصاح:

أنتم المجانين! لماذا ألقيتم به في هذه الحفرة، ولذتم بالفرار؟

- أيّ أحمق أنت؟ إنه ميت، والميت يجب أن يدفن في حفرة بعد موته، إنه مجرد جثة.

- هل فعلتم ذلك بوالديّ؟

- من يكونا والديك؟

- قل الحقيقة، أم أنك تخاف أن تواجهني أيها الجبان؟

- حقيقة ماذا؟

- سأريك الآن كيف تتحدث.

استمر يهددني غير مكترث بما يقول. يا له من صبي غريب الأطوار، أهلكني بعناده وغبائه. حاولت إعادة الجثة إلى القبر فإذا به يقفز على ظهري، ويدق مؤخرة رأسي بحجر صلب مدبب، ويكيل لي الصفعات الواحدة تلو الأخرى. حاولت إيقافه عن ممارسة جنونه فوق ظهري بالكلام اللطيف، لم يأبه بكلامي. ظل مستمراً في ضرب يافوخي بحجره، إلى أن دفعته بقوة فوقع على الأرض وارتطم رأسه بحافة قبر آخر.

هرعت إليه لأرى ما أصابه، وجدته كالجثة الهامدة، لا يتكلم ولا يتحرك، حاولت إيقاظه بالكلام، لم يستيقظ، صفعته على وجهه بشده، لم يشعر بألم. وضعت أذني على صدره لأسمع خفقان قلبه، لا حياة لمن تنادي، جنّ جنوني، شعرت بالخوف الشديد، أخذت ألطم وجهي وأصيح بصوت باك: "ليتني لم أدفعه".

كنت أمام جثة فأصبحت أمام اثنتين. نظرت إلى الجثتين فبدتا وكأنهما تتحركان، غصصت بريقي، وصرخت بأعلى صوتي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". لم أسمع سوى صدى صراخي.

لم يكن أمامي سوى الهرب، فهربت دون تردد. اخترت الهرب نتيجة ضعفي وخوفي. انطلقت مسرعاً راكضاً نحو منزلي أتلفت ورائي بذعر، وكلما زدت من سرعتي وقعت على قبر ما، فهيئ لي وكأن كل الأموات تطاردني بقصد الانتقام لذلك الصبي الغريب، كلهم يركضون ورائي من أجل قتلي، إلى أن وصلت منزلي، طرقت الباب وارتميت أرضاً أمام عتبته فاقداً وعيي.

أخذت فاطمة تصرخ بملء فيها طالبة النجدة، وهرعت أمي مسرعة نحو مضافة أبي السعود من أجل إخبار والدي بالأمر.

بعد فترة وجيزة استيقظت من غيبوبتي، وجدت وجوهاً وأجساداً ملتفة حولي، صرخت خوفاً معتقداً أنهم الأموات.

استمرت حالتي هكذا لمدة أسبوع كامل، كنت خلاله عاجزاً تماماً عن الحركة أو الكلام، رغم أنني حاولت إخبار عائلتي بما جرى معي بطريق الإيماء دون فائدة، لم يفهموا شيئاً، ظنوا أنني جننت.

تحسنت حالتي، أخبرتهم بما حدث معي، ذهبوا إلى المقبرة فلم يجدوا أثراً للجثتين، لقد اختفتا تماماً، وحقيقة لم أخف أبداً في حياتي مثل خوفي من تلك الحادثة الغريبة.

- وماذا حدث للطفل؟

- اختفت جثته، ولم نعرف عنه شيئاً بعدها.

- قصة مرعبة وغريبة.

- هل شعرت بالخوف؟

- كنت ألتفت كل لحظة إلى الخلف وإلى الأمام، متخيلاً بأن الأشباح تقف ورائي، فأنا مثلك أخاف من الأموات، خاصة في الظلام.

- الأموات لا تؤذي ولا تخيف، ما حدث معي لم يكن إلا مجرد تخيّلات، سببها الخوف، فالقبور لا تتحرك، والأموات هم أموات.

- كم كان عمرك آنذاك؟

- تسعة عشر عاماً.

- لو كنت مكانك لمت من الخوف.

أطلق ضحكة مجلجلة. سألته باستغراب عما يضحكه، فقال إن نجمي خفيف، وعليّ أن أتعلم الكثير كي أستطيع التميز بين الحقيقة والخيال. لم تكن قصته إلا خيالاً اخترعها ليرى مدى قوة عقلي.

أدركنا أن الوقت متأخر، فأوينا إلى الفراش. وما أن وضع العجوز رأسه فوق وسادته، حتى غط في سبات عميق. لحظات وإذا بشخيره يتطاير من أنفه، تتراقص لحيته البيضاء عند كل شخرة، معتمدة على إيقاع الشخير وموسيقاه المزعجة.

أخذ يقلّب جسده يميناً ويساراً، وابتدأ يتكلم وهو نائم، سمعته يقول: "حكم ظالم!". كررها مرتين، سألته باستغراب، "حكم من؟". أجاب: "حكم المحتلين". دهشت لدرجة كبيرة، لم أكن انتظر إجابة منه، لكنه أجاب كما لو كان مستيقظاً. حاولت التأكد من نومه، وضعت يدي أمام عينيه وشرعت أحركها يميناً ويساراً، فلم يشعر بها. أعجبني الحال، خطرت على بالي فكرة شريرة.

- ما اسم أولادك؟

- عبد القادر، ظافر، وفاطمة.

- ماذا عن صابر؟

- أنا بريء منه، كبراءة الذئب من دم يوسف.

- أين فاطمة؟

- أيّة فاطمة؟

- ابنتك.

- في غزة.

- لماذا لا تزورك؟

- لا أريد أن تزورني.

- لماذا؟

- زيارتها قد تتسبب بطلاقها.

- لماذا؟

- زوجها لا يرغب في ذلك.

اقتحمت الشكوك قلبي. اعتقدت أنه يتصنع النوم ويسخر مني أو يداعبني بمقلب ما، سألته مرة أخرى:

- هل أصنع لك فنجاناً من القهوة؟

- لا.

- أريد أن أخلع الملابس النسائية.

- أنت حر.

حيّرني أمره، قلت مخاطباً نفسي: "أهو نائم أم أنه يسخر مني؟ لو لم يكن نائماً لما صدر منه ذلك الشخير". تمنيت أن يباغتني الصباح بنوره ليعطيني تفسيراً لما حدث.

ظللت أراقبه حتى غفوت، بعد ساعة تقريباً استيقظت على صوته وهو يؤدي صلاة الفجر جهراً. نهضت من فراشي وأخذت أستمع إلى صوته الخاشع حتى انتهى من تأدية الصلاة، جلس وبدأ يستغفر ربه، استدار نحوي وسألني:

- ألم تنم؟

obeikandl.com

- نمت قرابة الساعة.

- لماذا لا تصلي الفجر؟

- لم يهدني الله بعد.

- ظننت أنك اهتديت.

- نعم! لكن لا أصلِّي.

- الصلاة عامود الدين!

- سأصلي عندما يهديني الله.

- وكيف سيهديك الله؟

- لا أدري.

قطع حوارنا دوي الدوريات الإسرائيلية تنادي عبر مكبرات الصوت: "يا أهالي المخيم، عليكم التواجد في ساحة المخيم بأمر من الحاكم العسكري، وكل من يخالف الأوامر سيعرض نفسه للعقوبة الشديدة". نظرت إلى العجوز وسألته بدهشة:

- ماذا سأفعل؟

- احلق ذقنك جيداً، واخلد إلى النوم.

- وماذا لو اكتشفوا أمري؟

- ستضرب أو تعتقل.

لحظات وإذا بالشبان يهربون إلى الجبل، أردت أن أهرب معهم، منعني العجوز من اللحاق بهم. أجلسني وطلب مني أن لا أضيِّع الوقت، وأن أحلق

obeikandl.com

ذقني بسرعة، لم يكن بحوزتي شفرة لفعل ذلك، تناول قليلاً من الدقيق ودهن به وجهي وقال:

- أنت فتاة صماء، بكماء.

- ماذا تقصد؟

- عليك أن تمثل هذا الدور.

- أخاف الوقوع في الخطأ.

- جاؤوا من قبل ولم تقع في الخطأ.

- أشعر أن لساني سيخونني هذه المرة.

- إذن تذكر ثمن الخطأ الذي ستدفعه.

- سأبذل قصارى جهدي.

خلدنا إلى النوم وما كدنا نغفو حتى اقتحم الجيش الخيمة، انتصبوا في وسطها يصيحون بأعلى صوتهم: "أنتم انهضوا". نهضت من فراشي ورفعت يديّ للأعلى دون أن يطلبوا مني ذلك. مثلت دور فتاة صماء بكماء. طلب أحد الجنود مني الابتعاد عنه. قلت: "آآ وو آآآ". خاف ورجع إلى الوراء مصوباً بندقيته نحو صدري. تقدمت منه أكثر. غصّ بريقه وصاح: "ما بك أيتها الحمقاء؟!". قلت: "آآآ أي آآآ" واقتربت منه أكثر. ازداد خوفاً. سحب أقسام البندقية وصاح بذعر: "ابتعدي! ابتعدي!". سمع العجوز صراخه فنهض من فراشه، وسأل الجنود بصوت متهدج: "لماذا تضايقون ابنتي؟". سأله أحد الجنود: "هل هي مجنونة؟". أجاب العجوز: "ليست مجنونة! لكنها لا تسمع ولا تتكلم".

رأى أحد الجنود أن وجهي معبّئاً بالشعر، قال متعجباً: "لم أر امرأة من قبل بلحية". قلت مخاطباً نفسي: "استر يا رب". علق العجوز: "لديها هرمون ذكريّ، ألا يوجد عندكم بنات بهرمون ذكريّ؟". أجاب الجندي: "لم أعرف واحدة". قاطعه زميله وسأل العجوز إن كان لديه أولاد شباب. ضحك العجوز وسأله مستغرباً: "هل ترون أحداً غيري وغير ابنتي المعاقة؟". استشاط الجندي غضباً من أسلوب العجوز وصاح: "أجب عن السؤال دون فلسفة". لوى أبو العبد فمه وقال مستهزئاً: "سؤالك لا يحتاج إجابة، وبالرغم من ذلك سأجيب. لا يوجد عندي شباب". تقدَّمت من الجندي وحاولت أن ألمس شعره في محاولة لإخافته. نجحت المحاولة، انتفض جسده وصاح مخاطباً العجوز: "ابعد ابنتك عني وإلا قتلتها". شدني أبو العبد من قبة فستاني، وطلب من الجنود مغادرة الخيمة. خرجوا بظهورهم مصوبين بنادقهم نحوي. اعتقدوا أنني فتاة مجنونة، فأخذوا حذرهم في عملية الخروج من الخيمة، وما كادوا يبتعدون مسافة مترين عن الخيمة حتى انفجر العجوز بالضحك وبأعلى صوته. سألته عما يضحكه، أجاب وهو يضع يده على فمه محاولا كتم ضحكاته: ملأتِ قلوبهم ذعراً أيتها الفتاة.

- أفكارك قاسية.

- بل تمثيلك مذهل، لو لم أعرفك لخفت منك.

- لو أمعنوا النظر بي لعرفوا أنني شاب.

- ومن يجرؤ على إطالة النظر في وجه مرعب؟

- ألهذه الدرجة منظري مخيف؟

obeikandi.com

أنقذني العجوز من برد الساحة القارس بفضل أفكاره الجهنمية. ما كان يحز بنفسي تساؤل لم أتخل لحظة عن توجيهه لنفسي: "إلى متى سأظل مخبئاً ذكورتي بثوب امرأة؟". تلك الثياب النسائية كانت تدفئني جيداً رغم إحساسي السلبي. كنت أذوق الأمرين حين أذهب لقضاء حاجتي.

نجوت مرة أخرى، وأشفقت كثيراً على أولئك الذين ليس لديهم عجوز داهية ينقذهم بدهائه. أشفقت على الرجال والشباب والصبيان الذين أجبروا على الخروج إلى ساحة المخيم لتلقى الإهانات والضرب، وعلى أولئك الذين باغتهم هادم الملذات البشري، وأيقظهم من أحلامهم فهربوا إلى الجبال ليجنبوا أنفسهم شر الجنود.

آه يا أبي! كرهت المحتلين كثيراً. كرهت وجودهم فوق ترابنا يستمتعون بكل ما نهبوه منا، ونحن أصحاب الحق لا حق لنا في أي شيء. لم يكتفوا بنهب الأرض وخيراتنا، بل لاحقوا أجسادنا؛ جعلوا رؤوسنا مرمى رصاصهم، وصدورنا موطئ أقدامهم، ووجوهنا مأخذ أيديهم. ألصقوا وجهونا بالأرض، وعفّروا كرامتنا بالتراب فكنا المستضعفين في أرضنا وسمائنا وبحرنا. يا ويحهم! أعدّوا لكل حق باطلاً، ولكل ثائر قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً. انتهكوا حرمات بيوتنا، ودنّسوا مقدساتنا. لكن كنت وما زلت أؤمن أننا أصحاب حق وأن حقّنا سيعود إلينا ولو بعد حين. نعم، سيعود إلينا! لأنه نور لا تُطفأ مصابيحه، وحق لا يُخذل أعوانه. ربما تغيب شمسه سنوات لكنها حتماً ستشرق لتنصفنا وتزيح عن قلوبنا الصامدة صخرة الذل المتبلدة.

رآني العجوز مثقل الخاطر، اقترب مني، تنحنح وقال، وكأنه عرف ما يجول في صدري: "علينا أن نصبر حتى يمنّ الله علينا بنصره". اهتزّ بدني لدى سماعي كلمة الصبر، التي تبدو لي كحقنة مخدرة نلجأ إليها في أوقات الضعف والهزيمة. لم أعد أقوى على احتمال جثمان صبرنا المزعوم الذي أشمئزَّ من صبرنا عليه. وقفت أمام العجوز وكأنه من تسبب بمأساتنا، وصحت: "هل تعتقد أن الصبر هو من سيحررنا من براثن الاحتلال؟". قال بمودة: "وماذا بأيدينا غير الصبر؟". صحت منفعلاً: "بأيدينا الكثير". سأل مستغرباً: "مثل ماذا؟". لم أعرف ماذا أقول. شعرت بالخجل وسكتُّ من ذلّ نظرات العجوز إلي لا من حياء. طبطب على ظهري بمودة وقال: "اخلد للنوم، وادع الله أن يرفع مقته وغضبه عنا". قلت في قرارة نفسي: "ليته يسمعنا فيستجيب لدعائنا!".

obeikandl.com

(14)

غارت النجوم، وهدأت عيون المستضعفين، وسهرت عيون المتآمرين، فخلدت للنوم بقلب بائس يائس حزين. قلب فقد الأمل حتى في ممارسة رجولته علانية إلا في المنام. وكأي يوم مضى حلمت بها لا تستطع يداي ملامستها أو مداعبتها. نهاري يراها بعيدة بُعد النجوم وليلي يراها قريبة قُرب ظليّ رغم أنه يفصلني عنها ألف حاجز وعائق. إلا أني استمتعت بحلمي كما لو كان حقيقة، وأراهن أنه كان أروع من الحقيقة بكثير.

انتهى وقت الخيال، وجاءت لحظة الحقيقة. استيقظت من نومي أبتسم. نظرت إلى العجوز فوجدته يغط في سبات عميق، لم أرد إزعاجه. غادرت الخيمة وجمعت بعض الحطب وأشعلت النار بسهولة. صنعت لرفيقي فنجاناً من القهوة ووضعته بجانبه. يبدو أنه اشتم رائحتها فاستيقظ ليحتسيها. جلست بجانبه لأحتسي قهوتي. اشتم رائحة لم أشمها، رمقني بنظرة خبيثة وسألني بدهاء: "مع من كنت الليلة؟". لم أفهم ماذا قصد. قلت ببراءة: "كنت معك". ضحك ضحكة مجلجلة، وقال ممازحاً: "هل حلمت بي؟". شعرت أنه يلمح لشيء ما... تذكرت حلمي فشعرت بالحرج الشديد. استدرت إلى الجهة المعاكسة وألقيت نظرة على فستاني، فوجدته مزخرفاً ببقعة لزجة. ازداد إحراجي. قلت في قرارة نفسي: "ليتني اغتسلت وهو نائم". ثم قلت بتوتر وأنا أغطي تلك البقعة اللزجة

بكفي: "عليّ أن أذهب إلى حجرتي الآن". ابتسم وقال: "يمكنك أن تستحم هنا". اللعنة! وكأنه يقرأ ما يدور في ذهني. طبطب على كتفي وقال: "لماذا الحرج يا بني؟ أنت شاب أعزب، وأن تحلم بامرأة تلاطفك ليس بالشيء الشاذ أو الغريب". قلت محاولاً الدفاع عن نفسي: "أقسم أنني لا أفكر بالنساء، ولا أدري لماذا يردْن إليّ في المنام". ضحك وقال بمودة: "رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ. هيا اذهب لغرفتك واستحم إذا كانت خيمتي غير لائقة لفعل ذلك". طأطأت رأسي خجلاً وغادرت الخيمة ميمماً إلى حجرتي للاستحمام.

في طريقي التقيت بعرفات اللداوي. تقابلنا وجهاً لوجه، وعيناً بعين في أحد أزقة المخيم. طأطأت رأسي وأسقطت بصري أرضاً كي لا يعرفني، فيسخر مني. أسرعت في سيري أمشي بخطوات طويلة وكأني أركض. سمعت قرع نعليه تدب ورائي. توقفت لمواجهة الموقف. اقترب مني وسألني: "من أين أتيت؟". أخبرته أنني سلكت الطريق الجبلي. سأل ثانية: "هل هي آمنة؟". قلت وأنا أنظر للأرض: "حتى اللحظة آمنة". شكرني ومشى خطوتين وهو منشغل البال ويعضّ على إبهامه. استدار ثانية، وسأل بفضول: "هل أنتِ قريبة صابر؟". قلت في قرارة نفسي: "أعرف أنك عرفتني". أجبت بفظاظة: "لا أعرف أحداً بهذا الاسم".

أشحت بوجهي وتابعت سيري وأنا أسبّ فضوله إلى أن وصلت حجرتي. دخلتها بهدوء حتى لا يسمعني جاري التقيّ فيتهمني بشيء جديد. كالعادة رأيت الأواني ممتلئة والحجرة غارقة بالماء. لم أكترث بما رأيت، لأني اعتدت على ذلك. أشعلت ناراً في الموقد، ومشيت إلى برميل الماء وانتشلت منه ما يكفي لتطهير

obeikandi.com

بدني. وضعت الإناء فوق النار، وسرحت أفكِّر بتلك الفتاة الجميلة التي جاءتني في المنام من لا مكان. تمنيت لو يتحول الحلم إلى حقيقة، لأني أحببتها فعلاً. كانت لطيفة جداً معي، أشعرتني بأني رجل مهمٌ في زمن لا يراني فيه غير جنود الاحتلال.

ثلث ساعة وأنا أفكر بتلك الحبيبة، صاحبة الهوية المجهولة، حتى سخن الماء واغتسلت. غيَّرت ثيابي الملوثة بتخيلات الأعزب، وارتديت ثياب الاحتيال وهممت بالخروج، فإذا بعرفات اللداوي ينتصب أمام عتبة بيتي ويدخن. مررت من جانبه بخطوات سريعة متظاهراً بأني لا أراه. لم يتركني وشأني، ظل يمشي ورائي ويدمدم حتى اقتربت من الخيمة. فرغ صبري، توقفت وأنا أنفخ كالأفعى، صحت به: "ماذا تريد مني؟ لماذا تلاحقني ؟!". امتقع لون وجهه، وسأل بتلعثم: "أستحلفك بالله، ألست صابرا؟". قلت والشرر يتطاير من عينيّ: "لست صابراً، أنا امرأة قبيحة تشبه الرجال، ألا تركتني وشأني". استحى وانصرف شريد الذهن مشغولاً بمن أكون.

دخلت الخيمة وأوداجي منتفخة غضباً... وجدت العجوز مقرفصاً في فراشه. أقرأته السلام وجلست بجانبه أنتظر تعليقاته الجديدة. رمقني بنظرة، وقال بمودة: "من يعرف، ربما يكون حمام العرس قريباً"... قلت في قرارة نفسي: "كقرب المشرق من المغرب"، ثم قلت مختصراً: "كل شيء جائز".

وفجأة تذكَّرت شيئاً أضحكني، فانفجرت ضحكاً رغم المرارة. سألني مندهشاً عما يضحكني. قلت إنه سيغضب لو أفصحت عمّا يضحكني. قال إنه لن يغضب وأصرّ أن يعرف السبب. قلت له إنني سمعت من الناس أن رجلين من

سكان مدينة اللد اختلفا في مسألة انتشال كمية الماء من بئر في اللد. ادعى الأول أن الثاني يأخذ ما يزيد عن حقه من الماء، وأصرّ الثاني على أن الأول هو من يفعل ذلك. اشتد الخلاف بينهما ووصل الأمر بأن يرفعا أيديهما على بعضهما. سمع الناس صياح الاثنين فهرعوا ليصلحوا بينهما. فرّقوهما عن بعض واستمعوا لسبب الخلاف. اقترح أحد المحتشدين أن يستعمل كل واحد البئر يوماً دون أن يقترب الآخر منه. لم يحظ هذا الاقتراح بموافقة طرفيّ النزاع. اقترح آخر أن يرسلوا وراء رجل حكيم من المدينة ليحلّ الخلاف. أقبل الرجل الحكيم واستمع إليهما. صفن قليلاً وطلب من أحد الناس أن يحضر له خيطاً ومسمارين. جلب أحدهم خيطاً ومسمارين وأعطاه للرجل الحكيم. قاس الحكيم مسافة البئر، وحدد نقطتين تفصل مساحة البئر بالتساوي. ثبت مسمارين على جانبي البئر ومن ثم ربط الخيط بالمسمارين ليمر من منتصف البئر وقال: "ها قد قسمت البئر بالتساوي، فليأخذ كل واحد النصف الذي يريد". أُعجب الرجلان بفكرة الحكيم، وقالا: "هذا هو العدل".

استغرق أبو العبد في الضحك واصفاً ما قلت بالإشاعات المغرضة. قال إن أهل اللد لم يكونوا أغبياء لهذه الدرجة، رغم كل النكت الساخرة التي يرددها الناس عنهم في المخيم. قلت محاولاً استفزازه، لا بد وأن هناك أساساً لتلك النكت التي يتداولها الناس عن أهل اللد. رمقني بنظرة وسألني إن كنت قد سمعت برجل يدعى أبو العبد. قلت وأنا أضحك: "أتقصد أبا العبد الرجل الذي أراد أن يؤاخي بين أهل اللد والرملة فربط مئذنة اللد بحبل وأخذ يشده ويقول: "شِدّ يا أبو العبد، شِدّ، قُربِت الرملة على اللد". هزّ العجوز رأسه وقال:

obeikandi.com

"يبدو أنك تعرف الكثير عن أهل اللد". قلت مفتخراً: "قصصكم تملأ المخيم". غرز أصابعه في لحيته وقال: "وماذا عن أهل بلدك؟". قلت لم أسمع عنهم شيئاً. ابتسم وقال: "يكفي أنهم غسلوا الشمبر". قلت نافياً: "ليس نحن من غسل الشمبر بل أهل بيت نبالا". أصر على أننا نحن من غسلنا الشمبر واستطرد قائلاً: "ليس هذا فحسب بل وضعتم الشعير أمام الدراجة الهوائية لتأكل". صحت مدافعاً: "لا! لا! لسنا نحن بل أهل اللد من فعلوا ذلك". سأل متحدياً: "ومن سخن السَّلَطة؟ ومن أراد أن يُبلِّط البحر؟ ومن الذي لحق الشمس حتى يأكلها؟"...

شعرت أنه حشرني في الزاوية. قلت محاولاً الهروب من نافذة جلبت لي العواصف: إنني أتضوَّر من الجوع وأحتاج لتناول وجبة الإفطار. قال، وأنا جائع أيضاً وما رأيك أن نفتح علبة سردين لنفطر عليها؟ سألته مستغرباً: "وهل يفطر أحد على السردين؟". قال مبتسماً: "المعدة الخاوية لا تتبجح على نوعية الطعام". قلت إنني سأفطر الزيت والزعتر. ابتسم وسأل: "من أين لي بالزيت؟". قلت متراجعاً: "سأفطر زعتراً بدون زيت". ضحك وقال ممازحاً: "هل ينفع أكل الزعتر بزيت السردين؟". طلبت منه ألا يسخر مني، فأهل اللد هم من أكلوا الزعتر بزيت السردين. تنهد وقال متظاهراً بالغضب: "أتسخر من الدولة الثامنة؟". قلت مندهشاً: "أسمع أهل اللد يقولون ذلك، هل اللد فعلاً الدولة الثامنة؟". قال مفتخراً: "طبعاً!".

تذكَّرت ما دار بيني وبينه من حوار ليلة أمس وهو نائم، قلت مستفسراً: "هل أجبت عن أسئلتي ليلة أمس وأنت نائم؟". سألني مستغرباً عن قصدي. قلت له

إنني كنت أحاوره وهو نائم وكان يبادلني الكلام وكأنه مستيقظ. ابتسم وقال إن فاطمة أيضاً أخبرته أنه يتحدث كثيراً أثناء نومه، لكنه لا يتذكر شيئاً عندما يصحو.

أثناء حديثنا قدِم المجنون "جرعوش" إلى خيمتنا، يحمل بيده عصاً طويلة، ويرتدي معطفاً طويلاً قديم الصنع، ويضع على رأسه طاقية كاب جلدية مكتوب عليها الأمم المتحدة باللغة الإنجليزية. دخل الخيمة وأطلق وابلاً من الضحكات الهستيرية المجلجلة. أجلسه العجوز بجانبه، وسأله عما يضحكه فقال: "سرقت سجائر أبي وهو نائم". أخبره العجوز أن السرقة حرام. قطب حاجبيه، وقال بانفعال: "سرقة اللص لا تعتبر سرقة". ابتسم العجوز وقال: "عيب عليك أن تصف والدك باللص". تجاهل ما سمع، وسأل باستهجان: "من هذه المرأة العجيبة؟". همست في أذن العجوز: "لا تخبره وإلا سيفضحني". أجابه العجوز ممازحاً: "هذه ابنتي، أفكر بتزويجها لك". وكأنه صبّ فوق رأسه زيتاً يغلي. قام من جانبه وبدنه يهتزّ. سأله العجوز: "ما بك؟ وكأني قلت شيئاً أخافك". أجاب بتقزز: "هل تريد أن تزوجني رجلاً؟". قلت في قرارة نفسي: "كشفني النمس". سأله العجوز مستغرباً: "أتصف ابنتي بالرجل؟". أجاب بصراحة مطلقة: "شكلها قبيح! أريد أن أتزوج هدى". سألته بفضول: "هدى من؟". صاح مشمئزاً: "يا لطيف، حتى صوتك مثل نعيق الغراب!".

يا له من مجنون خبيث! مسح الأرض بي. حمدت الله أنه لم يخلقني فتاة وإلا لكنت سخرية للجميع.

طلب العجوز منه أن ينسى أمري والجلوس بجانبه ثانية ليستأنس به. وضع جرعوش شرطاً على العجوز مقابل جلوسه بجانبه؛ أن أبتعد عنه وأجلس في آخر الخيمة. قمت من نفسي وجلست في آخر الخيمة. رمقني بنظرة، وقال مهدداً وهو يلوح بالعصا: "لا تتحرك من مكانك، وإلا كسرت رأسك، مفهوم؟!". أردت أن أقول له لن أتحرك، سبقني وقال: "اخرسي! أذني تؤلمني".

انفجر العجوز ضحكاً، وقال معاتباً: "حرام أن تسخر من غيرك. هكذا خلقها الله، ولو كان أمر جمالها بيدها، لجعلت نفسها أجمل فتاة". هزّ جرعوش رأسه، واعتذر لي. أردت أن أقول له اعتذارك مقبول. سبقني ووضع سبابته على فمه، وقال: "هوش! هوش! ولا نفس!". شدَّه أبو العبد من ذراعه وأجلسه بجانبه ودار بينهما الحوار التالي:

- أين كنت مختفياً؟

- كنت مقيداً في السرير.

- لماذا؟

- شكاني شريف إليه.

- أي شريف؟

- شريف العميل.

- وكيف عرفت أنه عميل؟

- اسأل صديقه صابرا!

- مَن صابر ؟

أطلق ضحكة مجلجلة، وسأل العجوز متجاهلاً سؤاله:

obeikandi.com

- هل سمعت ماذا فعل صابر؟

- ماذا فعل؟

قلت مخاطباً نفسي: "أرجو أن لا يصدقه". أخذ في الضحك من جديد. سأله العجوز بفضول: وماذا فعل؟

- هل ستحفظ السر؟

- أكيد.

- كان يضاجع فراشه، وسرق بقرة أيضاً.

قلت في نفسي: "لعنك الله يا جرعوش، أصبح الغزال بقرة؟!". وخزه أبو العبد بعكازه، وقال موبخاً:

- عيب عليك!

- أقسم أني رأيته بأم عيني!

- لا تقل هذا الكلام.

- كل المخيم يعرف ذلك.

- وهل رآه أهل المخيم؟

- لا، أنا أخبرتهم.

- وتقول لي إنه سر!

قام جرعوش ووجهه يطفح بالحمرة من الخجل. أدرك أنه عك في الكلام. شده العجوز ثانية من ذراعه وأجلسه. قلت هامساً: "دعه ينصرف". أجلسه وسأله كيف خرجت من بيتك ونظام حظر التجوال لا زال مفروضاً. أجاب غير مبال: لا أخاف الجيش.

- لو رأوك لقتلوك.

- لا تخف، عندي بندقية.

- اسكت ولا تلقي بنفسك إلى التهلكة.

أحرجه العجوز مرة أخرى. راح يفرك وجهه ويميل برأسه يميناً ويساراً في حركات تدل على توتره. سأله العجوز لماذا يفعل ذلك، أجاب: أنا جائع! هل عندك طعام؟

- عندي سردين، هل ترغب بالأكل معي؟!

- شردين الوكالة؟

- نعم، "شردين الوكالة".

كنت أنظر إلى ذلك المجنون وأضحك رغماً عني. منظره وهو يتكلم أثار غريزة الضحك عندي. إضافة إلى أسلوبه في الكذب، ومناقضة نفسه في الكلام. سمعني أضحك، نهض. نظر إليّ بغضب وصوّب عصاه نحوي وأطلق صوتاً قلّد فيه أزيز الرصاص، ثم صاح: "موتِي يا قردة!". انفجر العجوز من الضحك، وأمسك بيده وأمره بالجلوس، فجلس. أخذ يحدق في وجهي ويرقص حاجبيه، ويبدو أنه قد وقع في غرامي. قمت من مكاني وحاولت الجلوس بجانبه. مدّ عصاه وثبّتها على معدتي وراح يدفعني بها طالباً مني الرجوع إلى مكاني. طلب منه أبو العبد التوقف عن فعل ذلك. توقف. جلست بجانب أبي العبد، ومددت رأسي أسأله: "هل يعجبك مظهري؟". لم يجب. كررت سؤالي. تأفف متضايقاً مني وطلب من أبي العبد أن ينهرني. تدخل أبو العبد وقال له بأنني مثل أخته.

obeikandl.com

قال بامتعاض: "لا أخوات لي"، صمت قليلاً وهو يبحلق بي واستطرد قائلاً: "ابنتك بشعة جداً، لا أدري لماذا خلَّفتها؟". همس العجوز في أذني: "حتى جرعوش يسخر من مظهرك ويصفك بالبشعة". تنهدت ورمقت جرعوش بنظرة متجهمة حتى أخفي نفسي عنه. أخرج لسانه ليغيظني وانفجر بالضحك. تجاهلته ومشيت إلى زاوية الخيمة. تناولت ما تبقى من لحم الغزال حتى أقوم بطهيه. وما أن رأى الدم والسكين، حتى حمل نفسه وفرّ من الخيمة بأقصى سرعته صارخاً: "تريد أن تذبحني!". سألت العجوز عما أصابه، ابتسم وقال:

- إنه يخاف من الدماء.

- آه، فهمت الآن.

- ماذا فهمت؟

- ذبحت الغزال، رأى الدم ففر هارباً.

- إذن غزالك هو البقرة؟

- نعم! هذا الجرعوش سيدمر سمعتي.

- لا عليك! ماذا ستطهو لنا؟

- سأطهو لك شيئاً لم تذقه في حياتك.

- شوقتني كثيراً، ماذا ستطهو يا ترى؟

- "كشكولة" بلحم الغزال.

- تبدو لذيذة.

- بالتأكيد.

- أعتقد أن اسمها يحمل مذاقها.

- عجوز لئيم.

- يبدو أننا اتفقنا على أن لا نتفق.

- لماذا؟

- اسمي أبو العبد.

- معذرة لهذا السهو.

- هيا "قاصعني" لأثبت لك أنك أنت العجوز، وليس أنا.

- رسغي مكسور...

- استخدم يدك الثانية.

شبكنا يدينا بعضهما ببعض لنرى من هو الأقوى. كنت واثقاً أنني سألوي يده. قدَّرت قوتي خطأً. لوى يدي بلمح البصر، وكاد يكسرها. صرخت مستجيراً به أن يتوقف، ففعل وهو يضحك مني:

- من فينا العجوز؟

- لم أتصور أنك قوي لهذه الدرجة!

- حذَّرتك.

- قرْ بأنك الأقوى.

- أنسيت أنني فلاح ابن فلاح؟

فاجأني العجوز مرة أخرى، أدركت أنه لا يتمتع بقوة الذهن فقط، وإنما بقوة جسدية ويدين قويتين كالصخر. انتصر العجوز وشرع يغني محتفلاً بانتصاره عليَّ: "هيه يا واردة ع العين ردي الغرة رديها، والغرة ريش النعام روحي معلقة فيها". وكأنه كان يتغزل بي أو يسخر مني. ولِمَ لا، وأنا أمارس دور المرأة التقليدي

obeikandi.com

تماماً، أرتدي ثيابها، وأكنس الخيمة، وأغسل الثياب، وأطهو الطعام. توقفت عن تقطيع اللحم، واقتربت منه والسكين في يدي. وسألته بلهجة فيها غضب: هل تنظر إليَّ كامرأة؟

- أبداً!

- أشعر بالخجل من هذه الثياب.

-أتشعر بالخجل من الثياب التي أنقذتك مراراً من عربدة الجيش؟

- سأحرقها.

- أتريد أن تحرق ثياب فاطمة؟

- هل هذا الثوب لفاطمة؟

- نعم! أحضرته معي بعد وفاتها!

- وماذا عن الروج؟

- استخدمه مع شباب يقومون بمهام ثورية متقمصين دور النساء.

- لا أفهمك.

- انس الأمر. واعلم لولا محبتي، لما جعلتك ترتدي ثياب فاطمة.

أشعرني العجوز بما يكنُّه لي من حب، بقوله إنها ثياب شقيقته فاطمة. عرفت مقدار معزّته وتقديره لي، وأدركت أنه يخفي أسراراً كبيرة تخص المناضلين، ولا يريد البوح عنها. جلست أمامه وحاولت أن أقبّل يده، سحبها، وقال: "استغفر الله!". قلت له: إنك في مكانة أبي. ابتسم وأجاب: "الاحترام يُؤدَّى بالكلمات لا بتقبيل الأيادي". قلت مبرراً: "قد يخوننا التعبير بالكلمة أحياناً". أجاب بمودة: "الكلمة الصادقة تدخل القلب بلا استئذان حتى لو لم تكن في مكانها!".

obeikandl.com

أتدري يا أبي، تعلمت الكثير من ذلك الفيلسوف الهرم. تمنيت لو أنك كنت معي، لترى عظمته وروعته. لكن لا عليك، ها أنا أحدِّثك عنه.

عانقني العجوز بحرارة، وشكر الله على نعمة الولد الصالح الذي لم يأت من صلبه. قال إنه مدين لي بالكثير، ودعا الله أن يعينه على مكافأتي. استغربت ما قاله، وقلت إن العكس صحيح، فأنا مدين له لأنه علمني حب الحياة، وأعاد لي الأمل بعد أن غدرت بي الدنيا. هزّ كتفي، وخرج من الخيمة يحمل بيده إبريقاً من الماء ليتوضأ.

رآه الجنود فصرخوا عليه عبر مكبرات الصوت: "ادخل البيت، ممنوع التجول!" نفض كفه غير مكترث بما يقولون، فكرروا نداءهم مرة أخرى بلهجة كلها تهديد. دخل الخيمة يدمدم بكلام غير مفهوم. سألته إن كان يتكلم معي، فقال: إن الجيش يفسدون عقلي، ويتلفون اطمئناني.

قعد القرفصاء على فراشه وتناول القرآن وأخذ يقرأ فيه. لحظات وإذا بنا نسمع أحداً ينادي عبر مكبرات الصوت. لم نفهم شيئاً من كلامه. توقف العجوز عن التلاوة ووضع كتاب الله فوق الطاولة محاولاً أن يفهم ماذا نسمع: "ممنوع... الت... الت... التجول". ضحك العجوز، وقال: "هذا صوت جرعوش!". قلت مستغرباً: "لماذا ينادي عبر مكبرات الصوت؟". أجاب العجوز مخمناً: "يبدو أن الجنود أمروه بذلك، ليسخروا منا ومنه".

سمعناه مرة أخرى يقول: "دجاج للبيع، ثياب داخلية للبيع!". كان الجنود يلقِّنونه الكلمات فيعيدها من ورائهم، حتى أنهم أجبروه على التلفظ بكلمات

سوقية نابية. هزّ العجوز رأسه وهو يعضّ على شفته، قائلاً: أسأل الله أن يحكِّمنا بهم يوماً...

- العالم كله يقف إلى جانبهم.

- لأنهم لا يعرفون حقيقتهم.

- الإعلام هو السبب.

- الإعلام بيدهم حتى في الدول الغربية.

- أمريكيا تحتضنهم.

- أمريكيا معهم والله معنا.

- ندعو الله فلا يستجيب لنا.

- لأن قلوبنا ماتت منذ زمن.

- ماذا تقصد؟

- نستحق ما يفعله الله بنا!

- لكننا مسلمين نوحّد الله ونعبده، وهم كفّار.

- الإسلام بريء منا.

- لماذا؟

- لأننا لا نعرفه حق المعرفة.

كان العجوز مصيباً في رأيه، نحن ندّعي الإسلام وهو بريء منا. لا يغّير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، ربما هذا ما قصده. معه حق، أتدري يا أبي، إنني كنت أفكر بالصلاة، لكنّ قلبي كان متسخاً بالمعاصي، فأجَّلت أمر الصلاة إلى أن أطهره. لطالما حاولت تطهير ذاتي من معاص متبلدة، لكنني كنت أشعر بأنني قد

بِعت نفسي للشيطان مثل "فوستوس" ومن الصعب العودة إلى طريق الله. تمنيت لو كنت مثل "جرعوش" مجنوناً، تائهاً في جنبات هذا الكون البائس، فمثله لا يفكر بشيء، لا يقلق بشيء، لا يندم على شيء، يسب المارة فلا يحاسبه أحد، يغازل الفتيات فلا يردعه أحد، يقتحم البيوت فلا يطرده أحد. لا يوجد قانون عسكري أو قانون مدني يحكمه. اكتسب حريته من جنونه، شفقة الناس تغمره رغم أنه يزعجهم ويخيفهم أحياناً. ليتني كنت مثله. سمعني العجوز أدمدم مثل رجل خرف، سألني بدهشة: هل جننت يا صابر؟

- ليتني أجنّ، الجنون نعمة.

- ماذا تقصد؟

- المجنون لا ينصاع لقانون بشري أو إلهي، له الدنيا يصول ويجول بها كما يشاء، وله الجنة تنتظره.

- أفكارك غريبة، هل تحسد المجنون على جنونه؟

- نعم، أحسده في اليوم مائة مرة.

- لكنه أضحوكة الجميع.

- تضحك الناس منك خيراً من أن تضحك عليك.

- لكن الله أعطاك العقل وحرمه منه.

- هنا تكمن النعمة الكبرى.

- النعمة الكبرى؟

- هل يحاسب المجنون على أية جريمة قد يرتكبها؟

- لا يحاسب لأنه مجنون.

- هل يعذّب المجنون بعد موته؟

- لا، رُفع القلم عنه.

- أليست هذه الأسباب كافية لأن أحسده؟

وضع في فمه لقمة كبيرة من الخبز، لا أدري كيف ومتى تناولها أو ربما كان يضعها في جيب جبته. انشغل في مضغها حتى ظننت أنه نسي ما كنّا نتحدث فيه. ابتلعها، وقال: تصور أنك "جرعوش"، ماذا سيكون شعورك؟

- السعادة طبعاً.

نظر إليّ بتعّجب ثم أردف وهو يبصق: السعادة؟ وهل المجانين سعداء؟

- نعم! لأن السعادة أن تعيش كما تشاء، بدون قيود أو قوانين.

- وكأنك تتمنى حياة الغابة.

- كيف أتمناها وأنا أعيش بها؟

- صدقت!

- لذلك تمنيت لو خلقت مجنوناً.

- عش حياتك يا ولدي كما هي.

- وكيف أتصدى لمن يحرمونني الحياة؟

- بالصبر، وقوة الإرادة.

- الصبر! الصبر! هو لغة الضعفاء.

- بل لغة الأقوياء.

- إلى متى سنصبر؟

- إلى أن يرفع الله مقته وغضبه عنا.

obeikandi.com

- ومتى يكون ذلك؟

- يعلم الله.

obeikandl.com

(15)

انتهينا من حوارنا وعبثية إحباطي وقمت وجهَّزت وجبة الإفطار. وما كدنا نأكل، حتى أقبل إلى الخيمة رجل غريب الأطوار. أراه دائماً يجوب شوارع المخيم، بثياب رثَّة ووجه متسخ يثير الرعب، دائماً يحمل عصاً وكيساً من الخيش يربطه على وسطه على شكل حقيبة، يضع فيه ما يعطيه إياه أهل المخيم من طعام وخبز.

اعتدت أن أراه في صور مختلفة. تارة أراه واقفاً فوق حافة سور المقهى يخطب بالزبائن خطباً فلسفية غير مفهومة، وتارة أراه ممداً على الأرصفة كأنه جثة هامدة ومن حوله الصبيان يقذفونه بحبات الطماطم وما تيسر لهم من قمامة. وأحياناً أراه جالساً برفقة كبار السن يبادلهم الحديث ويشرب معهم الشاي، وأحياناً يظن نفسه شرطي مرور فينصب متراساً من الحجارة في منتصف شارع المخيم الرئيس ويوقف السيارات الداخلة والخارجة، ويطلب من السائقين إبراز رخصهم وبطاقاتهم الشخصية ثم يسمح لهم بالمرور. وأحياناً أخرى أرى السائقين يمازحونه فينفِّذون أوامره، وأحياناً أراهم عصبيين ينزلون من مركباتهم بغضب ويبعدونه عن طريقهم. تراه فجأة يظهر، وفجأة يختفي ولا أحد يعرف عنه شيئاً غير أنه رجل مبارك.

حين رآه العجوز، وقف احتراماً وتقديراً له، عانقه غير مكترث بمنظره أو رائحته النتنة ودعاه ليأكل معنا. لم يتردد في قبول الدعوة. تربع أمام الطعام وشرع

يأكل بشراهة، وكأنه لم يأكل منذ سنين. انتهينا من طعامنا فقام العجوز وجلس على فراشه وأجلس الرجل الغامض بجانبه وأخذ يتحدث معه بنبرة خاصة كما لو كان يتحدث مع أمير أو رئيس أو إنسان ذي أهمية كبيرة. حتى أن وجوده أنسى أبا العبد وجودي تماماً ولم يتذكرني إلا حين طلب مني أن اصنع لهما القهوة. مرت ساعة بأكملها وأبو العبد يروى له الحكايات ويسمعه المواعظ والرجل الغريب في عالم آخر. يفتح فمه وكأنه مصيدة للذباب أو أنه مستمع جيد. فجأة وقف الرجل الغريب، اعتلى الطاولة، وقال بنبرة أديب غاضب:

أربعون خازوقاً دُقوا في ظهورنا، جماجمنا، عيوننا، قلوبنا، ذاكرتنا ورحم العذارى الثكلى. آلاف الصخور الصلبة حُفرت لتضم أصحاب الضمير. وآلاف أخرى تناثرت أعدادهم ما بين معاق وضرير، بين مطارد وأسير. عدَّاد المآسي لا زال يرقب القادمين الجدد بشغف وعين ثاقبة، ليحولهم إلى أرقام لم ترق بعد إلى تحريك الضمير. وأي ضمير؟ مات الضمير! قُتل الضمير...

كم كبش علينا أن نقدم ليُنتزع الخازوق، ويستيقظ الضمير؟ كم شاب وفتاة، وكم شيخ ورضيع علينا أن نتكبد كي تسقط صخرة الظلم الجاثمة فوق صدورنا منذ عشرات السنين؟ عاش الوطن العربي من المحيط إلى الخليج. عاشت الأمة الإسلامية. عاش جرذان القرن العشرين. عاشت الجحور المخفية. ولتخرس كل الألسنة التي لم تدرك حكمة التأني، ولم تفهم التخطيط والتدبير.

هيا يا أبا العبد نصنع المستحيل، ننسج خيمة من بلور، نرسم حلمنا المحظور، نقاوم خوفنا المبتور، نغني شعرنا المهدور، نسعف الفقير المقهور. هيا نعسكر بصمت دون حركة، ببطء دون عجلة، بعفوية دون خطة، بثقة دون طريق.

obeikandl.com

سنحقق هدفنا في أقصر وقت، لا تنس هدفنا سهل لا يستحق العناء، لا يحتاج إلى وقت، لا يحتمل الذكاء.

أنت قل ما لديك، وأنا أسمعك بلا شك، لا تغضب إذا ما فات سمعي حرف أو كلمة. ابق بجواري، ساندني ولا تسْه لحظة، أخشى إن سهيت فقدان الخارطة. امش ولا تعدّ الخطوات، لا تخش الشوك، لا تأبه بالمسافة، لا تنظر للوقت، أعدك أننا سنصل. حتماً سنصل وننتصر. إن بقينا هكذا أعدك بحفلة فاخرة، براقصات عاريات، بكأس نبيذ معتق، وموسيقى صاخبة. أعدك بليل دافئ، وسرير وفير، وعاشقة ملتهبة متنورة.

حافظ على الخطوة، واحذر التعثر في روث الخيول. لا تنظر إلى الخلف فكل ما مضى منذ لحظة أصبح ماضياً، والماضي لن يعود. احذر كلاب الصيد النائمة، لا توقظها... الويل لك إن استيقظت. أمامك مستنقع تسكنه التماسيح، تظاهر أنك لا تراها، وسرْ فوق جلدها بِرِقَّة. لا تخف، إنها أليفة لا تأكل البشر.

امش ولا تخف، النصر على مرمى حجر. هناك في انتظارك فرسان العرب، جحافل لا حصر لها ولا عدد، يحملون السيوف والرماح وبعض الخطب. صافحهم، عانقهم، أغرقهم بالقُبَل. بلغهم سلامي ولوعتي للقاء، وأعطهم الخريطة حتى لا يضلُّوا الطريق. ارسم سهماً في كل خطوة، واكتب حرفاً عند كل مفترق طريق لتعرف كيف تعود.

تريث حين تقطع الحدود، عرِّ جسدك وارقص للجنود رقصة مسالمة. امنحهم الوقت ليدركوا أن جسدك لا يحمل قنبلة أو حجراً. انتظر الإشارة من قائدهم، قد يطول الانتظار؛ ربما ساعة، ساعتين، يوماً، يومين، أو ربما عاماً. امنحه الوقت

obeikandi.com

ليطمئن قلبه. لا تغضب إذا رفض السماح لك بالعبور. الأمر ليس أكثر من جواز سفر وهوية. الجواز مفقود، ومعالم الهوية غير واضحة.

إذا يئست أخبره أنك فلسطيني، حتماً سيعانقك، ويفرش لك الحدود بالأكاليل والورود. إذا أطلق النار نحوك، لا تخف. إنه الترحيب بالشقيق الحبيب. إذا أطلق أكثر من ألف رصاصة، اهرب بظهرك واحذر الألغام. لا بد أن الأمور قد اختلطت عليه فظنّ أنك واحد آخر. اختبئ وراء متراس وارفع الراية البيضاء، وانشد بملء حنجرتك: "بلاد العرب أوطاني". سيعرف أنك شقيق وليس عدواً. حين يضرب جبهته، اعرف أنه قد عرف من تكون، اقبل اعتذاره وابتسم. التمس له الأعذار فهو يخشى أن يدنس الأغراب قدسية الدار.

ربما يختلط الأمر عليه ثانية ويطلب تحسس جسدك. لا تنزعج. ساعده وابتسم بصمت. احذر أن تبتعد الابتسامة مسافة تتجاوز الحلق. واحذر أن تتحرك شفتاك. ربما يطلب منك الانحناء ليفحص مؤخرتك. نفِّذ الأمر، وكن على ثقة أن الأمر ليس شخصياً. اللوم يقع على الأشرار الذين جعلوا من مؤخراتهم مخابئ للمخدرات والسلاح. لا تشعر بالضجر أو الإهانة، إنها مجرد إجراءات روتينية، أعدك حين يعرف هويتك سيجلسك ويلتقط لك عشرات الصور. ولحبهم وتقديرهم لك، سيطلبون منك البصم بأصابعك الخمسة، كتذكار ليس أكثر.

ابصم، لا تخف! الحب لا يعرف حدوداً. إن أجلسوك تحت الشمس اعرف أنهم يريدون أن يمنحوا جسدك بعض الفيتامينات الناقصة، وإن أجلسوك في غرفة صغيرة باردة، اعرف أنهم يريدون أن يخففوا حرارة السفر والعناء. ربما

يستضيفونك شهراً أو سنة، ربما أكثر. اقبل الضيافة بصدر رحب وابتسامة عريضة. هناك لن تشعر بالوحدة أبداً، سيأتيك وجه جديد كل لحظة، وسيلعب معك لعبة جديدة. يقيدك، ويغمّ عينيك، ويسألك عدة أسئلة، وإذا تأخرت بالإجابة سيسدد لك ركلة أو لكمة. لا تسئ فهمه. إنها قواعد اللعبة. ضرب الحبيب للحبيب! هو يسأل وأنت تجيب. إيّاك أن تسأل، السؤال غير مباح للضيف، فقط للمستضيف. هكذا أصول اللعبة.

قد ينزف أنفك. قد يُكسر ضلعك. قد تفقد ضرساً أو خمسة، قد تفقد الوعي مرات ومرات. قد يرشقوا جسدك بالماء المثلج في الشتاء، قد يضعوا رأسك في برميل ماء، قد يعلقوك كالشاة، رأسك يلامس الأرض، وقدماك نحو الفضاء. لا تنزعج، هكذا أصول اللعبة. وحذار! حذار أن تنطق بكلمة احتجاج. تذكر أنك الضيف، والضيف لا يحتجّ في بيت المُضيف. إذا شعرت بالضيق الشديد، اختلس لحظة واسرح في عالم الخيال: اصرخ دون صوت، اضرب دون يد، اشتم دون كلام، اهرب دون مسافة. تذكر أنك الضيف، والضيف في بيت المضيف دوماً ضعيف.

اصبر يا سعيد! الشجاعة صبر ساعة، الألم في الشوط الأول يكون أقسى، تَحَلَّ بالصبر، واعتمر قبعة الرجولة، تذكر أن المضيف أحياناً يتجاوز عتبة الحدود. عليك أن تنسى كل شيء، تنسى أهل المآثر والنسب، والخيول الضاريات. عاش الوطن العربي من المحيط إلى الخليج!."

نزل الغريب عن الطاولة، وغادر وهو لا زال يردد: "عاش الوطن العربي من المحيط إلى الخليج! عاشت الوحدة العربية، خسئت الحدود!".

آه يا أبي! كنت منبهراً، أنتظر خروجه بفارغ الصبر لأعرف ما هي حكايته، وسبب اهتمام أبي العبد به؛ أبي العبد الذي كان يستمع له ويبكي بصمت. وما أن اختفى طيفه حتى بادرت أبا العبد بالسؤال: من يكون هذا الرجل؟

- رجل مثلنا.

- أعرف أنه رجل، لكن ما حكايته؟

- حكايته طويلة.

- أسمعني إياها.

- أمهلني عشر دقائق لتأدية الصلاة.

obeikandl.com

(16)

أنهى أبو العبد صلاته وجلس يستغفر ربه بخشوع. أنهى الاستغفار ورفع يديه إلى السماء بأدعية كثيرة، ليت نصفها يتحقق فنخرج من قمقم المذلة والقهر والحرمان. عاد وجلس على فراشه، وقال:

اسمه أو أحرف من اسمه هو كل ما تبقى له. تبخَّر تاريخه، ماضيه وحاضره. ابتلعت الرياح العاتية شهاداته، جنسيته، جواز سفره، عقله، وكل ما يمكن أن يكون وثيقة تحمل اسمه، عنوانه أو مهنته. بجرة قلم، بطرفة عين انقلبت حياته رأساً على عقب. بالأمس كان اسماً يُنادى، وجهاً يُرى، روحاً تُحب، جسداً يُحس؛ أما الآن فهو كما ترى مجرد شيء غير منظور، رغم أنه لا يمتلك طاقية الإخفاء، ورغم أن وجهه ناصع البياض وأشبه بنبراس ساطع.

طرحت به المحن، أهلكه الواجب المقدس؛ عيادة المريض وصِلة الرحم. أصيبت خالته بوعكة صحية خفيفة فهرع لزيارتها في جو عاصف ومكهرب. لم يكن بيتها في قارة بعيدة، أو دولة أخرى، بل قريب جداً من بيته. مجرد بضع خطوات، مسافة مرمى حجر. وما أطولها من مسافة! وما أصعب طيّها. وما أثقل وزن الدقيقة في هذا الزمن! من يصدق أن زيارة قصيرة لم تستغرق إلا دقائق معدودة، كانت سبب انفراط عقده وتلف دماغه؟

قام سعيد الشاعر الحساس والأستاذ المخضرم بالواجب المقدس، اطمأنَّ على خالته وغادر بيتها ليرى أن عودته لبيته أصبحت مستحيلة. خط واحد كان كافياً ليبعده كثيراً عن أهله ونفسه. خط أحمر مرصع بأسلاك شائكة، محشو بألغام قاتله يُحظر تجاوزه، بل لا تجرؤ قدم على قرعه إطلاقاً. وكأنه زلزال ضرب الأرض وشقها إلى نصفين بينهما فجوة كبيرة جداً، لا تستطيع الخيل تجاوزها بقفزة ولا اثنتين ولا حتى ثلاث، ليس لطولها أو عرضها بل لِمَا زرعته اليد المتسلطة في رحمها!

فُجع سعيد برؤية ما لم يره قبل الزيارة، فجُنّ جنونه. للوهلة الأولى ظنّ أن أحد الجيران قام بتقسيم الحارة وفصلها. صاح ينادي بأعلى صوته: "أيّ أحمق وضع هذه الأسلاك الشائكة؟ ألم يفكر بأني سأعود إلى بيتي؟ كيف سأصل بيتي الآن؟"...

سمعته زوجته العروس يصيح، أسرعت إليه لتعلمه الخبر. رآها من خلال الأسلاك فبادرها بالسؤال قبل أن تصله: "أيّ غبي فعل هذا؟ وكأنه سور عكا، بل أفظع، لا أرى له بداية ولا نهاية. من وضعه؟ ومتى؟ ولماذا؟ أم ما أراه مجرد كابوس؟". اغرورقت عيناها بالدموع. مسحت دموعها بقفا كفّها. تنفست الصعداء، وقالت: "نحن الآن في بلدين مختلفين تماماً". ظنّ أنها تمازحه، قال منفعلاً: "كفى مزاحاً، أخبريني ما هذا!".

لم تعرف زوجته ماذا تقول، سكتت وفي سكوتها قرأ ابلغ الكلام. صعق في مكانه، ثم انتفض وصاح: "ليس بهذه السهولة، فقدت بيتي مرة ولن أسمح بفقدانه مرة أخرى!". قرفص على الأرض، شدّ شعره بقسوة وكأنه ينتف ريش

obeikandi.com

دجاجة ثم تابع قائلاً: "أغيب دقائق وأعود لأرى أني ممنوع من النوم في سريري مرة أخرى، هل يعقل هذا؟ لماذا لم تناديني حين ابتدؤوا بوضع هذه الأسلاك؟". أحس أن الأرض تهتزّ تحته، انبطح على بطنه، وألصق أذنه بالتراب، فسمع هديراً ينبعث من مسافة ليست ببعيدة. خطرت في باله فكرة، فبادر بتنفيذها.

ركض بأقصى سرعته جانب الأسلاك يتتبع امتدادها لعلّه يدرك من ينصبها فيتسنّى له العودة إلى بيته. ظل يركض ويركض حتى رأى مجموعات كبيرة من الجنود يقودون آلات عملاقة، يغرسون الأسلاك والألغام. اقترب منهم وصاح: "أود العودة إلى بيتي!". لم يعره أحد جانب اهتمام. صاح ثانية: "بيتي في النصف الذي تقفون فوقه، أدخلوني!". تقدم أحدهم إليه وصاح فيه: "عد من حيث أتيت، وإلا سنرديك برصاصنا". شحب وجه سعيد وأجاب بلسان يرتعش: "لكن بيتي وأهلي وزوجتي...". قاطعه الجندي بإطلاق وابل من النار في الهواء، محذراً إياه من مغبة عدم الاستجابة لأوامرهم. تراجع إلى الخلف وقدماه تتراقصان، وقال وكأنه يستجدي عطفهم: "زوجتي حامل، وأمي على حافة الموت، كل ما أريده العودة إلى بيتي".

اندفعت مجموعة من الجنود نحوه وكأنهم ثيران هائجة، وبلمح البصر وجدهم يحاصرونه ويلسعوا جسده ببنادقهم. أخذ نصيبه من اللكمات والركلات وعاد يجر نفسه جراً حيث تقف زوجته. رأته في حالة يرثى لها، شرعت تلطم وجهها وتصرخ: "أين ذهب وجهك؟". نظر إليها بعينين شبه مغلقتين ثم ارتمى على الأرض، وقال بصوت متعب متقطع: "لم أحس إلا باللكمة الأولى، لكني متعب جداً ولا أعرف لماذا...". قاطعته بعصبية: "وتقولها ببساطة! يا رجل، لا

أستطيع التمييز بين وجهك وقفاك". ابتسم ابتسامة صفراء، وقال: "كفي عن الثرثرة، واجلبي لي ثيابي، فمشواري سيكون طويلاً على ما يبدو". سرحت زوجته تفكر بما قال، سألته باستغراب: "وكيف ستصلك الثياب، هل أعطيها للجنود؟". قاطعها بغضب: "لا تكوني سخيفة، أحضريها واقذفيها من فوق الأسلاك". علقت باستهجان: "الأسلاك عالية جداً". تأفف وصاح: "أحضري ابن الجيران لمساعدتك".

هرعت زوجته لجلب ثيابه، وعادت وبرفقتها عليّ ابن الجيران. وما أن رأى عليّ سعيداً بتلك الحالة حتى انفجر ضاحكاً وعلّق: "تستأهل ما حدث لك، وكأنك لم تكن تعرف أن الأوضاع مكهربة". قاطعه سعيد بانفعال: "لم يخبرني الوحي أنهم سيقسّمون الحارة إلى قسمين أثناء غيابي، وإلا لكنت انتبهت لذلك، هيا اقذف ثيابي من فوق الأسلاك". راح علي يلف الثياب على شكل كرة، ويقذفها قطعة تلو الأخرى. علقت قطعتان في الأسلاك الشائكة ونجح في إيصال الباقي. أما القطعتان اللتان علقتا في قمة السياج، فكانتا ملابسه الداخلية: "كلسون و شلحة" وهذا ما جعل سعيداً مشهوراً بين الناس، كلما مرّ أحد من جانب السياج، صاح الأطفال: "انظر، ذاك كلسون سعيد". ومنذ ذلك اليوم لم ينعقد لسعيد زهر ولا ثمر.

الوقوف وراء السياج أصبح الطريقة الوحيدة لمحاكاة زوجته العروس والالتقاء معها، في مشهد درامي يشبه السجن تماماً. كثيراً ما وقف وراء خط الموت، يترقب بلهفة وتلوع بزوغ ظل عروسه ليتحدث معها من ورائه. تارة يتجادلان في أمور اجتماعية فيصل الأمر بهما إلى الغضب ومغادرة نقطة اللقاء،

وتارة يُسمعها الشعر ويغني لها بصوته الدافئ الحزين أغنيات لا يغنِّيها إلا سجين محروم من حريته، وأخرى يصطحبه الخيال في رحلة لا يمكن الوصول إليها في اليقظة. يبادلها القُبَل عن مسافة فاصلة تقدَّر بمترين أو أكثر.

كثيراً ما تخيّل أنه طير، هواء، غبار أو حجر تقذفه يد طفل فيتجاوز خط الموت. حتى أنه تمنى لو كان حشرة ليتمشى بتحدٍ واستهتار فوق خط الدمار. وكثيراً ما اجتاح اليأس دماغه وأفقده الأمل في العودة إلى بيته، فصار يعشم نفسه بفاتح جديد. يواسيها ويعشمها بالفرسان الشداد، بالسيوف البيض والخيل الضواري حتى أدرك أن أنصال السيوف قد تثلمت، وأن سيقان الخيول قد تقطعت، وحتى الفرسان قد جارَ عليهم الزمان، ابتاعوا فروسيتهم في سوق الشعر والخطب. أدرك أن الحلم أصبح مجرد طيف عاجزٍ بين المهانة والظنون، انتزع مخيلته من رأسه وقذفها في حضن خط الموت. احترقت مخيلته فما بكت عيناه، أضحت أشلاء فلم ترجف يداه، تخلّى عنها تماماً، وراح يبحث في أعماق ذهنه عن حل لزوجته الحامل. فتش في أقبية ذهنه بدقة باحثاً عن حل، أيّ حل دون أن يجد فكرة تسعفه، تنجده، تخرجه من مأزق فظيع لم يكن أبداً في الحسبان. ظنّ أن عقله قد خفّ أو هرم بعد أن استُؤصلت مخيلته، هرع إلى الخط المحظور يصيح بملء حنجرته، منادياً على زوجته لتسعفه بفكرة ما. سمعت زوجته صياحه، خرجت إليه لترى ما علته. حين رآها تقترب من خط الموت، جمع رأسه بين يديه وهلل: تقسَّمني الإحباط ضرباً موجعاً، فهل من فكرة للالتقاء؟

صاحت زوجته بأعلى صوتها: ستفرج قريباً.

- لماذا تصيحين؟

obeikandi.com

- حتى أُسمعك صوتي.

- لا تصيحي، أسمعك جيداً.

وفي محاولة منها لتغيير مجرى الكلام: ثلاثة شهور مرت.

- ماذا يعني ذلك؟

- كبُر بطني.

- وكبُر همّي.

- ستفرج قريباً، اصبر!

- يكفي هذيان.

برق في ذهنها فكرة: ماذا لو سافرنا إلى بلد آخر؟

- هه! هه!

- ما يضحكك؟

- أحتاج جواز سفر.

- استخرج واحداً.

- من أين؟ وكيف؟

- قدّم لجواز سفر أردني.

- من أين؟ وكيف؟ أنا محسوب على غزة.

- استخرج وثيقة سفر مصرية.

- حتى هذا مستحيل!

- لماذا؟

- أنا مُسجل بالضفة.

obeikandi.com

- يا للتعاسة! ويا للشقاء!

- سأقطع الأسلاك الشائكة!

- وماذا عن الألغام؟

- فلتنفجر بي.

- اهدأ يا رجل، سنجد حلاً.

- انتُزعت مخيلتي، فلم أعد أحلم.

شعرتْ بصداع مفاجئ، فصاحت: يكاد رأسي ينفجر.

- لماذا؟

- ربما ضربة شمس.

- اذهبي إلى البيت، سأناديك حين أجد حلاً، أو تغيب الشمس.

ركلت زوجته السياج بقدمها ركلة غاضبة وهرولت إلى بيتها، بقي سعيد جالساً وراء خط الموت، يضم رأسه بين يديه ويفكر، حتى أحس هو الآخر بصداع فعاد إلى بيت خالته مثقل البال، تتنازعه عوامل شتى من المشاعر المحبطة، وتموج في صدره عاصفة هوجاء أشد قسوة من خط الموت. رأته خالته مصفراً، كئيباً حزيناً، أشفقت عليه بالدعاء. شكرها بابتسامة فاترة، ثم ارتمى على سرير حديدي في غرفة تطل على الأسلاك الشائكة وولّى أنظاره شطرها مستغرقاً بالتفكير. شرع يهزّ رجليه بعفوية دون أن يدرك أن اهتزاز رجليه يوّلد صفيراً غير مرغوب فيه. تسلسل الصفير إلى مسامع خالته. اقتحمت عليه الحجرة وجلست بجانبه تبحلق به دون أن يشعر بوجودها. تفاعل سعيد مع فكرة أزعجته كثيراً،

فازداد صفير السرير. اهتاجت خالته وقبضته من فخذه بيد أشبه بالكماشة. فزع سعيد، وصاح بذعر: "دستور!".

رمق خالته بنظرة مبهمة، وبدهشة سألها:

- منذ متى وأنت هنا؟
- منذ ابتدأت تخض أمعاء السرير.
- ماذا تقصدين؟
- ألم تسمع الصفير؟
- أيّ صفير؟
- لا شيء! يبدو أنك لم تكن واعياً لشيء.
- مصيبتي كبيرة.
- ستفرج بإذن الله.
- كفى! لم أعد أحتمل سماع هذه الكلمة.
- ثق بالله هذا قدرك.
- قدري؟ يا له من قدر!
- أحياناً يكون القدر قاسياً ومجحفاً ولا يمكن تلافيه.
- بل دائماً يكون قاسياً، وخاصة مع أمثالي.
- المؤمن لا يعرف اليأس.
- اليأس يفقدني الإيمان.
- ثق بالله!
- أثق به.

obeikandi.com

- إذن تفاءل خيراً.

- أنا لا أطالب بحل قضيتنا، كل ما أريده زوجتي وأهلي.

- لست وحدك تعاني من هذه المعضلة.

نهض عن مضجعه وجرجر خطاه باشمئزاز نحو النافذة. أمسك بقضبانها وراح يهزّها بجنون حتى كاد أن يخلع إطارها. رأت خالته سحباً من الغبار تهوي وفتاتاً إسمنتياً يتساقط من إطار النافذة فاستشاطت غضباً، وصاحت به بعفوية طالبة منه التوقف عن تحطيم النافذة ومبالغته بجنونه. رمقها بنظرة تعاتبها على استهتارها بمصيبته وعلّق بلهجة جلفة: "من يُضرب بالسوط ليس كمن يشاهد الضرب". احتجت خالته بشدة: "وكأنك تتهمني بعدم الإحساس". أشاح بوجهه عنها، وقال في نفسه: "وكأنك تعرفين معنى الإحساس، أعرف أنك مللت وجودي معك".

قرفص على الأرض، وقال بتحسّر: "صدق من قال إن العين بصيرة واليد قصيرة، فكم من أشياء قريبة تراها عيني، وتعجز يداي عن لمسها". نهض واستطرد قائلاً: "انظري إلى تلك الأسلاك الشائكة، يستطع المرء رؤيتها بوضوح، ويستطع أن يمرر بصره إلى ما ورائها بسهولة". قاطعته خالته: "أفهمك جيداً! تتمنى أن تدوس قدماك ما تراه عيناك، أليس كذلك؟". أجاب بامتعاض: "نعم! مسافة قصيرة جداً تمنعني من ضم زوجتي بين ذراعي، كم يستصغر بصري حجم المسافة، وكم تستصعب قدماي تخطيها... أنا الملام!".

تنهدت خالته بعمق، وقالت: "أنادم أنت على زيارتي؟". قبل أن يجيب، رأى زوجته تقف وراء خط الموت، قال في نفسه: "يبدو أنها وجدت حلاً". اعتذر

لخالته، وهرول مسرعاً ليرى ما بها. وما أن اقتربت قدماه من خط الموت حتى صاحت زوجته وهي تلهث:

- وجدت حلاً!
- أسمعيني إياه.
- قَدِّم لجواز سفر سوري.
- أنا لست سوريّاً.
- من يطرق الباب، يسمع الجواب.
- ماذا تقصدين؟
- جرب لن تخسر شيئاً!
- لا أحب أن أنفخ في قربة مثقوبة.
- لن تخسر شيئاً... جرّب!
- سأجرب.
- ماذا تنتظر، اذهب الآن.
- الآن؟ الآن! الآن!

سمع فكرتها فأطلق رجليه إلى الريح ليرى إن كان تطبيقها ممكناً. لم يعرف إلى أيّة جهة يتوجه. فكرّ كثيراً حتى توصل إلى أن الحكومة تعني شرطة، قال في نفسه: "مالي غير الشرطة، فهي تعرف كل شيء". دخل قسم شرطة وأسمع حكايته للضابط المناوب. وقف الضابط محتاراً. أخذ يدور حول سعيد كالمكوك، حتى ابتدأ سعيد يرى الواحد اثنين. أخيراً توصل الضابط إلى حل، أخبره أن مسألته معقدة جداً، ولا يستطيع مساعدته في شيء واقترح عليه أن يرى قسم الشؤون

obeikandl.com

المدنية لعلهم يستطيعون مساعدته. قدَّم سعيد شكره وامتنانه للضابط وهرع يسابق الأمل إلى قسم الشؤون المدنية.

قابل أحد المسئولين وأسمعه قصته من ألفها إلى يائها. تأثر المسئول جداً لدى سماعه قصته، لدرجة أنه أخذ يذهب ويجيء في الحجرة مدة عشر دقائق، يفكر ويفكر في حل لمساعدته، وبعد طول ذهاب وإياب أخبره أنه لا يمكنه مساعدته في شيء، فمشكلته معقدة جداً ونصحه بالتوجه إلى قسم المشردين. قدَّم سعيد له الشكر الجزيل، وحمل نصيحة الضابط على كتفيه وانطلق لطرق باب قسم المشردين. أسمعهم جزءاً من قصته اقترحوا عليه أن يتوجه إلى القسم المختص بساقطي القيد. رغم أنه لم يفهم ماذا يقصد بهذا المصطلح، إلا أنه تعلَّق بقشة لعلَّها تكون سحرية فتخرجه مما هو فيه.

حمل نفسه وهرول إلى قسم "ساقطي القيد" وهناك لقي ما لم يتوقعه على الإطلاق. حين عرّف بنفسه تبين أنه مطلوب للعدالة بتهمة التعامل مع أجهزة مخابرات العدو. جنّ جنونه حين سمع ذلك، أخبرهم أنه رجل مستقيم، يحب وطنه جداً، ولا يمكن أن يكون كما ادعوا. أروه اسمه مدوناً في سجل المطلوبين. ألقى نظرة خاطفة على الاسم وابتسم: "هذا سعيد حسنين وأنا سعيد حسين". لم يكن هو الشخص المطلوب، وإنما تشابه في الأسماء. حاول أن يقنعهم بذلك دون جدوى. قيدوا يديه واقتادوه إلى قبو مكتوب على بابه بالخط الأحمر العريض: "الداخل مولود، والخارج مفقود". قرأ تلك العبارة وقال في نفسه: "أجزم أنهم يقصدون العكس". نظر إلى الشرطي الذي يتأبط ذراعه وسأله: "من كتب هذه العبارة؟". وخزه الشرطي بهراوته وطلب منه أن يخرس تماماً.

سكت سعيد من خوف لا من احترام. تذكر سؤالاً خطر في باله من قبل، ولم يتردد في قذفه على الشرطي: "ما علاقة قسم ساقطي القيد بهكذا مشكلة، أليست هذه المشكلة من اختصاص المخابرات؟". دفعه الشرطي بقوة وصاح: "كلنا مخابرات، هل نسيت أن الشعب في خدمة الشرطة؟". أرعد سعيد ضحكة مجلجلة، وقال: "خرجت كلمة الحق. في الدول الراقية تكون الشرطة في خدمة الشعب، أما هنا فالشعب في خدمة الشرطة".

صفعه الشرطي على وجهه وأمره بأن يخيط فمه بسلك حديدي وإلا... أخاط سعيد فمه ودخل القبو برجله اليمنى كما تدخل العروس عش الزوجية. ظنّ أن مشواره في القبو سيأخذ ساعة أو ساعتين في أسوأ الأحوال، فهو ليس الشخص المطلوب. أخطأ سعيد في تقييم الأشياء. أمضى ستة أشهر وهو يضرب ويهان دون أن يعرف أحد من أهله أين هو. ذات يوم أشفق قدره عليه، فأُخرج إلى جولة للتحقيق.

هناك التقى بشاب من فصيلته، ثبتت براءته فتقرر إطلاق سراحه وكان ينتظر قدوم الضابط ليوقع القرار. حين رأى سعيد وجه الشاب وشكله انفجر ضاحكاً، وكلما سكت قليلاً وعاود النظر إليه ينفجر بالضحك ثانية. تضايق الشاب من ضحكات سعيد، وسأله باستغراب: "ما يضحكك؟ أضحكني معك إن كان هناك ما يستحق الضحك". أجاب سعيد: "من يراك يظن أنك وحشاً وليس بشراً، ما أطول شعرك ولحيتك وما أفظع الرائحة التي تنبعث منك". انفجر الشاب ضحكاً وقال: "من يسمعك يظن شكلك أفضل، إذا كان شكلي كالوحش، فشكلك أقرب إلى غوريلا حمقاء". لم يكن مظهر سعيد أفضل حالاً

obeikandi.com

من مظهر الشاب بل على العكس تماماً. كان شعره ولحيته أطول، ورائحته أكثر نتانة. لم يكن أمام سعيد سوى الاعتذار للشاب، فتقبّل الشاب اعتذاره.

تأخر الضابط الذي سيوقع قرار الإفراج عن الشاب وكان تأخره لمصلحة سعيد. أجلسوا الشاب السعيد معه لينتظر توقيع القرار. استغل سعيد تلك الفرصة الذهبية وقص قصته على الشاب وطلب منه أن يبلغ مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بوجوده، لعلهم يساعدونه في الخروج من ذلك القبو. طمأنه الشاب ووعده بأنه سيفعل اللازم لمساعدته.

بعد مرور أسبوع واحد، أقبل أحد ممثلي منظمة التحرير، وعمل صفقة لإطلاق سراح سعيد، شريطة أن ينفى إلى بلد عربي آخر. وافق سعيد على مسألة النفي دون تردد، بل هذا ما كان يحلم به، معتقداً أنها الطريق الوحيدة للالتقاء بزوجته، التي لم يلمسها إلا مرتين فقط قبل أن يفصلهما خط الموت.

غادر سعيد القبو برفقة ضابط تولى مسألة اقتياده إلى الطائرة لتنفيذ النفي. وقبل أن يرى الشمس ثانية، قال مخاطباً الضابط: "أرجوك! صححوا هذه العبارة، المفروض أن تكون كالآتي: "الداخل مفقود والخارج مولود". رمقه الضابط بنظرة جافة، وأمره بحبس لسانه في فمه وإلا. حبس سعيد لسانه مستغنياً تماماً عن توابع ذلك وإلا، فهو يعرف تماماً ما يليها.

ظل سعيد مقيداً بسلاسل ثقيلة حتى أوصله الضابط إلى متن الطائرة، وهناك فكّ قيوده وتمنى له رحلة سعيدة. تنفس سعيد بعمق حين جلس على كرسي مريح، وقال محدثاً نفسه: "قريباً سألتقي بزوجتي وولدي أو ابنتي، أجزم أنها أنجبت منذ شهور". ابتدأت الطائرة بالتحرك، وما كادت ترتفع عن الأرض

حتى برق في ذهنه سؤالٌ مهمٌ جداً: "اللعنة! إلى أي بلد ستقودني هذه الطائرة؟". صفع جبهته ببطن كفه وصاح بصوت خافت: "كم أنت غبي يا سعيد!". سمعه أحد المسافرين الذي يجلس بجانبه مباشرة، سأله عمّا يقلقه. ابتسم سعيد، وقال: أتصدِّق أني لا أعرف أين أنا ذاهب؟

- غير معقول!
- أين أنت ذاهب؟
- إلى ليبيا.
- إذن أنا ذاهب إلى ليبيا أيضاً.
- أتسخر مني؟
- لا والله! أنا جاد.
- كيف لا تعرف أين أنت مسافر؟
- لست مسافراً، بل منفيّاً.
- ماذا فعلت؟
- لم أفعل شيئاً، تشابه في الأسماء كان سبب سعادتي.
- نفي، تشابه أسماء، سعادتك، ما هذا الهراء؟
- انس الموضوع، هذه قصة طويلة.
- لا شيء يشغلني، حدثني إياه.

حدّث سعيد جاره في السفر قصته كلها دون أن ينسى شيئاً أو يضيف شيئاً. اختلطت مشاعر جاره، لم يعرف كيف يحس. فجزء من حكاية سعيد أثار عطفه،

obeikandl.com

والجزء الآخر أشعره بعدم الارتياح، وحتى لا يضع نفسه في مأزق، تظاهر بالتعب واستأذن سعيد في أخذ غفوة.

أحسّ سعيد بتغيّر جاره، خاصة بعد أن أخبره أنهم يتهمونه بالخيانة، قال في نفسه: "لو قلت له إني مناضل لما صدقني، لكنه كغيره لا يصدق إلا السيئ". أشاح بوجهه عنه، وتظاهر هو الآخر بالنوم.

أخيراً سمع صوت امرأة، تقول: "اشبكوا الأحزمة، الطائرة على وشك الهبوط". شبك سعيد حزامه، وأغلق عينيه وكأنه حاول بذلك تجنب رؤية مشهد فظيع. هبطت الطائرة في مطار ليبيا الدولي، أخذ الركاب بالتصفيق، صفَّق معهم وصاح: "عاشت جمهورية ليبيا الشقيقة!". لم ير سوى عيون كثيرة تبحلق به، مستغربة حماسه الزائد. فك الحزام، ووقف يحلم كيف سيؤسس حياته الجديدة في أرض ليبيا الشقيقة. رأى نفسه في جبّة بيضاء، وعمامة، فأطلق وجهه بابتسامة عريضة، وقال: "المهم أن أرى أهلي". شخصان طويلا القامة، قطعا حلم سعيد. سأله الأول بلهجة فظة: "هل أنت الخائن؟". قاطعه سعيد بغضب: "لست خائناً، احترم نفسك!". علقّ الثاني: "بكم بعتم بلدكم لليهود يا خونة؟". احتدّ سعيد وأجاب بغضب: "لو كنّا بعناها بالفعل، لما رأيتني بهذا الحال". صاحا سوياً: "اخرسّ!". تأبطا ذراعيه واقتاداه إلى غرفة أمن المطار ليقوما باستجوابه.

- اسمك؟
- سعيد.
- سعيد ماذا؟
- حسين.

- كاذب!
- لا أكذب.
- بل تكذب، أنت سعيد حسنين.
- أعرف اسمي أكثر منكم.
- لا تتكلم دون إذن مني.
- حاضر.
- لماذا اخترت ليبيا؟
- تاريخها العريق، يكفي أنها بلد عمر المختار.
- ألهذا السبب اخترتها؟
- لم اخترها، هم من اختاروها.
- من هم؟
- لا أعرف.
- اسمعني قصتك بالتفصيل.
- بكل سرور.

استمعا إلى قصته، وقررا إعادته إلى حيث آتى. اقتاده ثلاثة رجال يجرونه إلى متن طائرة متوجهة إلى سوريا دون أن يسمحوا له بالدفاع عن نفسه. جلس سعيد في مقعد جديد ينتظر إقلاع الطائرة. كان مصدوماً ولا يقوى على التفكير أو التخمين بما ينتظره. أقلعت الطائرة، وبعد وقت قصير هبطت في مطار سوريا. رفض الأمن السوري استقباله، حملوه وألقوه على متن طائرة متوجهة إلى اليمن.

obeikandl.com

حين عرف أنه منفي إلى اليمن، قال في نفسه: "يمن يمن، المهم أن التقى بزوجتي". أقلعت الطائرة. وبعد وقت قصير هبطت في مطار اليمن. وهناك تم استجواب سعيد.

- ما اسمك؟
- سعيد حسين.
- كاذب، بل حسنين
- لا! حسين.
- ليس مهماً.
- بل مهم جداً، خطأ في الاسم دمر حياتي.
- لماذا اخترت اليمن؟
- تاريخ اليمن عريق، يكفي أنهم ثالث من سيدخلون الجنة.
- ألهذا السبب اخترت اليمن؟
- بصراحة، لم أختر اليمن ولا غيرها.
- من اختارها؟
- هم.
- من هم؟
- لا أدري! الشاة لا تختار السكين التي ستذبح بها.
- أنت خائن، أليس كذلك؟
- لست خائناً!
- ماذا تتوقع منا أن نفعل معك؟

obeikandl.com

- لا أدري!

لم يرغب الأمن في إدخاله أرض اليمن. جروه من أذنه كما يجرون الخروف المتمرد ورموه على متن طائرة متوجهة إلى سوريا. جلس في مقعد جديد، وراح يسب على من تسبب في جعله كرة تتقاذفها الأرجل من مكان إلى آخر. ظل يسب حتى وصل سوريا. وهناك استشاط رجال الآمن غضباً وخيّر إما بالسجن أو الذهاب إلى أبو ظبي. ابتسم ابتسامة عريضة ألغت تقاسيم وجهه حين سمع كلمة أبو ظبي، وقال في سره: "عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، أبو ظبي يعني أموالاً طائلة، كنت أعرف أن لله حكمة في رفض الأشقاء السابقين لاستقبالي!".

اقتاده شرطي إلى متن طائرة متوجهة إلى أبو ظبي. كان متعباً للغاية، وما كاد يجلس على مقعده حتى غط في سبات عميق. حلم حلماً رائعاً. رأى نفسه رجلاً ثرياً، يمتلك مصنعاً كبيراً، وعمارة ضخمة، وسيارة مرسيدس الخ... أحسّ بأن يداً تهبط على كتفه بقسوة، وصوتاً خشناً يهدر في مسامعه بفظاظة: "هل أنت سعيد؟". اعتقد أن الرجل يسأله إن كان سعيداً في حياته، قال بسذاجة: "الآن لا، لكن حتماً سأكون سعيداً بين أهلي وأشقائي في أبو ظبي". لطمه الرجل على وجهه، وقال:

- أنا لا أُمازحك!
- ولا أنا! سألتني سؤالاً فأجبت عليه.
- أسألك عن اسمك وليس عن مشاعرك.
- فهمت! نعم، أنا سعيد، وما شأنك أنت؟
- أنا ضابط الأمن، لدي أوامر بعدم استقبالك.

- ماذا ستفعل بي؟
- سأرافقك إلى الطائرة المتوجهة إلى سوريا.
- ألا يوجد متسع لي بينكم؟
- انهض بدون ثرثرة.
- سوريا لا ترغب في استقبالي.
- ونحن كذلك!
- أين أذهب إذن؟
- لا شأن لنا!
- نحن أشقاء وإخوة.
- الخونة ليسوا أشقاءنا.
- لست خائناً.
- بل خائناً.
- المتهم بريء حتى تثبت إدانته.
- بل البريء مدان حتى تثبت إدانته.

اقتاده رجل الأمن إلى الطائرة المتوجهة إلى سوريا. ابتدأ سعيد يشعر بملل وبنوع من الإهانة. أقلعت الطائرة، ابتدأ يحدِّث من يجلس بجواره عن حكايته. يتكلم ويبكي، والمستمع يضحك وكأن سعيد يروي له نكتة.

هبطت الطائرة في مطار سوريا، جنّ جنون ضباط الأمن، صاح أحدهم في وجه سعيد: "أتظن أن لا شغل لنا غيرك؟". أجاب سعيد بانكسار: "وما ذنبي

أنا؟ لا أحد يريد استقبالي، وكأني الطاعون!". سحبه أحد الضباط كما لو كان يسحب حماراً أو خروفاً، وأجلسه على متن طائرة متوجه إلى السودان. سأل سعيد إحدى المضيفات: "في أيّ بلد ستسقط الكرة هذه المرة؟". لم تفهم المضيفة شيئاً، سألته باستغراب ماذا يقصد. أجاب وهو يبتسم: "إلى أيّ بلد ستقلع الطائرة؟". ظنت المضيفة أنه يمازحها، علقت ضاحكة: "نكتة جميلة!". قطب سعيد حاجبيه وقال: "أنا لا أمازحك. أرجوك أخبريني؟". أجابته بغلظة: "إلى بلدك الشقيق السودان". علّق بحزن: "السودان السودان! المهم أن يستقبلوني".

أقلعت الطائرة، وهبطت في مطار السودان. نفس الشيء، لم يستقبلوه، وضعوه على متن طائرة متوجة إلى سوريا. وهنا بدت الشعرة التي قصمت ظهر البعير جلية. جن سعيد وراح يخطب بركاب الطائرة، تارة يسمعهم الشعر والخطب، وأخرى يكيل لهم الشتائم النابية. ولمدة أسبوع كاملٍ وسعيد يطير من بلد إلى آخر. لمدة أسبوع كامل وهو يخطب بالمسافرين. لمدة أسبوع كامل وكرامته تداس. لمدة أسبوع كامل وهو معلق بالهواء. وأخيراً وبعد أن فقد سعيد عقله، تبين أنهم ألقوا القبض على سعيد الحقيقي، سعيد الخائن. وما نال سعيد الطاهر من رحلاته المجانية وطلب جواز سفر إلا قسطاً وافراً من الجنون. وكما ترى لا زال سعيد تائهاً في شوارع الكون حتى اللحظة."

- ما أتعسك يا سعيد!
- نعم، ما أتعسه!
- وماذا حل بزوجته؟
- حين جنّ سعيد لجأت زوجته إلى القاضي فطلقها غيابياً.

- عار عليها! كان عليها أن تقف بجانبه.

- هذا حقها يا ولدي.

- وكيف عرفت حكايته؟

انفجر أبو العبد ضحكاً وقال:

- أنا الرجل الذي التقى به في السجن.

- يا إلهي! أجاد أنت؟

- نعم.

- ولماذا كنت سجيناً؟

- ضربت شرطياً فاعتقلوني.

- لماذا ضربته؟

- اعتدى عليّ فضربته.

- لم تخبرني أنك كنت في سوريا.

- ها أنا أخبرك.

- وكيف عاد سعيد إلى هنا؟

- تسلل الحدود.

- مسكين هذا الرجل!

- هل لا زلت تفضل الجنون؟

- لا أدري! يبدو أن الجنون صعب المنال.

- صعب لمن لا يفكر ويحس فقط.

obeikandl.com

سرحت قليلاً أفكر بجرعوش، تبادر إلى ذهني سؤالاً لم أتركه يطن طويلاً في ذهني:

- هل كل مجنون له حكاية قاسية؟
- ليس بالضرورة.
- كيف؟
- جرعوش مثلاً مجنون من نوع آخر.
- لا أفهمك؟
- هناك مجنون ولد مجنوناً، وهناك مجنون جنّ بعد مصيبة ما.
- حتى الجنون درجات.
- كل شيء في هذا الكون درجات.
- ماذا تقصد؟
- الموت درجات، الحب درجات، الكراهية درجات، العلم درجات.
- صدقت! حتى الصبر درجات.

أتعلم يا أبي، أن أصحاب العقول الفذة والضمائر الحية هم المستهدفون؟ يتهمونهم بالجنون ويزجّون بهم في السجون! سجون من أنواعٍ أخر. هنا في هذه الزنزانة الصغيرة، ترى خمسة أجساد تم تخديرها بجرعات كبيرة جداً حتى لا تستيقظ عقولهم ويقلبوا الدنيا رأساً على عقب فوق رؤوس العابثين. تخيَّل لو جاء الوحي وأملى على سعيد كلمات خطابه. أراهن أنه سيهز ضمير الأمم المتحدة ومجلس الأمن. لأن سعيداً هو الحقيقة الوحيدة والثابتة في زمن فقد فيه ميزان

obeikandl.com

العدل. صدقني أننا أعقل العقلاء، فليس كل من زجّ في السجن مجرماً. هناك أبرياء سجنوا ظلماً وبهتاناً وكل جريمتهم أنهم لم يحتملوا ظلم الإنسان للإنسان.

obeikandl.com

(17)

ازددت إحباطاً يوماً بعد يوم، وازدادت حالتي سوءاً لدرجة أنني أيقنت أني أعيش للإهانة والتعذيب فقط. أصبح عمري سبعة وعشرين عاماً، لم أحقق خلاله شيئاً، ولم أتقدم خطوة إيجابية واحدة للأمام. حلمت بأن يكون لي شقة راقية، ووظيفة محترمة، وزوجة جميلة، وأولاد مطيعون. أصرّ الظلم على أن يفسد شبابي، ويحرمني من أقل الحقوق. كلما مر بي شابٌ يشبك يده بيد زوجته، أتساءل أليس لي الحق بأن أكون مثله؟ كلما رأيت شاباً يعود من وظيفته، أتساءل وماذا ينقصني حتى يرفض أصحاب المؤسسات توظيفي؟

رأيت عجلة عمري منطلقة نحو الكبر بأقصى سرعتها، والزمان يطوي أيام عمري بقسوة وهمجية، يبتلعها كما يبتلع التمساح فريسته. لم أعد صابراً الذي تعرفه. أصبحت مجرد جسد هزيل تسكنه روح ضعيفة استسلمت لزمن لا أعرفه ولا يعرفني. زمن جعلني غريباً حتى في وطني، وهل أسوأ من الغربة في الوطن؟ أصبحت إنساناً مشتت الذهن، أسيراً لعالم الخيال والوهم. لم يكن هناك ما يسعدني غير تلك الفتاة مجهولة الهوية. هي الأكثر إخلاصاً لي في زمن لم يعد فيه مكان للإخلاص. بقيت تزورني لفترة طويلة، لكن يبدو وأن مكروهاً ما قد أصابها فلم أعد أراها أو ربما اشمأزت مني وهجرتني.

تجرَّعتُ مأساة سعيد، وجلست أمام مدخل الخيمة لأرى العالم من زاوية أخرى غير التي فقأت قلب سعيد. مرّ شاب جامعي يصغرني بعدة أعوام، يشبك يده بيد خطيبته، يقطعان مسافة الخطر ويضحكان. تارة يتعانقان وأخرى يطاردان بعضهما. بدا لي وكأنهما عصفوران يداعبان بعضهما أمام شبكة الصياد، يحرقان أعصابه بعمد، يستفزان عواطفه ويستنفدان صبره ويدعوانه إلى الرحيل أو الانتحار.

حلمت أني بطل ذلك المشهد، لكني لم أستطع رؤية وجه من ألاطفها. كلما حاولت النظر إلى وجهها فرّت إلى الجهة المعاكسة حتى صرت أدور حول نفسي كإطار عربة علقت في الوحل.

كان العجوز يتحدَّث معي دون أن أعيره أي انتباه. كنت مستغرقاً بالدوران حول ذاتي المشلولة وحقيقتي الملوثة بغبار الوهم. وما لفت انتباهي إلى صوته سوى عكازه يخزني في خاصرتي، ويدعوني للاستجابة. نظرت إليه باستياء...

- ما بك يا بني؟

- أحاول عبثاً التفكير بمستقبلي.

- وأين وصلت؟

- لا مكان.

- الكل يعاني...

- الأعزب فقط.

- أتفكر بالزواج؟

- كثيراً!

- ما يمنعك؟

- جيبي والعروس.

- الله كريم.

- ليته يحقق لي أدنى طموحاتي.

أثناء موجة الإحباط التي أغرقتني، قِدِم جرعوش إلى الخيمة، يدخن سيجارة فخمة لا يدخنها إلا الأثرياء. يدخن ويسعل بقوة. نظرت إليه وانفجرت ضحكاً متناسياً كل همومي، انتبه إليه العجوز وباستغراب سأله:

- سوجار! من أين لك هذه السيجارة البرجوازية؟

- من الجيش.

- الجيش؟ إذن هذه مكافأة إهاناتك لسكان المخيم.

- هل تريدها؟

تقدَّم نحو العجوز يمشي بخطوات متبجحة ومتعالية. جلس أمامه ثم انتزع السيجارة من فمه ومدها إلى فم العجوز، وقال: "سحبة لي، وسحبة لك". ابتسم العجوز وأخذ سحبة طويلة وقال: "فيك الخير يا جرعوش". انتزع جرعوش السيجارة من يد العجوز وأخذ سحبة وقال متودداً: "أنا أحبك يا حاج". انتبه لوجودي، رمقني بنظرة وكأنه لم يرني من قبل وسأل العجوز بدهشة: "من هذه الفتاة؟". سأله العجوز مستغرباً: "ألم ترها من قبل؟!". أجاب نافياً أنه لم يرني من قبل: "لا، لم أرها!". وخزه العجوز بالعصا وقال: "لماذا تكذب؟". وقف جرعوش غاضباً وصاح: "والله لم أرها من قبل!". قلب العجوز كفيه وعلق منبهراً: "وتحلف بالله كذباً!". مشى جرعوش إليّ، ووضع وجهه القبيح في

obeikandi.com

وجهي ثم التفت نحو العجوز وقال: "والله لم أرها من قبل. من تكون؟". رمقه العجوز بنظرة وقال مداعباً: "إنها ابنتي، هل تعجبك؟". سأله جرعوش مستغرباً: "لماذا تنتعل حذاء رجل؟".

لفت المجنون انتباهنا إلى الحذاء الرجالي الذي كنت أنتعله، وحمدت الله أن الجنود لم ينتبهوا إليه. لم أعد أفهم جرعوش، حيرني ذلك المجنون، إن صح أن أدعوه مجنوناً. شعرت أنه رجل ذكي يتستر بثوب الجنون ليسخر من الجميع.

سأله العجوز عن حال والده. امتقع لون وجهه وكأنه تلقى صفعه على وجهه أو أنه رأى روحاً شريرة. رمق العجوز بنظرة لم أفهمها وخرج من الخيمة هائماً على وجهه. سألني العجوز بدهشة: "ما به؟ هل قلت شيئاً ضايقه؟". أجبت مخمناً: "ربما هو غاضب من والده". نفض العجوز يديه طالباً مني أن أنسى أمره.

بعد قليل سمعنا الدوريات الإسرائيلية تنادي برفع منع التجوال لمدة ساعة. سررت بذلك الخبر وصحت بملء حنجرتي: "عاشت الحرية! عاشت الحرية!". رمقني العجوز بنظرة مستغرباً فرحتي وقال: "من يراك يظن أن فلسطين عادت إلى أهلها". قلت مبتسماً: "بل سأتحرر من هذه الثياب لساعة". ضحك وتمدد على فراشه لآخذ غفوة. خلعت الثياب النسائية بلمح البصر، وذهبت مسرعاً إلى السوق للتسوق دون التلفت إلى الوراء.

في الطريق رأيت الأطفال يلعبون لعبة أثارت إعجابي. ينقسمون إلى قسمين. قسم يمثل دور جنود الاحتلال، والقسم الآخر يمثل دور القوى الضاربة. أما القسم الأول فيضعون على رؤوسهم أطباقاً معدنية على أنها خوذات عسكرية، ويحملون في أيديهم أغصاناً من شجر الزيتون على أنها بنادق رشاشة. أما القسم

الثاني فهم متلثمون، ويحملون في أيديهم كرات ثلجية على أنها حجارة. أخذت المجموعة الأولى تسير في الشارع وأفرادها يصيحون بغضب: "ادخل البيت، ممنوع التجول!". ينقضّ عليهم الملثمون بشراسة ويرشقونهم بكرات الثلج ويهتفون: "فلسطين عربية!". تقوم المجموعة الأولى بإطلاق النار بشكل عشوائي مما يؤدي إلى إصابة طفل في رأسه. يقع الطفل على الثلج شهيداً. يحمله الأطفال على أكتافهم ويشرعون يهتفون: "لا إله إلا الله، الشهيد حبيب الله! الله أكبر، الله أكبر!"، ثم يرفعون اللثام عن وجه الطفل الشهيد ويلفونه بقطعة من القماش على أنها علم فلسطين. تبيّن لي أن محمداً- الطفل الذي جلب لي الملاءة- هو من يلعب دور الشهيد. بقيت أراقبهم لأرى ماذا سيفعلون. مثلوا دور دفن الشهيد، فوقف أحد الملثمين أمام ضريح الشهيد، وقال: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون" وأكمل قائلاً: "نداء... نداء... نداء... لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة، لا صوت يعلو فوق صوت منظمة التحرير. إننا في القوى الضاربة، نحيي أهل الشهيد، ونقول لهم إننا سننتقم من قاتل الشهيد". أخذوا يكبرون بملء حناجرهم وانطلقوا نحو الجنود يقذفونهم بالكرات الثلجية، ويشعلون الأوراق والقمامة المكدسة أمام بيوتهم على أنها إطارات السيارات، والجنود يطاردونهم ويطلقون النار باتجاههم، وينادون بفرض نظام حظر التجوال.

شعرت بالحزن الشديد لدى رؤيتي أولئك الأبرياء يمارسون تلك اللعبة التي جسّدت الواقع المرير الذي يقبعون تحت ظلاله. تقدَّمت نحو محمد وأنا ابتسم رغم المرارة.

-هل أعجبك دور الشهيد؟

- نعم! الشهيد حبيب الله.

- فكرة من كانت تلك اللعبة؟

- فكرتي! فنحن نمثل ما يفعله الجنود بنا.

- فليحمك الله يا محمد.

- أين تعيش الآن؟

- أعيش على قمة الجبل مع العجوز أبي العبد.

- عندما يعيدون فرض نظام حظر التجوال سآتي لزيارتك.

- أهلا وسهلاً، لكن كن حذراً!

-لا تقلق!

تابعت طريقي إلى السوق وأنا أفكر بأولئك الأطفال. رأيت الناس يتراكضون نحو ساحة الدوار بطريقة ملفتة للنظر. سألت أحد الفتية عمّا يجري، فقال وهو يركض إن القوى الضاربة ستقوم بإعدام العميل شريف في الساحة وأمام الملأ. قلت في نفسي: "يبدو أنهم أنهوا التحقيق معه". أسرعت إلى السوق لأرى ما لم أفكر بعواقبه. رأيت حشوداً كبيرة من الشباب والصبايا والشيوخ يلتفون حول الملثمين ويكبِّرون. لم أتمكن من رؤية شريف بسبب اكتظاظ الناس. نظرت إلى سطح المقهى فرأيت عدداً كبيراً من الشبان يقفون فوقه. دفعني فضولي للانضمام إليهم. اعتليت سطح المقهى فبدت الساحة واضحة تماماً. رأيت أحد الملثمين يغطي رأس شريف بكيس من القماش الأسود، وآخر يقيد يديه خلف ظهره وشريف يحاول التملص من قبضاتهم، ويصرخ بذعر: "ارحموني! سامحوني!

بالله عليكم لا تقتلوني! أقسم بالله أنني تبت". رأيت حبل المشنقة يتدلى من فوق عامود للكهرباء. قال أحد الواقفين بجانبي: "انظر إلى سرواله لقد بال على نفسه من الخوف". نظرت إلى سرواله فوجدته قد تبقع بالبول. أشفقت عليه، وقلت في نفسي: "ألم تفكر بهذه اللحظة يا شريف؟!". لف أحد الملثمين حبل المشنقة حول عنق شريف، فازداد ذعره واخذ يصيح بخوف وتلعثم: "دعوني أعيش يوماً آخر لأثبت لكم صدق توبتي، أرجوكم!". سأله أحد الملثمين: "ماذا ستفعل؟". فأجاب: "أي شيء تطلبونه مني". علَّق الملثم: "هل تستطيع أن تعيد من تسببت بقتلهم إلى الحياة؟ هل تستطيع أن تعيد شرف من هتكت عرضهن؟". أجاب بذعر: "لا!" لكن امنحوني يوماً كي أكِّفر عن ذنوبي، أتوسَّل إليكم". أجابه الملثم: "فات الأوان!".

ألقى احد الملثمين بياناً قصيراً أوضح للناس تفاصيل خيانته. ثارت الحشود واهتاجت غاضبة مطالبين القوى الضاربة بتنفيذ الإعدام فوراً دون أن تأخذهم فيه شفقة أو رحمة. ابتدأ الملثمون بشدّ الحبل حتى ارتفع جسد شريف ووصل إلى قمة العامود، وهو يرفس برجليه محاولاً مقاومة الموت حتى همدت حركته تماماً. انطلق الصفير والتصفيق والهتافات رغم بشاعة المشهد وقسوته.

رأيت جرعوش يمسك بيد امرأة عجوز ترتدي ثياباً بيضاء يقتادها باتجاه المحتشدين، خمَّنت أنها أم شريف. وصلت الساحة وهي تصرخ بأعلى صوتها: "شريف! شريف!". أشار جرعوش بسبابته نحو عامود الكهرباء. خارت قواها وأخذت تلطم وجهها وتصيح: "لماذا؟ ماذا فعل؟". اقترب منها أحد الملثمين ويبدو قائدهم، قبّل رأسها وركع أمامها على ركبتيه وأخبرها أن ابنها خائن وأنه

obeikandl.com

شارك في قتل ثلاثة مناضلين وهتك عرض مجموعة من الفتيات وقد نال نصيبه من القصاص. استجمعت قواها ونهضت عن الأرض بمساعدة الملثم وأخذت تزغرد والدموع تفيض من عينيها. قلت في قرارة نفسي: "لقد جُنَّت، فليساعدها الله!". طلبت من الملثمين أن ينزلوا ابنها عن العامود. أنزلوه بناء على رغبتها وانتزعوا الحبل عن عنقه والكيس عن رأسه. مشت المسكينة إلى فلذة كبدها تجر نفسها جراً لتراه جثة هامدة.

اعتقدت أنها ستودعه. وقفت فوق جثمانه وأجهشت بالبكاء، قائلة: "بكم دولار بعت نفسك؟ هل أخفقت في تربيتك؟ لماذا خنتني وخنت نفسك ووطنك؟!". بصقت على وجهه وأخذت تدوس عنقه بنعلها وتقول بحرقة: "الوطن أغلى منك يا خائن! الوطن أغلى... الوطن أغلى!".

سمعنا صفيراً متقطعاً يأتي من بعيد، وعلى الفور انسحب الملثمون من المكان. عرفت أنها إشارة تحثّهم على مغادرة الساحة لسبب ما.

بقي الناس محتشدين حول الجثة، يحلقون بها ويراقبون تصرفات أمه التي فقدت صوابها تماماً. ابتعدت أم شريف عن جثة ابنها ونظرت إلى الحشد الكبير، وقالت: "من يتطوَّع بدفن هذه الجيفة؟!". لم يجب أحدٌ. صاحت متوسلة: "أرجوكم افعلوا ذلك من أجلي!". قلت مخاطباً نفسي: "إذا لم يجيبوا، سأدفنه بنفسي من أجل أمه، فقط من أجل أمه". طأطأ الناس رؤوسهم محرجين وأخذوا ينسحبون من المكان الواحد تلو الآخر. أشفقت عليها، وصحت من فوق المقهى: "أنا سأدفنه". علق من يقف بجانبي: "هل جننت كي تدفن عميلاً قذراً؟". قلت بانزعاج: "ارحموا كبر أمه".

هرولت إلى الساحة واقتربت من أمه طلبت منها أن تعود إلى بيتها وقلت لها إنني سأدفنه من أجلها. أمسكت رأسي وقبلتني من جبيني، وقالت بحزن: "بارك الله فيك يا ولدي!". انضم جرعوش إليّ، وقال: "وأنا سأذهب معه، لكن لن أشارك بحمله ولن أهتف: الشهيد حبيب الله، لأنه عميل!". وخزت جرعوش ليلتزم الصمت مراعاة لمشاعر أمه. رأتني أمه، فقالت: "هذا هو الفرق يا بني، لو كان ابني شريفاً لخرج المخيم عن بكرة أبيه لتشيع جثمانه، لكن مات شريف خائناً". مشت بضعة خطوات ثم استدارت، وقالت: "إذا تغلبت في دفنه، فألقه على المزبلة واحرقه". ثم غادرت المكان، وهي تردد بألم وحسرة: "مات شريف خائناً! مات شريف خائناً!".

اقترب جرعوش مني، وهمس: "هل أجلب لك بنزيناً؟". سألته باستغراب: "ولماذا البنزين؟". ضحك وقال: "كي تحرقه على المزبلة". دفعته من أمامي ومشيت نحو الجثة. ألقيت عليها نظرة خاطفة فاقشعرّ بدني من فكرة حملها. رمقت جرعوش بنظرة تستنجد فيه، ابتعد عني، وقال بانفعال: "لا تفكر حتى بذلك! لن أحمله". وقفت أمام جثته حائراً ألعن غبائي وتسرعي في التطوع بدفنه. اقترب جرعوش مني، وقال بحماس: "لدي فكرة، انتظرني هنا". قالها وانطلق مسرعاً دون أن يطلعني على فكرته. لطمت وجهي من القهر ومن ورطة سمجة أقحمت نفسي بها. أخذت أذهب وأجيء في الساحة، أفكر بحل لهذه الورطة، حتى لمعت في ذهني فكرة تركه والهرب، إلا أن ضميري منعني.

جاء جرعوش وهو يقود حماراً. أوقفه بجانبي وطلب مني أن أضع الجثة فوق ظهره. تنهدت بعمق، وقبّلت رأس جرعوش معرباً عن إعجابي بفكرته. اقتربت

obeikandi.com

من الجثة فرأيت عيني شريف مفتوحتين، أصبت بالذعر فابتعدت عنه. توسلت إلى جرعوش أن يمد يد العون قبل أن تنتهي ساعة الحرية، فرفض. قلت محاولاً استفزازه: "ظننتك قوي القلب لا تخاف شيئاً، لكنك جبان تخاف حتى من الموتى!". أطلق ضحكة، وقال: "لن ألمس هذا الخائن!". لم يكن أمامي سوى تحدي خوفي والإيفاء بوعدي. حملت الجثة بتقزز ووضعتها فوق ظهر الحمار وتوجهت به إلى المقبرة وسط نظرات تحتقرني وأفواه تشتمني سراً وعلانية.

وصلت المقبرة فوجدت قبراً محفوراً ومبنياً بالطوب من الداخل، وحوله متطلبات الدفن من ألواح إسمنتية ومعول. تنفست الصعداء، وقلت مخاطباً جرعوش: "يبدو أن أحدهم جهزّ قبره". ضحك ضحكة هستيرية وأخبرني أن القبر يعود للحاج متولي. ظن أهله أنه مات فحفروه له، وعندما جاؤوا ليغسلوا جثته استيقظ من غيبوبته. ضحكت، وقلت: "يا لخيالك الواسع يا جرعوش!". أقسم بالله أنه يقول الحقيقة. هززت رأسي، وقلت: "جلَّ ما يهمني الآن أنني وجدت قبراً جاهزاً لهذه الجيفة".

أنزلت الجثة عن ظهر الحمار، ووضعتها في القبر دون أن ألحدها نحو القبلة، لأنني لم أعرف اتجاهها. وضعت الألواح الإسمنتية فوق الطوب المبني داخل القبر حتى واريت الجثة، ثم أهلت التراب فوقها وأنا أتساءل هل كان عليّ أن أغسِّل الجثة وأصلي عليها أم أن للعميل حكماً شرعياً خاصاً به؟!

انتهيت من دفن الجثة وعدت للسوق برفقة جرعوش والحمار لشراء بعض المؤونة والخضروات قبل انتهاء الدقائق الأخيرة من ساعة الحرية. لم أجد شيئاً لأشتريه. كل الخضراوات والمعلبات قد نفذت تماماً، لذا عدت إلى حجرتي،

obeikandi.com

وأخذت ما بها من بصل، وثوم، وباذنجان، ومعلبات، وذهبت إلى الخيمة. حدَّثت العجوز عما حدث معي. أبدى استياءه بشده من موقف الناس تجاه أم شريف، وقال كان عليهم أن يدفنوه إكراماً لأمه التي تبرأت منه.

لحظات وإذا بهم يعيدون فرض نظام حظر التجوال. كنت مستغرباً لسبب رفعه إذ أنه لا يوجد شيء لشرائه.

سمعنا صوت الرصاص يدوي في سماء المخيم، عرفنا أن حرب رشق الحجارة قد ابتدأت. بعد وقت قصير عاد الهدوء ليسود المخيم من جديد، إلا أننا كنا نسمع بعض الشبان يصيحون مطالبين الجيش بإعادة التيار الكهربائي، والمياه إلى المخيم. يصيحون عبثاً، فالجيش أراد عقوبتهم بالشيء الذي تصعب الحياة بدونه، ولو ظلوا يصيحون ليلاً ونهاراً لما حرَّك صياحهم ساكناً.

جهَّزت وجبة الغداء وبقينا نأكل بشراهة إلى أن شعرنا بالتخمة، نظر العجوز إليَّ وطلب مني ارتداء الملابس النسائية، ففعلت دون تردد.

بعد مرور ساعة من الزمن أقبل محمد إلى الخيمة. رحّب العجوز به وأجلسه بجانبه. فسأل العجوز وهو ينظر حوله: "أين صابر؟". ابتسم العجوز، وقال: "إنه يجلس أمامك!". ظن محمد أن العجوز غبياً، وقف وقال: "صابر رجل وليس امرأة". قاطعته الحديث، وقلت بصوت خجول: "أنا صابر". رمقني بنظرة غريبة، وقال: "لماذا ترتدي ثياب امرأة؟". قلت بحرج: "حتى أحمي نفسي من الجيش". سأل بدهشة: "هل أنت مطلوب؟". قلت موضحاً: "لا، ولكن أتستر بتلك الثياب حتى لا أُضرب". صفن قليلاً وقال مجاملاً: "تبدو جميلاً بها". قلت: "لا تجاملني، فأنا أعرف جيداً كيف يبدو مظهري". قال بصراحة: "ثياب

الرجل تناسبك أكثر". انطلقت من العجوز ضحكة، وقال: "أنت دبلوماسي يا محمد".

شكر العجوز وجلس بجانبي، وسألني بنبرة جافة: "هل تطوعت بدفن العميل؟". أخبرته أنني فعلت. احتدّ وقال: "كيف تفعل شيئاً رفض أقاربه فعله؟". أخبرته أنني فعلت ذلك إكراماً لأمه المسنَّة. تفهم الأمر بصعوبة.

أخرج ورقة رسم عليها علم فلسطين، وقال بحماس: "انظر ماذا رسمت". حين رأيت العلم تذكرت حكاية غريبة حدثت معي وأنا في الصف الأول، ضحكت بصوت عال. انتفض واقفاً وأراد الانصراف. أوقفته وسألته بدهشة عمّا قلب مزاجه وأغضبه بتلك السرعة. أشاح بوجهه عني، وقال وقدماه قد اقتربت من باب الخروج: "الكل يسخر من رسمي". أسرعت إليه وقلت إنني تذكرت قصة مضحكة حدثت معي، ولم أضحك بسبب رسمك. أصرّ على سماع القصة التي أضحكتني. أجلسته بجانبي وسردت له القصة باختصار، قلت:

منذ دخلت الصف الأول وأنا أسمع أن اللون الأحمر والأبيض والأسود والأخضر ألوان ممنوعة من الاستخدام في آن واحد. ألوان يحظر استخدامها في دروس الرسم. لطالما ضربني معلم الرسم بحجة أني أرسم مستطيلاً به مثلث معكوس، وخطين ممتدين حتى نهاية المستطيل. هو لم يغضب على رسم المستطيل. بل غضب من الألوان التي عبأت بها المستطيل. عبأت المثلث باللون الأحمر. وعبأت المساحة العليا باللون الأسود، والوسطى بالأبيض، أما السفلى فباللون الأخضر. أتذكره جيداً حين رأى ما رسمت. تغيَّر لون وجهه، وصاح بي: "أتود أن تخرِّب بيتي؟".

مزَّق ما رسمت إرباً إرباً وألقى بالفتات في سلة القمامة. لم أفهم لماذا اهتاج كالثور وفعل ذلك. فأنا لم أفعل شيئاً يستحق كل ذلك الغضب. سألته منفعلا: "لماذا مزقتها؟ هل رسْم المستطيل معصية؟ هل حرَّم الله رسمه؟". صفعني على وجهي، وقال إنه ليس غاضباً من رسم المستطيل وإنما من خياري السيئ في تعبئته. اقترح أن أرسم نجمة سداسية داخل المستطيل وأن ألونها باللون الأزرق أو أعبئ خانات المستطيل بألوان مختلفة، كأن أعبئ المثلث باللون الأسود، والخانة العليا باللون الأصفر، والوسطى بالأزرق والسفلى بالبني. لم ترقني فكرته. أخذ علبة الألوان مني عنوة وطردني من الصف، طالباً مني الذهاب إلى مكتب المدير.

أتذكَّر ما قاله المدير حين ذهبت إليه أبكي مما فعله أستاذ الرسم. سألني باستغراب: ماذا رسمت حتى غضب أستاذ الرسم منك؟أخبرته أني رسمت مستطيلاً وعبَّأته بتلك الألوان. رمقني بنظرة وصاح في وجهي: "أتود أن تخرب بيتي؟". قلت إني سمعت نفس العبارة من معلم الرسم، فسألته إن كانت تعني شيئاً خاصاً.

صاح في وجهي وطردني من المدرسة كي أحضر ولي أمري دون أن أفهم شيئاً. حال خروجي من المدرسة ناداني أحد الجنود الواقفين أمام المدرسة ككلاب الحراسة وسألني عن سبب مغادرتي المدرسة مبكراً. قلت له إن المدير طردني. سأل مستغرباً عن السبب فقلت له ما حدث معي. لم يفهم الجندي قصدي. طلب مني أن أرسم ما رسمت على مقدمة الجيب. قلت له إن الأستاذ أخذ علبة الألوان مني. سألني عن الألوان التي احتاجها، قلت: الأحمر، والأسود، والأبيض، والأخضر. تناول "طبشورة" بيضاء عن الأرض، وقال: "هاك اللون الأبيض".

obeikandl.com

طلب قلم أحمر الشفاه من جندية تجلس في الجيب وقال: "هاك اللون الأحمر". تناول حقيبتي المدرسية وأخرج قلم رصاص وقال: "هاك اللون الأسود". قطف وُرَيْقتَيْن من شجرة لوز تتدلى من سور المدرسة وقال: "هاك اللون الأخضر، هيا أرني ما رسمت".

حملني وأجلسني على مقدمة الجيب لأرسم المستطيل. رسمته ولم أعبئ اللون الأخضر. فمقدمة الجيب كانت خضراء فلم أحتاج إلى استخدام ورق اللوز. انفجر الجندي ضحكاً. سألته عما يضحكه، قال إنه لم يسمع من قبل عن لص ذهب للشرطة وأخبرها أنه لص كي يلقوا القبض عليه.

لم أفهم شيئاً مما قاله. ظننت أنه غبي أو أنه يسخر مني. قفزت عن مقدمة الجيب، واستدرت لأغادر. أوقفني وسألني مستهزئاً: "ماذا يفعل الشرطي حين يأتيه لص ويعترف له بأنه لص؟". ظننت أن سؤاله سهلاً، أجبت بعفوية: "يقبض عليه!". استغرق في الضحك، ضحك حتى كاد يبول على نفسه، وأنا أقف أمامه كالأبله لا أفهم شيئاً، غير أني اعتقدت أن الجندي معتوه. تجاهلته وهممت بمغادرة المكان. أمسك بذراعي وقال: "دخول الحمام ليس كالخروج منه". سألته ماذا تقصد؟ استغرق بالضحك ثانية وقال: "أنت في ورطة". لم أفهم ماذا يقصد بورطة. قال موضحاً: "وراء عملك تهمة". قلت مستغرباً: "لماذا؟". انفجر ضحكاً وطلب مني الانصراف قبل أن يموت بسبب الضحك.

هززت كتفي مستغرباً ضحكه وكلامه ومشيت مهرولاً إلى بيتي. بعد يومين فقط أدركت أن الجنود الذين يقفون أمام مدرستنا ليلاً نهاراً هم من احتلوا أرضنا وسلبوا خيراتها، وأن ما رسمته يعتبر تهمة يحاسب عليها القانون الإسرائيلي.

أدركت أن المدير والأستاذ كانا خائفين من أن يفتش الجنود دفاتر الرسم فيروا عَلَماً ممنوعاً رسمه، وبالتالي يخبرهم التلميذ عن اسم أستاذ الرسم فيتم اعتقاله أو حتى إغلاق المدرسة.

سمعنا القصة باهتمام. شعر محمد بالذنب فاعتذر عن سوء ظنه. قلت له إنني لا أنتظر منه اعتذاراً وإنما لا أريده أن يكون متسرعاً في تحليل الأمور وأن يكون حذراً. تفهم الأمر وطلب مني أن ألاعبه لعبة. رغم أن مزاجي كان معكراً إلا أني خضعت لرغبته.

لاعبته لعبة كنت ألعبها عندما كنت في السابعة. طلبت منه أن يبتعد عني ويكتب خمسة أسماء على خمس قصاصات من الورق ثم يثني القصاصات جيداً. فعل ما طلبت والفضول يملأ عينيه. وضعت قصاصة في أذني اليسرى، وواحدة في أذني اليمنى، وواحدة في منخاري الأيمن، وواحدة في منخاري الأيسر، وأبقيت واحدة في يدي. ثم قلت: "الآن سأعرف ما كتبت بواسطة شم الورقة، عليّ أولاً أن أفتح الورقة الموجودة في يدي". سأل والذهول يملأ عينيه: "هل تجيد السحر؟". ابتسمت وفتحت الورقة الموجودة في يدي دون أن أريها لمحمد. كان مكتوباً بها اسم: "فلسطين". حفظت الاسم وثنيتها ثم انتزعت القصاصة التي وضعتها في أذني اليسرى، قربتها من أنفي وكأني أشمها: "هذه الورق تحمل اسم فلسطين". بهت محمد حين سمع ذلك، وتساءل بفضول: "كيف عرفت؟". فتحت الورقة فوجدتها تحمل اسم "حيفا"، ثنيتها وأعدتها إلى مكانها. انتزعت الورقة الموجودة في أذني اليمنى، شممتها: "هذه الورقة تحمل اسم حيفا". صاح محمد: " أنت ساحر!". فتحتها فكانت تحمل اسم "القدس". ثنيتها وأعادتها إلى

مكانها. انتزعت الورقة الموجودة في منخاري الأيمن، شممتها: "هذه الورقة تحمل اسم القدس" كبرت عيناه وصاح: "أخبرني كيف عرفت أرجوك!". فتحتها فكانت تحمل اسم "ياسر عرفات"، ثنيتها وأعدتها إلى مكانها. انتزعت الورقة الأخيرة، شممتها: "هذه الورقة تحمل اسم ياسر عرفات"، ازداد ذهولاً، وقال مخاطباً العجوز: "هل رأيته يا جدّي؟ إنه يتقن السحر!".

ابتسم العجوز، وقال بمودة: "فكرّ قليلاً وستكتشف سره". رمقني بنظرة وطلب مني أن أخبره. قلت ما قاله أبو العبد "فكر في الأمر". صفن قليلاً ثم، قال بذكاء: "عرفت! السرّ يكمن في الورقة الأولى، عرفت ما كتب بها. عندما انتزعت الورقة من أذنك قلت الاسم الموجود بالورقة الأولى. فتحت الثانية وعرفت ما بها. انتزعت الثالثة وقلت الاسم الموجود بالثانية وهكذا، أليس كذلك؟".

بهرني محمد بذكائه وفطنته. أتذكر يا أبي، كم استغرقت من الوقت حتى أكشفت سرّ اللعبة؟ سأذكرك، أسبوعاً بأكمله.

أمضيت معه وقتاً ممتعاً، ثم صنعت له إبريقاً من الشاي. شرب الشاي وانصرف إلى منزله. بعد برهة سمعنا أزيز الرصاص يدوي في سماء المخيم. شعرت بالخوف على محمد، أردت أن ألحق به لأطمئن عليه، لكن العجوز اعترض طريقي، وطلب مني عدم التهور. انتظرت قليلاً حتى عاد محمداً مسرعاً إلى الخيمة. دخل الخيمة يلهث بقوة وكان وجهه شديد الاصفرار. فور دخوله الخيمة بادرته بالسؤال:

- ماذا حدث؟

- أطلق الجنود النار عليّ.

- أين التقيت بهم؟

- قرب حجرتك.

- لا تقلق! سأرافقك إلى منزلك عندما يحلّ الظلام.

- بهذه الثياب؟

- ألا تعجبك؟

- لم أقصد ذلك.

شعرت أنه يخجل من مرافقتي له وأنا أرتدي تلك الثياب، لكنه تقبَّل الأمر على مضض. انتظرنا حلول الظلام طامعين في أن يغطينا بثوبه الأسود. ادلهم الليل ورحنا نمشي من زقاق إلى آخر حتى أوصلته بيته بأمان. طرقت باب منزله برقة، فخرجت شقيقته دنيا لتفتح الباب. وما أن رأته حتى لطمت وجهها، وهمست بقلق: "سيقتلك أبي، لماذا تأخرت؟!". اصفرَّ وجه محمد ونظر إليّ، وقال بانكسار: "عد يا صابر إلى الخيمة". رمقته شقيقته بنظرة استغراب، وقالت: "امرأة واسمها صابر!". دفعها لداخل المنزل بغلظة. أردت أن ادخل معه لأتوسط له عند والده، إلا أنه اقترح عليّ أن لا أفعل. كان خائفاً عليّ من لسان والده السليط وشتائمه. أخذت نصيحته وعدت إلى الخيمة أتلفت ورائي بحذر.

وصلت الخيمة وما كدت أضع قدمي بها حتى سلَّط الجنود الضوء عليّ فبت فريسة مكشوفة. شرعوا يصيحون بي طالبين مني الذهاب إليهم. تظاهرت أني لا أسمعهم، هممت بدخول الخيمة فوجئت بأحدهم ينتصب أمامي ويشدني إلى خارج الخيمة وهو يصيح: "ألا تعرفين عقوبة خرق حظر التجوال؟". تظاهرت

أني بكماء: "آآآ، أووو آآآ". وخزني بفوهة بندقيته، وصاح: "هل أنتِ بكماء؟". بالغت في تمثيلي دور البكماء، صحت أردد الأحرف ذاتها: "آآآ... آآآآ". وأتحدث بلغة الإيماء، أحرك يديّ ورأسي بحركات منفعلة وكأني امرأة مجنونة بالفعل. غصّ الجندي بريقه. تراجع إلى الخلف وهو يصوب بندقيته نحو صدري، يضع سبابته على الزناد متأهباً لإطلاق النار في حال قمت بمهاجمته.

خرج العجوز، وأخبرهم أنني فتاة صماء بكماء، أمروه بإدخالي إلى الخيمة وعدم السماح لي بمغادرتها. سألهم بسخرية: "كيف سأُفهِّمها ذلك؟!". أجاب الجندي وهو يرجع إلى الخلف: "لا علاقة لنا، إذا وجدناها تصول وتجول في الشوارع مرة أخرى، سوف نقتلها، هل تفهم ذلك؟". أجاب العجوز مستهزئاً: "أفهم جيداً". دخلت الخيمة وأنا أمثّل دور الفتاة المجنونة، تارة أضحك وأخرى أصيح. كان الجنود يضحكون علي. لم يهمني ضحكهم بقدر ما كان يهمني أنني نجحت في خداعهم عدة مرات.

أعجب العجوز بأدائي. رأيته يهزّ رأسه ويضحك مني، وفجأة توقف عن الضحك وصوَّب نظره إليّ وأطال النظر. سألته باستهجان لماذا يبحلق بي، لم يجب، سألته مرة أخرى، أجاب وهو يشد لحيته:

- عندي فكرة.

- ما هي فكرة ؟

- ما رأيك بتغيير دور الفتاة المعاقة؟

- وما هو الدور الجديد؟

- تتقمص شخصية رجل عجوز.

- رهيب! ولكن من أين لي اللحية البيضاء، والشعر الأبيض؟

- موجودة عندي.

- ومن أين جلبتها؟

- لا تسأل كثيراً.

- حاضر!

obeikandl.com

(18)

هرع العجوز إلى صندوق خشبي قديم يضعه في زاوية الحجرة، أخرج منه صرة، وعاد إليَّ مسرعاً. طلب مني خلع الملابس النسائية، ففعلت بسرعة رهيبة وسعادة لا توصف. أجلسني أمامه. ألصق لي اللحية، والشارب، ووضع باروكة يكتسحها الشيب على رأسي، ووضع فوق الباروكة كوفية بيضاء، لفها كما يلف كوفيته، وارتديت سروالاً تراثياً وعباءة، حتى بدوت وكأني عجوز خرف. أخذ يدربني على طريقة المشي وتقليد صوت العجوز حتى أتقنت الدور.

دور جديد لكنه مهما يكن، فهو أفضل من تقمص دور امرأة. نظر العجوز إليَّ وانفجر ضحكاً وعلَّق:

- تنقصك العصا.

- الأغصان تملأ الأشجار.

- سأعطيك عصاي.

- وأنت؟

- لدي اثنتان.

- ما أكرمك!

- سأدعوك الحاج مشعل.

- اسم جميل.

obeikandl.com

وكأن النكد لنا مهنة. أثناء حوارنا وضحكنا، سمعنا صراخاً حاداً يمزق سكون الليل وصمت المخيم. صراخ هزَّ خلجات صدورنا وأشعرنا بالذعر. صرخات أنثى تستغيث بالناس. ظننت أن رجلاً ما يضرب زوجته أو جنوداً اقتحموا منزلاً ما وضربوا من فيه. اقترحت على أبي العبد الذهاب لنرى ماذا يحدث. رفض اقتراحي وطلب مني الانتظار قليلاً فربما يمر أحدهم فنسأله عمّا يجري. ازداد الصراخ فازداد فضولنا. هزّ العجوز كتفي، وقال: "دعنا نذهب لنرى ماذا يحدث، لعلنا نستطيع فعل شيء".

خرجنا سوياً نشبك أيدينا ببعضها، متتبعين مصدر الصراخ. رأينا الناس يفتحون أبواب منازلهم ويركضون متتبعين مصدر الصراخ. أسرعنا في مشينا حتى فوجئنا بحشد كبير من الشبان والشيوخ يقفون أمام منزل الحاج متولي. سألنا شاباً عما جرى، أجاب: أستشهد ابنه الأكبر.

- كيف؟ وأين؟

- في مدينة البيرة، أطلق مستوطن عليه النار فقتله.

- وأين جثمانه؟

- في مستشفى المدينة.

وضعت يدي على صدري، وقلت: إذن سيسرقون جثته...

- من؟

- الجيش.

- لماذا يسرقونها؟

- لتشريحها في مستشفى "أبو كبير".

obeikandi.com

- ولماذا يشرِّحونها؟

- لمعرفة سبب الوفاة.

- قلت لك إنهم قتلوه بالرصاص!

- أعلم ذلك، لكنهم يأخذونها إلى "أبو كبير" من أجل سرقة بعض الأعضاء، هذه أساليبهم.

جنّ جنون ذلك الشاب، هرع راكضاً برفقة شابين نحو الجبال. بعد قليل داهمنا جيب عسكري، يصيح عبر مكبرات الصوت "ممنوع التجول". لم يأبه المحتشدون بأوامرهم، تناولوا الحجارة وراحوا يرشقونهم بها. استنفر الجيش وشرعوا يطلقون الرصاص في الهواء لتفريقهم. لم يكترث أحد برصاصهم. ازداد الجيش قسوة، أخذوا يقذفون قنابل الغاز المسيلة للدموع بكثرة حتى تفرق المحتشدون وهرعوا إلى منازلهم وهم يسعلون من الغاز.

نحن أيضاً هربنا من سحب الغاز المسيلة للدموع. عدنا إلى الخيمة ونحن نسعل ونعطس، وعيوننا تحرقنا بشدة. تناولت رأساً من البصل، شققته نصفين، أعطيت نصفاً للعجوز وأخذت الآخر.. رحنا نشم البصل حتى نسترد أنفاسنا من جديد. استرحنا قليلاً وجلسنا ننتظر ماذا سيحدث. في وقت متأخر من تلك الليلة سمعنا تحركات غريبة على مقربة من الخيمة. رفعنا ستار الخيمة بحذر، رأينا أفراد القوى الضاربة يحملون شيئاً على أكتافهم ويمشون به نحونا. نهض العجوز، وسألهم: "هل خلَّصتم الجثة؟". أجاب أحدهم: "خلصناها بصعوبة، كانت المستشفى محاصرة بالجيش". عَّلق أبو العبد بلسان متعب: "لعنهم الله، يقتلوننا ويسرقون جثثنا".

تقدَّم شاب ملثم، وقال: "نقصدك بخدمة يا أبا العبد". أجاب أبو العبد: "أنا طوع أمركم". تابع الشاب: "سنبقي الجثة في خيمتك لفترة وجيزة. سأذهب إلى منزل والد الشهيد وأحضر أهله لوداعه، ومن ثم سندفنه دون أن يعلم أحد بذلك". علَّق أبو العبد مؤيداً: " فكرة جيدة، ضعوا الجثة في الخيمة، واذهبوا لمناداة أهله بهدوء".

ذهب اثنان من رجال القوى الضاربة إلى أهله واصطحبوهم إلى الخيمة بحذر وهدوء. يا لها من لحظة مفعمة بكل معاني الحزن! برعشة أم فقدت وحيدها، ارتمت أمه على صدره تُقبِّله، وتبكي بجنون: "قلت لك ألا تخرج، ليتك سمعت كلامي، قم يا ولدي، فلم أفرح بزواجك بعد".

أمسك العجوز يدها وطلب منها وداعه بصمت وإلا سيسرق الجنود جثته. حبست صوتها والألم يمزق فؤادها. أما والده، فرأيته في حالة صعبة. كان يقف منزوياً ويبكي بحرقة وعذاب. ناداه أبو العبد لوداع ابنه، جاء يجرّ نفسه جراً، يتأرجح يميناً ويساراً.

نهض شابان وأمسكا به قبل أن يقع. ألقى المسكين برأسه على صدر ولده الوحيد يبكي ويهتزّ جسده من الألم، يقول كلمات هزت أبداننا: "ذهبت لتشتري لي الدواء، فعدت قتيلاً! ليتني متّ قبل أن أطلب الدواء، سامحني يا ولدي. لو كنت أعرف ما ينتظرك لما طلبت منك شيئاً".

رفعه أبو العبد عن صدر ابنه، وقال بمودة: "وحِّد الله يا رجل، فلك الفخر أن ابنك شهيد. لماذا تبكي على شاب أعطاه الله الجنة؟ إنني أطمع في أن أموت شهيداً".

تقدَّمت شقيقته إليه تبكي وتتألم بصمت. انحنت أمام جثمانه تُقبِّل جبهته، قائلة: "نم قرير العين يا حبيبي، نم ولا تقلق علينا، سأرفع رأسي عالياً بين الناس وأصرخ بأعلى صوتي أنا شقيقة الشهيد. نم يا شقيقي، في جنان الخالدين".

كانت شقيقته تكلم جثمانه وجميع من في الخيمة يبكون بصمت، إلا أبا العبد كان ينظر إليها ويهز رأسه بفخر. ودَّع الجميع جثمان الشهيد.

آه يا أبي، لو رأيت جمال وجهه وصفاءه وكأنه ليس ميتاً. وجه لن أنساه ما حييت، كان ضاحكاً مستبشراً وكأنه رأى مكانه في الجنة.

بعد وداعه حمل أربعة من رجال القوى الضاربة جثمانه واتجهوا نحو المقبرة بهدوء. لفّوا جسده الطاهر بعلم فلسطين، وأنزلوه في بيته الجديد. ألحدوا جثمانه باتجاه القبلة، وأهالوا عليه التراب دون أن يخرجوا ضجيجاً قد يجلب لهم انتباه الجيش.

في الصباح، اخترق أهل المخيم نظام حظر التجوال. وضع رجال القوى الضاربة حصيرة في تابوت على أنها جثة الشهيد وتظاهروا أمام الناس أنهم يحملون جثمانه. أدخلوا التابوت إلى المسجد وصلوا على روحه صلاة الغائب. أخرجوا التابوت من بوابة المسجد يحمله أربعة ملثمين. وقفوا في منتصف الشارع ويلتف من حولهم مئات الملثمين. ثم انطلقوا يسيرون في عرض عسكري، يكبِّرون عبر مكبرات الصوت وآلاف الناس يسيرون وراءهم مرددين "الله أكبر! لا إله إلا الله! الشهيد حبيب الله!". وعلى سفح الهضبة المطلة على المخيم يقف مئات الجنود يحاصرون المتظاهرين بأعينهم، متأهبين للمواجهة بعد دفن الجثمان.

obeikandl.com

كنا نسمع هدير طائراتهم تحوم فوق رؤوس الجنود منتظرين ساعة الصفر، في معركة غير متكافئة؛ حجارة ضد الرصاص. ظلت التكبيرات متواصلة وعالية إلى أن وصلوا المقبرة. أنزل الشبان التابوت أرضاً. والناس تنتظر لحظة إخراج الجثة بعيون كبيرة. وقف أحد الملثمين يحمل مكبر الصوت، وقال: "لا يوجد في التابوت سوى حصيرة ملفوفة. اضطررنا لدفن الجثمان فجر اليوم لأسباب تعرفونها جيداً... فلنجعل هذا اليوم يوم الانتقام العظيم من قاتلي ابننا، فلنعلمهم درساً يصعب نسيانه. هيا للمواجهة، الله أكبر!".

استنفر أهل المخيم من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، انطلقوا بغضب نحو الجيش، يقذفونهم بالحجارة، يغلقون الشوارع بالمتاريس، يشعلون النار بإطارات السيارات البالية ويهتفون بملء حناجرهم: "الموت للصهاينة!". في المقابل يطلق الجيش رصاصه الأعمى، وقنابله المسيلة للدموع بشكل عشوائي نحو المتظاهرين الغاضبين. أصيب العديد من الشبان، واختنق عدد لا بأس به من الغاز المسيل للدموع. استمرت المواجهات العارمة ساعات طويلة، لم يستطع خلالها جنود الاحتلال الراجلون أو المحمولون اقتحام المخيم. استعانوا بالطائرات المروحية. حيث حاصروا المخيم براً وجواً فتفرَّق الشبان مهرولين إلى منازلهم.

هدأت فورة غضب المخيم، وهبَّت عاصفة الجيش. اجتاحوا المخيم وهم يرددون في مكبرات الصوت عبارة ليست بجديدة على أهل المخيم: "ممنوع التجول إلى إشعار آخر، وكل من يخالف الأوامر سيعرّض نفسه إلى إطلاق الرصاص". الدوريات الإسرائيلية تجوب شوارع المخيم، والناس تراقبهم عبر نوافذ منازلهم. لم يكتف الجيش بما فعل بل أخذ الجنود يقتحمون البيوت بهمجية

بحثاً عن المشبوهين لاعتقالهم، وتكسير زجاج السيارات، وتفجير خزّانات المياه برصاصهم رغم أنها فارغة.

استمر نظام حظر التجوال مفروضاً لمدة أسبوع دون أن يُؤذن للناس بالخروج ولو ساعة للتسوق أو العلاج. في نهاية الأسبوع الأول من استشهاد الشاب، رُفع نظام حظر التجول مدة ساعة، لكن الجيش كان على أهبة الاستعداد لمواجهة أية مظاهرة مناهضة له.

خرج الناس للتسوق، لكنهم لم يجدوا شيئاً يمكنهم تسوقه، كانت الحوانيت فارغة تماماً. ضجّ الناس وغضبوا، فتقدموا ببسالة نحو الجيش يرشقونهم بالحجارة والزجاجات الفارغة والحارقة، والنتيجة إعادة فرض حظر التجوال.

اشتدّت الأوضاع سوءًا، لذا لم يكن أمام الناس سوى التسلل ليلاً عبر الجبال لشراء حاجاتهم من القرى المجاورة، منهم من كان ينجح بذلك، ومنهم من يقبض عليه فيُقدَّم لمحاكمة عسكرية فورية بتهمة اختراق نظام حظر التجوال.

كنت أرى النساء يخترقن منع التجوال ويخرجن ببسالة وتحدٍ؛ ليملأن جرارهن بماء الينابيع العذب. ولطالما تعرض لهن الجنود، إما بضربهن بهراواتهم أو قذفهن بقنابل الغاز المسيلة للدموع. لم يكنّ يكترثن بما سيلاقينه. القطة تتحول إلى لبؤة مفترسة إذا ما أشرف صغارها على الموت. والمرأة الفلسطينية تتحول إلى مقاتلة إذا ما رأت أولادها يحتاجون لقطرة ماء تبلل حناجرهم الجافة.

كانت الشخصية التي أتقمصّها تعبر عن هرم قلبي رغم صغر سني. تمنَّيت لو كان باستطاعتي فعل شيء لمساعدة أولئك المحرومين حتى من أبسط الحقوق الإنسانية، لكن العين بصيرة، واليد قصيرة كما كنت تقول يا أبي.

ذات ليلة رأيت رجال القوى الضاربة يمرُّون من جانب الخيمة وهم يشيلون المؤونة على ظهورهم. عرضت عليهم مساعدتي، لم يقبلوا في بادئ الأمر بحجة أنني رجل مسن. انتزعت اللحية عن وجهي، وأخبرتهم حكايتي، فرحبوا بمساعدتي. سررت جداً بموافقتهم. نزلت برفقتهم إلى قعر الوادي ركضاً فوجدت شاحنة كبيرة مليئة بالمؤونة. تناول أحدهم كيساً كبيراً من الخيش معبئاً بالمؤونة وطلب مني أن أعطيه لأرملة لديها خمسة أطفال، حملته على كتفي بحماس.

ليس النزول كالصعود! أمضيت ساعة وأنا أمشي من الوادي إلى قمة الجبل المطل على المخيم، أشيل كيساً ثقيلاً يزن أكثر مني. تمزَّقت ثيابي من طول الطريق، تعرَّق وجهي واغبرت قدماي وتورمت. أصبت بالكلل والنصب فجثوت على قدمي مرات عديدة، حتى تجاوزت الجبل وتسللت إلى رحم المخيم أتنقل بين الزقاق بخفة وحذر. وأخيراً وصلت البيت المنشود. نقرت الباب برقة، وقلت بصوت خافت: "افتحي، أنا من ..."، وما كدت أكمل عبارتي حتى فتحت المرأة الباب. كانت تنتظر وأطفالها الجوعى وصول المؤونة. وضعت الكيس في باحة منزلها وغادرت المكان وهي تدعو لي بطول العمر وحماية الله. دعواتها الطيبة ولهفة أطفالها للطعام رسمت على شفتي ابتسامة أزالت عن كتفي جبلاً حملته بكلل وملل.

في تلك الليلة حدث موقف مضحك. كان أحد الشبان يحمل المؤونة على ظهره ويسير بين القبور. رأى مركبة عسكرية قادمة باتجاهه. لم يكن أمامه خيارٌ غير الاختباء بجانب أحد القبور. اقتربت المركبة منه فركع على يديه وركبتيه يخبئ رأسه بين كتفيه فبدا وكأنه صخرة. نزل الضابط من الجيب وأمر السائق بإطفاء

الضوء حتى يتمكنوا من الإمساك بالهاربين عبر الجبل. مشى بضع خطوات وقام بالتبول ثم أشعل سيجارته وجلس على ظهر الشاب معتقداً أنه يجلس فوق قبر أو صخرة. أراد الشاب أن يضحك، تمالك نفسه بأعجوبة. أنهى الضابط تدخين سيجارته، وأطفأها في مؤخرة الشاب. الأمر الذي دفع الشاب للاهتزاز من الألم. ذعر الضابط فأخذ يضحك بشكل هستيري. لم يستطع الشاب أن يتمالك نفسه أكثر، فضحك من منخاريه، ضحكة مختنقة. ارتعدت فرائص الضابط من الخوف، فقام مذعوراً نحو المركبة، ركبها بسرعة طالباً من السائق القيادة بأقصى سرعة نحو المخيم. ربما اعتقد أن المنطقة مسكونة بالعفاريت والأشباح. تلاشى ظل المركبة فتناول الشاب كيس المؤونة وأكمل مهمته وهو يضحك غير مصدق كيف نجا. كان موقفاً مخيفاً ومضحكاً في الوقت ذاته.

حدَّثت العجوز عن تلك الحكاية المضحكة، فقال بلهجة ساخرة:

- لولا أسلحتهم لما بقوا لحظة أخرى في أرضنا.

- قوتهم تكمن في وحدتهم.

- وحدتهم؟ تراهم جميعاً وقلوبهم شتى.

- قلت في نفسي على الأقل هم متّحدون أكثر منا.

أتدري يا أبي، إننا نحن من جعلنا من الاحتلال بعبعاً والحقيقة أنهم جبناء. بل أجبن من الجبن. صدقني أن ما يُسمى بالجيش الذي لا يهزم ما هو إلا وهمٌ زرعه حكام العرب في أنفسهم الضعيفة كي يخلقوا لأنفسهم ذريعة لعدم مواجهتهم! إنهم يخشون حجارتنا بقوة، فكيف لو فك القدر حصاره عنا وتزودنا ببعض البنادق، أجزم أنهم سيفرون هاربين إلى جحورهم كما الفئران.

حل الربيع وأهل المخيم ما زالوا يقبعون تحت نير جور نظام حظر التجوال. هذا العقاب الشرس الذي يستبيح تجويع الأطفال، ويستنسخ الأشباح تصول وتجول كالذئاب المسعورة في كل أصقاع المخيم. لا ماء، ولا كهرباء، ولا طعام كاف أو دواء. كنت أرى النساء يلجأن إلى سفح الجبل يبحثن عن نباتات برية مثل ورق لسان الثور والفطر والخبيزة لطهوها لأطفالهن.

لطالما سمعتهن يشتمن المحتلّ ويصفنه بكلمات تنفرّ الأسماع. أحياناً أضحك عليهن وأخرى أشفق عليهن. كنت أرى أطفالهن يتشبثون بأطراف أثوابهن ويبكون. وكثيراً ما كان يراهن الجيش فيهرع إليهن لمعاقبتهن بقنابل الغاز المسيلة للدموع، دون أن يهربن أو يتخلين عمّا دفعهن لمغادرة منازلهن وسط الخطر المحدق.

ما أعظم المرأة الفلسطينية! تراها تحمل أعباء كثيرة وثقيلة جداً لا تقوى أية امرأة في هذا العالم على حملها أو تحملها. تراها صامدة في كل ميادين الحياة، تشارك الرجل في كل شيء حتى في مواجهة الاحتلال. وكثيراً ما تلعب دور الأب وقت اعتقال زوجها أو استشهاده أو إصابته برصاصة تجعله قعيداً مدى الحياة. تراها تطوف الجبال والوديان باحثة عن شيء تطعمه لأطفالها الجياع. أو تغزل الصوف أو تصنع الحلوى وتبيعها أو تعمل أي شيء شريف يحافظ على طهارتها وعفتها. تربي أطفالها بصبر وحب وعطاء لا ينتهي أبداً، تساندهم وتقف بجانبهم حتى يشتد عودهم ويقوى على تحمل المسؤولية بقلوب مفعمة بالحب والانتماء، وهي تضيِّع شبابها من أجلهم. وهي الأكثر مرضاً نتيجة أعباء الحياة والمعاناة المستمرة. تصل سن الأربعين فترى جسدها قد احتلّ بأربعين داء: السكري، والضغط،

obeikandi.com

والمرارة، وهشاشة العظام، وأمراض كثيرة... تنتشر في جسدها ولحمها كضريبة للأذى الذي تتعرض له على مدار الزمان والمكان، أذى الاحتلال واستهدافه لابنها أو شقيقها أو زوجها أو قريب لها.

إلا أن لكل قاعدة شواذ. ذات مرة كنت أجلس أمام الخيمة متقمصاً شخصية الرجل المسن. أقبلت امرأة غليظة التقاطيع، وسمينة جداً. طرحت السلام بلهجة متهدجة، وطلبت مني شربة ماء. أحضرت لها إبريق الماء، وقلت لها: "تفضلي يا ابنتي". نظرت إلى الإبريق باشمئزاز ورفضت أن تشرب منه، قائلة: "هل تظن بأني دابة كي أشرب من هذا الإبريق القذر؟". قلت لها إن الإبريق نظيف ونشرب منه. رمقتني بنظرة شرسة، وقالت: "أنت عجوز وقح، لماذا تحدّق في صدري؟". قلت: إنني لم أنظر إليك البتة. رشقت الماء في وجهي، وقالت: "سلّمتم بلادنا للصهاينة ودفعنا ثمن جبنكم". ابتسمتُ وشكرتها على فعلتها. جن جنونها وكأني شتمتها، صاحت في وجهي قائلة: "أنا لست بائعة هوى". قلت بعصبية: "لم أقل ذلك".

سمع أبو العبد صوتها وهي تشتمني وتهزئني. تقدَّم نحوها وسألها بلطف: "زوجة من أنت؟". قالت بلهجة متعجرفة: "زوجة جحش ملتصق بالفراش، لا عمل له سوى مضاجعتي". غضب العجوز من أسلوبها السوقي، وقال: "عار عليك أن تفشي أسرار بيتك وأن تصفي زوجك بالجحش". أجابت غير مكترثة: "أنا حرة". وخزها بعكازه وصاح في وجهها طالباً منها الانصراف قبل أن يفقد السيطرة على نفسه ويلدغها بعكازه ضربة قاضية.

تصوَّر أنها بصقت عليه، وقالت: "لو لم تكن عجوزاً لدست على رقبتك". لم يصدق أبو العبد ما سمع، ولم يعرف كيف يتعامل معها؛ لو ضربها سيقف ألف واحد في وجهه ويطالبونه بحق عرب. انتزع إبريق الماء من يدي ورشقه في وجهها، قائلاً: "انصرفي من هنا". ابتعدت عنه قليلاً وهي تجفف وجهها، ثم انحنت على الأرض والتقطت حجراً مدبباً وقذفته به، ولولا أن أبا العبد أبعد رأسه لشجّته. لم تتوقّف عند هذا فالتقطت حجراً آخر وهمّت بقذفه، فهرعت إليها مسرعاً محاولاً انتزاعه من يدها. ركلتني في إليتي وهربت وهي تشتمني بأقبح الكلمات. لم أصدق ما رأيته وما سمعته، ولم يخطر أبداً على بالي أن أسمع امرأة فلسطينية تتلفظ بمصطلحات لا يجرؤ رجل مهما كان منحطاً على قولها. نظرتُ إلى أبي العبد وسألته: "أهي من الجنس اللطيف؟". ضحك ساخراً وقال: "قل ثور في ثوب امرأة". ضحكت وقلت: "فليساعد الله زوجها". قال باستياء: "لا أظن أن رجلاً محترماً يحوي هذه القمامة".

أتدري يا أبي أن تلك المرأة جعلتني أكره النساء وأنظر إليهن بشكل سلبي رغم أنني أعرف جيداً أنها امرأة شاذة عن باقي نساء فلسطين؟ حتى أني فكرت بعدم الزواج.

رفع العجوز يديه إلى السماء ودعا الله أن يزيل الكرب عنا، ثم دخل الخيمة واستلقى على فراشه وفتح كتاب تفسير "الجلالين". وفي لحظات سكون سيطرت علينا، سمعنا الدوريات الإسرائيلية تنادي برفع نظام حظر التجوال.

لم نكن ندري إلى متى. انتزعتُ ملابس الاحتيال وخرجت إلى السوق لمعرفة الخبر اليقين. رأيت الناس يملأون الشوارع. ترى الفرحة في أعينهم رغم

obeikandl.com

امتزاجها بالإفلاس. سمعتهم يقولون إن حظر التجوال قد رُفع كلياً، هذا ما أكده لهم مختار المخيم. على الفور ذهبت إلى المدينة لأبحث عن عمل. لم أترك محلاً تجارياً أو شركة خاصة أو مؤسسة أهلية دون أن أعرض عليهم خدماتي لكن دون فائدة. ظللت أبحث عن عمل حتى تعبت قدماي وتورمتا. صرت أمشي وكأني أعرج. وفي المساء عدت إلى المخيم مكتئباً أندب حظي وألعن البطالة.

نزلت أمام المقهى، سمعت أحد الشبان يقول إن الاحتلال أطلق سراح نضال. سررت بذلك الخبر، هرعت إلى منزله لأهنئه بسلامته. وصلت عتبة بيته تذكرت أني لا أحمل له هدية. عدت مسرعاً إلى الخيمة، تناولت ما كان بحوزتي من نقود وذهبت إلى السوق. اشتريت له رطلاً من السكر، وقطعتين من الصابون كما يفعل الناس وهرولت إلى منزله.

رأيت باب منزله مفتوحاً على مصراعيه، وأمه تجلس برفقة نساء جئن لتهنئتها بسلامته في مدخل المنزل. شعرت بالحرج وأردت العودة. رأتني فأسرعت إليّ ورحبت بي قائلة بحرج: "اعذرني يا ولدي، فما جلسنا في المدخل إلا لضيق البيت". قلت لها متفهماً: "لا عليك، وقت الأفراح تضيق منازلنا". أرشدتني إلى الصالة التي يجلس فيها الشباب. رأيتها تعج بالشباب الذين جاؤوا ليهنئوه بسلامته، وبسحب كثيفة من الدخان. رآني نضال فقام فرحاً يفتح ذراعيه، عانقته وجلست بجانبه أستمع إلى قصته في التحقيق. كان يتحدث بسخرية عن أساليب التحقيق التي استخدموها معه. قال إنه لم يكن لديهم لائحة اتهام ضده، وإنما اعتقلوه اعتقالاً احترازياً.

أنهى كلامه وبادرني بالسؤال عن حالي: "هل وجدت وظيفة؟ وهل تزوجت؟". ضحكت، وقلت: منذ "سبعة وعشرين عاماً وحالي لم يتغير، وهل تظنه قد تغير وقت اعتقالك؟ يا أخي، مسألة الوظيفة معقدة، والزواج أكثر تعقيداً، بل مستحيلة". ربت على كتفي، وقال: "لا تقلق! قريباً سأساعدك بالحصول على وظيفة، لديّ معارف كثر". قلت في نفسي: "وماذا عن الزوجة؟". ثم قلت بإحباط: "وعدني الكثيرون ولم يوفوا بوعودهم". ابتسم وقال: "جربني! يضع الله سره في أضعف خلقه".

دخلت أمه الصالة وهي تزغرد، وتحمل بيدها صينية كبيرة مملوءة بفناجين القهوة. قدّمت القهوة للشباب، وقالت: "من يُقنع نضالاً بالزواج فسوف أعطيه هدية قيمة". قاطعها نضال: "وفِّري نقودك، غداً سأرافقك لتطلبي لي يد فتاة من حارتنا". سألته بدهشة: "هل أنت جاد؟". أكد لها أنه جاد. بدأت تزغرد ثانية وترقص. أمسكت بيدي، وقالت: "ارقص معي ابتهاجاً بعرس أخيك". شبكت يدي بيدها ورقصت معها، ورقص كل من كان يجلس في الصالة. تحولت قعدتنا إلى عرس، لا ينقصه إلا العروس. بعد نصف ساعة من الرقص المتواصل، هرعت أمه إلى السوق وعادت إلينا تحمل كيساً من الحلوى، فتحته وهي تزغرد وأخذت تقذف الحلوى فوق رؤوسنا.

أمضيت وقتاً ممتعاً برفقة الموجودين، واستأذنت نضالاً بالخروج. أوصلني حتى الباب، وقال لي إني مدعو غداً لخطبته. سألته عن العروس، فقال: "المعلمة منال". طبطبت على كتفه، وقلت: "ونعم الاختيار!".

انصرفت ميمماً إلى حجرتي لتفقدها. وجدت أن الجيش استخدمها كمرحاض. لعنت حظي التعيس الذي يرافقني على مدار الأيام والسنين. حتى حجرتي استكثروها عليّ. ملأوها ببرازهم ورائحتهم النتنة، كدت أختنق. تمنيت أن تأتي الصحافة لتصور ما فعلوه. أردت أن آخذ الكتب لأبيعها وأتصرف بثمنها. حتى هذه لم تنج منهم. استخدموها لتنظيف مؤخراتهم. ندبت حظي النكد وأقفلت حجرتي حتى إشعار آخر. ألقيت عليها نظرة الوداع غير آسف على هجرها وهرولت إلى خيمة العجوز وأخبرته عن كل شيء.

اختلطت مشاعر العجوز ما بين الضحك والحزن. حتى أنا انفجرت ضحكاً دون أن أعرف لماذا ضحكت. اقترح عليّ أبو العبد أن أستلف نقوداً من أحد أصدقائي واستثمرها في مشروع صغير يجلب لي أرباحاً متواضعة ويكفيني حاجة الناس، كبيع الخضراوات أو الحلوى. فكرته أثارت إعجابي. وعلى الفور ذهبت إلى نضال لأستلف منه مبلغاً لتنفيذ مشروع ما، فهو ميسور الحال. شعرت بالخجل في مفاتحته بالموضوع أمام الناس. لاحظ أني أحتاجه في موضوع خاص. اقتادني إلى غرفة مكتبه وعرضت عليه الفكرة. رحّب بها كثيراً. لم يتردد لحظة في إعطائي النقود ووعد بمساعدتي بعد الخطبة.

ما أروعه من شاب! لقد أثلج صدري بكرمه ونخوته. تناولت المبلغ منه، ولم أعرف ماذا أقول.

تنفلت مني كل الكلمات الطيبة كما تتفلت المأسورة ساعة فكّ قيدها! لم أعرف كيف أشكره على موقفه الرائع والرجولي. ربت على كتفي، وقال بمودة:

obeikandi.com

"الصديق وقت الضيق، أليس كذلك؟". هززت رأسي والدموع تفيض من عينيّ.

تذكرت العجوز واستأذنته في دعوته إلى خطبته. قال إنه سيذهب إلى خيمته ويدعوه شخصياً، لأن مقامه كبير جداً. عانقته بحرارة وهرعت إلى خيمة العجوز وأنا في غاية السعادة، غير مصدق أنني أحمل ذلك المبلغ رغم أنه لم يتجاوز ألفي دينار أردني، لكن كان ذلك أكبر مبلغ حملته في حياتي آنذاك.

obeikandl.com

(١٩)

في اليوم التالي ذهبت برفقة العجوز إلى منزل نضال لنرافقه لخطبة الفتاة التي اختارها قلبه. فوجئت بعدد من وجهاء المخيم يجلسون ويودون مرافقة نضال لطلب يد الفتاة. رأى نضال أبا العبد، أسرع إليه وعانقه بشدة. أجلسه بجانبه وهو يرحب به أجمل ترحيب. رأيتهما يتحدثان وكأنهما يعرفان بعضهما جيداً، وتربطهما صداقة حميمة. يتهامسان ويتبادلان الأسرار.

شربنا القهوة في منزل نضال وهرولنا إلى بيت والد العروس الحاج أبي حجاب لنطلب يد كريمته. رأى أبو حجاب الوجهاء من نافذة منزله، ابتسم ونزل إليهم مسرعاً يفتح ذراعيه، قائلاً: "يا مرحباً بالمشايخ! شرَّفوا الأفاضل!". صافحوه، عانقوه، ودخلوا منزله يأملون موافقته على طلبهم. جلسنا في صالة المنزل، وأبو حجاب يرحِّب ويذكر كلّ واحد باسمه. بالغ والد العروس في استخدام كلمات الترحيب حتى اعتقدت أنه الكرم العربي عينه. غمز نضال المختار طالباً منه مفاتحته بالموضوع. هزّ المختار رأسه متفهماً ثم وقف وحيّ الحضور، وقال: "جئنا لنطلب يد ابنتك منال لولدنا نضال، وأنت تعرفه جيداً، نضال شاب مهذب ومتعلم، وله سمعة طيبة وشقة مستقلة". جلس المختار وقام أبو حجاب، والد العروس، وقال مبتسماً: "لأجلكم سأذبح الأطفال! ها هي تجلس في الصالة، خذوها معكم ".

قلت في نفسي: "ما أروعه من رجل!". علقّ المختار: "بارك الله فيك، ونِعم الرجال أنت!". مدّ يده على جيبه وأخرج مبلغاً من النقود، وقال: "هذه ثلاثة ألاف دينار، مهر العروس". استشاط أبو حجاب غضباً، وقال مستهزئاً: "ماذا تقول يا رجل؟ ثلاثة ألاف هذه ليست نقوداً. مهر ابنتي عشرة آلاف دينار لا تنقص ديناراً واحداً". تعجّب الموجودون من طلب أبي حجاب. تدخل أبو العبد، وقال في محاولة لتلطيف الأجواء: "أبو حجاب يمازحكم!". قاطعه أبو حجاب بانفعال، وقال: "بل جاد! أنا لست أول من يطلب مثل هذا المهر، أبو حسين مثلاً، زَوَّج ابنته بمهر أكثر من ذلك".

تدخَّل نضال، وقال: "اتركوه يُسمي كل طلباته". تابع أبو حجاب يسمي مطالبه دون توقف. مطالب كثيرة لا تستطع الجمال حملها، ولا يستطيع نضال تحمُّلها. ظل يطلب ويطلب حتى ملّ الوجهاء من سماع شروطه وطلباته التي لا حدود لها. قام الشيخ توفيق، وقال ساخراً: "أنت لا تريد النسب الطيب بل تريد خزائن من المال! من أين جئت بهده العادات القبيحة؟". قالها وخرج. قام أبو مثقال، وعلَّق ساخراً: "نحتاج ألف جمل ليحملوا طلباتك. ما رأيك بأن نجلب لك قطاراً ونعبئه بالذهب والمال؟". رمقه بنظرة احتقار وخرج. قام المختار ينفخ غضباً، وقال: "أخزاك الله يا رجل، لعن الله منال ومن فكر بطلب يدها!"، دفعه بغلظة وخرج. نهض الإمام، وقال: "الزواج فريضة وبناء وليس تجارة، اتق الله يا رجل!". قلّب كفيه متحسراً وخرج. قام أبو العبد، وقال: "مهر الكريمة يكون متواضعاً، وليس غرامة يُصلى لظاها الأب والأبناء". هزّ رأسه باستياء وخرج. نهض نضال، وقال متهكما: "خلّلها!"، تنهد قهراً وخرج. قام الحاج طلال،

وقال: "حَرَمْتَ ابنتك من فرحتها، وجعلتها عانساً. لا تستحق أن تكون والدها". بصق أمامه وخرج. قمت أنا نفسي، وقلت: "أمثالك جعلوا زواج أمثالي حلماً مستحيلاً، لعنك الله!". قلتها ولحقت بباقي الرجال وأنا أنظر خلفي متخوفاً من ردة فعله.

ذهب الجميع إلى بيوتهم، وذهبتُ وأبو العبد إلى منزل نضال بعد إلحاح منه. أقبلت أم نضال وسألته عمّا حدث. أخبرها أن أبا حجاب يبحث عن زوج برتبة أمير، لديه قصوره محشوة بالماس والذهب، وأنه يفضل أن يكون من دول الخليج. ربتت أمه على كتفه، وقالت: "هناك ألف امرأة تتمنى أن تكون زوجها". قاطعها نضال، وقال: "لا ألف ولا أكثر، لا أريد الزواج بعد الآن". نظرت أمه إلى أبي العبد، وقالت: "هل يرضيك ما يقوله نضال؟". أجابها بمودة: "لا تقلقي! غداً سيأتي إليك، ويقول وجدت عروساً أفضل منها". رفعت أم نضال يديها إلى السماء: "يا رب، حقق ذلك قبل رحيلي!".

تحدثنا في أمور كثيرة، أمور أضحكتنا وأخرى أحزنتنا. كما هو حال الحياة، فيها الحلو وفيها المرّ: الجميل والقبيح، الطيب والشرير، العادل والظالم، المخلص والخائن، الفقير والغني، الكريم والبخيل، المغرور والمتواضع. ناقشنا أيضاً موضوع الحانوت. كرر نضال وعده بالوقوف بجانبي حتى أنجزه تماماً.

في صباح اليوم التالي هرولت إلى منزل نضال كما اتفقنا. أسقاني كوباً من الحليب الطازج والساخن، شربته على نفس واحد، وهرولنا إلى حجرتي لتنظيفها. نظفنا الحجرة جيداً بمساعدة جرعوش وبعض أصدقاء نضال. استبدلنا الباب بباب حديدي متين، يفتح ويقفل بسهولة، والنافذة بنافذة من الزجاج والألمنيوم،

والسقف بصفائح زينكو جديدة، ثم صبغنا الجدران بألوان زاهية، فبدا حانوتاً يسرُّ الناظرين.

النقود عصا سحرية يمكنك من خلالها تحقيق الكثير وصنع المستحيل. أليس كذلك يا أبي؟

جهزنا الحانوت، وفجأة خطر على ذهني سؤالٌ مهمٌ لم أفكر به من قبل: "ماذا سأبيع؟". اقترح نضال أن أبيع المواد الغذائية الأساسية، مثل: الأرز والطحين، والسكر، والمعلبات، إضافة إلى بيع الخضراوات واللحوم والأسماك المجمدة. أضحكني اقتراح نضال، إذ أن تنفيذه يحتاج لمبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذي اقترضته. علّق نضال وقد انطلق ضاحكا، وهو يقول: "هل تظن أني غبيّ لا أقدّر الأمور؟". صمت قليلاً وأنا أبحلق به منتظراً ما سيتبع عبارته من كلام ثم تابع: "رُفضت كزوج، هل تقبلني كشريك؟". قلت غير مصدق ما أسمع: "هل تود مشاركتي في الحانوت؟". قال متحمساً: "أتمنى ذلك".

عرض علي مشاركته في الحانوت. هو بالمال وأنا بالجهد. أعجبت بفكرته ووافقت دون تردد. هرعنا إلى العجوز وأخبرناه بالأمر. سرّ كثيراً ودعا الله لنا بالتوفيق.

تقاسمنا المهام. استأجرت سيارة نقل تجارية كبيرة، وذهبت إلى مدينة نابلس لشراء ما يلزمنا من بضاعة. البضاعة هناك أرخص بكثير من أيّ مكان آخر. اشتريت أنواعاً كثيرة من البقوليات، والنشويات، والخضراوات، واللحوم والأسماك المجمدة وعدت وقلبي يرقص فرحاً إلى الحانوت، إلى حلمي الذي

تحقق دون موعد أو صعوبات. وذهب نضال واشترى ثلاجة كبيرة للحوم والأسماك المجمدة، وما يلزمنا من أثاث.

رتبنا سوياً البضاعة، كلاً في المكان المعدّ له. رتبنا كل شي وكلانا في غاية السعادة ندعو الله أن يأخذ بأيدينا ويوفقنا في هذه التجارة. انتهينا من الترتيب وارتميت على مقعد خشبي متهالكاً لآخذ قسطاً من الراحة، وخرج نضال في مشوار قصير ثم عاد بعد قرابة الساعة. عاد يحمل شيئاً كبيراً ملفوفاً بقطع من النايلون. سألته عما يحمله، فرفض أن يجيب. طلب مني أن أدخل الدكان وأغلق الباب لمدة عشر دقائق. دخلت الدكان والفضول ينهش عقلي. عشر دقائق مرت وأنا أسمع ضجة في الخارج، تارة صوت مطرقة وأخرى صوت مثقاب كهربائي، إلى أن انتهى الوقت.

دخل نضال الحانوت وشعره معفَّرٌ بغبار أبيض وكأن الشيب اكتسح رأسه في عشر دقائق. انتزع كوفيته عن عنقه وأغمى بها عينيّ، وقال بصوت فرح: "امشِ معي لترى المفاجأة". خرجت وهو يسحبني من يدي. أماط الكوفية عن عينيّ، وقال: "الآن يمكنك أن تشاهد المفاجأة". فتحت عينيّ بشوق وفضول، لأرى يافطة حديدية كبيرة مخطوطة باللون الأحمر المشع: "لقمة الفقراء، لصاحبها صابر".

آه يا أبي! لا يمكنك أن تتصور مقدار فرحتي بما فعله نضال. لقد أثلج صدري بتلك الحركة الرائعة. لم أعرف كيف أشكره. غير أني رأيت نفسي أعانقه بعيون اغرورقت بالدموع. ضغط يدي بمودة، وقال: "رحلة الألف ميل ابتدأت بخطوة واحدة، ومن يعلم، ربما يتحول هذا الحانوت إلى سوبر ماركت كبير".

ابتسمت، وقلت: "والله إني لا أطمع بأكثر من هذا، لكن لماذا لم تكتب اسمك على اليافطة، ألسنا شركاء؟". ضحك، وقال: "اسمي مشبوه، لو كتبته لـن يجلب لـك سوى تعب القلب وربما يُهدم الحانوت بسببه". عانقته بشدة، وقلت: "مشبوه عند الاحتلال، لكنه أنقى من الثلج عندي وعند الناس". شكرني، وصاح بصوت فرح: "والآن إلى العمل!".

سميت باسم الله وباشرت عملي الجديد متوكلاً على من يغني الفقير بعد طول فقر. كان إقبال الناس جيداً، بل ممتازاً وأكثر بكثير مما توقعت، رغم أن قسماً كبيراً من الزبائن كان يلجأ لأخذ حاجاته ديناً. في نهاية الشهر الأول جلست برفقة شريكي لحصر الأموال. وجدنا أن أرباحنا فاقت تصوراتنا، رغم أن أسعارنا كانت أقل من باقي التجار. فرحنا بتوفيق الله ودعوناه بإتمام نعمته علينا.

كان جرعوش يأتي لمساعدتي ما بين الحين والآخر ولا أنكر أن وجهه القبيح جلب لنا الخير. احتكاكي به وقربي منه جعلني أدرك أنه ليس مجنوناً بمعنى الكلمة، وكثيراً ما كان يفاجئني بأمور إيجابية وذكية لم تخطر على بالي من قبل. ما أروع أن يحس الإنسان بقيمته! أن يدرك أنه مفيد لنفسه وغيره ولم يعد مجرد صفر على اليسار لا قيمة لوجوده. رغم أني التحقت بالجامعة وتخرجت بدرجة امتياز وكان حلمي أن اعمل في مجال تخصصي، إلا أن وجود حانوت لي يسترني من الفقر كان الأكثر أهمية بالنسبة لي.

اعتدت أن أفتح الحانوت كل صباح، وأغلقه في الساعة السادسة مساء تطبيقاً لقرارات القيادة الموحدة للانتفاضة. لم يكن شيء يزعجني في تلك التجارة سوى الإضراب الشامل، والحداد على أرواح الشهداء. ليس لعدم وفاء أو انتماء

obeikandi.com

لقرارات القيادة، وإنما لقناعتي أن الإضراب لا يؤذي الاحتلال، بل يؤذينا نحن. لطالما تساءلت عن فائدة إغلاق المحال التجارية أبوابها. لماذا لا يسمح لأحد بلمس باب دكانه؟

اعتاد رجال القوى الضاربة زيارتي- في الأشهر الأولى- لتفتيش الحانوت عن بضائع إسرائيلية. أيقنوا أني أقاطعها ولا أتعامل بها، فلم أعد أراهم. إجراء كهذا أعتبره عقلانياً، ويؤذي الاحتلال بلا شك. يُكبِّدهم خسائر كبيرة.

دخلت الانتفاضة عامها الثاني. داهمنا الصيف بحرارة شديدة ولاذعة لم نعتد عليها، تماماً كأساليب المقاومة الجديدة والملتهبة؛ العمليات الاستشهادية، أو العمليات الانتحارية. لم يخطر ببالي يوماً أن رجال المقاومة سيستخدمون هذا النوع في مجابهة الاحتلال.

بينما كنت منهمكاً بتنظيف الحانوت من الغبار المتراكم على المعلبات، وأستمع للأخبار، سمعت خبراً مفاده أن شاباً فلسطينيا قام بتفجير نفسه في حافلة إسرائيلية أدت إلى مقتله ومقتل عدد من ركاب الحافلة.

لم يرق لي ما سمعته إطلاقا. فمن حق أي شعب اغتصبت أرضه مقاومة الاحتلال، لكن ليس بتلك الطريقة. أتفهم جيداً ما يدفع أولئك الشبان لتفجير أجسادهم، أتفهم الظروف القاسية والحياة المرة التي فرضها علينا الاحتلال. أتفهم كل شيء، لكن ليس بذلك الأسلوب وليس ضد المدنيين. أقبل نضال وأنا أتكلم مع نفسي. رمقني بنظرة، وقال مازحاً: "رأيتك تكلم نفسك، هل أثر جرعوش على عقلك؟". أخبرته لماذا أكلم نفسي، احتدّ، وقال: "ربما كان

obeikandl.com

الأسلوب قاسياً، لكن على الاحتلال أن يعرف أننا لا نملك شيئاً نقاومه فيه غير أجسادنا المحشوة بالمتفجرات".

قاطعته، وقلت مستغرباً: "وما ذنب المدنيين؟". قال مستاءً: "من يسمعك يظن أنك لا تعيش هنا. عشرات السنين والاحتلال يسفك دمنا، ويضيِّق علينا. يغتصب أرضنا وحتى أجسادنا، وتقول مدنيين، ألم تسأل نفسك إن كان قتلانا مدنيين أم غير ذلك؟ هو العين بالعين، والسن بالسن، والبادئ أظلم. نحن أصحاب حق، وهذه أرضنا. هم من اعتدوا علينا واغتصبوها وليس العكس".

تضايقت من أسلوبه الفظ في مخاطبتي، وقلت: "أحسّ بكل ما تقوله جيداً، لكن ما رأي الدين في ذلك؟". انطلقت منه ضحكة مجلجلة، وقال مستهزئاً بسؤالي: "هل أصبحت شيخاً حتى تقلق في أمر الدين؟". انتفضت واقفاً، وقلت: "لست شيخاً، لكن أعرف جيداً أن ديننا يحرم قتل النفس أو قتل الأبرياء، وأعرف أنه أمر أن نقاتل من يحمل السلاح ويقاتلنا".

تنهد تنهيدة أكل بها نصف وجهي وقال: "أبرياء؟! عليك أن تدرك أن ما تسميهم بالأبرياء يمتلكون كل أنواع الأسلحة الثقيلة والمتطورة، ويتلذذون باستخدامها ضدنا. يقاتلوننا وكأننا نمتلك ما يملكون. ناهيك أن التجنيد العسكري يبدأ عندهم في سن الثالثة عشر. هل تظن أني لا أحس ولا أتألم حين يقتل إنسان حتى لو كان محتلاً؟! أؤكد لك أني أتألم، ولكن أقولها مرة أخرى، هم المعتدون وليس نحن. هم من يحتلوننا وليس العكس". صمت قليلاً وتابع: "هذا هو توازن الرعب!".

obeikandl.com

أثناء جدلنا اقتحم الجيش المخيم. أغلقت المحال التجارية أبوابها تحسباً لاشتباكات مع الجيش. أغلقت الحانوت وذهبت برفقة نضال إلى خيمة العجوز، وما كدنا نصلها حتى سمعنا أزيز الرصاص يرعد في سماء المخيم. أسرعنا في مشينا. دخلنا الخيمة، رأينا العجوز يتحدث مع نفسه ويبدو مهموماً للغاية، جلست بجانبه، وسألته عن الأمر، تنهد بألم: استشهد ثلاثة شبان في قرية "بيت أمر".

- ماذا؟

- وشابين في قطاع غزة.

- يا لطيف!

- وشاب في مدينة رام الله.

- ما اسمه؟

- ذكر المذياع أسماءهم، لكنني نسيتها.

- هل يوجد أحد من المخيم؟

- نعم، الذي استشهد في المدينة، هو من المخيم.

- إذن لهذا السبب اقتحم الجيش المخيم؟.

سمع نضال ذلك الخبر، وانطلق مسرعاً إلى حيث لا ندري. جلست بجانب أبي العبد وأخبرته عن الجدال الذي دار بيني وبين نضال. قال: "سبق وأن قلت لك إن هذا النوع من العمليات سيكون ناجعاً ومثمراً لو استمر، فالاحتلال لا يعرف لغة غير القوة، وعليهم أن يشربوا من الكأس الذي أسقونا إيّاها ولا زالوا يسقوننا منها".

obeikandl.com

أثناء حوارنا سمعنا الجيش ينادي بفرض نظام حظر التجوال. قلقت جداً على البضاعة الموجودة في الحانوت. خفت أن يقطعوا التيار الكهربائي فتتعفن اللحوم والأسماك. استأذنت العجوز بالانصراف وهرعت إلى الحانوت ضارباً أوامر الجيش ونصائح أبي العبد بعدم الخروج بعرض الحائط. اقتربت من الحانوت بحذر. رأيت الشبان مستنفرين، يقذفون الحجارة على الجيش، والجيش يرد عليهم بإطلاق الذخيرة الحية، والقنابل الغازية المسيلة للدموع.

لم أكترث، تسللت نحو الحانوت وأردت أن أفتح الباب، وما كدت أفعل وإذا بشيء يلسع كتفي الأيسر، ظننت أنني أصبت بحجر، لم أهتم كثيراً.

بعد قليل شعرت بشيء لزج ينزلق على صدري. مددت يدي إلى موضع الألم أتحسسه، فإذا بشيء ساخن لزج يعلق بيدي. سحبتها فرأيتها ملطخة بالدم، أدركت أنني أصبت برصاصة. نزفت كثيراً حتى فقدت القدرة على الوقوف. رأيت الأرض تدور بي، سقطت على الأرض أصرخ بأعلى صوتي: "لقد أصبت، لقد أصبت!". أسرع الشبان إليّ، حملوني وراحوا يركضون بي إلى منزل طبيب المخيم. حمدت الله أن الرصاصة أصابت كتفي وليس بطني، وإلا لمتّ بسبب الطريقة التي حملني بها الشبان. قلبوا أمعائي وهم يركضون. كنت أتهزهز بين أيديهم كقطعة مطاطية مترهلة، لا كجسد بشري نازف. لسوء حظي لم يكن الطبيب موجوداً في منزله ولا حتى زوجته الممرضة. لذا طلبت منهم أن يأخذوني إلى خيمة العجوز، ففعلوا.

فزع العجوز حين رآني محمولاً وجسدي ملطخٌ بالدماء. قفز من فراشه وكأنه شاب في العشرين، يسأل بذعر وهلع عمّا أصابني. أخبره أحدهم أني أصبت

برصاصة في كتفي. مددوني على الأرض وانصرفوا لمقارعة الجيش بحجارتهم. جلس العجوز فوق رأسي وهو يقلب كفيه بعصبية ويعاتبني على خروجي في جو مكهرب. لم يكن بوسعي الدفاع عن نفسي، فأنا لا أعرف لماذا خرجت أصلاً. وكأني كنت سأشبك سلك الكهرباء بمؤخرتي لو قطعوا التيار الكهربائي. سألني ثانية وبلهجة غاضبة: "هل كنت تنوي حماية اللحوم والأسماك من العفن بجلوسك في الدكان؟ لماذا لم تأخذ بنصيحتي؟". كان عليّ أن أقول شيئاً حتى أوقف عتابه. علّقت سبب خروجي على مشجب القدر البريء الذي يجبرنا ونحن ننتقده ونتمسك به وبأذياله أكثر، ونؤمن بغيبه العجيب الذي يقلبنا بلمح البصر من أقصى مشاعر التمرّد إلى أقصى إيمان بالحكمة الخفيّة التي ترتّب سيول الأحداث المتسارعة.

رمقني بنظرة تعجب، وقال: "تمشي بجانب سور آيل للسقوط، فينهار عليك ويفتت عظامك، وتقول هو القدر؟! لا يُفهم القدر هكذا يا بني".

خلع معطفي وقميصي، وألقى نظرة على الجرح. لم ير من أين ينزف الدم. مزق جبّة قديمة إلى عدة أجزاء، تناول قطعة ومسح الدم بلطف حتى بان الجرح. ارتاح وجهه، وقال بثقة وكأنه طبيب: "لا تقلق! إصابتك طفيفة".

ابتدأ الجرح يؤلمني تدريجياً حتى اشتد عليّ ولم أقوَ على احتماله. أخذ يحثني على الصبر حتى يأتي الطبيب. أخبرته أن الطبيب غير موجود في بيته ولا أحد يعرف متى سيعود. هزّ رأسه ودلف خارج الخيمة. جمع كمية من الحطب وضعها في الموقد وأضرم بها النار. هرع نحو فراشه، رفع الوسادة وتناول خنجره وأسقط مقدمته في النار. ارتجف جسدي حين رأيته يفعل ذلك، سألته بخوف ماذا تفعل

obeikandl.com

وأنا أعرف جيداً ماذا سيفعل. أجاب ببرود أعصاب: "سأخرج الرصاصة". صحت متعجباً: "بالخنجر؟". هزّ رأسه وقال مشجعاً: "لا تخف! مجرد لسعة نحلة". ارتعدت فرائصي من الخوف، غصصت بريقي وتوسلت إليه ألا يفعل. تجاهلني تماماً. تجمّر رأس الخنجر فأخرجه من النار وتقدّم إليّ بخطوات سريعة طالباً مني الثبات وعدم الحركة. قلبني على بطني وجلس فوق ظهري، وقال: "باسم الله، يد الله فوق يدي". غرس رأس خنجره مكان الإصابة وفركه، فإذا بصراخي يملأ الخيمة فزعاً. لم يكترث بصراخي، تابع عمليته الجراحية حتى أخرج الرصاصة. كوى مكانها بالخنجر وتمكن من إيقاف النزيف. لفّ كتفي بكوفيته البيضاء، وساعدني في ارتداء ثياب الاحتيال، فعدت لأتقمّص شخصية العجوز من جديد. قام بجمع قطع القماش الملطخة بالدماء ووضعها في الموقد حتى لا تثير الشك عند الجنود في حال اقتحموا الخيمة، فتكون دليلاً ضدي.

كان جسدي يرتعش من البرد رغم أن درجة الحرارة كانت فوق الثلاثين. سمعته يدمدم: "سيصاب الآن بالحمّى". غلبني التعب. غفوت لوقت قصير. قصير جداً. استيقظت وجسدي يغلي بسبب الحمّى. سمعته يقول محدثاً نفسه: "الآن ابتدأ الوجع الحقيقي". أصابتني القشعريرة، صرت أهذي بكلام لا يفهمه غيري، أرى أكواماً هائلة من الصفوف المتشابك تتكدس أمامي وكالعادة عليّ فصلها. شرع العجوز بوضع الكمادات الباردة على جبيني. يتركها دقيقة ثم يبللها مرة أخرى...

آه يا أبي! ما أتعس أن يشعر الإنسان بالعجز، وقلة الحيلة، أو أن يرى رجلاً طاعناً في السن يعمل على خدمته!

وحتى منتصف الليل ولا زال العجوز منهمكاً بوضع الكمادات الباردة على جبيني، وأزيز الرصاص يدوي في أجواء المخيم. سمعته يقول إن القادم سيكون أسوأ، وإنه يخشى أن يأتي يوم تكون البنادق أضعف سلاح يُستخدم ضدنا. وكأنه يتنبأ بمرحلة جديدة سيستخدم فيها الاحتلال الطائرات الحربية، والدبابات الثقيلة ضد شعبنا الأعزل.

كنت خائفاً من قدوم الجيش إلى الخيمة رغم أنني أتقمص شخصية عجوز طاعن في السن. يبدو أن من يفكّر بالعفاريت ستخرج له. اقتحم الجيش الخيمة. دخلوها بأسلوب همجي، ركلوا العجوز بأقدامهم وطرحوه أرضاً. نهض بتثاقل، وبأسلوب مهذب سألهم: "هل يمكنني مساعدتكم في شيء؟". صاح الضابط: "أين الشاب المصاب؟". تظاهر أبو العبد أنه لا يفهم مقصده: "أي شاب؟". رمقه الضابط بنظرة حادة، وصاح: "صابر". ابتسم العجوز وببرود أعصاب: "لم أر أحداً مصاباً، ولا أعرف أحداً بهذا الاسم!". سحب الضابط أقسام بندقيته، وبغضب: "أعواننا أكّدوا لنا أنه عندك". تأفف العجوز، وباستخفاف قال: "الخيمة أمامكم فتشوها، إن رأيتم صابراً فاقتلوه!".

باغتتني نوبة من الألم اجتاحت كتفي، فتأوهت. انتبه أحد الجنود إليّ، همس للضابط. رمق الضابط العجوز بنظرة تعجب، وسأل: "من ذلك العجوز؟". جلس العجوز بجانبي، وأجابه وهو يربت على صدري: "شقيقي"، سأله ثانية بلهجة خشنة: "لماذا يتأوه؟". وقف العجوز، وبمكر: "مصاب بمرض خطير ومعد، أدعو له بالشفاء!". أجفل الضابط وابتعد عني بضع خطوات، وسأل بفضول وخوف: "أيّ مرض؟". تظاهر العجوز بالحزن: "الكوليرا". سمعوا

تلك الكلمة وانصرفوا مذعورين من الخيمة وكأنهم يتسابقون. ضحكت رغم الألم، وضحك العجوز. جلس العجوز بجانبي وتابع وضع الكمادات الباردة على جبيني. شعرت بأني أُثقل كاهله وأعرّضه إلى ما لا يطيق، فطلبت منه مسامحتي. ابتسم ابتسامة دافئة وطلب مني عدم تكرار ذلك. شكرته على إنقاذه المتواصل لحياتي. ابتسم ابتسامة عريضة، واعتذر لي عما قاله لهم بخصوص الكوليرا. استغربت من اعتذاره، وقلت متعجباً: "تنقذني وتعتذر؟ صدقني لو قلت لهم إني مصاب بالإيدز لما غضبت!". قال بتواضع: "كفاك الله شرّه!". صمت قليلاً ثم سألني: "هل لا زال كتفك يؤلمك؟". هززت رأسي مؤكداً. قال مطمئناً: "بعد يومين وستكون على ما يرام".

تذكرت الحانوت، اضطرب قلبي وسألته بخوف: "هل قطعوا التيار الكهربائي؟". تنهد بعمق، وقال: "لا، لم يقطعوه. فكرّ بنفسك الآن". قلت مبتسماً: "ها أنا هنا، تارة أسمعك وأخرى أفصل خيوط الصوف عن بعضها". سأل باستغراب: "خيوط الصوف؟ لا أفهمك!". ابتسمت وقلت: "كلما أصبت بالحمى، أرى نفسي مشغولاً بخيوط صوف متشابكة". ندت منه ضحكة دافئة، وقال ممازحاً: "ومن يدفع لك أجر عملك؟".

كان يحاول جاهداً أن ينسيني الألم إما بمزاحه أو بغنائه، لدرجة أنني شعرت بالخجل من نفسي.

تأخر الوقت كثيراً، وهو لا زال يسهر على راحتي. اضطررت لحبس آهاتي في صدري، وتظاهرت بالقوة والصحة الجيدة كي أدفعه للنوم. لكنه أصرّ على البقاء بجانبي حتى أنام. لم تغمض له عين حتى تظاهرت بالنوم ليخلد في فراشه.

obeikandl.com

في ساعات الفجر الأولى اشتد الألم عليّ، حاولت كبته لكنني لم أستطع، فخرجت مني صيحة عفوية أنادي بها العجوز. نهض مذعوراً، يسألني: "هل من مكروه يا ولدي؟". قلت والألم يعتصرني: "اشتد الألم يا أبي". تنهد بعمق، وقال وهو يتحسس جبيني: "ما تحتاجه هو إبرة مخدرة للألم وأخرى ضد التسمم". سألت بضعف وحيرة: "ومن أين أحضرهما؟". مشى نحو عامود الخيمة. تناول عباءته، وقال: "سأذهب لأحضر الطبيب". قلت متوسلاً: "أرجوك لا تفعل، لا تخاطر في هذا الليل، فالوحوش الآدمية منتشرة في كل مكان". تجاهلني وخرج ليحضر الطبيب مقتحماً حظر التجوال وعتمة الليل. يا له من رجل عنيد! يفعل ما يخطر على باله دون أن يأبه برأي غيره.

بعد ربع ساعة عاد برفقة الطبيب. فحص الطبيب جرحي وأبدى إعجابه بما فعله العجوز، حتى أنه قال مخاطباً العجوز بإعجاب: "يصعب على الطبيب الماهر القيام بما فعلته أيها الحاج". أجابه العجوز بتواضع: "كنا ننتزع الرصاص بخناجرنا وقت الشدائد".

حقنني الطبيب حقنتين، وأعطى العجوز شريطاً من المضاد الحيوي وهمّ بالانصراف. تناول العجوز مبلغاً بسيطاً من المال ليعطي الطبيب أجرته. أبى الطبيب أن يأخذ شيئاً، وقال وهو يطبطب على كتف العجوز: "هم يفدوننا بدمائهم ونحن نقدّم لهم العلاج لا أكثر". تمنى لي الشفاء العاجل وغادر الخيمة.

عاد العجوز وجلس بجانبي يدمدم بكلام لم أفهمه كله، حيث شعرت بنعاس مفاجئ، تارة أسمعه وأخرى تسهو عيني، حتى غرقت في النوم واقتادتني صاحبة

الوجه المجهول إلى عالمها البعيد لتلاطفني وتداعبني وتجود على ملابسي ببقعة لزجة جديدة بعد فراق طويل.

في الصباح استيقظ العجوز مبكراً، صنع لي كوباً من الحليب وأيقظني لتناوله. كنت أشعر بتحسن. شربت كوب الحليب وهممت بمغادرة الخيمة للجلوس أمامها. تذكرت حلمي. توقفت متوتراً، ثم استدرت للجهة المعاكسة. رفعت الملاءة وألقيت نظرة خاطفة على سروالي، فتراجعت عن الفكرة وقد طفح وجهي بالحمرة. استدرت نحو العجوز، ابتسم وسألني مستغرباً: "لماذا نهضت من الفراش؟". قلت بتوتر: "أريد الجلوس أمام الخيمة". قال ناصحاً: "أخشى أن يتعرف أحدهم على شخصيتك". قلت غير مكترث: "كلاهما سجن". اقترب مني وهو ينظر إلى المنطقة المحظورة، وقال: "الصبر من شيم الأبطال". جلست على الفراش وغطيت نفسي بالملاءة، وقلت: "إلى متى سنصبر؟ وإلى متى سيبقى الحال هكذا؟". أجاب ببساطة: "إلى أن يأخذ أصحاب الحق حقوقهم". قلت بنبرة محبطة: "ما نراه حقاً يرونه باطلاً، وما نراه باطلاً يرونه حقاً". تنهد وسأل: "ما الحل في نظرك؟". قلت بتنازل: "أن يتركوا لنا ما احتلوه عام سبعة وستين وتسعمائة وألف". رمقني بنظرة، وقال ساخراً: "وماذا عن أرضي وبيتي؟". لم أعرف ماذا أقول، فآثرت الصمت. نظر إليّ بمودة، وقال: "يبدو حلماً بعيد المنال، لكنه ليس مستحيلاً، كحلمك تماماً". كأنه صعقني بالكهرباء حين قال كحلمي تماماً. لم أعرف ماذا قصد. سألته بفضول عن قصده. ابتسم وأجابني بسؤال: "ألا تريد الاستحمام؟". عرفت أنه قصد تلك الفتاة مجهولة الهوية وأنه عرف أنني كنت برفقتها في الليلة المنصرمة. يا له من عجوز داهية!

(20)

اتّسخ سروالي فتكدرت نفسي، وكي أعيد صفوته سخنت قدراً من الماء واغتسلت رغم إصابتي. خرجت للعجوز وأنا أجفف شعري، ابتسم وعلق ممازحاً: "شاب شديد الخصوبة، كم هي محظوظة عروس المستقبل!". قلت في نفسي: "بالله عليك توقف عن إحراجي". تنهد بحسرة واستطرد قائلاً: "كنت مثلك شديد الخصوبة، رحم الله أيام الشباب!". ابتسمت للعجوز ثم ارتديت ثياب الاحتيال وتمددت على فراشي وهو يتحدث عن شبابه.

فجأة سمعنا صوت امرأة متعب تقول لأخرى: "هيا ادخلي!". توقف العجوز عن الكلام، وأرخى مسامعه باهتمام ليسمع ما يدور خارج الخيمة. أجابت الأخرى بصوت ناعم ناعس: "ادخلي أنت، أريد أن أستمتع قليلاً برؤية هذا المشهد الخلاب". رمقني العجوز بنظرة، وقال متعجباً: "هذا غير معقول!". وما كدت أسأله عن قصده حتى أقبلت امرأة في وسط عمرها، جميلة الملامح، ممتلئة البدن، طويلة القامة، سمراء اللون، سوداء العينين، تلف رأسها بمنديل أسود، وترتدي جلباباً شرعياً أسودَ. دخلت الخيمة وهي تلهث ووجهها يتصبب عرقاً. رآها العجوز، فنهض عن فراشه يفتح ذراعيه والسعادة تملأ قلبه: "فاطمة؟ حبيبتي، كم اشتقت إليك!". عانقها وهو يرحب بها بحرارة شديدة. نظرتْ للعجوز بعينين حزينتين وأجهشت بالبكاء. سألها العجوز بقلق وتوتر عن سبب

obeikandi.com

بكائها، فأجابت والألم يكتسح قلبها: "فقدت زوجي يا أبي!". قلت في نفسي مخمناً: "يبدو أنها ابنته". أجلسها بجانبه، وسألها بقلق شديد: كيف مات زوجك. قالت: إن حجراً سقط على رأسه أثناء عمله فأرداه قتيلاً. حزن العجوز كثيراً لما أصابها وسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته ويدخله فسيح جناته وأن يلهمها الصبر والسلوان.

أردت أن أمنح العجوز بعض الخصوصية مع ابنته. نهضت من فراشي بخفة دون أن ألفت انتباهه ومشيت على رؤوس أصابعي ووقفت أمام الخيمة. رأيت ظهر صاحبة الصوت الناعم والناعس تقف على بعد مترين من الخيمة. تصوب بصرها نحو سفح الجبل المزخرف بأشجار الزيتون والورود البرية، ونسيم الهواء يلاطف شعرها الأشقر الطويل بنعومة. ابتلعت ريقي اضطراباً وتراجعت إلى الخلف قليلاً لأسترق بعض النظرات دون أن أحسسها بوجودي. مشت خطوة إلى الأمام، وهي تضع يدها البيضاء حول عينيها متفحصة المكان. رأت رزمة من ورود النرجس البري، شهقت بفرح ومشت إليها بجسد يتمايل كالغزال واقتطفتها بنعومة. أخذت تشم النرجس وتطلق تنهيدات إعجاب بشذاه. تنهيدات حفرت أخاديد في قلبي وأسرته. وفجأة وقفت واستدارت نحو الخيمة فاهتز قلبي واضطرب لدى رؤيتها. يا لها من فتاة في غاية الجمال والأناقة! بيضاء اللون، زرقاء العينين، كحلاء الجفون، ساجية الطرف، فاترة اللحظ، أسيلة الخد وممشوقة القد. بدت وكأنها عشيقتي المجهولة حتى اعتقدت أنني أحلم. لمحتني تلك الهيفاء فصاحت بصوتها الأنثوي العذب: "جدي!". تكهرب جسدي وعدت إلى فراشي متوتراً. لحظات وإذا الخيمة تضيء بنور جمالها. رآها جدها فقام

إليها وعانقها. قبّلت جبينه وقدَّمت له ضمة النرجس، وقالت: "اقتطفتها من أمام الخيمة". تناول جدها النرجس من يدها وشكرها بابتسامة. وأجلسها بجانبه وهو يقول إنها كبرت وأصبحت عروساً فاتنة الجمال.

شعرت بالإحراج الشديد، إذ إن العجوز انشغل في الحديث مع ابنته وحفيدته ونسيني تماماً. تنحنحت محاولاً لفت انتباهه فلم ينتبه. نهضت من فراشي متعمداً إحداث فوضى وتظاهرت بالسعال. انتبه لي وصاح بعفوية: "إلى أين أنت ذاهب؟". قلت محرجاً: "سأمنحك بعض الخصوصية مع الأخوات". ابتسم وقال معتذراً: "لا تؤاخذني، نسيت أن أعرِّفك على ضيوفي. هذه ابنتي فاطمة، وهذه حفيدتي دلال". هززت رأسي مرحبا بهما، وفي الوقت ذاته متسائلاً ماذا سيحل بي، أين سأبيت؟ قطع تفكيري نظرات دلال وتعليقها: "مَن هذا العجوز؟". أجابها جدها: "إنه صديقي". ضحكت، وقالت بصوت خافت: "شكله غريب". رمقها جدها بنظرة تدعوها للاعتذار. اعتذرت وهي تبتسم. وفي محاولة من العجوز لكف شرها عني، بادر ابنته بالسؤال: "كيف دخلتم المخيم؟". أخبرته أنها سلكت طريق الجبل بعد أن علمت أن المخيم يخضع لنظام حظر التجوال.

كان العجوز منشغلاً بالحديث مع ابنته وأنا منشغل باختلاس بعض النظرات الحذرة، أتصفح فيها تقاسيم وجه دلال الجميل. أعجبت بجمالها ورقتها، رغم أن ثيابها المتحضرة لم ترق لي. أمسكت بي وأنا أحدق بها، ضحكت ثم سألتني باستغراب لماذا أنظر إليها بتلك الطريقة. شعرت بالحرج الشديد، فتظاهرت بأنني لم أسمع ما قالت. كررت سؤالها بصوت مرتفع، فأجابها جدها

obeikandi.com

بسؤال أنقذني فيه من مأزق أقحمت نفسي به بغباوة: "دعكِ من صديقي، وأخبريني لماذا ترتدين هذه الثياب الممزقة". ضحكت ضحكة مجلجلة، وقالت: "ممزقة؟ إنها الموضة يا جدي". علق ساخراً: "أية موضة هذه؟ ظننت أنها تمزقت في طريقك إليّ". قامت وطوقت عنق جدها بذراعيها، وقالت: "الحضارة تتطلب التحضُّر يا جدي". أجابها باستياء: "إن كانت الحضارة فضح عوراتنا فليلعنها الله من حضارة". أفلتت عنقه وجلست بجواره وسألت باستهجان: "لماذا تسب الحضارة يا جدّي؟". أجابها بنبرة غاضبة: "سأسبها ليلاً ونهاراً، لأنها حضارة زائفة وتافهة". علقت مستغربة رأيه: "زائفة؟ وتافهة؟ أتسب حضارة الحاسوب؟". أجابها باستهزاء: "وأسبك أنت". رمقتني بنظرة، وقالت: "وما رأي صديقك؟".

غصصت بريقي محرجاً، توترت، خجلت، عقد لساني تماماً. ضحكت دلال بطريقة أشعرتني أنها تستخف بي. قلت في قرارة نفسي: "ويحك أيتها الجميلة، فأنا خريج جامعي وأستطيع أن أتحدث بلباقة، لولا جمالك أسر لساني لقلت الكثير". دفعني جدها للحديث، قائلاً: "تحدث يا صديقي وإلا اعتقدت أنك جاهل". تنحنحت وقلت بتوتر: "الحضارة ليست ثوباً بلا أكمام، أو شعراً مصبوغاً بعدة ألوان. ليست تنوره طولها شبرين، ولا بلوزة ضيقة تعري النهدين. هذا هو التقليد الأعمى للغرب. أنت يا آنستي، نسيت الجوهر وعظمة المظهر. جعلت المظهر سلطاناً يهيمن عليك". أبدى العجوز وفاطمة إعجابها بما قلت. أمّا دلال فرأيتها تنظر إلي بتجهُّم وكراهية. تحتقرني بنظراتها الثاقبة. شعرت أن وجهي تقلص وأن لحيتي الزائفة كادت أن تسقط عن وجهي.

آه يا أبي! رغم أنها فتاة جميلة وناعمة إلا أنها تمتلك نظرات كافية ليستكين لها أزعم الرجال. لم أعرف ماذا أقول لها وكيف أكسب ودها. لم يكن أمامي سوى الاعتذار. اعتذرت لها فلم تعرني أي جانب من الاهتمام. تجاهلتني تماماً وبادرت جدّها بسؤال مغيّرة مجرى الكلام، سألته بلهجة برجوازية: "هل سنقيم في هذه الخيمة؟". أجاب جدها مستغرباً سؤالها: "طبعا في هذه الخيمة...". عبس وجهها الساحر، وقالت محتدّة: "لكن الخيمة لا تليق...". قطب جدها حاجبيه وقاطعها ساخراً: "ألا تعجبك يا آنسة دلال؟". تأففت وقالت مبررة: "لم نعتد على العيش في الخيام". هزّ العجوز رأسه مندهشاً من فظاظتها في الكلام، وقال ناصحاً: "اليوم يوجد خيمة، لكن غداً سيسوء الحال أكثر، وستشتهين ما تتعالين عليه الآن".

قامت دلال تنفخ، ممقوتة مما سمعت: "أنا لا أفهم لماذا تعيش في خيمة والناس حتى الفقراء منهم يعيشون في بيوت. هل هذا زهد أم احتجاج رمزي؟". استشاط جدها غضباً من كلماتها التي هبطت على مسامعه وكأنها خناجر مسمومة: "هذه الخيمة هي هوية كل من شرد من وطنه، وهي رمز صمودنا".

رأيت فاطمة تنظر لدلال بوجه غاضب. تعضّ على شفتها وتشير بعينيها مطالبة إياها الاعتذار إلى جدها. اقتربت دلال من جدها، وقالت محاولة امتصاص غضبه: "جدي! الناس في العالم المتحضر يفكرون الآن في العيش بالفضاء، وأنت لا زلت تعيش في وهم اسمه خيمة". هزّ العجوز رأسه متضايقاً وأشاح بوجهه عنها.

obeikandl.com

شعرت بألم حاد داهم كتفي، فعضضت على شفتي محاولاً كبته. لاحظني العجوز وسألني بدهشة: "هل عاد كتفك يؤلمك؟". قلت بصوت مختنق: "يؤلمني جداً". نهض وتحسس كتفي، وقال متخوفاً: "أخشى أن يكون العظم مكسوراً". قلت وأنا أتأوه: "لم يقل الطبيب ذلك". سألت فاطمة والدها باهتمام: "ما به؟". أجابها: "أصيب برصاصة في كتفه". قلبت كفيها وسألت باستهجان: "كيف يؤذون كهلاً؟". أجابها ببساطة: "العدو لا يفرق بين الشاب والكهل". هرع أبو العبد إلى زير الماء وملأ لي كوباً من الماء، ثم تناول شريط الدواء وأعطاني حبة. زلّ لسانه وقال: "سمِّ الله واشربها يا بني". كانت دلال شديدة الملاحظة، اقتربت من جدها وهمست في أذنه: "هل أنت متأكد أنه عجوز؟". هزّ جدها رأسه: "متأكد جداً". رمقتني بنظرة، وقالت بصوت مرتفع: "أشك في ذلك". صمت قليلاً ثم استطردت قائلة: "لماذا قلت له يا بني؟!". شدّها جدها من ذراعها، وقال: "تخوننا الكلمات أحياناً". ابتسمت ابتسامة صفراء، وقالت: "ربما!". طلب منها جدها التوقف عن استخدام أساليب المخابرات في استجوابه.

هزّت رأسها بطريقة تنذر بالتحدي. جلست بجانبي ومدّت يدها لتصافحني فمددت يدي وصافحتها. وليتني لم أفعل! أجفلت، انتفضت بشدة حين لمست يدها الناعمة. حاولت أن أفلت يدي لكنها احتبستها ونظرت إليها تتصفحها بدقة. هزّت رأسها ولمعت عيونها الذكية، وقالت: "لا بأس بهذه يد لهذا العجوز!". أرادت أن تثبت لجدها أنها أذكى مما يتصور. مدّت أصابعها الرقيقة على وجهي لترى إن كانت اللحية حقيقة. تكهرب جسدي ثانية، أوَّل مرة في حياتي تلامس يد أنثى وجهي. تفتحت خلايا جسدي وبدأ العرق يجري غزيراً

بارداً من مساماته. نفضت يدها بسرعة وأردت الهرب من جانبها. انقبضت عضلات ساقيّ وما تجرأت على الحركة. نظرتُ إلى جدها بعيون تتمنى لو يمد يده فيبعدها عني.. تمنيت لو ينهرها موبخاً. لكنه لم يكن معي. كان غارقاً بالحديث مع ابنته، وحفيدته غارقة بفضح حقيقتي، تتلذذ بحمرة وجهي وخجلي.

رمقتني بنظرة رقيقة، وسألتني بصوت خافت: "ما اسمك أيها العجوز؟". قلت بارتباك: "صابر، أقصد مشعل". ابتسمت ابتسامة عذبة وأغلقت عيناً وأبقت الأخرى مفتوحة وسألت بلهجة وكأنها كشفتني: "كم عمرك أيها العجوز الشقي؟". قلت بتوتر: "كثير، كثير جداً"

نظرتُ إلى أبي العبد وتنحنحت بقوة قاصداً إياه التدخل، رآها منشغلة بي، فنهض من مكانه وأمسك بيدها وأجلسها بجانبه دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

طلب من ابنته فاطمة أن تصنع لنا إبريقاً من القهوة. نهضت فاطمة لتصنع القهوة وقام هو لتأدية الصلاة.

أما دلال فراحت تلاحقني بنظراتها الذكية، تتصفح وجهي وتهز رأسها وكأنها تقول لي كشفت أمرك فلا تعبث معي. تمنيت أن ينهي العجوز صلاته بسرعة، ليحجب نظراتها الثاقبة عني. وأخيرًا- وبعد أن ذبت كما يذوب الثلج حين تلامسه عين الشمس- أنهى العجوز صلاته وجلس في مكانه وهو ينظر إليّ ويبتسم.

خطرت على بالي فكرة الذهاب إلى الحانوت لجلب بعض اللحم وبعض الخضراوات لتضييفهم. قمت وهمست في أذنه: "أريد أن أذهب للحانوت لنكرم

obeikandi.com

الضيوف". رفض فكرتي وطلب مني ألا أتحرك من مكاني. همست كاذباً: "لم يعد كتفي يؤلمني، أرجوك دعني أذهب". لم يصدقني، أصرّ على أن أبقى في الخيمة.

انتظرت قليلاً حتى رأيته منشغلاً مع دلال. انتهزت فرصة انشغاله، وغادرت الخيمة متجها نحو الحانوت. لم يغب وجه دلال المشرق لحظة واحدة عن ذهني، ولا أنكر أنها قلبت كياني رأساً على عقب، أحيتني من جديد، أعادت إليّ روحي وجعلتني أحلم طوال الطريق المعبدة بالمخاطر بأحلام وردية مضيئة وبهيّة. أحلم بالحب وعيون الأشرار تملأ شوارع المخيم وتترقب بمنظارها كل شيء. أحلم بالحياة، ورصاصهم الغادر قد يفاجئني في أية لحظة ويلغي اسمي عن الوجود. وفجأة ودون أن أحس بالمسافة التي قطعتها وجدت نفسي أقف أمام باب الحانوت. ابتسمت وفتحت الحانوت تناولت منه كيساً من اللحم، وبعض الخضراوات.

في الطريق التقيت بمجموعة من الجنود المشاة يتجولون في الشوارع. رأوني فصاحوا عبر مكبر الصوت: "اذهب إلى منزلك أيها العجوز".

تظاهرت بأني أطرش ولم أسمع ما قالوا. أسرعوا إلى ووضع أحدهم مكبر الصوت على مقربة من أذني وصاح: "اذهب إلى بيتك أيها العجوز، ممنوع التجول". شعرت بأنه خرق طبلة أذني، نظرت إليه وصحت بصوت مرتعش: "لماذا تصرخ؟ أنا لست أطرشَ". أشار لي بسبابته طالباً مني الذهاب إلى بيتي، قلت باشمئزاز: "ها أنا ذاهب".

تابعت سيري ووجه دلال ينتصب أمامي، يحوِّل القبيح إلى جميل، الخوف إلى شجاعة، الألم إلى لحظة انتصار. دخلت الخيمة، وضعت ما جلبته على الطاولة.

obeikandi.com

نظر إليّ العجوز وابتسم: "ما كان عليك المخاطرة وأنت بتلك الحالة". قلت له إنني بخير. سألني بفضول: "هل كانوا يصيحون عليك عبر مكبرات الصوت؟". هززت رأسي مؤكداً. سأل بفضول: "هل آذوك؟". قلت له إنهم عاملوني بلطف. هز رأسه، وقال: "فيهم الطيب وفيهم الشرير".

جلست أستمع لحديثهم، بعد برهة نادى العجوز على دلال وطلب منها الجلوس بجانبه، ففعلت. وبصوت مازح سألها: "ما رأيك بهذا العجوز؟". قلت في قرارة نفسي: "هل جاء دورك لتحرجني؟". سألته دلال باستغراب: ماذا تقصد بسؤالك؟، فأجاب ممازحاً: "سأزوجك إياه". قطبت حاجبيها وسألت: "تزوجني عجوزاً؟!". سألها مستفزاً: "وهل يعيب العجوز شيئاً؟". ابتسمت، وقالت: "نعم، هرمه". سكتت قليلاً ثم رمقتني بنظرة خبيثة، وقالت: "لو كان شاباً لوافقت فوراً!".

آه يا أبي! أحببتها كثيراً، وتمنيت زواجها من اللحظة الأولى التي التقيت بها. أردت أن أتقدم لخطبتها، فترددت. أجَّلت الموضوع حتى يمر أربعون يوماً على وفاة والدها، رغم أنني لاحظت أنها غير متأثرة بوفاته. ويبدو أنها لم تكن قريبة منه أو أنها تكتم حزنها بين أضلعها وتتظاهر بالشجاعة.

حقيقة يا أبي! لم أستطع التوقف عن النظر إلى وجهها الجميل، جمالها كاد يقتلني، كنت أستمع إلى حوارها مع جدّها وأتلذذ بكلماتها الذكية.

بينما كنت مستغرقاً بالتفكير بها، اقترب العجوز مني وهمس في أذني: "هل تريد أن أقول لها حقيقتك؟". قلت في نفسي: "ليتك تفعل!"، ثم قلت بليونة: "مثلما تشاء!". سألني مداعباً: "هل أعجبتك؟". هززت رأسي كطفل وديع

obeikandi.com

معرباً له بالإيماء عن إعجابي بها. أردت أن أقول له هي حلمي الذي أرجو من الله أن يحققه، تراجعت بعد أن وصلت الكلمات شفتيّ وكادت تصل مسامعه. تراجعت من خجل لا من خوف.

نهض العجوز وجلس بجانب دلال. همس بأذنها كلمات لم أتمكن من سماعها. تقدَّمت دلال نحوي بخطوات بطيئة، تمشي على رؤوس أصابعها كاللصوص. وقفت أمامي تحارب بصري بجمالها، تبارز قلبي بأنوثتها. رشقتني بنظرة ذكية، حيتني بتحية عسكرية، ابتسمت ابتسامة ملائكية، هزت رأسها بصورة بهية، غمزت بعينها أمسكت بلحيتي وانتزعتها قائلة: "عرفت من يديك أنك لست عجوزاً! ومن عنقك أيضاً". أعادت اللحية مكانها والخجل يتقاسمني، والحب في قلبي يعزف سيمفونيات رومانسية لم يصل إليها أعظم العازفين بعد. أسرتني دلال بكل كلمة، بكل حركة، بكل نظرة، وبكل ابتسامة. أسرتني بعفويتها.

حدثهما العجوز حكايتي. أبدتا إعجابهما بي، حتى أغرقتاني بالإطراء. قمت من مجلسهم بحجة أنني عطشان، تناولت قليلاً من الماء ورشقت وجهي لأطفئ لهيباً أشعلته لحظة حب داهمت قلبي دون موعد أو استئذان.

غرقت يا أبي! ليس في بحر لم أره، ولا ببركة ماء. غرقت في عشق أراهن أنك لا تعرفه. غرقت وأنا لا أجيد السباحة. غرقت في حب دلال. ما أسرع ما يهفو حولها قلبي! وتتساقط عليها روحي! كأنها ورق الصفصاف مع الريح العليل البارد، يشيعها بصري أينما حلت وأينما ارتحلت. يا لطلاقة وجهها! ويا لصفاء قلبها وبراءة لسانها! تمنيتها زوجة، صديقة، حبيبة، تمنيتها من كل قلبي.

obeikandi.com

فضحني وجهي الغارق في حبها. لاحظ العجوز توتري وضعفي. ناداني وأجلسني بجانبه وجسدي يرتعش من حرارة من نوع آخر.

عادت دلال لتحتج على سكنها في الخيمة. كنت مقدراً وضعها جيداً، فهي فتاة في ريعان شبابها، تبحث عن خصوصية لا يمكن إيجادها في خيمة عارية، ومن حقها أن تحلم بمعيشة أفضل من تلك المعروضة عليها.

اختلجني شعور اقشعر جسدي منه، أحسست أنها تمقتني، وأن عدم وجودي ربما يحل مشكلتها. اقترحت على العجوز أن أغادر الخيمة وأنام في الحانوت. رفض العجوز اقتراحي، وقال إنه سيقسم الخيمة بملاءة. لم يرقني قراره ليس كرهاً في البقاء، لكن احتراماً مني وتفهما للوضع الجديد، مهما يكن فأنا غريب. اقترحت أن نستأجر منزلاً في المخيم. نال الاقتراح إعجابهما، ولم يقبل به العجوز في بادئ الأمر. ألحَّت دلال عليه إلحاحاً شديداً حتى ظفرت بموافقته.

لم يكن أمام فاطمة وابنتها سوى العودة إلى الفندق لجلب أمتعتهما. ذهبتا عبر الجبل، رغماً عن إرادة العجوز الذي نصحهما بالانتظار حتى رفع حظر التجوال. تمنيت لو أن صحتي جيدة، لرافقتهما.

فاتحتُ العجوز فترة غيابهما برغبتي في الزواج من حفيدته. لم يتردد لحظة واحدة في الموافقة كزوج لحفيدته، لكنه أراد أن يعرف رأيها، فالقرار النهائي قرارها.

ظللنا ننتظرهما بفارغ الصبر، حتى عادتا تلهثان من قطع المسافات الطويلة بين الجبال والأودية. دخلتا الخيمة ووضعتا حقائب الأمتعة على الأرض وارتمتا على الفراش متهالكتين.

obeikandi.com

أمضينا أسبوعاً نقبع تحت نظام حظر التجوال، كنت خلاله أسرع إلى الحانوت بشخصية العجوز وأبيع الناس حتى نفذت اللحوم والخضراوات كلياً.

رُفع نظام حظر التجوال. شرعت أبحث عن منزل للأجرة حتى وجدت شقة تتكون من أربع غرف ومطبخ وصالة. اصطحبتهم لرؤيتها، نالت إعجابهم فاستأجرتها على الفور. شرعنا بهدم الخيمة لننقلها وننقل الأمتعة البسيطة لمنزلنا الجديد. كنا نشعر بالسعادة إلا العجوز. رأيت الدموع تتلألأ في عينيه وهو يطوي خيمته. تألم من ترك البقعة التي عاش بها عدة سنوات. ضغطت كتفه بمودة، وشبكت يدي بيده، وانتقلنا إلى منزلنا الجديد.

في الطريق أمسكت دلال وهي تنظر إليَّ وتضحك بصمت. سألتها عما يضحكها وبصوت رقيق علقت: "تبدو كهلاً!". سألتها مستفسراً: "أهذا ما يضحكك؟". ابتسمت ابتسامة عذبة، وقالت: "أليس مظهرك هذا كاف للضحك؟". قلت وقد ذاب قلبي عشقاً: "ما دام مظهري يضحكك فأنا سعيد". ارتسمت ابتسامة دافئة على سرائر وجهها البريء، وتابعت سيرها تمشي برشاقة غزال يحرق قلوب الصيادين. كنت أخشى عليها من الحسد، فرحت أقرأ عليها المعوذتين. لاحظتني أتمتم فسألتني بفضول: "هل تتحدَّث مع نفسك كثيراً؟". قلت محرجاً: "أقرأ عليك المعوذتين". سألتني بدهشة: لماذا تفعل ذلك؟ قلت: لأني أخشى عليك من العيون الحاسدة. ابتسمت، وقالت: "عجوز شقي".

وأخيراً وصلنا منزلنا الجديد الذي كان يخلو من الأثاث. فكرت بشراء أربعة أسرَّة، وخزانة، وطاولة طعام. لم تبت الفكرة في ذهني، ذهبت إلى المدينة

obeikandi.com

واشتريت الأثاث اللازم. سرّ الجميع بما فعلت إلا العجوز، قال معاتباً: "يا ولدي لا ترهق جيبك كثيراً". قلت له: لا داعي للقلق ما دامت النقود متوفرة.

نظرت إلى دلال فرأيتها مستغرقة بالتفكير، سألتها عمّا يشغل ذهنها، رفضت أن تخبرني. ألححت عليها، فقالت بصوت خافت لم يسمعه غيري: "اشتقت للتلفاز". ابتسمت وقلت متحمساً: "سأشتريه لك الآن". مدت يدها على جيبها وأخرجت مبلغاً من النقود، وقالت: "هاك النقود، اشتريه". دفعت يدها، وقلت باستياء: "ابقي نقودك معك، سأشتريه بنقودي". رمقتني بنظرة، وسألت باستهجان: "بمناسبة ماذا تصرف علينا؟".

سألتني ذلك السؤال، ويا ليتها لم تفعل. احمرَّ وجهي كثيراً، ولم أعرف كيف أجيبها، وبمحاولة بائسة لتغيير مجرى الكلام، سألتها عن عمرها، فأجابت باستغراب: "عشرون عاماً، لماذا تسأل؟". قلت محرجاً: "فضول، ليس أكثر!". سألتني نفس السؤال، فأخبرتها أن عمري ثمانية وعشرون. سألتني: لماذا لم تتزوج؟ قلت لها: أسباب كثيرة منعتني من الزواج. أصرّت على معرفة تلك الأسباب، فقلت لها: إنني لم أجد فتاة أحلامي بعد، رغم أنها كانت تقف أمامي.

كلما مر يوم ازداد حبي لها أكثر، أصبحت ركيزة وجودي، أصبحت كل شيء في حياتي. هي الوحيدة التي جعلتني ابتسم.

آه يا أبي! هل تعرف الحب؟ هل تزوجت أمي بعد قصة حب؟ أراهن أنك تزوجتها دون أن تعرف شكلها إلا قبل الدُّخلة. أسمعك تتساءل: ما هو الحب؟ لا ألومك فأنت لم تقع يوماً في براثنه. أنا عرفت الحب، تذوقته وعشقت طعمه، ويا له من مذاق! تسلل إلى قلبي خفية، أخذته أسيراً وجعلني مجنوناً. جنوناً من

نوع آخر. صدماته تختلف، فيها لذة ولوعة. أُجنّ إذا غاب عني وجهها، ويضطرب قلبي ويخفق بسرعة إذا أقبلت إليّ تبتسم. ابتسامتها تسكرني بلا خمر، تنعشني، تذيب أحزاني، تحولّ ضعفي إلى قوة. منذ رأيتها أول مرة همس قلبي إلي، أخبرني أنه يشتهي صحبتها ولا بد من رفيقة الحياة. لم أعرف ماذا يحدث لي. بات طيفها يلاحقني، أينما ذهبت. أراها أمامي تبتسم وكأني في حلم. تساءلت في نفسي: هل الحب لذة أم ألم؟! يسهر قلبي الليل ولا يدعني أنام، يتعذب ويعذبني معه ومن الصعب النسيان، أسمع رنين آلامه ليل نهار. إنه شرارة من نار جهنم تحرق من تلامسه. قتلتني تلك الجميلة وأنا أحبها، أشعلت في قلبي نيران حبها، ماذا يحدث لي؟! أيّ سحر وضعته في قلبي كدت أحترق؟ تلك الهيفاء سألتني كيف يمكن للقلب أن يُؤسر؟ قلبي مرهون لديها ورهين الحب يا دلال، على العذاب مجبر. حرارة الحب تذيب الصخر، لو عانقتني سوف أحترق. أقسم سأحترق...

آه يا أبي! أعرفت ما هو الحب؟ هو زهرة وجمرة، سلام وعاصفة، دموع وابتسامات. هو الشبع بعد الجوع، والري بعد الظمأ. هو النوم بعد السهر، والعافية بعد السقم. هو وصول الغائب وهداية الضال وانقشاع الظلام. هو بشر الليل بصبح صادق، وبِشْر المهموم بفرح مفاجئ. هو البسمة بعد الدمعة، والأمن بعد الخوف، هو السكينة بعد الفزع. أحسست أن الحبل الذي اشتد على عنقي سينقطع، وأن وراء امتداد الصحراء رياضاً خضراء وارفة الظلال. كان عليّ الانتظار، والتحلي بقليل من الصبر.

انتظرت بفارغ الصبر مرور الأربعين يوماً على وفاة والدها. كنت أعدُّ الأيام واحداً تلو الآخر. كلما انقضى يوم كانت فرحتي تزداد وخوفي من عدم موافقتها يزداد أكثر. انقضت المدة، وجاءت لحظة الفصل. طلبت من جدها مفاتحتها بالموضوع. تفهّم لوعتي فناداها وأجلسها بجانبه طالباً مني الانصراف إلى حجرتي.

هرولت إلى حجرتي بقدمين غير ثابتتين، وقلب يرقب الخبر باستسلام. غلبني ضعفي فألصقت أذني على الباب أسترق السمع، ليس لسوء في أخلاقي، وإنما فضول لمعرفة رأيها. فسعادتي كل سعادتي مرهونة بكلمة منها، كلمة من ستة حروف لا أكثر.

ابتدأ جدها حديثه بالكلام عن شباب اليوم وهمومهم التي لا حصر لها. قال:

يحزّ بنفسي أن أرى شباب هذا العصر تائهين في غياهب الكون. يزرعون فلا يحصدون. يتعلمون فلا يُعلِّمون. يعانون من آباء متسلطين، يحرمونهم من حقهم في الاختيار، ومن بطالة مخيفة تثبط عزيمتهم وتجعلهم مجرد دمى تسير في شوارع الزمن بلا هدف، ومن مهور تعسفية تحرم البنت من حقها بالارتباط بالشاب الذي تريد، وبالتالي يضيع صيد شبابنا في الفحشاء. ناهيك عن العذاب اليومي الذي يسببه لهم الاحتلال من اعتقال، ونفي، وضرب وإهانة وقتل.

لم تفهم دلال سبب مقدمة جدّها المطولة، سألته ماذا يريد أن يقول، هل يريدها أن ترتدي اللباس الشرعي؟ أو يريدها أن تتذكر أن شبابنا بائسون؟ ابتسم أبو العبد، وقال:

اللباس الشرعي ينطوي تحت عنوان الحرية الشخصية كاختيار الدين تماماً. صحيح أن الله أمر المرأة بالاحتشام ووضَّح لها الأسباب، إلا أنه لا يجبر أحداً على اعتناق هذا الدين أو تنفيذ أحكامه: (لا إكراه في الدين)، وليس هذا ما قصدته من مقدمتي.

يبدو أن صبر دلال قد فرغ. سمعتها تسأله ممازحة: "هل قرأت كتاب فلسفة وتريد أن تعطيني خلاصته، أرجوك ادخل في الموضوع، فأنا فتاة أعيش في زمن السرعة". انطلقت من جدها ضحكة، وقال:

"صحيح أنه زمن السرعة، لكن سبب سرعته أن من يحركه نسي أن يركّب له فرامل، فصار مثل قاطرة دامية؛ تصدم كل من يقف أمامها، تُحطِّم البنيان، وتقتل الأرواح، وتدوس الزرع، فتسببت في مآتم كثيرة، وجوَّعت أمعاء كثيرة، وشردت أناساً كثيرين وكل ذنبهم أنهم لم يقدروا على وقف تلك القاطرة. هذا هو زمن السرعة الذي تتباهين به. دمّرنا ولا زلنا نتباهى به."

نظرتُ من ثقب الباب لأرى كيف ستكون ردة فعلها. مدت يدها على جبين جدّها، وقالت مداعبة: "غريب، حرارتك ليست مرتفعة". لطمها على يدها ممازحاً، وقال:

"وهذا أيضاً من حصاد زمن السرعة، أن تتطاول الحفيدة على جدها. ويضرب الابن أمه، ويخون الصديق صديقه، ويصير الطيب في نظر العامة أهبل، والأهبل شجاعاً، وينظر للشجاع على أنه متهور وهكذا. أتدرين، في زمني أنا أو ما تسمينه أنت وأتباعك زمن السلحفاة، كان الوضع يختلف تماماً. كنا فقراء،

وغير متعلمين. نعيش في الخيام أو في أكواخ من القش، نلبس ثياباً يخجل أتباعك منها. قصاصات من جلود البقر أو الأغنام. إلا أننا كنا نتمتع بمعنى الحياة.

نحمل في خلجات صدورنا قيماً لا قيمة لها في زمنكم هذا. كنا نحترم آباءنا ونتفانى من أجلهم. كنا كمجموعة نشطة كالنحل ندور في فلكهم، مسخّرين لخدمتهم وتنفيذ رغباتهم ليس لأنه قدرنا، بل لأن آباءنا جديرون بذلك. لم نكن نسمع عن ابن يضرب والديه أو يقتلهما وهما نائمان، ولا عن أب يغتصب ابنته، ولا صديق يخون صديقه، ولم نكن نرى مشرداً يعيش بين القاذورات ويأكل منها، ولا أحد ينام جائعاً وجاره شبعان. أما اليوم وفي زمنكم السريع، فعشت ورأيت العجب. تأكلون ولا تشبعون، تتعلمون مالا ينفعكم، تدعون فلا يستجاب لكم. بماذا تتفاخرين؟ بعيونكم التي لا تدمع؟ أو بقلوبكم التي لا تخشع؟ أو بعلمكم الذي لا ينفع؟

أنتم البؤساء في حقيقة الأمر وليس نحن. حتى أن الأمراض استشرت بكم. أمراض لم نكن نسمع عنها أبداً: سكري، إيدز، زهري، سرطان...".

رأيتها تصغي إلى جدّها باهتمام شديد، وتهزّ رأسها مؤيدة. أما أنا فقد ابتدأ قلبي يغلي. فرغ صبري، تمنيت أن يشرح صدري ويسألها ليعفيني من كدر الخاطر وضيق الصدر. ابتدأت أشعر بالخوف الشديد من الرفض وفي الوقت ذاته أحسست أن جدها يقوم بمناورة كلامية لتحقيق غاية ما. لم أعرف ما غايته من كل ما قاله حتى اللحظة. تعبت من الوقوف وراء الباب، تارة أسترق السمع وأخرى النظر. شعرت أن مقدمة أبي العبد ستطول، تناولت كرسياً وجلست لمتابعة ما لا يرضي الله.

سمعت دلال تسأله: "هل هذا الموضوع الذي أجلستني من أجله؟". أجاب جدّها: "ونسيت أن أخبرك أنكم جيل لا يعرف الصبر". احتدت دلال: "أخطأت في هذا، لا أظن أن هناك من صبر صبرنا حتى أيوب". قاطعها جدّها: "لا تقارني صبرك بصبر أيوب عليه السلام". قالت: "هل عانى أيوب مرارة الاحتلال؟ هل حرم من حريته؟ هل خضع للتفتيش عشرات المرات في اليوم؟ هل كان يغادر منزله غير واثقٍ من عودته؟ وهل حرم من رؤية البحر؟ هل كان ينام خائفاً؟ هل وهل وهل؟". قاطعها أبو العبد: "ابتلاه الله بجسده و...". قاطعته: "وابتلانا الله بأسوأ من ذلك. ابتلانا بأرواحنا، ببيوتنا، بزرعنا، بأرضنا. حتى في المشي فمن منا يجرؤ على المشي دون التلفت يميناً ويساراً؟ من منا يستطيع أن ينام دون أن يغمض عيناً ويبقي الأخرى مفتوحة؟ هل عرف أيوب معنى الخوف؟"...

وفي محاولة من جدها لتغير مجرى الكلام: "هذا ليس موضوعنا. هناك شخص ينتظر كلمة منك، وكلمتك ستقلب حياته رأساً على عقب".

ابتدأ قلبي يخفق بسرعة. ابتدأت أتصبب عرقاً.

سألته بدهشة: "كلمة مني أنا؟". أجاب وهو يبتسم: "نعم، منك أنت، هناك شاب طلب يدك للزواج، ولا أظن أنك ستجدين أفضل منه". قاطعته بلهفة: "ومن ذلك المسكين الذي يريد أن يجني على نفسه بالارتباط بي". ضحكت بأعلى صوتها ثم تابعت: "ألم تنصحه بعدم التورط معي؟".

قلت في نفسي: "وما ألذ التورط معك!".

obeikandi.com

أجاب أبو العبد: "نصحته، لكنه يحبك ومصرّ على الزواج بك". ابتسمت، وسألت: "هل هو وسيم؟".. وكأن العجوز كان ينتظر وقوعها في مصيدة هذا السؤال، انتصب واقفاً، وقال: "ونسيت أن أقول لك، إن جيلك لا يهتم بالجوهر، بل يهتم بالمظهر. وهذا سبب شقائكم. على كل حال، أنا لا أعرف مقاييس جمال الرجل عند المرأة".

سألته سؤالاً يشبه سؤاله: "ما هي مقاييس جمال المرأة عند الرجل؟". ضحك، وقال: "مقاييس رجال زمن السلحفاة تختلف عن مقاييس رجال زمن السرعة". سألته باهتمام: "ألا أسمعتني مقاييس الجمال عند رجال السلحفاة؟". أجاب بمودة: "لم أر وجه جدتك إلا ليلة الدخلة". قاطعته: "آسفة على ما سأقول، هذا التخلف بعينه، كيف يرتبط المرء بإنسان لم يره من قبل ولا حتى يحبه؟ لا زلت غير قادرة على فهم ذلك". ضحك، وقال: "قلت لك هذا زمن السلحفاة، ومع ذلك أقوى أنواع الحب يأتي بعد المعاشرة". لم تقتنع بما قال. تذكرت سؤالاً لم يجبها عليه، قالت: "لم تخبرني عن مقاييس الجمال عند رجال السلحفاة". ضحك وعلق: "ونسيت أنكم تتذكرون ما لكم وتنسون ما عليكم، ومع ذلك، هي حلاوة الروح، وطيبة القلب، ونعومة الكلام".

قاطعته بسؤال: "أتريد أن تقنعني أن جمال وجه المرأة وجسدها لم يكونا مهمين عندكم؟". صفن قليلاً: "نعم! جمال الوجه والجسد كانا مهمين، لكن الروح التي تحمل الجسد كانت الأهم، فما فائدة الوجه الجميل والجسد المثير إذا كانت الروح التي تسكنه شريرة؟". احتجت بغضب: "وهل كل امرأة جميلة روحها شريرة؟". أجاب: "لا، لكن أغلبية النساء الجميلات يمتلكن أرواحاً

شريرة ومتعالية ولا ترين منهن سوى الغرور". تجاهلت ما سمعت، وسألته عن العريس الذي تقدم لطلب يدها، قال: " هو رجل حسن الوجه، جميل المحيّا، وثّاب الهمّة، كريم اليد، طيب القلب". سألت بلهفة: "صابر؟". هزّ العجوز رأسه، وقال: "نعم، صابر. ما رأيك به؟".

عاد قلبي يخفق باضطراب من جديد. وضعت يدي على قلبي، وقلت في نفسي: "أرجو أن ترفقي بهذا الرقيق". سكتت برهة، وقالت: "صابر شاب مهذب ومثقف". "قلت بفرح: "ما أروعك!". استطردت قائلة: "لكنه...". قلت في نفسي: "إذا حضرت لكن دمرت ما بعدها". تابعت كلامها: "يفتقد الثقة بنفسه ويخاف المستقبل".

ابتدأ جسدي يرتجف.

قاطعها العجوز: "اختلف معك في مسألة الثقة بالنفس. الإنسان أحياناً يجبر على قبول أشياء مُرّة تتنافى مع شخصيته؛ ليدفع عن نفسه ما هو أكثر شراً ومرارة. لا تنسي أنه شاب يتيم، فقدَ عطف الأم وحنانها، وأمضى طفولته في رعاية أب معاق وتلك الأسباب وغيرها قد تفقد الإنسان أحياناً لذة الحياة والرغبة في العيش أو تجعله مسالماً إلى حد فقدان الشخصية".

قلت في نفسي: "رفقاً يا أبا العبد، فشخصيتي أصلب من الفولاذ".

علّقت دلال:" بصراحة لا أخفيك سراً أنني أشعر بشيء قوي يجذبني إليه".

سقطت دمعة من عيني دون سابق إنذار.

سألها جدها: "إذن موافقة على الزواج منه".

هزت رأسها، وقالت بشجاعة: "موافقة، لكن عليه أن يخلع لباس العجوز ويعيش شبابه كما هو مُقدّر له. هذا شرطي الوحيد". قبّلها جدّها من جبينها، وقال: "ونسيت أن أقول لك إنك حفيدة رائعة وحكيمة". ثم صاح بأعلى صوته: " صابر، أعرف أنك تسترق السمع والنظر من وراء الباب!". شعرت بالحرج الشديد حين قال ذلك. خرجت إليه وجسدي يتصبب عرقاً ويرتجف. رمقني بنظرة وطلب مني أن أغسل وجهي وأعود إليه.

غسلت وجهي بيدين ترتعشان وقلب يرقص فرحاً، ويقول لي: ستحرق الهمّ والغمّ والوسواس وستنفي الأحزان إلى قعر المحيطات، هنيئاً لك يا صابر.

عدت وجلست بجانب العجوز. شدّ ذراعي بمودة وسألني إن كنت موافقاً على شرطها. قلت بحماس: "والله لو طلبت مني لبن العصفور لأمضيت حياتي كلها أبحث عنه حتى أحلبه وأجلبه لها". طفح وجهها بالحمرة، وقالت: "أن تعيش حياتك دون التقمص بشخصية أحلى وأجمل". أطلقت أمها زغاريد الفرحة لتملأ سماء المخيم بالسعادة، قبّلتني من وجنتي، ولأول مرة تقبلني امرأة. باركت لي وتمنت لنا حياة سعيدة.

آه يا أبي! أخيراً أطلّ الصباح بما يحمله من فرج ونصر وبهجة وانقشع الليل البهيم والظلام الداكن. أخيراً جرى الماء في نهري، ودخلت الفرحة قلبي لتغمره بسعادة لطالما انتظرتها وهللت لقدومها بأروع الكلمات. التقيت بشريكة دربي، بحبي الوحيد الذي أنار لي دربي. تحققت سعادتي الكبرى ولم أعد ناقماً ساخطاً أو متمرداً على حظي.

في مساء ذلك اليوم هرولت إلى منزل نضال، واقترضت منه مبلغاً من المال لشراء لوازم العروس من ثياب وذهب وأثاث. أعطاني نضال كل ما أريد وتمنى لنا حياة سعيدة. عدت مسرعاً إلى حبي الخالد. أجلسني العجوز بجانبه، وقال بلهجة جادة: "أبو حجاب طلب عشرة آلاف دينار مهراً لابنته، أما أنا فيكفي أن تدفع لحفيدتي مهراً قيمته تسعة آلاف دينار". تفككت عظامي عن بعضها حين قال ذلك، وابتدأت أتصبب عرقاً من جديد. رآني متوتراً: "كثير؟ سأخفض المهر إلى ثمانية آلاف، ما رأيك؟". قلت في نفسي: "لو بعتني فلن أساوي عُشر ما طلبت". ثم قلت بصوت مسموع مختنق: "كما تشاء، لكن أمهلني عشر سنوات حتى أجمع هذا المهر". كشّر في وجهي، وقال وكأنه يساومني فيما لا أُطيق: "خمسة آلاف وهذا آخر كلام". شعرت فجأة بمغص حاد وتشنج في المعدة، هرعت مسرعاً إلى المرحاض وتقيّأت من شدة التوتر. لم يخطر على بالي أنه سيصْلي قلبي بهكذا مهر.

عدت وذهني لا يزال مشغولاً بالمهر الذي طلبه العجوز. جلست ثانية، قال بنبرة جادة: "كيف تطلب بنات الناس وأنت لا تملك مهورهنّ؟". رأيت عفاريت الدنيا تتقافز أمامي حين قال ذلك. التصق لساني في حلقي. تُهت أتساءل مع نفسي: "ألم يقل حين ذهبنا لخطبة منال أن مهر الكريمة متواضع؟ وكأنه ليس نفس الشخص الذي أعرفه". طلب من دلال ورقة وقلماً، وقال: "علينا أن نكتب الباقي". تناول الورقة والقلم وابتدأ يكتب ويكتب حتى طفح الكيل عندي.

ضممت رأسي بين كفيّ وصرت أنفخ بعفوية. سمعني: "انتهيت. أما بالنسبة للمسائل الأخرى فها قد كتبتها لك، اقرأها جيداً وفكر بالأمر". تناولت الورقة

من يده، رأيتها مطرزة بطلبات لا حصر لها. طلبات لا تحملها الجبال وليس الجمال. رمقته بنظرة: "أعدك إن عشت مثل نوح أن أحقق لك كل هذه الطلبات".

آه يا أبي! أحرق العجوز أعصابي ليعلمني حكمة أفشل كل مرة في تعلّمها. أراد أن يختبر قوة صبري، أن يعلّمني كيف أحاصر سخطي كي لا يدخل الشك في قلبي ويتغلغل فيه، فلعب لعبته تلك. أقسم أني صدّقته. كان جاداً وهو يتكلم.

أدرك أن قلبي أشرف على التوقف.ربت على كتفي: "دلال كريمة، وديننا أكرم. الرسول كان يزوج الرجال والنساء بصاع من القمح أو بآيات قرآنية أو بحلقة معدنية وأنا أزوجك حفيدتي بحلقة معدنية. أخلاقك وطيبة أصلك هو كل ما يهمّنا. وأنا واثق بأنك ستُحسن معاشرتها، وستحافظ عليها، وستحترمها، لكن تعلّم أن تضبط سخطك كي لا تشك بمن تثق!".

لم تسعني الدنيا من الفرحة. قمت وقبّلته بين عينيه. اعتذرت له عن غضبي الذي قادني لسوء الظن به، ثم قلت: "أعرف جيداً أن دلال كريمة، لكن لا أقبل زواجها بحلقة معدنية، بل سأجلب لها كل ما أستطيع".

رفضت دلال أن أجلب لها شيئاً سوى سرير وخزانة. وبعد إلحاح مني وافقوا على الذهاب معي للمدينة لشراء أقل ما يمكن تقديمه.

في صباح اليوم التالي ذهبت برفقة دلال وأمها إلى المدينة. اشترينا ملابس وسلسلة ذهبية متواضعة، وخاتمين وغرفة نوم مستعملة. أتعبتني دلال جداً، فكلما أردت شراء شيء، قالت إنها لا تريد شيئاً إلا حبي.

obeikandi.com

رتبنا كل شيء وحددنا موعد العرس بعد أسبوع. كنا نطمع بحفلة زفاف كغيرنا، لكن، وكما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه= تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. قررنا التخلي عن حفلة الزفاف بسبب الانتفاضة المجيدة وسقوط الشهداء المتواصل. اكتفينا بدعوة الأحبة وتزوجنا بصمت دون استخدام طبل أو مزمار، فالألم الذي يصيب أُسر الشهداء كان يصيب جميع أهل المخيم. الفرحة كانت موحدة، والحزن كذلك الأمر.

تزوجت يا أبي من تلك الفتاة الجميلة، كريمة الأخلاق، حسنة الطباع، طيبة الحسب والنسب.

قبل دخولي عليها، ناداها جدها، أجلسها بجانبه وطلب مني تركهما خمس دقائق. تركتهما ووقفت وراء الباب أسترق السمع كعادتي، سمعته يقول:

"يا بنيتي، يقول رسول الله عليه السلام: "خير النساء من إذا نظر إليها زوجها أسرّته، وإذا أقسم عليها أبرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله". حفيدتي، الحياة صعبة وهمومنا كبيرة وثقيلة. لذلك كوني رفيقة لزوجك، وأماً له. تقاسما معاً هموم الحياة، لا تعانديه فيعاندك، لا تغضبيه فيغضبك هذا ما يأمر به ديننا العظيم ويحثك عليه. حفيدتي، لا تلهثي وراء ما يُسمى الموضة، المرأة الصالحة لا تُظهر محاسنها إلا لزوجها."

انتهى من الحديث مع حفيدته، وناداني قائلاً: "اخرج من وراء الباب أيها اللص، أرى ظلك على الجدار". شعرت بالخجل وهرعت إليه. قلت محاولاً تبرير وقوفي: "أردت فقط أن أستمع إلى نصائحك". ابتسم وكذلك دلال ثم أمسك

بيدي ضغطها، وقال موجهاً بعض النصائح بصوت دافئ: يا بني، سأقول لك ما تمنيت يوماً قوله لولدي لأنك بمثابة ولدي. قبّلت يده، وقلت: "يعلم الله أنك بمثابة والدي". ابتسم، وقال: "هذا ما أحس به، استمع لنصائحي، لعل فيها الخير لك". صمت قليلاً ثم تابع بمودة: "يا بني، لولا معرفتي بك وإيماني بطيبتك لما زوجتك دلال، أعرف أنك لن تمس مشاعرها بأي سوء، وأعرف أنك تحبها بجنون، لكن أُذكِّرك فقط". قاطعته: "سأكون عند حسن ظنك، ولن ترى مني إلا الخير". ربت على كتفي، وقال: "بارك الله فيك". استطرد قائلاً: "أيّ بني، أربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير، والنوم الكثير، والأكل الكثير، والجماع الكثير. وأربعة تهدم البدن: الهم، والحزن، والجوع، والسهر. وأربعة تيّبس الوجه وتذهب ماءه وبهجته: الكذب، والوقاحة، وكثرة السؤال من غير علم، وكثرة الفجور. وأربعة تزيد في ماء الوجه وبهجته: التقوى، والوفاء، والكرم، والمروءة. وأربعة تجلب الرزق: قيام الليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاهد الصدقة، والذكر أول النهار وآخره. وأربعة تمنع الرزق: نوم الصبح، وقلة الصلاة، والكسل، والخيانة".

طبطب على كتفي وأردف قائلاً: "اعقل لسانك إلا في أربع: حق توضحه، وباطل تدحضه، ونعمة تشكرها، وحكمة تظهرها. أرجو منك أن تعمل بهذه النصائح، وتذكّر جيداً بأن لكل منكما حقوقاً وواجبات، ضعوا الله دوماً نصب أعينكم، ولا تتعدوا حدوده فينالكم غضبه. وبارك الله لكما وجمع بينكما بالخير والمودة".

obeikandl.com

أنهى كلامه وعيناه تهطل دموعاً ولم أعرف لماذا بكى. ربما كانت دموع الفرح، أو ربـما تـذكّر أولاده. قبّلـت دلال يـده وشـكرَته عـلى نـصائحه الثمينـة ووعدتـه بتطبيقها ووضعها نصب عينيها. وقمت أنا بمعانقتـه وشـكره عـلى كلماتـه التـي لا زالت تطن في مسامعي حتى اللحظة.

obeikandl.com

(21)

استمعت إلى نصائح أبي العبد القيمة، ودخلت أحمل عروسي إلى حجرتنا للاحتفال بليلة العمر. الليلة التي طالما انتظرتها وحلمت بها مع صاحبة الوجه المجهول. شتان ما بين الحلم والواقع، بين مداعبة صاحبة الوجه المجهول ومداعبة دلال.

أمضيت أسبوعاً مميزاً هو كل عمري. أسبوعاً يعجز الشعراء عن وصف روعته وعذوبته. شعرت أن للحياة مذاقاً خفياً لا يعرفه إلا الأزواج المحبين.. مذاقاً حلواً وطعماً طيباً وخصباً يستحق أن يعيش المرء من أجله وينسى أحزانه وهمومه. أسبوع مرّ بسرعة كبيرة، أمضيناه نداعب ونلاطف بعضنا ونحلم بمستقبل مشرق.

خرجت من عش الزوجية الذي احتبست نفسي فيه طوال الأسبوع، وذهبت إلى المقبرة لزيارة قبرك يا أبي، لأحدثك عن السعادة التي دخلت قلبي بعد طول انتظار.

أثناء سيري بين القبور، رأيت شاباً ملثماً يختبئ بين قبرين متقابلين. حين رآني اقترب من قبرك، أخذ يلوح لي بيده طالباً مني مغادرة المكان. خمّنت أنه ينصب كميناً لشخص ما. توقفت لبرهة أسأله بالإيماء عمّا يريده. لوّح ثانية بيديه طالباً مني مغادرة المكان. أردت العودة إلى البيت، لكن لم يكن بيني وبين ضريحك

obeikandl.com

سوى مسافة متر واحد، الأمر الذي دفعني للتقدم ضارباً تلويح الملثم بعرض الحائط.

وما كدت أجلس بجانب ضريحك وأقرأ سورة الفاتحة حتى رشق الملثم زجاجة حارقة سقطت بين القبور فاشتعلت النار بالأعشاب المنتشرة حولها. قذفها وفرّ هارباً بسرعة الريح. فجأة خرجت مجموعة من الجيش كانت تختبئ بين القبور. أصابني الهلع فقررت الهروب. أخذوا يطلقون النار باتجاهي ويأمرونني بالتوقف والانبطاح على بطني ووضع يديّ وراء ظهري. قلت مخاطباً نفسي بقلق وخوف: "هذه نهايتي، فلا أحد في المقبرة غيري".

انبطحت على بطني منفذاً أوامرهم. لحظات وإذا بهم يقفون فوق رأسي بوجوه غاضبة جداً. ركلوني في خاصرتي وطلبوا مني الوقوف. وقفت وقلت مدافعاً عن نفسي: "أقسم أني لم أفعل شيئاً، الملثم قذف عليكم الزجاجة الحارقة وهرب". صفعني أحدهم وصاح: "رأيناه وهو يهرب، لكنك شريكه أليس كذلك؟". ارتجف قلبي خوفاً من تلك التهمة. أخبرتهم أني لا أعرف من يكون الفاعل، وأنني جئت للمقبرة لزيارة ضريح والدي. لم يقتنعوا، أصرّوا على أني شريك الملثم. أدركت أن دفاعي عن نفسي لا يسمن ولا يغني من جوع فالتزمت الصمت. طلبوا بطاقتي الشخصية لفحصها، أعطيتهم البطاقة، ووقفت انتظر.

تبيّن لهم بأنني مطلوب لهم، وهذا ما زاد الطين بلّة. قال أحدهم: "كنا سنطلق سراحك، لكنّك مطلوب وهذا ما يؤكد لنا أنك شريك الملثم". استغربت أن أكون مطلوباً فأنا شاب مسالم، قلت مدافعاً: "ربما تشابه في الأسماء، فأنا لا أتدخل بالسياسة". لم يأبهوا بما قلت، اقترب أحدهم مني وهو يحمل القيود

الحديدية، أدركت أنهم سيعتقلونني. ضاق صدري، لم أستطع تقبل فكرة السجن والابتعاد عن دلال، لذا دفعت الجندي بقوة ولذت بالفرار أركض بأقصى سرعتي. جنّ جنونهم، وأخذوا يطلقون النار نحوي حتى أصابوني بعيار ناري في ساقي اليسرى. ارتميت على الأرض غير قادر على الوقوف. حاصروني من كل الجهات وهم يصوبون فوهات بنادقهم نحو صدري ورأسي وألقوا القبض عليّ. قيدوني بالسلاسل واقتادوني بمركبة عسكرية إلى سجن رام الله بعد أن أنهكوني ضرباً مبرحاً طوال الطريق المؤدية إلى السجن. رأى الطبيب العسكري ساقي المصابة، فأمرهم بنقلي بسيارة نجمة داوود إلى مستشفى رام الله من أجل تلقي العلاج. تجاهلوا أمر الطبيب ونقلوني بسيارة عسكرية إلى المستشفى.

فور وصولي المستشفى التف الأطباء حولي وألقوا نظرة على الإصابة. قال أحدهم: "علينا أن نجري له عملية جراحية لإخراج الرصاصة وقطب الشريان الذي تمزق". قاموا بتخدير جسدي تخديراً كاملاً وأجروا العملية.

بعد مرور ساعة تقريباً استعدت وعيي. استيقظت فوجدت نفسي في غرفة صغيرة ويدي اليمنى مقيدة بالسرير، وأمام الغرفة يقف ثلاثة جنود مدججين بالأسلحة. ناديت أحد الجنود وطلبت منه أن يفكّ قيدي من أجل التبول. رفض الجندي طلبي، وقال ببرودة أعصاب: "تبوّل على نفسك!". أنحبس البول في مثانتي فصرت أتلّوى من الألم حتى أصبح لون بدني أزرق سماوياً، وانتفخت مثانتي حتى صارت مثل كرة المضرب. رآني أحد الجنود فأقبل مسرعاً. فكّ قيدي واقتادني إلى الحمام وهو يتحدّث معي باللغة العبرية. خمّنت أنه يريدني أن أقضي

حاجتي بسرعة فهززت رأسي بالموافقة. تبوّلت بصعوبة كبيرة وعدت إلى سريري والجندي يسير خلفي بحذر وحيطة.

في منتصف الليل، اقتحم ضابط مخابرات المستشفى، كان برفقته أربعة جنود. وضعوا القيود في يديّ، واعصبوا عينيّ ثم اقتادوني إلى أقبية التحقيق.

وجّه لي موظف المخابرات تهما خطيرة لا تمتّ للحقيقة بصلة. أنكرت التهم، فامتلأ وجهي بالكدمات، وتشوّه صدري بالحروق من لهيب سجائرهم التي كانوا يستمتعون بإطفائها في جسدي. بقيت مصراً على أني بريء من تهمهم الظالمة براءة الذئب من دم يوسف. ازدادوا وحشية، أوزعوني ضرباً موجعاً، ثم جرّوني من قدميّ إلى زنزانة انفرادية، رموني بها وانصرفوا.

كانت أرض الزنزانة تعجّ بالماء القذر، وتفوح منها رائحة البول التي تسللت إلى أنفي وكادت تخنقني. اعتقدت أن تلك الزنزانة هي أسوأ ما يمكن أن يعاقبوني به. لم يكن الأمر كذلك، بل كانت بداية الطريق لرحلة طويلة وشاقة.

في الأيام الخمسة الأولى من الاعتقال، وضعت في زنزانة انفرادية، مظلمة، مكبلاً بالقيود، معصوب العينين أكاد لا أستطيع استنشاق هواء الزنزانة. ذلك الهواء الفاسد، الرطب والمنحصر بين الجدران الملطخة بدماء من عُذّبوا بها قبلي. الغريب في الأمر أنني لم أُطلَب للتحقيق ولم أر أيّ موظف من موظفي المخابرات سوى ذلك الجندي الكوشي الأسود صاحب العينين السوداوين اللامعتين الذي كان يحضر لي الطعام الذي لا يشبع عصفوراً: شريحة خبز جافة وعليها بيضة مقلية.

obeikandi.com

شعرت بالخوف وأخذت أفكر وأتساءل، هل نسيني موظفو المخابرات؟ لماذا لم أُطلب حتى الآن للتحقيق؟ أم هي مجرد لعبة نفسية يقصد بها تحطيم أعصابي؟ في تلك اللحظات البائسة اليائسة خطرت دلال على بالي. جُنّ جنوني، وبدأت أتساءل كالمجنون، ماذا حدث لحبيبتي دلال؟ هل علمت بما حدث لي؟ أفكار غريبة ومرعبة أخذت تصول وتجول في خاطري.

ابتدأت جولات التحقيق تتزاحم أمامي كما وجوه المحققين. أساليب كثيرة وحقيرة، تتنقل بين التعذيب الجسدي والنفسي، بين الترهيب والترغيب، والزنازين المظلمة ذوات الروائح النتنة، والأكياس النتنة التي كانت توضع فوق رأسي لساعات طويلة لتخنقني برائحتها القذرة، إضافة إلى قلة النوم، وسوء التغذية.

في منتصف اليوم السادس، أقبل إلى زنزانتي ضابط وسيم الطلعة، عيناه تلمعان ذكاء وحيوية، فتح بابها وبصوت خافت: عمار؟

- لا، صابر.

- صابر! آه... قضيتك صعبة ومعقدة يا صابر.

- لم أفعل شيئا! أقسم أني بريء...

هزّ رأسه وغادر الزنزانة. بعد قليل جاء ضابط آخر، عريض المنكبين، قوي البنية، أصلع الرأس، يتطاير الشرر من عينيه، فتح الزنزانة بغضب شديد، وأخذ يصرخ بي: أخيراً أُلقي القبض عليك أيها المخرب الكبير، سوف تصبح جيفة في هذه الزنزانة الرطبة.

- أنا بريء، بريء!

- بريء؟!

- أقسم أنني لم أفعل شيئاً. أنا رجل مسالم!

تجاهلني وانصرف. في منتصف الليل سمعت حديثاً للجنود أمام الزنزانة: "صابر خطير جداً، لقد قتل ثلاثة جنود". جن جنوني حين سمعت تلك الكلمات. ارتجفت خوفاً، ورحت أصرخ بأعلى صوتي: "أنا بريء، لم أقتل أحداً! ربما تقصدون شخصاً آخر يحمل نفس الاسم، حدث نفس الشيء مع سعيد في سوريا". تجاهلوا صراخي، وأكملوا حديثهم، يرعبونني بكلماتهم: "خطير"، "قاتل"، "مؤبد".

في ساعة متأخرة من تلك الليلة طُلبت للتحقيق. اقتادوني إلى محقق جديد بيدين مكبلتين وعينين معصوبتين. أوقفوني أمام غرفة التحقيق، وأمروني بالاستدارة نحو الحائط حتى يُؤذن لي بالدخول. ثلاث ساعات وأنا انتظر دون سؤال أو جواب. ثلاث ساعات وأنا أقف على رجل واحدة وأرفع يديّ عالياً وبين الفينة والأخرى أتلقى بعض الركلات واللكمات من الجنود المارة. أخيراً أُذن لي بالدخول. أمر الضابط جنوده بإماطة العصبة عن عينيّ وأمرني بالجلوس.

جلست والغضب يتقاسمني، وبهدوء سألني: ما اسمك؟". قلت ساخراً من نفسي: "سيزيف". سألني باستهجان ماذا قلت، فقلت له باستهزاء: إنني سيزيف هذا العصر، أنا عوقبت بعدم الوصول للسعادة، وهو عوقب بدفع الصخرة إلى أعلى الجبل. كلما كاد يصل القمة تتدحرج الصخرة لتعود إلى نقطة الانطلاق، فيعيد الكرّة من جديد، أمضى حياته على أمل الوصول بها للقمة ليتخلص من عقوبته دون جدوى.

obeikandi.com

ضحك المحقق وكأني قلت ما يُضحك، ثم قال محاولاً إخافتي: إن قضيتك معقدة جداً ربما تُحاكم عليها بالسجن المؤبد مدى الحياة، ووعد بشرفه العسكري أن يُخفف الحكم عني إذا اعترفت بتلك التهم. سألته باستغراب عن تهمتي، فقال محتداً: "تقصد جريمتك". قلت ساخراً: "ما هي جريمتي؟". قال ببساطة وبرود أعصاب: "قتل ثلاثة جنود". قلت منفعلاً ومستغرباً تلك التهمة: "أنا أخاف ذبح دجاجة، فكيف القتل؟". قال باستياء وغضب: إن عنادك لن يفيدك في شيء وأن مصلحتك تتطلب أن تُخبرني بأسماء أعضاء خليتك واسم مسئولك المباشر الذي قام بتنظيمك. انطلقت مني ضحكة هستيرية مجلجلة، وقلت: "عن ماذا تتحدث؟ قد أخبرتك بأني لم أقتل أحداً لا عربياً ولا إسرائيلياً ولا حتى صينياً. أنا أكره سفك الدماء، صدقني، أنا لست بقاتل".

وكأنه لم يستوعب ما قلت، أجاب بثقة: "أخبرني كيف قمت بقتلهم؟ ومن زودك بالأسلحة؟ وأين تدربت؟ على فكره، أنا أعرف عنك كلّ شيء، لكنني أريد سماع الحقيقة منك". قلت بانفعال: " أقسم بكل ما هو مقدس لي ولك بأني لا أعرف عمّا تتحدث". استشاط غضباً، ضرب الطاولة بقبضة يده وصاح: "إذن أنت ترفض الاعتراف، ليكن معلوماً لديك أن لدي ما هو أقوى من عنادك بكثير". أمر جنوده بإكرامي. أكرموني بلكمات وركلات قاسية كانت تصعقني وتطرحني أرضاً. كلما وقفت على قدميّ تلقيت ضربة أخرى. وأخير تذكروا ساقي المصابة فأخذوا يعصرونها ببساطيرهم حتى أفقدوني وعيي.

لدى استيقاظي من الغيبوبة، وجدت نفسي ملقى على سرير في العيادة العسكرية، وتنتصب فوق رأسي فتاة إسرائيلية في غاية الجمال ترتدي زيّ ممرضة.

obeikandi.com

سألتها باستهجان عما أصابني، فقالت إنني فقدت وعيي، وبدأت تنصحني بالاعتراف قائلة بمودة: "لا تضيِّع حياتك في السجن، اعترف وعد لزوجتك". أخبرتها أنني لم أفعل شيئاً، لم تصدقني. أصرت على أنني مجرم يجب أن يلقى العقوبة المناسبة. أدركت حينها أنها محققة في ثوب ممرضة، فتوقّفت عن الكلام. رفعتْ سماعة الهاتف وأخبرت ضابط المخابرات أنني استيقظت من الغيبوبة، وبعد عشر دقائق أقبل جندي منبعج القامة، كريه الدهنة، واقتادني إلى أقبية التحقيق.

أمضيت شهراً بأكمله وأنا أتلقى التعذيب والإهانات. تارة ينزف الدم من أنفي، وأخرى من رأسي وكثيراً ما كنت أفقد وعيي جراء التعذيب الوحشي.

طلبني ضابط المخابرات مرة أخيرة حسب ادعائه. كانت المحققة التي تتقمص شخصية الممرضة تجلس بجانبه وترتدي زيّاً عسكرياً. عندما رأيتها ضحكت ساخراً وبادرتها بالسؤال: "إذن أنت محققة؟". أخذت تتحسس نهديها بطريقة مثيرة محاولة إغرائي، وقالت بنبرة فيها غنج: "ما رأيك بممارسة الجنس معي؟". تذكّرت ما أخبرني به نضال عن أساليب الإسقاط، فعرفت أنها تحاول إسقاطي أخلاقياً لتكون ورقة ضغط لإسقاطي أمنياً. قلت ببرود أعصاب: "أنا مسلم". أخذت تلعق شفتيها بلسانها، وقالت: "وأنا إسرائيلية". قلت موضحاً معنى عبارتي أن الإسلام يُحرِّم الزنا، ضحكت ضحكة صفراء ووصفتني بالمتخلف. انتزعت المومس قميصها العسكري، وجلست في حضن الضابط وأخذت تقبِّله وتلعق لسانه، والضابط يعصر نهديها بأصابعه في محاولة فاشلة

لإثارة غريزتي الجنسية. باء ذلك المشهد الاستعراضي المجاني الساخن بالفشل، إذ لم يحرك ساكناً في جسدي بل أشعرني بالاشمئزاز والتقزز رغم متابعتي الدقيقة له.

تمّ اقتيادي إلى غرفة يقبع وراء قضبانها مجموعة كبيرة من المعتقلين، استقبلوني أحرّ استقبال، قائلين: "أهلا بالمناضل الذي رقص المجد على مسرح بطولاته، أهلا بمن سطر تاريخ فلسطين بهجماته العملاقة، وصعق المحتلين برصاصه". ابتسمت وكدت اصدق أني ذاك العملاق. أقبل أحدهم إليّ وعرَّف نفسه على أنه المخوّل الأمني، أعطاني قطعة صابون معطرة، ومنشفة وطلب مني الاستحمام لأزيل عن جسدي وسخ التحقيق، ففعلت وقلبي يرقص فرحاً.

أمضيت ساعة وأنا أستحم، أذبت كامل قطعة الصابون وأنا أفرك بها رأسي وجسدي حتى تغير لون جلدي وعاد إليه لونه الطبيعي. انتهيت وخرجت لأجد فنجاناً ساخناً من القهوة ينتظرني، احتسيته مع سيجارة قدمها لي المخول الأمني الذي دعا باقي المعتقلين لجلسة تعارف. جلس الجميع في حلقة مستديرة وابتدأ كل واحد يُعرِّف بنفسه وبالتهم الموجهة له. منهم من قال إنه قتل عشرة جنود، وآخر قام بتفجير عبوة ناسفة في مركبة عسكرية، وثالث اقتحم معسكراً للجنود وأطاح بمن فيه، حتى ظننت أنهم أبادوا الجيش الإسرائيلي و لم يعد أحد منهم على قيد الحياة.

جاءني الدور، فطلب مني المخوّل الأمني أن أحدثهم عن بطولاتي العظيمة خارج السجن. ضحكت، وقلت: "لم أفعل شيئاً، اعتقلت بالخطأ". وقف المخول الأمني، وقال: "عليك أن تحدثنا عن نشاطاتك في الخارج وإلا اعتقدنا أنك عميل". ضحكت مرة أخرى وقلت مستغرباً: "قبل قليل كنت بطلاً، والآن

أصبحت عميلاً، من أنتم؟ أخشى أن تكونوا...". فهجم عليّ كالثور الهائج، أمسك بقبة قميصي وبعصبية: "نحن ماذا؟! تكلم!". قلت متوتراً: "اعتقدت أنكم عملاء". وما أن قلتها حتى وجدتهم يقفون أمامي كالأشباح، كل واحد يحمل في يده هراوة لا أعرف أين كانوا يخبئونها. انقضوا عليّ بالهراوات يضربونني بقسوة حتى صحت قائلاً: "أنا آسف، سامحوني".

أشار لهم المخول الأمني بالتوقف عن ضربي، ثم اقترب مني والدم يقطر من أنفي بغزارة، قائلاً: "الحس الأمني مهم جداً، أحييك على التمتع به". أجلسني وأعطاني قطعة قماش قائلاً بمودة: "اضغط بها أنفك حتى يتوقف النزيف". توقف النزيف وأمرني بكتابة تقرير عن نشاطاتي في الخارج حتى يرسلها للمنظمة، وافقت على أمره شريطة أن أقوم بكتابة التقرير داخل الحمام تحسباً من مداهمة الجنود للحجرة. وافق المخول الأمني على ذلك، مشيداً بالحسّ الأمني الذي أتمتع به.

أعطاني ورقة شفافة كبيرة، وقطعة من النايلون وقلماً وقداحة، وقال: "اكتب التقرير وأغلقه بيدك، وما علي إلا أن أخرجه لمنظمة التحرير في أقرب زيارة لمكافأتك". شكرت المخول الأمني بحرارة، ثم هرعت للحمام وقمت بكتابة تقرير مفصل عن كل نشاطاتي في الخارج. أغلقته وأعطيته للمخول الأمني، قائلاً: "أرجوك حافظ عليه، وإلا سأحكم بالمؤبد لو وقع في يد المخابرات". طبطب على كتفي، وقال: "التقرير في يد أمينة، لا تقلق!".

أقبل ممرض في العشرينيات من عمره واقتادني لعيادة السجن بحجة الفحص الطبي. لم يقم الطبيب بفحصي بل سألني بعض الأسئلة التافهة، كم عمري، وهل

أشكو من شيء، وهكذا. طرح الطبيب أسئلته الساذجة وطلب من الجنود مرافقتي إلى السجن. اقتادوني بفظاظة وما كدت أدخل الحجرة حتى أقبل أربعة جنود مدججين بالأسلحة، نادوني، قيدوني، أعصبوا عينيّ، واقتادوني إلى غرفة التحقيق ثانية، لأجد المحقق يحمل الكبسولة في يده يقذفها في الهواء ويلتقطها ثانية في حركة استفزازية. امتقع لون وجهي حين أدركت أن المخول الأمني قد خدعني أو هكذا اعتقد ضابط المخابرات. قام المحقق الغبي عن كرسيه ومشى إلي بخطوات متبجحة وهو يقذف الكبسولة للأعلى ويلقفها. طوقني بذراعه الأيمن وقال بسخرية: "كلكم تنكرون في البداية، لكن سرعان ما تقعون في شباكنا فتعترفوا بكل جرائمكم". قلت متظاهراً بالغباء: "هل كانوا عملاء، يا ويلي!". عاد وجلس خلف مكتبه، تارة ينظر للكبسولة وأخرى ينظر إلي نظرات ساخرة. تنهد الغبي تنهيدة عميقة، عميقة جداً ظنها الانتصار ثم أخذ يفتح الكبسولة رويداً رويداً، طبقة طبقة، قائلاً بسخرية: "دعني أرى اعترافاتك يا بطل.. صديقك المخول الأمني، حبيبك أليس كذلك؟".. وأخيراً تمكن من إزالة النايلون عن التقرير، فتحه ليرى ما فاض به قلمي من مسبات وشتائم ورسومات داعرة للعملاء الصراصير. لم يصدق ما رأى، جن جنونه: "ما هذا؟! ما هذا؟ ما هذا؟". ضرب مكتبه بيده ضربة قوية وصاح بأعلى صوته: "أتسخر مني؟ اللعنة عليك وعلى المخول الأمني الكلب!". قلت ببرود أعصاب: "قلت لك لا شيء عندي، لم أفعل شيئاً".

أراد رجل المخابرات وأعوانه الإيقاع بي، لكنني ومنذ اللحظة الأولى عرفت أنني أقبع في غرفة العار، أو ما يطلق عليها المعتقلين الشرفاء اسماً لا أوافقهم عليه

"غرفة العصافير"، إذ إن العصفور طائر جميل وبريء لا يحق لنا مقارنته بأولئك الأوباش. كان عليهم أن يطلقوا عليها غرفة الصراصير، لأن الصرصور حشرة قذرة وهم كذلك.

دفعت ثمن تقريري غالياً، إذ إنني بخداع المحقق وأعوانه استطعت أن أضع رؤوسهم بالوحل وأن أقلب السحر على الساحر. جن جنون المحقق الغبي وأمر مجموعة من جنوده الأشداء بمهاجمتي وضربي بهراواتهم القاسية. ظلوا يضربونني ضرباً مبرحاً حتى أفقدوني وعيي.

استيقظت بعد مرور عدة ساعات لأجد نفسي مستلقياً في عيادة الطبيب مرة أخرى. اتصل الطبيب برجال المخابرات وأخبرهم أنني قد صحوت. أقبل جندي طويل القامة، كريه النفس، بشع الملامح والقسمات. وضع القيد في يدي وجرني من أذني إلى غرفة التحقيق. نهض المحقق عن كرسيه وأخبرني أنهم قد انتهوا من التحقيق معي وطلب من الجندي اصطحابي إلى السجن المركزي.

قام رجال المخابرات بتلك الخطوة بعد أن أيقنوا أنني لست مجرماً ولا قاتلاً. ومع ذلك احتجزوني وأكدوا لي بأنني سأقدم للمحاكمة والتهمة ضرب أحد الجنود أثناء اعتقالي، مع أنني لم أضرب أحداً. لكن شهادة الجنود ضدي في قاعة المحكمة سوف تكون كافية لإدانتي. قادني ذلك الجندي السمج إلى السجن المركزي حيث يقبع شبابنا الأشاوس. رحبوا بي واستقبلوني أروع استقبال.

كان علي أن أختار أحد الأُطر السياسية حسب قوانين منظمة التحرير داخل السجن، فاخترت حركة فتح. كان السجن جامعة ثورية عظيمة، وليس مقبرة للأحياء كما أخبرني ضابط المخابرات. رأيت الرجل يدخلها أمياً لا يجيد القراءة

ولا الكتابة، وبعد مثابرة ومساعدة من السجناء المتعلمين، يغادر السجن مثقفاً متعلماً.

أحببت أموراً كثيرة وكرهت أخرى. حياتي كموقوف كانت بائسة، لم أكن أعلم شيئاً عن موعد محاكمتي أو عن زوجتي دلال التي شاء القدر أن يبعدني عنها بسرعة دون أن أشبع ناظري برؤيتها. كنت أشعر وكأني في عزلة تامة، رغم تكاثف السجناء وتعاضدهم وبرامجهم الثقافية والأدبية والسياسية والترفيهية التي تجعل المعتقل منشغلاً طوال الوقت. إلا أن الاشتياق للأحبة خارج قضبان السجن بقي يأسرني طوال الوقت.

في أيام الزيارة كنت أستيقظ مبكراً، أقوم بالاغتسال، أغير ملابسي، وأحلق ذقني، مهيئاً نفسي للزيارة، لكن دون أن يأتي أحد لزيارتي، الأمر الذي أشعرني باليأس والتعاسة وهو ما أضعف عزيمتي.

ستة أشهر مضت ولم يأت أحد لزيارتي. كنت أتساءل بجنون، لماذا؟ ما الذي حدث؟ لماذا لم تأت دلال لزيارتي؟ لماذا لم تكلف نفسها حتى بالسؤال عني؟ لم تبادر دلال بزيارتي ولو مرة واحدة في حين كان باقي الشباب ترى أهليهم وذويهم يزورونهم مرة كل أسبوعين. كنت أشاهدهم بعيون متحسرة وقلب بائس متسائلاً لماذا لم يأت أحدهم ويزورني ولو دقيقة واحدة. دقيقة واحدة فقط تطمئنني على أحبتي.

في الشهر السابع من اعتقالي، قدِم ضابط ومعه أربعة جنود غلاظ، قيدوني واقتادوني إلى محكمة رام الله المركزية. أدخلوني في قفص الاتهام، وجلست أنتظر قدوم القاضي الذي سيبِّت في قضيتي. دخل القاضي ومعه مستشاره وسكرتيرته.

obeikandi.com

وقفت احتراماً له ولمن معه، وخلفه مباشرة أقبل المدعي العام وبرفقته ثلاثة جنود.

قبل أن تبدأ جلسة المحكمة سألني القاضي إن كنت قد وكلت محامياً للدفاع عني. أخبرته أنني لم أفعل. سألني إن كنت أود الدفاع عن نفسي أو أرغب في تأجيل القضية حال توكيل محامٍ. لم أعرف ماذا أقول. كرر سؤاله فقلت إنني سأتولى الدفاع عن نفسي. ابتدأ المدعي العام بسرد التُّهم باللغة العبرية. لم أفهم شيئاً مما قاله سوى أن أسلوبه بالكلام وحركاته ونظراته الجافة لي أثناء حديثه كانت توحي بغضبه الشديد. طلبت من القاضي أن يترجم أحدهم ماذا قال المدعي العام حتى أتمكن من الدفاع عن نفسي. تطوّع أحد الحراس الذين يجيدون اللغتين بالترجمة، قال: إن المدعي العام يتهمنك بالاعتداء الجسدي على ثلاثة جنود أثناء تأديتهم واجبهم.

جن جنوني، صحت: "هذا افتراء وكذب!". طلبت من الجندي المترجم أن يخبر المدعي العام أنني لم أعتد أبداً على أحد، لا عربي ولا يهودي. لم يأبه المدعي العام بما قاله الجندي على لساني، بل طلب من القاضي أن يستمع إلى شهادة الجنود. وافق القاضي على ذلك. وقف ثلاثة جنود- لم أرهم إلا في ذلك اليوم- للإدلاء بشهاداتهم. شهد ثلاثتهم ضدي، اتهموني أني ضربتهم ظلماً وبهتاناً أثناء سيرهم في شوارع المخيم. حتى أن أحدهم ادعى أني حاولت خطف بندقيته.

دافعت عن نفسي، فلم يسمعني أحد. صحت فطلبوا مني أن أخرس. قلت هذا ظلم. شدوني وألقوا بي خارج المحكمة. حُكم عليّ سنة ونصف ظلماً وجوراً. شهادة الجنود الكاذبة كانت كافية لردعي وحكمي سنة ونصف دون ذنب أو

جريمة ارتكبتها. حاكموني ونقلوني في سيارة فورد إلى معتقل الظاهرية. كان هذا المعتقل إسطبلاً لخيول الجيش الأردني أثناء تواجدهم في فلسطين.

أمضيت في ذلك المعتقل ثمانية عشر يوماً من أجمل أيام عمري. ثمانية عشر يوماً أمضيتها أضحك. الفضل في ذلك يعود لبعض المعتقلين الذين لا أعرف حتى اللحظة لماذا تم اعتقالهم. رأيت هناك ما لم أحلم به حتى في أسوأ الكوابيس ولو لم أر ذلك بعيني لما صدقت.

التقيت بشاب أخرس حكم لمدة ستة أشهر بتهمة التحريض عبر مكبرات الصوت ضد الدولة الإسرائيلية، وآخر مبتور الأصابع، لا يستطيع أن يمسك بيده شيئاً، حُكم عليه قضاء عامين ونصف بتهمة إلقاء زجاجة حارقة على حافلة إسرائيلية بذات اليد مبتورة الأصابع!، وآخر حكم عامين ونصف العام بتهمة محاولة إسقاط طائرة حربية بمقلاع. التقيت أيضاً بشاب يدعى يوسف، شاب طيب القلب ومضحك للغاية، وله من المقالب ما كان يدفعني للضحك بجنون. لم يترك يوسف أحداً ينج من مقالبه المضحكة. كلما أقبل إلى الغرفة سجين جديد داعبه يوسف بمقلب لطيف. وكل المقالب لا تساوي شيئاً أمام مقلب قام به ضد معتقل جديد.

ذات يوم أحضر الجنود إلى حجرتنا شاباً قروياً طويل القامة، عريض المنكبين، ذا شعر طويل ومتجعد، يفوح منه شذا الثراء، يدعى إبراهيم.

شاب لن أنساه ما حييت، ولا أنكر أنه خفف عني أشياء كثيرة حتى أنه أنساني ومن معي أننا سجناء مر علينا في السجن ثمانية عشر يوماً. فحين دخل هذا الشاب حجرتنا، ألقى علينا التحية باللغة الإنجليزية: "هاي جايز!". ألقاها

obeikandi.com

بأسلوب فيه غنج ونعومة وكأنه فتاة. سمع المعتقلون تحيته وراحوا يتهامسون ويضحكون مستغربين. نظر إليّ يوسف وقال بلهجة ساخرة: "جاءنا معتوه جديد، سيكون لسجننا مذاق آخر".

قلت له إني أعرف ذلك الشاب معرفة سطحية، وإني أستغرب جداً فكرة اعتقاله، فلا ناقة له بالسياسة ولا بعير. شدني يوسف إليه وهمس سؤالاً في أذني: "هل هو لوطي؟". قلت إنه ليس كما يعتقد وإنما هو مجرد شاب ناعم أكثر من اللزوم. هزّ كتفيه غير مقتنعٍ، وقال: "شكله يقول إنه...". توقف وطلب مني أن أناديه لأعرِّفه عليه. مشيت إلى إبراهيم وطرحت عليه السلام. سرّ كثيراً حين رآني، وسألني باهتمام منذ متى وأنا معتقل فأخبرته.

اقتدته إلى يوسف وعرّفته عليه. لم يرق أسلوب إبراهيم الناعم في الكلام ليوسف، ولا حتى شكله. تضايق إبراهيم من أسلوب يوسف الفظّ في الكلام، فأجابه يوسف بغضب: "هذا معتقل للسياسيين وليس للمدنين". أشاح إبراهيم بوجهه، وقال باللغة الفرنسية: "سوفاج!". سأله يوسف ماذا يقصد بتلك الكلمة، فاخبره أنها تعني متوحش. استشاط يوسف غضباً وأسمعه كلمات قاسية. دُست على قدم يوسف وهمست في أذنه طالباً منه أن يتعامل معه بلطف وإلا سيسلم نفسه للإدارة ويصبح عميلاً. اقتنع يوسف بكلامي واعتذر له وجلسنا قليلاً لنتبادل أطراف الكلام.

سمعنا معدة إبراهيم تزأر من الجوع. احمر وجهه وذكر بأنه يتضور جوعاً. أخبرته أن وجبة الغذاء ستأتي بعد ساعة، تأفف، وقال بنعومة: " ربما أموت من الجوع قبل أن تصل وجبة الغذاء". اقترحت عليه أن يأخذ غفوة، وحين يأتي

الطعام سأوقظه. سأل مستغرباً: أين يمكنني النوم؟ قلت باستغراب: "الحجرة واسعة ضع رأسك في أي مكان ونم". لوى فمه وقال: أنا لا أستطيع النوم على فراش رائحته قذرة. أجابه يوسف بانفعال وسخرية: "كان على الجيش إخبارنا أنهم سيعتقلونك حتى نجهز لك سريراً نظيفاً يليق بك". وكأنه لم يسمع ما قاله يوسف، وقف وطلب من الشباب بصوته الناعم أن يسكتوا لمدة ساعة حتى يتمكن من النوم.

رأيت يوسف يعضّ على شفته من القهر، وبطريقة غاضبة وقف وقال مخاطباً المعتقلين– الذين كان عددهم خمسين معتقلاً في غرفة صغيرة لا تتسع لخمسة – مستهزئاً بما قاله إبراهيم: "هدوء تام، فإبراهيم يريد النوم". استغرق المعتقلون بالضحك. وضعت جريدة فوق فراش إبراهيم وقلت له إن الجريدة ستقيه من الجرب. تمدد وغطّ في سبات عميق.

أحضر عمال المطبخ الطعام، فأيقظت إبراهيم ليأكل. نهض يهمهم، تحسس شعره وسرعان ما بدا عليه الغضب الشديد وابتدأ يسب السجن باستياء شديد. سألته ما به، قال إن شعره قد تبعثر بسبب النوم. سمعه يوسف وراح يتمرغ على الأرض من شدة الضحك. انتبه إبراهيم لضحكات يوسف وسألني مستغرباً لماذا يضحك. قلت ممازحاً إن يوسف يعاني أحياناً من نوبات ضحك هستيرية. شدَّني إليه، وهمس في أذني: "أين يوجد مشط ومرآة؟"...

obeikandi.com

قلت وقلبي بال على نفسه من الضحك: "كل واحد له مشطه ومرآته الخاصة. ألم يعطك الضابط مشطاً...؟". قاطعني وأجاب بغضب: "لم يعطني الحقير سوى فرشة متعفنة وملاءة!". قلت مواسياً: "ربما نسي، اطلب من يوسف أن يذكِّر الضابط بهما". اقترب من يوسف، وقال باستياء: "نسي الضابط أن يسلمني مشطاً ومرآة وحتى أنه نسي أن يعطيني فرشاة أسنان، ألا طلبت منه أن يجلبهم لي؟". كان إبراهيم يتكلم ويوسف ينظر إليه باستغراب شديد، غير مصدق أن إبراهيم ساذج لتلك الدرجة، وأنه لا يعرف أن نجوم السماء أقرب للمعتقل من حصوله على مشط أو مرآة أو فرشاة أسنان أو حزام لشد السراويل أو حتى رباط أحذية، لم يكن أمام يوسف سوى الصبر على سذاجة إبراهيم والتماشي معه لحين إدراكه أنه يطلب المستحيل. طبطب يوسف على ظهره وكأنه يلاطف طفلاً رضيعاً، ووعده بأن سيُذكِّر الضابط حين يأتي لحجرتنا بإعطائه ما يريد. قالها واستدار إلى يساره وانطلقت منه ضحكة مجلجلة. نظر إبراهيم إليّ، وقال بسذاجة: "مسكين صاحبك، عادت له نوبة الضحك".

توقّف يوسف عن الضحك واستدار نحوه وسأله إن كان يحب أن يشترك معنا في الطعام. استغرب إبراهيم السؤال وسأله ماذا يقصد بسؤاله. أخبرته أننا نفتّ الخبز مع الحساء والأرز ولحم "البوليبيث" ونخلطه جيداً ثم نأكل. سأل مستغرباً: لماذا تفعلون ذلك. أخبرته بأننا نضطرّ لفعل ذلك بسبب كمية الطعام القليلة. رفض مشاركتنا واصفاً ما نفعله بالشيء المقزز.

ابتدأت لجنة الطعام بتقسيم حصص المعتقلين ووضعها في صواني وبالتالي توزيعها. وضعوا حصة إبراهيم أمامه، جُنَّ جنونه، وقف وقال بلهجة كلها غنج:

"ما هذا القرف، أنا لا آكل هكذا طعام!". طبطب يوسف على كتفه، وطلب منه بسخرية أن يطلب نوعية الطعام الذي يريده دون انفعال.

أخذ إبراهيم يحدق بالسقف مسبلاً عينيه ويسمّي أنواع مأكولات لم نسمع بها من قبل، مأكولات تعرفها الطبقة البرجوازية جيداً. رمقني يوسف بنظرة وسألني مستغرباً إن كنت أعرف تلك المأكولات. أخبرته أني لا أعرفها ولم أسمع بها من قبل. طلب يوسف من إبراهيم أن يكتبها على ورقة ليعطيها للجندي حتى يجلبها له. أخذ إبراهيم الكلام على محمل الجدّ، أخذ يلف على المعتقلين ويسألهم واحداً تلو الآخر عن قلم وورقة ليكتب أسماء المأكولات. وكلما سأل أحدهم انفجر المعتقل ضحكاً، فالأقلام والأوراق ممنوعة وليس من السهل الحصول عليها إلا بطرق ملتوية كأن تُهرَّب مع المعتقلين الذين يعملون في مطبخ السجن مثلاً. استشاط إبراهيم غضباً حين لم يجد معتقلاً بحوزته قلماً أو ورقة، انتفخت أوداجه وأخذ يصيح بغضب: "الله أكبر، ألا يوجد قلم أو ورقة معكم؟ هل كلكم أميّون؟ أملك أكثر من ألف قلم ولو كنت أعرف أنكم لا تملكون واحداً لجلبتها جميعها لكم". أنهى إبراهيم كلامه وأطلق المعتقلون ضحكات مجلجلة. قطب حاجبيه بغباء دون أن يفهم سبب ضحكهم وأخذ يدمدم بكلمات فرنساوية لم يفهمها أحد، وأرجّح أنه كان يشتمنا.

أراد يوسف أن ينكش جمجمته على إبراهيم أكثر، فقال له إنه يملك قلماً. ابتسم إبراهيم، وقال مخاطباً يوسف بتملق: "كنت أعرف أنك المثقف الوحيد هنا، أعطني القلم حتى أكتب لك ما أريد". هزّ يوسف رأسه وهرع إلى ثقب قام بحفره خصيصاً في جدار الحجرة، وأخرج منه قلماً، تناوله وأعطاه لإبراهيم ثم

مزّق له ورقة من علبة السجاير وطلب منه أن يكتب أسماء المأكولات التي يريدها. قطب إبراهيم حاجبيه ولوى فمه حين رأى القلم، وقال ساخراً: "أفقراء أنتم لهذا الحد؟". أخبره يوسف أن القلم الذي لا يعجبه يساوي عند المعتقلين مال قارون. علَّق إبراهيم بنعومة أنثى لبنانية: "غير معقول، هذا القلم لا يساوي جناح ذبابة!". حبس يوسف أنفاسه الغاضبة وطلب منه أن يكتب ما تشتهي نفسه بالقلم المتوفر دون ثرثرة. رمقه إبراهيم بنظرة ظنها جافة، وجلس مسنداً الورقة على ركبته وكتب لائحة بالمأكولات التي يريدها، معتقداً أنه ينزل في فندق خمس نجوم لا في معتقل توقيف مُذل.

جلسنا لنأكل، وقبل أن نتناول اللقمة الأولى سألناه إن كان متأكداً أنه لا يريد حصته في الطعام الذي لم يعجبه. ضحك ضحكة استفزازية وأكد أنه لا يأكل أشياء غريبة. سرّ يوسف بما سمع وهمس لي: "ليته جاء من قبل، لأول مرة سنأكل ونشبع". خلطنا الطعام وشرعنا نأكل وإبراهيم يتمدد على بطنه باسترخاء تام وكأنه يتمدد على شاطئ البحر، يهزّ قدميه وينظر إلينا باشمئزاز ويضحك بصمت.

أراد يوسف أن يستفزّ جوع إبراهيم، راح يأكل ويهمهم، تارة يقول: "ما أشهاها من فتّة"، وأخرى يقول: "أقسم أن مذاقها أشهى من المنسف". ظل يستفز جوعه حتى سال لعابه ولم يستطع الصبر على الجوع أكثر. تظاهرنا أننا لا نرى ريالته تسيل وتابعنا أكلنا بشهية. نهض إبراهيم وصاح بانفعال: "أنتم أنانيون، فليفعل أحدكم شيئاً، أريد أن آكل!".

توقف يوسف عن الأكل، رمقه بنظرة ضجرة وقام نحو الباب وابتدأ يصيح على جندي درزي لطيف، هو الآخر يجب أن يعمل مقالب. أقبل الجندي، غمزه يوسف وطلب منه أن يحضر المأكولات الموجودة في اللائحة لإبراهيم بأسرع وقت ممكن. ابتسم الجندي، وقال: "سأجلبها حالاً، لكن هل يريد شيئاً آخر؟".

نظر يوسف إلى إبراهيم وسأله إن كان يريد شيئاً آخر. قال إنه يريد ما طلب فقط. سأله يوسف مستغرباً: "وماذا عن المشروبات؟".. ضرب إبراهيم جبهته بكف يده، وقال مضطرباً: "كدت أنسى، أريد بيرة، وكوكاكولا، وعصير عنب". هزّ الجندي رأسه وعيناه تضحكان، وقال: "سأجلب لك صندوقاً من كل نوع، كما سأجلب لك مئونة شهر من المأكولات التي طلبتها".

مشى إبراهيم نحو الجندي والغضب يكتسح وجهه: "ما بك يا أخ، لا أريد أن أبقى شهراً هنا". سأله الجندي: "كم يوماً ستبقى هنا؟". صفن إبراهيم قليلاً، وقال: "يومين ليس أكثر"، هزّ الجندي رأسه، وقال: "إذن سأجلب لك مئونة يومين". ابتسم إبراهيم وصافح الجندي بحرارة وشكره بنعومة وطلب منه ألا يتأخر في جلب طعامه ومشروبه. وما كاد الجندي يغادر الحجرة حتى تذكر إبراهيم شيئاً، فصاح: "يا أخ، أرجوك لا تنسى أن تجلب لي مشطًا ومرآة".

ابتسم الجندي، وسأله: "ألم يعطك الضابط؟". أجاب إبراهيم ببراءة طفل: "لم يعطني سوى فرشة متعفنة". علّق الجندي متظاهراً بالجدية: "عار عليه أن يفعل ذلك". كتّف إبراهيم يديه، وقال باستياء: "كان عليه أن يعرف أني ابن أناس محترمين، فيعاملني كما أستحق". فرك الجندي شعره وكأنه يلاطف امرأة: "لا عليك، سأحضر لك مشطاً ومرآة". كان السجناء يضحكون بجنون،

يكتمون أصوات ضحكاتهم بأكفهم خوفاً أن يلاحظهم إبراهيم وينكشف أمر المقلب.

خرج الجندي وعدنا لمتابعة أكل الفتة وبقي إبراهيم يحدق بنا وينتظر حضور الجندي ليجلب له المأكولات التي طلبها. انتهينا من الطعام وجلسنا جلسة تعارف. قام كل معتقل بتعريف نفسه وبلده. وأخيراً جاء الدور لإبراهيم. وقف وعرّف بنفسه وبالقرية التي جاء منها. سأله أحدهم لماذا اعتقل. قال باستياء بأنه وبينما كان يتنزه برفقة صديقته ويتغنى بشجاعته، مرّ جيب عسكري من جانبه. أراد إبراهيم أن يستعرض عضلاته أمام صديقته ليثبت لها أنه لا يخشى أحداً. توقّف في وسط الشارع ووضع يديه على خاصرته في وقفة تحدٍ استفزت الجنود. نزلوا إليه وسألوه لماذا يقف في وسط الشارع ويفعل حركات استفزازية. أجابهم باللغة الإنجليزية أنه حرّ يفعل ما يشاء. لم يحتمل الجيش طول لسانه فقاموا باعتقاله. حدثنا إبراهيم قصة اعتقاله هذه فضحكنا حتى الثمالة وهو أيضاً كان يضحك معنا ولم نفهم سبب ضحكه!

جاء موعد العشاء وإبراهيم لا يزال ينتظر الجندي ويحلم بالمأكولات التي طلبها. تناولنا وجبة العشاء وجاء موعد العدد. كان الجندي اللطيف برفقة الضابط الذي قام بعدِّنا. رأيته ينظر إلى يوسف ويبتسم.

غادر الضابط الحجرة متوجهاً إلى الحجرة المجاورة لعدِّ أفرادها، وبقي الجندي اللطيف بناء على رغبة يوسف. غمزه يوسف وسأله عن طعام إبراهيم، فقال: إنه تأخر لأني كنت مشغولاً في توزيع المؤونة على الأقسام الأخرى. غضب إبراهيم، وقال وهو يكزّ على شفته ويطبل على معدته: "أكاد أموت من الجوع،

قليلاً من الرحمة يا بشر!". ابتسم الجندي وقال: "إذا لم أتمكن من جلب حصتك الليلة، سأجلبها في الصباح". امتقع لون وجه إبراهيم، وقال: "هذا كثير، ربما لا يطلع عليّ الصبح إن لم آكل". ربت يوسف على كتف إبراهيم وطلب منه بأن يثق بالجندي.

خرج الجندي وهو يضحك. اقترب إبراهيم من يوسف، وسأله: "أين "اللو"؟. قطب يوسف حاجبيه وسألني ماذا يقصد باللو، قلت لا أعرف. طلبت من إبراهيم أن يفسر ما يقول، فقال إنه يريد "التواليت"، قلت ليوسف: إنه يسأل عن المرحاض. ابتسم يوسف، وقال: "ابتدأ الجد"، ثم استطرد قائلاً موجهاً الكلام لإبراهيم: "هنا لا يوجد ما قلت". عبس إبراهيم وسأل: "أين يوجد إذن؟، أنا بحاجة". قاطعه يوسف وأشار بسبابته إلى زاوية الحجرة، حيث توجد الملاءة المثبتة بالسقف وتتدلى نحو الأرض. لم يفهم إبراهيم قصد يوسف. تدخلت، وقلت موضحاً: "يوجد وراء الملاءة "جردل"، "الجردل" هو مرحاضنا". أجاب إبراهيم بانفعال: "مستحيل أن أستخدم "الجردل". قال يوسف مستهزئاً: "إذن اعملها على نفسك". جلس إبراهيم وهو ينفخ ويتأفف ويدمدم بكلمات غاضبة، حتى اشتدت حاجته لاستخدام المرحاض ولم يستطع الصبر أكثر، وقف وقال مخاطباً يوسف بحرج: "وماذا عن الرائحة؟". أجاب يوسف ساخراً: "خذ راحتك، نحن لا نشم". هرع راكضاً إلى "الجردل"، رفع الملاءة ثم عاد إلينا وقال: "كيف تستخدمونه؟". أجابه يوسف باستخفاف "سهل جداً، كل ما عليك فعله خلع سروالك والصعود فوق الجردل". هرع إبراهيم مضطرباً يركض باتجاه الجردل. لحظات وإذا بنا نفاجأ بإبراهيم يطير

باتجاهنا، يحمل معه الملاءة والجردل ويسقط في منتصف الحجرة وسرواله معلق في ساقيه.

لم يوازن نفسه جيداً، وقع ودلق الجردل فامتلأت الحجرة بالبراز والروائح النتنة حتى كدنا نختنق. اختلطت مشاعرنا ما بين الضحك والحزن، وإبراهيم مستلق على الأرض بوجه يطفح بالحمرة من الخجل، غير قادر على استيعاب ما جرى معه.

هرعنا إلى الباب نطرقه بشدة حتى جاء الحراس ليروا ما علتنا. رأوا الحجرة فأخرجونا إلى الساحة ننتظر حتى يقوم إبراهيم بتنظيف الحجرة. مكث ساعة وهو ينظفها برفقة شاب تطوع في مساعدته.

بعد أن انتهى من تنظيف الحجرة بالماء والصابون، طلب من الضابط أن يسمح له بالاستحمام، فسمح له. استحم وجاء إلينا ونحن نجلس في الساحة وهو في غاية الحرج. أشفقت عليه، وقلت مواسياً: "لا تفكر بالأمر، ما حدث معك حدث مع كثيرين من قبلك". لم يعلق بل شرع يسب ويلعن الساعة التي أراد أن يستعرض عضلاته أمام صديقته. سألته بفضول: "وما أجبرك على فعل ذلك؟"، قال بصراحة قاصداً صديقته: "اعتقدت الغبية أني شاب ناعم، فأردت أن أثبت لها أني خشن ولا أخاف أحداً". انطلقت من يوسف ضحكة، وقال باستهزاء: "كم هي غبية، لا أكاد أصدق أنها لم تلاحظ خشونتك". قال مؤيداً: "قلت لها ذلك، فلم تصدق".

سمعنا بطنه يزقزق، قال بنبرة غاضبة: "أنا لا أحب ذلك الجندي، لم يحضر لي الطعام حتى الآن". فقد يوسف السيطرة على أعصابه، فصاح به: "هل أنت أحمق

لهذه الدرجة؟ أتظن نفسك في فندق؟ اعقل يا رجل، فأنت في سجن، وسجن الاحتلال يعني الذلّ والحرمان والتخلي عن كل كماليات الحياة الموجودة خارج جدران السجن! ألم تقابل سجيناً من قبل، كي يخبرك أن المشط ممنوع، والمرآة ممنوعة، والأكل الطيب ممنوع، والقلم ممنوع، وكل شيء فيه حياة ممنوع ثم ممنوع". رمقني إبراهيم بنظرة غاضبة، وقال: "كنتم تسخرون مني طوال الوقت؟". شده يوسف من ذراعه، وقال بغيظ: "بل أنت من جعلت نفسك سخرية، أنا لا أصدق أن الجنود أغبياء لهذه الدرجة حتى يعتقلوا واحداً سخيفاً مثلك". أجاب إبراهيم وهو يغنج: "سوفاج!". استفحل الشر في قلب يوسف، رفع يده وأراد أن يصفع إبراهيم، أمسكت بيده وطلبت منه ألا يكون فظاً وقاسياً معه، فما هو إلا شاب مرهف لا يعرف السجن.

في صباح اليوم التالي شعر يوسف بأنه كان قاسياً على إبراهيم. أراد أن يصالحه بأن طلب مني رفعه إلى السقف. رفعت يوسف فوق كتفي إلى السقف وقطع سلكاً من الكهرباء، عمله على شكل مشط، وعبأ كأساً بالماء وهرع إلى إبراهيم وقال بمودة: "صنعت لك مشطاً، ومرآة". رمقه إبراهيم بنظرة جافة، وقال: "هذا لا ينفع". أجابه يوسف بلطف: "جربه أولاً، أما هذا الكأس فهو أفضل مرآة، جربه". جرب إبراهيم المشط ونظر بالمرآة فوجد أنهما يسدان حاجته. ابتسم ابتسامة عريضة وشكر يوسف بحرارة على ما اعتبره بالهدية القيمة.

بعد قليل أحضر عمال المطبخ وجبة الإفطار. رفض إبراهيم أن يأكل، فأكلنا حصته متعمدين. أردنا أن يقرصه الجوع حتى يستوعب أن نوعية الطعام في المعتقلات لا أهمية لها، وأننا نضطر لنأكل أي شيء للبقاء أحياء. أمضى ست

obeikandi.com

ساعات أخرى وهو يتألم من الجوع حتى جاءت وجبة الغداء. صنعنا فتَّتنا وعرضنا على إبراهيم أن يشاركنا. رفض في بادئ الأمر. اقترحت عليه أن يجرب لقمة وبعدها يقرر. سمع كلامي وتناول لقمة، أعجبه المذاق، فأخذ يسابقنا في التهام الطعام لدرجة أنني لم آكل سوى لقمتين ويوسف كذلك الأمر.

في اليوم التالي حدث نفس الشيء، أكل إبراهيم الفتَّة كلها. لم يستطع يوسف أن يحبس غضبه. اقترح علينا أن نضع خطة عند تناول وجبة الغذاء. سألته ما هي خطته، قال: "سنأكل حسب نظام، كل واحد يأكل لقمة بالترتيب". وفعلاً صرنا نأكل بالترتيب وضمن النظام الذي اقترحه يوسف، وهكذا استطعنا أن نأكل بالتساوي دون أن يظلم أحدنا الآخر.

آه يا أبي! لقد تحوّل إبراهيم اللطيف إلى وحش ضار ومفترس. لم يعد ذلك الشاب الناعم، غيّره المعتقل تماماً. ثمانية عشر يوماً كانت كافية لأن تغيره وتجعل منه شاباً خشناً في التصرف والكلام. حقيقة لقد حزنت حين أُطلق سراحه مع أني فرحت بحريته.

بعد إطلاق سراح إبراهيم تم نقلي إلى سجن آخر يقع في صحراء النقب، سجن من الخيام يطلق عليه أنصار ثلاثة. نهاره حار جداً ومخيف حيث العقارب والأفاعي، والعواصف الرملية التي تهب بين الفينة والأخرى فتلوِّث طعامنا، وتغبِّر وجوهنا وأعيننا. ليله بارد جداً وله رهبة حيث الخوف من لدغات الزواحف السامة ونحن نيام وبالتالي الموت.

تعرَّفت هناك على مجموعة طيبة ومثقفة من الشبان، والتقيت ببعض الشبان الذين هم على شاكلة إبراهيم واعتقلوا خطأ. ولولا وجودهم لمت قهراً. الجميل

obeikandl.com

في ذلك المعتقل أنه مقسم إلى أقسام يفصلها أسلاك شائكة، وكل قسم يتكون من أربع وحدات، وكل وحدة تتكون من ثلاث خيام، وكل خيمة تحوي أربعين سجيناً. ترى الخيام منتشرة على طول البصر.

تراها من بعيد فتظن أنها محطات انتظار للمسافرين. أمضيت شهوراً طويلة في تلك المحطة وأنا أجلس القرفصاء على برشي الخشبي متأملاً عالم الوصول والغياب، أناس يصلون وأناس يغادرون. حركة دائمة، وجوه جديدة، مسرورة وعابسة. وما بين الولادة والرحيل، بقيت أنا الثابت الوحيد على ذلك البرش البارد الحار... القسم الذي وضعوني فيه هو قسم للمعتقلين الإداريين، وأغلبهم يمضون أربعة أشهر أو ستة ثم يطلق سراحهم. كنت أنا المحكوم الوحيد في ذلك القسم. اعتدت أن أرى كل صباح اثنين يتعانقان عند تلك الزاوية المعتمة بسبب غبرة الصحراء، وفي مشهد الوداع إذ تراه من بعيد لا تستطيع أن تخمن من منهما يودّع الآخر، إلا عندما تتجه الأقدام مسرعة نحو باب الغياب، والأعين تختطف النظرة الأخيرة من الوجه الذاهب للتلاشي.

من وراء الأسلاك الشائكة ترى أكف المعتقلين الجافة تجاهد، تتحدى شفرات الأسلاك لإرسال التلويحة الأخيرة، وأعين المعتقلين متلهفة لالتقاطها. وإذ تتحرك حافلة الحرية في ميعادها المرسوم، تتناثر وراءها التلويحات المبتورة من كل حدب وصوب مثل شهقة نشوة لم تكتمل. عند الوصول أو المغادرة، ترى أعيناً لا تعرف السكينة، قلقة على ذاهب إلى مصير مجهول، أو متسائلة عن قادم لم يرتسم له بعد ظل معلوم.

اعتدت أن أرى القلق واقفاً على قدمين، كسيجارة تحترق على بُرشات الانتظار، دون باقة زهر تنتظر أكفاً تتناولها بلهفة الوصول. في المنفي المتوحد مع أحزانه، الممنوع من السفر، الذي لا يملك أوراقاً تثبت هويته ولا جواز سفر، أدمنت ممارسة السفر بزيارة المحطات دون أن أخطو خطوة. أبدأ صباحي بأقرب محطة أتصفح من بعيد الوجوه الجديدة، الزوار الجدد. وأنهي يومي بمحطة تبعد عن العيون المسجونة. أشارك المغادر مشاهدة ما وراء الخيام، أتخيلها مستمتعاً بالطرق التي أراها، مطارات وموانئ، منازل وبشر يمشون مسافات أطول من المسافة التي اعتدت عليها لفترة. تمتمات المارة تصل إلى مسمعي، لغات شتى، وفنجان القهوة له مذاق مختلف من محطة إلى أخرى. أكاد أسمع المغادر يتحدث إلى من يجلس بجانبه، يقول له: "اليوم أصبح للمنفي جواز سفر وهوية تحمل صورتي واسمي، لم أعد رقماً يناديه ضابط العدد كل صباح ومساء". يقولها رغم أن عقله لازال يدمن الجلوس في المحطات، مستمتعا ببرودة البرش الخشبي، وبرائحته الممتزجة بعطر الأشجار الهرمة. عندما تتعب ذاكرته من مراجعة ذكرياته في المحطة، يغلق عينيه ويحلم بمن ينتظرونه، يختار زاوية تمكنه من رؤية أحبته، لتسافر مخيلته إلى حياة جديدة لا عدد فيها ولا خوف من العقارب والأفاعي ولا من طحن لقمة مغمسة برمال الصحراء تهلك أسنانه عند مضغها...

ذات ليلة، استيقظت من نومي أصرخ من ألم أصاب ساقي المصابة. أيقظ صراخي كل النيام، استيقظوا مفزوعين معتقدين أن أفعى قد نهشت لحمي.

أخبرتهم أن ساقي تؤلمني بشدة وليس شيء آخر. على الفور هرع ممثل القسم إلى الباب يصيح بأعلى صوته منادياً على الضابط المناوب.

سمع الضابط صياحه فأقبل إليه مسرعاً. أخبره ممثل المعتقل عن علتي، فطلب الضابط منه أن ينقلني إلى عيادة السجن. نقلوني إلى العيادة ليرى الطبيب ما علتي. فحص ساقي فجنّ جنونه. سألته عن سبب قلقه، فقال: "يجب أن تنقل إلى المستشفى فوراً". سألته بخوف عن السبب، فقال: إن ساقي المصابة ستصاب "بالغر غرينا" إذا لم يتم علاجها بسرعة. اضطرب قلبي خوفاً حين سمعت ذلك. تهيأ لي أن ساقي ستبتر. كرهت مجرد التفكير بذلك، وطلبت منه أن ينقذ ساقي. اتصل الطبيب بمدير السجن وأخبره عن وضع ساقي الحرج وضرورة نقلي الفوري إلى المستشفى. لم يتردد مدير السجن بإعطاء الطبيب أمراً بنقلي إلى مستشفى "الرملة" لإجراء العملية اللازمة.

obeikandl.com

(22)

نقلت إلى مستشفى "سافا روفيه" حيث أجري لي فحص طبي شامل. ثم تمّ نقلي إلى الطابق الثاني من مستشفى الرملة وأنا مقيد اليدين ومعصوب العينين. لم يكن المستشفى يحمل اسمه، ولم يكن به سجناء سياسيون فقط، بل سجناء جنائيون إسرائيليون، منهم من أعتقل لأسباب تتعلق بالسرقات، وآخر نتيجة تعامله بالمخدرات وثالث أعتقل نتيجة رفضه تأدية الخدمة العسكرية، ورابع نتيجة اغتصاب زوجته، لكنهم مرضى، كل واحد منهم يعاني من مشكلة صحية ما.

هناك قابلت سبعة معتقلين فلسطينيين كانوا قد اعتقلوا لأسباب سياسية ويعيشون في حالة يرثى لها. منهم من كان مصاباً بعيار ناري، وآخر بمرض السكري والضغط، وهكذا. الذي لفت انتباهي وجود رجل ربما يبلغ خمسة وستين عاماً، له لحية بيضاء طويلة، وعينان سوداوان كانتا تلمعان حزناً وألماً، جميل التكوين، قوي البنية، وسيم الطلعة وقور، حلو الحديث، كثير الصلاة والدعاء والذكر. كان يرتدي جبة بيضاء وعلى رأسه كوفية بدون عقال، كان يشبه العجوز أبا العبد تماماً، لدرجة أنني اعتقدت أنه هو في بادئ الأمر.

obeikandi.com

اقتربت نحو السجناء المرضى وصافحتهم جميعاً ثم جلسنا من أجل التعارف. بقي العجوز مستلقياً فوق سريره بعد أن اعتذر لنا عن الجلوس معنا بطريقة لائقة. عرّفتهم بنفسي وأخبرتهم عن سبب قدومي إلى المستشفى.

بعد ساعة من الزمن جاءت ممرضة سوداء البشرة تدعى "ريتّا" طلبت منا إغلاق النوافذ واستدعتني لمقابلة الطبيب. ذهبت معها ودخلت العيادة. طلب الطبيب مني الجلوس فجلست. سألني بعض الأسئلة الغريبة التي ليس لها علاقة بساقي: "هل كنت تتعاطى المخدرات أو تشرب الكحول؟"، فأجبته بغضب شديد: "لا!". كشف عن ساقي وقرر إجراء عملية جراحية لتنظيفها.

اصطحبني الطبيب ومعه مجموعة من الجنود إلى غرفة العمليات في مستشفى سفا روفيه المجاورة. كنت مقيد اليدين ومعصوب العينين. وصلت المستشفى، وقبل دخولي لغرفة العمليات قام الجنود بإماطة العصبة عن عينيّ وفك القيود. تمددت على سرير العمليات وقلبي يرتجف. أقبلت ممرضة لطيفة وقامت بحقن ساقي بحقنة تخدير موضعي. بعد قليل أقبل الطبيب وهو يضع على فمه كمامة خضراء. قلت في نفسي: "ويلك يا صابر! يبدو الأمر جاداً". ضغط الطبيب الجزء المخدر وسألني إن كنت أحس بشيء. أكّدت له أنني لا أحس بساقي. هزّ رأسه وسحب طاولة متحركة عليها عدة الجراحة. ثم تناول قطعة قماش خضراء مقصوصة من النصف على شكل مستطيل ووضعها على الجزء المصاب. تناول شفرة وشق ساقي. كنت أتألم كثيراً رغم أن الممرضة خدّرتها. استغرقت العملية نصف ساعة تقريباً. نظّف الجزء المتقيح من ساقي وحشاها بفتيلة مبللة باليود ولفها بقطعة شاش. سألته لماذا لم يقم بقطب الجرح، فأخبرني أنه لا يفضل قطبه

obeikandi.com

خوفاً من التهابه أو أن تتقيّح مرة أخرى. جلب لي كرسياً للمقعدين وساعدني في الجلوس عليه ثم أمر الجنود بإعادتي إلى مستشفى الرملة دون قيد أو عصبة.

يا لها من مستشفى غريبة ومحصنة أمنياً بشكل مثير للإعجاب! أبوابها السميكة والثقيلة تفتح وتغلق عبر ضغط زر صغير جداً وبطريقة أوتوماتيكية، وكاميرات المراقبة منتشرة في كل مكان. أذهلني المشهد والأمن الدقيق، فقلت مخاطباً نفسي: "أتحدى أن تدخلها نمله أو تخرج منها عنكبوت".

وصلت غرفة المرضى السياسيين مذهولاً مما رأته عيناي. قام أحد الشباب وساعدني في الوصول إلى سريري.

كان شغلي الشاغل التقرب من السجناء المرضى، وبناء علاقة اجتماعية وطيدة معهم، خصوصاً مع ذلك العجوز المسن. عرجت نحو سريره للتحدث معه. وجدته نائماً. لم أرد إزعاجه. تركته يحلم بالحرية وعدت إلى سريري وأنا أفكر في دلال. دلال التي أحببتها جداً لكنها لم تكترث بي. حاولت أن ألتمس لها الأعذار لعدم زيارتي، لكنني لم أجد أي عذر يمنعها من زيارتي غير الموت. كنت قلقاً عليها، على العجوز، وعلى الحانوت أيضاً. شعرت أن صديقي وشريكي نضال لن يخيّب ظني، وأنه قام بواجب الصديق نحو صديقه فأكرم زوجتي والعجوز.

بعد ساعة من التفكير المتواصل بأمور عديدة تخصني وحدي، استيقظ العجوز وتوجه مباشرة نحو المغسلة وأخذ يتوضأ من أجل تأدية صلاة المغرب. أنهى وضوءه، وابتدأ يصلي جهراً بصوت جميل يملؤه الخشوع والاطمئنان.

أنهى صلاته وجلس يدعو الله، قائلاً: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر.. اللهم اجمعني بأخي محمد إن كان

حياً، واغفر له إن كان ميتاً، إنك سميع مجيب الدعاء". كنت أنظر إليه باهتمام واستمع إلى دعائه وأقول "آمين" في سري.

هرعت إليه أحبس وجعي. جلست أمامه وسألته عن سبب وجوده في المستشفى. قال بأنه يعاني من مرض السكري الذي لم يفارقه منذ تسع سنوات تقريباً، وأعرب لي عن أسفه لعدم تمكنه مشاركتنا في جلسة التعارف بسبب ظروفه الصحية. قلت متفهماً: "ليس على المريض حرج" ، ثم سألته عن سبب اعتقاله فأجاب بصوت متعب: "اعتقلت لعدم دفع الضرائب المستحقة عليّ، ولرفع يدي في وجه ضابط يحمل رتبة عسكرية رفيعة". قلت مستغرباً: "تسع سنوات لمجرد...". قاطعني وقال: "الحمد لله على السراء والضراء". سألته بفضول من أين هو، فأجاب بفخر من مدينة اللد. ارتعش جسدي وانتفض حين سمعت ذلك. سألته ثانية بتوتر: "من أيّ عائلة أنت؟". رمقني بنظرة مستغرباً أسئلتي: "لماذا تسألني هذه الأسئلة؟". تابعت أسئلتي بفضول متجاهلاً سؤاله: "هل لك إخوة؟ سمعتك تقول اللهم اجمعني بأخي محمد". أجاب بحسرة: "نعم، كان لي أخ، لكنني لا أعرف شيئاً عنه منذ النكبة. ربما مات". سألته بعفوية: "هل لك أولاد؟". قلب كفيه معتقداً أني غبي: "ما بك؟ طبعاً لي أولاد وأحفاد".

سرحت قليلاً أفكر بأبي العبد. انتبه لي وسألني عما يشغل ذهني. أخبرته أنني تذكرت قصة رجل من اللد، رجل أقدِّره وأحترمه جداً. قلت مندفعاً: "يشبهك تماماً". سألني بلهفة: "ما اسمه؟"، قلت: "محمد، وكنيته أبو العبد". صفن قليلاً وقد بدا عليه التوتر، قال: "حدثني عنه أكثر، أرجوك!". أخبرته أنه من أسرة

كريمة، وأن والده قد استشهد أثناء الزحف ودفن في أرضه، وحدَّثته قليلاً عن أخته فاطمة. لم يكتف بما سمع، أراد أن يعرف أكثر. قلت إن والده كان يتردد كثيراً على مضافة أبي السعود لسماع الزجل وكثيراً ما كان ينام هناك.

اهتز بدن العجوز. تدفقت الدموع في عينيه، وبلهفة سألني: "هل أنت متأكد مما تقول؟". قلت ببساطة: "نعم، متأكد". سألني ثانية إن كنت أعرف مكانه. أخبرته أنه يسكن في مخيم مع ابنته وحفيدته التي تكون زوجتي.

أثارت أسئلة العجوز الشك والريبة في قلبي. تذكّرت أن أبا العبد مطلوب للاحتلال، اضطرب قلبي وصفعت وجهي بعفوية مخمناً أن العجوز عميل، وأنني خنت أبا العبد بإعطاء معلومات عنه لرجل غريب قابلته للتو وقد يكون بالفعل عميلاً للاحتلال. كرهت نفسي، وحلّقت في رأسي الظنون. لم أعرف كيف أتصرف. قطع العجوز تفكيري بسؤال جديد، سأله بتوتر: "أتعرف كم كان عمره عند النكبة؟". صحت بعفوية: "ماذا تريد منه، اتركه وشأنه!". لم يأبه بغضبي، تابع يسأل ويخمن: "كان في العشرين، وهو طويل القامة، عريض المنكبين، أليس كذلك؟ أتوسل إليك تكلم!". قلت مندفعاً: "نعم صحيح، ويشبهك تماماً، لكن ماذا تريد منه؟".

سجد سجدة لله ورفع يديه إلى السماء، وقال وهو يبكي: "يا رب، هل ستجمعنا بعد الفراق؟". سألته بدهشة إن كان يعرفه، قال وعيناه قد اغرورقت بالدموع: "يا بني، إن كنت تقصد ما قلته فإنه أخي الأكبر محمد... وأنا أخوه خالد، تشتت شملنا يوم النكبة". رمقته بنظرة مستغرباً ومستهجناً ما يقول، وقلت في قرارة نفسي: "ذكر العجوز هذا الاسم أمامي". عانقني بحرارة

وأجهش بالبكاء. سألته بدهشة: "هل هو حقاً أخوك؟". قال مؤكدًا: "نعم، إنه أخي من أبي"، قلت مستغرباً: "لم يخبرني أن له إخوة". قال موضحاً: "لم يكن أحد يعلم أن أبي متزوج من اثنتين سوى جدّي أبو السعود. لقد تزوج أمي سراً بعد زواجه من والدة أخي بخمس سنوات، بعدها ولدت لأكون أخاً لمحمد". قلت مندهشاً: "ما أغرب هذه القصة! كيف كتم والدكما حقيقة أنكما إخوة؟ أكاد لا أصدق تلك الحكاية الغريبة". أكّد لي أنها الحقيقة التي لا يعرفها أبو العبد. سألته بفضول: "لكن لماذا كان أبوك مصراً على إخفاء زواجه من أمك؟". تنهد وقال: "لا أعرف! كل ما أعرفه أن والدي أراد أن يكون زواجه سراً من والدتي رقيّة"، قلت وقد اغرورقت عيناي بالدموع: "اعتقدت أنك أبو العبد عينه، فملامحه تطابق ملامحك". قال متشوقاً: "إذن أخبرني كيف يمضي حياته".

يا لها من لحظة غريبة! لم أستطع تمالك نفسي من شدة الفرحة. ما أصعب أن يكون للإنسان أخ لا يعرفه! ما أغرب هذه الدنيا وما أكثر مفاجآتها! إنها كصندوق غامض مقفل مليء بالأسرار والأهوال. يا للصدفة التي جمعتني بأخ أحب الناس إلى قلبي! آه يا أبي، لو رأيت المشهد!

أخبرته كل شيء أعرفه عن أبي العبد ومأساته المريرة. شعر بعميق الأسى فأجهش بالبكاء ثانية وأخذ يضرب رأسه بقبضة يده، يلعن الاحتلال واللحظة التي احتل بها أرضنا وشتت شملنا. أمسكت بقبضته محاولاً تهدئته من تلك الحالة التعيسة التي انتابته. أجلسته على السرير وهو يبكي ويدعو ربه: "يا الله! أسألك أن تفكّ أسري وتكتب لي رؤية أخي". كان خائفاً أن يموت قبل أن يرى أخاه. لم

أعرف ماذا أقول أو كيف أواسيه وأخفف عنه وطأة الحزن، أكلني الموقف تماماً. ولم أستطع تخيّل ردة فعل أبي العبد حين يعرف أن له أخاً يتحرق لوعة للقائه.

سمعته يقول: "أنا مستعد أن أدفع عمري مقابل عناقه ولو مرة واحدة". دعوت الله أن يطيل عمره ويشبع ناظريه برؤية أخيه ثم سألته باهتمام: "متى سيطلق سراحك؟". أجاب بحرقة شديدة وانفعال مرتسم على وجهه كسحابة سوداء: "بعد أربعة أشهر أخرى، يا لها من مدة أطول من عمري!". قلت مواسياً: "اصبر! فالذي جمعنا دون موعد، لقادر على أن يفكّ أسرك لتلتقي به". ضغط يدي بمودة، وقال: "أشكرك يا ولدي على عنايتك له". ابتسمت، وقلت: "لو كنت تعلم أيها العجوز ماذا يعني أخوك لي لما قلتها". ابتسم وقال: "ناديني أبا محمد". سألته مندهشاً: "وهل أسميت ولدك محمداً نسبة إلى أخيك؟". تنهد بحسرة، وقال: "نعم، لكنه لا يعرف أنني..."، توقف وأجهش بالبكاء. عانقته وقلت: "هوِّن عليك يا أبا محمد، يكفيك ما أنت فيه".

تذكّرت الموقف الذي توفي فيه والدهما، وعرفت ما أراد قوله فمنعه الموت. انحل اللغز وبان ما كان مبهماً، قلت بثقة: "عرفت ماذا أراد والدك قوله قبل استشهاده". قال مستغرباً: "لا أفهمك!". قلت موضحاً: "أخبرني أبو العبد أن والدك أراد أن يقول شيئاً يخص أمك قبل استشهاده، لكن المنية وافته قبل كشف سرّه. الآن عرفت الإجابة عن السؤال الذي يحيّر أخاك، ولكن من سيجيبني عن السؤال الذي شغل بالي فترة طويلة؟". سألني باهتمام: "فهمت الجزء الأول، لكن ماذا قصدت بالجزء الثاني من كلامك؟". تنهدت بعمق، وقلت: "أخبرني والدي ذات مرة عن أخ لي خرج ولم يعد، سألته عدة مرات عن قصده، لكنه كان

يؤجل الإجابة حتى مات". سألني بفضول: "ألا تعرفه؟". أخبرته أنني كنت حديث الولادة. ضغط على يدي بمودة، وقال مشجعاً: "ستعرف الإجابة يوماً ما".

قام أبو محمد وصلى العشاء، وخلد للنوم والحزن يلّف عينيه. لم أستطع النوم، كنت مستغرقاً بالتفكير في دلال، وشقيقي أسامة الذي ذكّرني أبو محمد به بعد أن نسيته. ليتك أخبرتني حكايته يا أبي!

في الصباح الباكر استيقظ أبو محمد وجهزّ نفسه للزيارة. لكن لم يأت أحد لزيارته. حزن كثيراً، وقلق أكثر. كنت مقدراً تماماً شعوره. أجلسته على سريره، وفي محاولة مني لتخفيف قلقه، أخذت أحدثه عن مغامرات أبي العبد ومواهبه المتعددة في مواجهة المواقف الصعبة. حدّثته عن حكاياتي مع الجيش وخطط أبي العبد الجهنمية، حتى انفجر ضحكاً وتناسى أمر الزيارة تماماً. طلبت منه أن يحدثني عن طفولته، ابتسم ابتسامة حزينة، وقال:

كانت طفولتي مشوشة، ملوثة بالخوف من حكايات جدّي أبي السعود الذي كان يجبرني على الجلوس في مجالسه والاستماع إلى حكاياته عن البريطانيين. اعتقدت أن البريطانيين وحوش تفترس الأطفال. دفعني اعتقادي إلى التخلي عن طفولتي واللعب خارج المنزل كباقي الأطفال لعدة أشهر. لاحظ جدّي وضعي الغريب. سألني باستغراب: "لماذا لم تعد تلعب مع باقي الأطفال؟". أخبرته بصدق عن السبب. اعتقد أنني مخبول، فأرسل وراء أحد الشيوخ ليرى ما حكايتي. قدم الشيخ المزعوم، أجلسني أمامه وشرع يتلو على رأسي التعويذات. اعتقد أنني مصاب بالمس الشيطاني. أخبرته أن عدم خروجي من المنزل سببه

obeikandi.com

الخوف، وليس شيئاً آخر. رمقني بنظرة جافة، وقال: "أعرف ماذا أفعل تماماً". جلب جدّي له عصاً فكتب الشيخ عليها آيات من القرآن وشرع يضربني بها، ويقول: "اخرج أيها الجني من هذا الطفل". ظل يضربني بالعصا حتى أفقدني وعيي. وكلما صحوت يعيد الكرَّة. سلخ جلدي بعصاه، لذا لم يكن أمامي سوى التظاهر بأن الجني المزعوم قد غادر جسدي، فقلت متحمساً للشيخ: "أريد اللعب مع الأطفال في الخارج".

سرّ الجميع بذلك النبأ. صفقوا للشيخ وكافأه جدّي مكافأة قيمة رغم أنه كاد يقتلني، معتقداً أنه قد أخرج الجني من جسدي. خرجت للعب مع الأطفال ليس رغبة في اللعب بل هروباً من تلك العصا اللعينة. خرجت لأجعل من نفسي موضع سخرية للأطفال. التفّوا حولي يسخرون مني قائلين: "احذر، وراءك بريطاني!". لم أكترث بسخريتهم، لأنها مهما تكن قاسية، ستظل ارحم من تلك العصا.

بعد أيام قليلة سمعت الناس يقولون إن السلطات البريطانية المحتلة قامت بشنق المناضلين: فؤاد حجازي، ومحمد جمجوم، وعطا الزير. سمعت ذلك النبأ فهرعت بأقصى سرعتي راكضاً إلى المضافة. سألني جدّي عما أصابني، فأخبرته أن البريطانيين قد أعدموا ثلاثة شبان شنقاً. جنّ جنونه، وصاح في وجهي قائلاً: "هل ركبك الجنّ مرة أخرى؟". صحت بثقة محاولاً إقناعه: "أقسم لك أنها الحقيقة!".

تجاهل قسمي، وجلب حبلاً وقيدني به، وأرسل وراء الشيخ مرة أخرى. ارتعدت فرائصي من الخوف وحاولت إنكار النبأ الذي جلبته، دون جدوى. قدم

الشيخ، وابتدأ جلسة التعذيب. كنت أسبّه مع كل جلدة يجلدني إياها، فيقول للجالسين: "الجنيّ يسبني". بعد ساعة من التعذيب، فتح جدّي المذياع فسمع النبأ. قال مخاطباً زوار المضافة: "الجنيّ ينقل الأخبار لحفيدي"...

لم يكن باستطاعتي التعليق على كلامه، كنت منهكاً من الجلد. بعد برهة سألني الشيخ عن اسمي فأجبته باحترام، وسألني عن ديانتي، فقلت الإسلام. ظن أن الجني المزعوم قد غادر جسدي. أشعل عوداً من البخور مع قليل من شعير المولد وأخذ يبخرني حتى كاد يخنقني بالدخان. سألني كيف أشعر، أجبته بألف خير. تناول مكافأته الثانية على جلدي، وانصرف. دعوت الله أن يأخذ روح ذلك الشيخ، واستجاب الله لي، حيث رفسه حماره في إليته فقتله على الفور. كنت سعيداً جداً بموته، لأنني لن أجلد مرة أخرى.

عندما أصبحت ابن أحد عشر ربيعاً، ابتدأ الإضراب الكبير في فلسطين، استمر قرابة ستة أشهر، وتوقف بناءً على دعوة الأمراء والملوك العرب، ونداء اللجنة العليا في فلسطين. في تلك الفترة طرأ تغير كبير على وضعي. حاربت انطواء ذاتي، وعشت كأيّ طفل آخر ينظر للانتداب البريطاني على أنه واقع مفروض يجب التعامل معه بنفسية صلبة.

صرت أذهب إلى بيارات الحمضيات وأساعد جدّي بعزق الأرض، وقص الأغصان، وألعب مع الصبيان ألعاباً كثيرة مثل لعبة الفرارة، و"الحابة"، و"الحبلة"، و"الجلول"، و"الدحاديل"، و"أولك يا اسكندراني" و"الغماية" و"السيجة". تخلّصت من عقدتي وحرّرت نفسي من الكآبة والانطواء على ذاتي، حتى أنه لم يمر زفاف لعريس في المدينة دون أن أذهب إليه وأرقص فيه.

بعد عامين سمعنا خبراً مفاده استحالة تنفيذ قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، بسبب تصاعد المقاومة. سررنا بذلك النبأ، شبكت يدي بيد أخي محمد، وشرعنا نرقص وندبك معبرين عن فرحتنا. كنا نرقص عن جهل لا عن فهم لما يدور حولنا من أحداث سياسية. بينما كنا نعبر عن فرحتنا أقبلت فاطمة إلينا وسألتنا عن سبب فرحتنا، أخبرناها. ابتسمت ابتسامة صفراء، وقالت بسخرية: "رقصنا عند اندلاع حرب البراق، ورقصنا عندما دخول "ألنبي" إلى القدس وقدّم احتلاله لها كهدية عيد الميلاد إلى التاج البريطاني، ورقصنا عند صدور وعد بلفور، ورقصنا عندما أعلن الكونغرس الأمريكي موافقته على وعد بلفور، ورقصنا في بداية الإضراب الكبير. لكننا نرقص دون فهم للأشياء. قلّبا صفحات التاريخ وارقصا كما تشاءان". لم نفهم شيئاً من كلمات فاطمة، لكن لا أنكر أنها كانت تفهم التاريخ الفلسطيني ومصائبه جيداً، رغم أنها كانت صغيرة السن.

سمعنا نداء الثوار الفلسطينيين إلى جماهير شعبنا بارتداء الكوفية الفلسطينية حماية لهم، وتعبيراً عن تأييد الجماهير للثورة. اشتريت كوفية ولففت بها عنقي وخرجت إلى الحارة مفتخراً بها. شعرت أني ثائر مثل أولئك الذين يقاومون الانتداب البريطاني ببسالة.

ذات يوم أوقفني جندي بريطاني، سألني مندهشاً عن سبب لف عنقي بالكوفية. أخبرته أنني مصاب بالبرد. لم يصدقني، اقتادني إلى مكتب له، وطلب مني إرشاده إلى مكان تواجد أحد المطاردين، مقابل مبلغ من المال. رفضت عرضه قائلاً له إنني لست خائناً كي أشي بأحد. صفعني على وجهي وطردني من مكتبه بطريقة مذلة. قررت الانتقام منه، تبولت في البئر الذي يشربون منه.

وعدت إلى بيتي مسروراً بما فعلت. علم جدي بالأمر عن طريق صبي كنت قد أخبرته بفعلتي، فلطمني على وجهي واصفاً ما فعلت بالحرام. هرولت مسرعاً إلى ذلك الصبي الخائن، وتشاجرت معه، صفعته على وجهه، ووصفته بالخائن. استشاط غضباً وقال لي: أنت لقيط، الأمر الذي جعلني أتساءل مع نفسي بجنون عن أبي. حلقت في راسي الشكوك، فهرعت إلى أمي وسألتها عن أبي. امتقع لون وجهها، توترت بشدة، ولم تعرف ماذا تقول. وفي لحظة شك صحت في وجهها: "هل أنا ولد شرعي؟". لطمتني على وجهي وأقسمت أنني ولد شرعي، لكنها لا تستطيع أن تخبرني من يكون والدي وقالت إنه يعيش في الجبل مع رفاقه المجاهدين. سألتها إن كان قد زارها منذ أن تزوجته. ادعت أنها تذهب إلى الجبل لتراه. لم أكن أدري أن والد محمد هو والدي. حتى أن معاملتي مع محمد كانت مبنية على أساس صداقة والده لجدّي.

انسحبت القوات البريطانية من فلسطين، وما كدنا نحتفل بفرحتنا حتى أُعلن عن قيام الدولة الإسرائيلية على أرضنا في اليوم التالي. شُرّدنا وطُردنا من أراضينا بقوة النار. انتزع المحتلون مدينتنا، جمعوا أعداداً كبيرة من سكانها في باحة المسجد، فقتلوا منهم من قتلوا بدم بارد.

ارتكبوا المذابح الكثيرة، هدموا قرى بأكملها وقتلوا وشردوا من فيها. لم يحرك العالم ساكناً، اكتفوا بسياسة الشجب والاستنكار، وتركونا قتلى، وجرحى، وجوعى، بلا أرض ولا مأوى.

اضطررنا للهجرة. قطعنا المسافات الطويلة من اللد إلى أريحا، نمشي ونبكي متحسرين على فقيدتنا فلسطين. لم نكن ندري ماذا أصاب عائلة والدي، أو أين

ذهبوا. حتى أننا لم نعرف قصة استشهاده إلا بعد سبع سنوات من الهجرة. كنا ننتظر قدومه وأولاده وزوجته للرحيل معنا، لكن شاء القدر أن نفر من اللد قبله. لم يكن أمام جدّي أيّ خيار سوى الهرب. هربنا إلى مدينة أريحا، وأقمنا في مخيم عقبة جبر. عشنا الأيام الأولى في خيمة متواضعة، ثم اشترى جدّي منزلاً في المدينة وأقمنا هناك.

توفي جدّي وترك لنا أموالاً كثيرة، لكن خالي الجشع الأناني، الظالم، الذي لا يعرف أيّ معنى للحياة سوى المادة، طردنا من المنزل وباعه بثمن بخس. قذفنا كالقمامة في الشارع، سرق ميراث أمي قائلاً لها: "ابحثي عن زوجك فهو مكلَّف بك". جنّ جنون والدتي. أصرت على أن تأخذ حقها في الميراث، لكنه رفض أن يعطيها درهماً واحداً، استشاطت غضباً وحاولت صفعه، دفعها بكل قوته فارتطم رأسها بالجدار وسقطت أرضاً مغشياً عليها ولاذ بالفرار. نقلتها إلى المستشفى لتلقي العلاج، ولم يكن بحوزتي درهم واحد لأدفعه ثمناً لعلاجها. أشفق الطبيب على حالتي وعالجها مجاناً، وبعد أن منّ الله عليها بالشفاء عدنا إلى مخيم عقبة جبر. نصبنا الخيمة وعشنا فيها مدة طويلة إلى أن بنت لنا وكالة الغوث بيتاً متواضعاً يسترنا. عملت مزارعاً في الأغوار عند فلاح أصيل أكثر من تسعة عشر عاماً. زرعت القمح والشعير والذرة والسمسم، وزرعت أشجار الحمضيات المثمرة، وأشجار الموز والزيتون والعنب والنخيل.

في عام سبعة وستين، ألمت بوالدتي وعكة صحية، اضطررت على إثرها لنقلها إلى مستشفى المطلع. قاموا بإجراء الفحوصات اللازمة، فتبيَّن أنها تعاني من مرض في الكبد. كان عليها أن ترقد في المستشفى لتلقي العلاج. ولسوء حظنا

نشبت حرب الأيام الستة ونحن في المستشفى. اندلع القصف الجوي يهز ما تبقى من أرض فلسطين بالقذائف والصواريخ فاضطررنا للاختباء في ملجأ المستشفى. حُبسنا ثلاثة أيام بلياليها في ملجأ ضم المريض والميت والجريح... تجاوز عددنا أكثر من مائة شخص. أمضينا وقتنا في الملجأ وقوفاً، إذ إنه لا يمكن أن يستوعب ذلك العدد الرهيب إلا وقوفاً. كانت أجسادنا متراصة أشبه بتراص حبات الزيتون في علبة صغيرة، تنبعث من أجسادنا وأفواهنا الصائمة رغماً عنها روائح كريهة. اختلطت روائح العرق بروائح أخرى فكدنا نختنق.

في اليوم الرابع قررنا الهروب من ذلك الملجأ الذي كاد يخنقنا بروائح من فيه. عدنا إلى عقبة جبر، اصطحبنا خالتي خديجة وذهبنا سوياً متوجهين إلى الأردن نقطع المسافات الطويلة على أقدامنا. أمضينا ثلاثة أيام ونحن نمشي حتى تعبت والدتي وارتمت أرضاً. نظرنا إلى أقدامها فوجدناها تنزف دماً، وإلى أقدامنا فرأيناها لا تقل سوءاً عن أقدام والدتي.

على مقربة من مدينة مأدبا رأينا رجلاً يقود تراكتوراً مكتظاً بالمهاجرين. قالت خالتي بحماس: "جاءنا الفرج". ابتسمت أمي ابتسامة ساخرة، وقالت بتشاؤم: "لن يتوقف لنا". هزت خالتي رأسها بتحد، وقامت واعترضت طريق السائق متوسلة إليه أن يوصلنا إلى مأدبا. رفض السائق طلبها إذ إنه لا يوجد متسع لدجاجة. أصرت خالتي على أن ينقلنا، أو أن يمضوا تلك الليلة معنا، فاضطر السائق لنقلنا. ألقينا بأنفسنا في وسط ذلك الاكتظاظ الرهيب، فصارت النسوة يصرخن من المضايقة التي أحدثناها.

وصل السائق إلى عربة، وبإصرار منه نزلنا إلى خيامه وتناولنا وجبة عشاء متأخرة. عرفنا أن اسمعه عمران. أمضينا تلك الليلة ومن معنا في خيام عمران المضياف. في الصباح الباكر سمعنا صوت عمران يتنحنح. صحت: "تفضل يا عمران". دخل إلى خيمتنا وهو يحمل لنا القهوة واللبن. كان يبدو متوتراً بعض الشيء. سألته باهتمام إن كان هناك ما يضايقه. هزّ رأسه بطريقة محرجة وغادر الخيمة. علَّقت أمي ممازحة خالتي: "يبدو أنه أعجب بك ويريد الزواج منك". طفح وجه خالتي بالحمرة، وقالت: "ليته يفعل!". ضحكت، وقلت: "حتى لو كان متزوجاً ثلاثا من قبلك؟". أجابت غير مكترثة: "لا يهمني عدد زوجاته ، ولو طلبني سأوافق!". سمعنا عمران يتنحنح ثانية أمام الخيمة، قلت وأنا أضحك: "تفضل يا عمران". دخل الخيمة، وقال: "هل أنت زوجها؟"، مشيراً إلى خالتي. قلت وأنا أبتسم: "لا، هذه خالتي". صفن قليلاً وسألني مباشرة: "أريد أن أتزوجها، هل أنت موافق؟". ابتسمت، وقلت له إنها صاحبة الشأن. طلب مني أن أسألها إن كانت ترغب بالزواج منه. سألتها فهزت رأسها بالموافقة. انبسطت أسارير وجه عمران بابتسامة عريضة وقال: "ستكون زوجتي الثانية!". أجابت خالتي: "لا يهم، أنا موافقة". غادر عمران الخيمة وهو في غاية السعادة. وما كاد يبتعد عنا بضع خطوات حتى بادرتها أمي بالسؤال: "هل جننتِ؟ كيف تقبلين الزواج برجل لا نعرفه؟!". أجابت خالتي ببرود أعصاب: "لم أجن! كان حلمي منذ الصغر أن أتزوج بدوياً". سألتها أمي باستغراب: "لماذا بدوياً؟". أجابت خالتي: "البدوي صاحب نخوة وأخلاق عالية". هزَّت أمي رأسها وقالت: "أنت حرة!".

كان عمران على عجلة من أمره. غادر الخيمة وعاد والمأذون برفقته. عقد قرانه على خالتي وعمل عرساً بدوياً مميزاً. أثناء العرس داهم الألم كبد أمي وارتمت على الأرض. سألنا عمران عن علتها، فأخبرته. غاب عنا قليلاً وعاد وهو يحمل بيده عبوة فيها خلطة أعشاب، أعطاها لأمي، وقال بثقة: "ستشفيك هذه الوصفة خلال ثلاثة أيام، اشربي ملعقة كل صباح وقبل النوم". شكرته أمي على اهتمامه ودعت له بالخلف الصالح. صدق عمران. شربت أمي الدواء فتحسن وضعها من تلك الوصفة، بل شفيت تماماً. تقربنا من عمران، وعرفنا أنه رجل تقي، وطيب. كان سعيداً جداً بزواجه من خالتي وكانت خالتي أكثر سعادة.

بقينا برفقة خالتي لمدة شهر تقريباً. فجأة ودون سابق إنذار، قررت أمي الذهاب لزيارة أقارب لنا هاجروا إلى الأردن أيام النكبة ومن ثم العودة إلى منزلها في مخيم عقبة جبر. حاول عمران أن يقنعها بالبقاء في عربه، فلم يفلح. ودّعنا خالتي وهممنا بمغادرة المكان للتوجه إلى المخيم الذي يعيش فيه أقاربها. أصرّ عمران على أن يوصلنا إلى حيث نريد، فوافقنا دون تردد... أمضينا ساعة نبحث ونسأل عن مكان أقاربنا حتى عرفنا مكان سكنهم. أمضينا قرابة أسبوع برفقة أقاربها. أسبوع سمج ومذل تمنيت أن ينتهي بسرعة.

عدنا إلى عقبة جبر. في اليوم التالي ذهبت إلى المزارع الذي كنت أعمل معه بنية العودة إلى عملي السابق. لم يستقبلني، بل طردني بأسلوب مهين؛ لأني تركته دون أن اخبره. حاولت أن أشرح له ما جرى معي، رفض أن يسمعني. لم يكن أمامي سوى البحث عن عمل جديد. تورَّمت قدماي وأنا أبحث عن عمل دون أن

obeikandl.com

أفلح. غُلّقت أبواب الرحمة في وجهي. شعرت بضيق شديد كاد يخنقني. ذهبت إلى الجبل. جلست على صخرة أندب حظي وأسب من تسبب بمأساتنا. كانت الصخرة قريبة إلى السماء، قريبة جداً. فوجئت بيد دافئة تضغط كتفي، وصوت حنون يهدر في مسامعي يقول لي ابشر لقد حقق الله أمنيتك. إنها يد مزارع تقي وورع أحبه قلبي، تعرفت إليه وقت عملي عند المزارع القديم لكني نسيت أن أذهب إليه. رآني مثقل البال فبادرني بسؤال: "ما رأيك بالعمل معي؟". وافقت على عرضه دون تردد. عانقته بحرارة غير مصدق أن الله قد جبر بخاطري بتلك السرعة.

عملت معه إلى أن اختاره الله في جواره. بعد أسبوع من وفاته فوجئت بأنه ترك وصية مفادها أن مزرعته ستؤول لي من بعده. يا له من رجل كريم! غمرني بكرمه أثناء حياته وبعد مماته. لم أصدق أنه كان يحبني لتلك الدرجة. أدركت عظمة الله وحكمته في خلقه، يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً آخر.

بعد ثلاث سنوات توفيت أمي. قبل وفاتها بساعة، أفصحت لي عن السر الذي حبسته في قلبها طويلاً. أخبرتني أن والد محمد يكون والدي، وأنها اضطرت لكتمان زواجها منه حتى لا تؤذي مشاعر أم محمد. جن جنوني، كان عليها أن تخبرني ذلك من قبل. لم أجد مبرراً يشفع لها أو لأبي. أعلمتني بسرها وارتحلت، ويا ليتها لم تخبرني. أمضيت سنوات طويلة وأنا أبحث عن أخي محمد دون فائدة، وكأن الأرض انشقت وابتلعته. بحثت عنه في جميع المخيمات، في الضفة وغزة والأردن ولم أظفر بأحد يبل ريقي ويخبرني أين أجده. كل ما عرفته أن أحدهم قابله في الجبال يوم النكبة وأخبره محمد باستشهاد والدي.

obeikandl.com

بعد فترة وجيزة لحقت خالتي بأمي. لدغتها أفعى سامة وماتت على الفور. ضاقت بي الدنيا. لم يكن أمامي أيّ خيار لمحاربة وحدتي سوى الزواج. تزوجت من فتاة لاجئة مثلي. أنجبت لي طفلاً أسميته محمداً نسبة لأخي وتوفيت بعد الولادة مباشرة. عشت أياماً صعبة ومعقدة بعد رحليها. اضطررت للزواج ثانية، فمحمد يحتاج لمن يرعاه. كانت زوجتي الثانية امرأة كريمة الأخلاق، حلوة الكلام، اعتنت بمحمد كما لو كان ابنها، وأنجبت لي ثلاثة أولاد وبنتاً واحدة. لم يحدث أبداً أن ميّزت بين أولادها ومحمد.

بعد سنوات طويلة من زواجنا تذكرتها المنية، توفيت. حزنت جداً على فراقها، لكن رضيت بقضاء الله وقدره. ضاقت بي الدنيا، فكل زاوية في البيت كانت تذكّرني بها. لذا لم يكن أمامي سوى الرحيل. رحلت وعائلتي إلى مدينة رام الله وأقمنا هناك. أصبحت النقود تجرى في يدي كما يجري الماء في النهر. اشتريت منزلاً، وفتحت مصنعاً.

ذات يوم اقتحم رجال الضرائب مصنعي، وطالبوني بدفع ضرائب تفوق أرباح المصنع بعشر مرات. رفضت دفعها حتى لو أحرقوني وأحرقوا المصنع. لم يأبهوا بكلامي، أمهلوني أربعاً وعشرين ساعة لدفعها، وإلا حجزوا على أملاكي.

فكرت بأمر الضرائب مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى قررت الخضوع لرغبة المحتل ودفع المبلغ المطلوب الذي لم يكن بحوزتي. خطر على بالي إرث أمي الذي سرقه خالي. دست على كرامتي وذهبت لمنزله وطلبت منه أن يعطيني إرث أمي لتغطية المستحقات الضريبية. صاح في وجهي منكراً أن لها ميراثاً، قائلاً: "المرأة لا

obeikandi.com

ترث!". صحت في وجهه قائلاً: "وصل بك الأمر أن تتلاعب في شرع الله!". بصق علي وطردني من منزله.

لم يكن أمامي سوى بيع المصنع بثمن بخس، بعته واشتريت حانوتاً صغيراً ليوفر لي ولأولادي لقمة العيش. لم يسرّ خالي بفكرة الحانوت معتقداً أنها تسيء لسمعته. ظل يطاردني، ويضيق علي الخناق حتى أغلقت الحانوت لأتخلص من شره ولأحمى أولادي منه. بقي الحانوت مغلقاً لمدة ستة أشهر. ستة أشهر لم تمر فيها ساعة دون تضرعي إلى الله لأخذ روحه، إلى أن استجاب الله لدعائي وجرَّته المنية ليعرف كيف تنخر الديدان جسد أمثاله، وكيف تعصر الأرض جثث الظلمة المتطاولين على من هم أضعف منهم قوة.

كان ظالماً قاسياً متبلداً لا يفقه شيئاً في الحياة سوى النهب، والبطش، والإطاحة بالفقراء المطحونين. قبل النكبة كان قاطع طريق يلسع بسوطه الظالم كل من يقابله في طريقه. حتى أنه دفع شقيقه الأكبر في البئر فمات غرقاً وادعى أنه لا يعرف شيئاً. كنت خائفاً من فضح أمره، خائفاً على نفسي وعلى أمي. لذا دفنت قصة قتله لشقيقه في قلبي سنوات طويلة.

لم تكتمل فرحتي، اقتحم رجال الضريبة حانوتي، وخيّروني ما بين التسديد أو التأبيد، الدفع أو الردع، رفضت كلاهما رغم أن نقود بيع المصنع كانت معي. أجابني أحدهم بصفعة قوية أمام طفلي الأصغر، فأعدت له الصاع صاعين كي لا أصغر في عين طفلي. شمّر سوء الحظ عن أنيابه، تم اعتقالي ليتبين لي أن الذي صفعته رجل ذو رتبة عسكرية عالية. لذلك ردعني القاضي بتسع سنوات لأكون عبرة لمن يعتبر. هذه حكايتي باختصار.

آه يا أبي! سمعت قصة شقيق أبي العبد باهتمام شديد. تارة أصدقه وأخرى أظنه يسرد لي قصة خيالية، ومن قال إن واقعنا لا يفوق الخيال؟ لكل لاجئ حكاية مؤلمة، مريرة، مفعمة بشتى أشكال الألم والعذاب، حكايات الماضي اللئيم، حكايات الشتات، حكايات النكبة القديمة الجديدة. كلما تحدثت معه أضاف إلى قلبي ألماً جديداً. ما أصعب أن يطرد المرء من أرضه ويحرم منها للأبد! تألَّمت كثيراً من حكاية أبي العبد، وحكاية أبي محمد، وحكايات أخرى سيظل يسردها التاريخ وترددها الأجيال.

بعد أيام قليلة جاء موعد الزيارة، وجاء أحد الجنود يحمل بيده ورقة تحمل أسماء من لهم زيارة. نادى على الشبان السبعة لكنه لم يذكر اسمي. سألته بحماقة: "هل توجد دفعة أخرى؟". ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: "وهل يوجد سجناء غير من ناديت أسماءهم؟". ضغط العجوز كتفي بمودة وحثني على الصبر، وقال إنه سيطلب من ابنه محمد الذهاب إلى زوجتي ليعلمها بوجودي في المستشفى. طلبت منه ألا يفعل، لم أرد أن أقلق زوجتي.

بعد نصف ساعة عاد أبو محمد وكأن هموم الدنيا تستولي عليه. طرح السلام بصوت مختنق، وجلس على حافة سريره حزيناً. تقدمت إليه مستغرباً حالته، وسألته: "تبدو منشغل الخاطر، هل من مكروه؟". لم يجب. سألته ثانية بقلق: " أبا محمد، ما بك؟". أجاب بصوت مختنق: "أنا بخير! لا تقلق". وكأني أعمى لا أرى حاله، سألته مرة أخرى: "هل أصاب عائلتك مكروه، لا قدر الله؟"

وأخير نطق أبو محمد يحدثني عن الهمِّ الذي يستولي عليه، قال وقد طفحت عيناه بالدموع:

"لقد حضر أولادي ليخبروني عن افتتاح دار للمسنين. تصور أن ولدي الأكبر قال لي دون حياء: "عند خروجك من السجن سوف نرسلك للعيش في دار المسنين لتقضي هناك ما تبقى من أيامك في هذه الدنيا". سألته باستغراب: "ماذا تقول يا محمد؟ هل تعي ما تقوله؟ أسمع منك كلاماً غير لائق، ولأول مرة في حياتي". أجاب: " يا أبي، أريد راحتك فقط، ودار المسنين سوف توفر لك الراحة التامة". قلت منبهراً غير مصدق: "لن يصل بك حسن الأخلاق إلى هذا الحد!". أجاب دون حياء: "أبي! لقد قادتني شهامتي للبحث عن راحتك!". قلت ساخراً: "أخشى عليك غوائل شهامتك، إنك غرّ ما خبرت كتاب الله وما فيه عن برّ الوالدين، ولو كنت تعرفه لما وقعت بالخطأ الكبير، بقي أن تلقيني على أرصفة الشوارع لأسأل الناس مما أعطاهم الله، هذا هو عقوق الوالدين، هذا هو النكران لجميلهم، اغرب عن وجهي فوا لله إن قلبي قد غضب عليك، وماذا عنكم يا باقي أولادي؟ أراكم صما، بكما، لا تتكلمون، غضب الله عليكم جميعاً!".

توقف أبو محمد عن الكلام، وسألني والقهر يمزق قلبه: "ما رأيك يا صابر بما سمعته؟ هل حدث وأن عاملت والدك بهذا الأسلوب؟". صُدمت مما سمعت، وبدهشة سألت: "ماذا تقول أيها الطيب؟ كيف يعاملك أولادك بهذا الأسلوب؟". وقف مكسور الخاطر، وقال: "المال يا بني، لقد أصبحوا عبيداً له. ألا يكفي بأنني كنت أنام في القبو حتى لا أضايقهم؟". قالها وانفجر بالبكاء. أجلسته على السرير وأنا أطوقه بذراعي: "هوِّن عليك يا أبا محمد، وادع الله أن

يصلح خطاهم". رفع يديه إلى السماء، وقال بغضب شديد: "أشهد الله، أنني غاضب عليهم حتى يوم القيامة". لم يستطع المسكين الاستمرار في الحديث. استأذن مني، ونام على وجهه مكسور الخاطر، يردد "حسبي الله ونعم الوكيل".

ذهبت لأتحدث مع شاب من مخيم بلاطة كان قد أصيب بعدة عيارات نارية قبل اندلاع الانتفاضة بعام، إثر محاولته مهاجمة أحد العملاء بسكين. كان جسده عبارة عن هيكل عظمي، يداه مملوءتان بالحقن المختلفة. أراد المحتلون أن يجعلوا من جسده عبرة لمن يعتبر. جلست بجانب ذلك المناضل وأخذت أتحدث معه، كنت أفهم حديثه بصعوبة. أشار إلى حقيبته، لم أفهم ماذا يريد. أقبل سجين آخر كان يفهم عليه، قال لي إنه يريد أن يريني صوره قبل أن يصاب ويصبح هيكلاً عظمياً. فتحت حقيبته وأخرجت صوره. كان شاباً وسيماً للغاية، ذا بنية قوية. اغرورقت عيناي بالدموع وقلت له محاولاً أن أواسيه إن الحالة التي وصل إليها جسده بعد الإصابة إنما هي دليل على بسالته ووطنيته، ودليل على إجرام المحتلين.

كان يتمتع بنفسية صلبة رغم الرصاصة التي فجرت عنقه، والرصاصة التي فجرت معدته، والرصاصة التي اخترقت إليته والرصاصة التي مزقت فخده. بعد أسبوع من وصولي المستشفى استشهد ذلك المناضل على السرير الذي مكث عليه سنوات طويلة وهو يتعذّب ويتألم. بكينا عليه حتى ذبلت أعيننا.

بعد فترة وجيزة من استشهاد ذلك المناضل الباسل، سمعت خبراً يحمل في طياته أن الاحتلال سيطلق سراح السجناء الأمنيين الذين يقضون الأشهر الأخيرة من فترة أحكامهم بمناسبة عيدهم. فرحت جداً بذلك الخبر وركضت نحو سرير أبي محمد. أيقظته وأخبرته بما سمعت. لم يُسرّ كثيراً بذلك الخبر، معتقداً

obeikandi.com

أنها مجرد مناورة سياسية، لكسب الرأي العام العالمي. وما كانت إلا ساعة من الزمن، فإذا بضابط معه أربعة جنود قادماً إلى حجرتنا، يحمل بيده ورقة. دخل الحجرة وأخذ ينادي على أسماء المفرج عنهم، ولحسن الحظ كان اسمي واسم أبي محمد مدرجان في تلك القائمة.

إنها اللحظة التي انتظرتها بفارغ الصبر، لحظة الحرية، لحظة مصافحة الشمس دون حواجز أو أسلاك شائكة، لحظة أشعرني اليأس أنها لن تأتي، أخطأ اليأس في تنبؤه. السجن لا يدوم، وللحرية ميعاد مرسوم. لم أصدق بأنني وأبا محمد سنغادر مستشفى السجن معاً. لم أصدق أن للصدفة مكان في هذا الزمن. من شدة فرحي نسيت نفسي، ونسيت أن حرية غيري لا زالت مرهونة وقد لا تأتي. ضممت أبا محمد إلى صدري وصحت بأعلى صوتي: بعد ساعتين سوف ننام في بيوتنا!

- ستعود لزوجتك.

- زوجتي؟ لقد بعتها كما باعتني.

- يعلم الله ما أصابها.

- سوف أطلقها.

- إياك والوقوع في الخطأ الكبير.

بعد برهة عاد الضابط ثانية، أعطى كل واحد منا ورقة تأمر الجنود بعدم التعرض لحاملها أثناء عودته إلى بيته ثم اصطحبنا إلى البوابة الخارجية من سجن الرملة لنرى الشمس بعد طول غياب. لم نصدق أننا أحرار، نسير في الشوارع المحتلة بلا قيد أو عدد. لم نصدق أننا تخلصنا أخيراً من تلك القيود القذرة. رحت أرقص في الشارع وأغني وأبو محمد يردد من ورائي. كنا نمشي دون أن نعرف أين

obeikandl.com

سنتوقف وكيف سنصل بيوتنا البعيدة. البعيدة جداً! لم يكن بحوزتنا نقود. مشينا مسافة طويلة دون أن نلتقي برجل عربي نسأله من أي اتجاه نسلك، أو نشحذ منه ثمن أجرة من سينقلنا إلى بيوتنا.

أخيراً بعد أن انتفخت أقدامنا الكسولة من المشي، نظر الله إلى عبدين من عباده التائهين في شوارع بلد كانت لهما قبل عشرات السنين. كانا يعرفانها كما تعرف الأم ابنها، فأصبحت بجرة قلم غريبة ومضللة. رأينا الفرج يمشي إلينا بأرجل مطاطية. سيارة رجل يضع على رأسه كوفية وعقال توقفت بجانبنا، رجل فلسطيني يسكن في الرملة. قال وكأنه عرف من أين جئنا: "أراهن أنكما كنتما في مكان لا تدخله الشمس". ضحك أبو محمد ملء شدقيه، وقال: "صدقت، كنا في مكان لا يعرفه غيرنا". شرحنا له ظروفنا، تفهم الأمر، واقتادنا بسيارته إلى مدينة رام الله دون أن يطلب أجرة. شكرناه جزيل الشكر على نخوته ونزلنا من سيارته ندعو الله له بالتوفيق.

كأنها ليست رام الله التي أعرفها. هي الأخرى فقدت وجهها. أصبحت غريبة كشوارع الرملة. أقسم أن الشك راودني لبرهة، همس في أذني يعلمني أنها ليست رام الله. شوارعها محترقة ومتفحمة، جدران منازلها متشققة وقسم منها آيل للسقوط. على طول البصر تنتشر القاذورات والحجارة وإطارات المطاط المشتعلة وغير المشتعلة. قلت في نفسي: "إنه غضب الانتفاضة". نظرت إلى أبي محمد، رأيته مستغرقاً بالتفكير. كلمته، فلم يسمعني. فجأة قلب كفيه على بعضهما، وقال: "يبدو أن الحرب لا زالت دائرة". هززت رأسي وتابعنا سيرنا. سمعنا وابلاً من الرصاص يدوي في سماء المدينة وصوت هتافات تأتي من بعيد. عرفنا أن الشبان

منشغلون في مقارعة الاحتلال. أمسكت بيد أبي محمد ومشينا قليلاً. فكّ يده من يدي وتوقف وبدهشة، سألني: أين سنذهب الآن؟

- إلى أولادك.

- ليس لي أولاد.

- لا تكن غليظ القلب.

- كفّ حديثاً عنهم.

أصر على عدم رؤيتهم، أو الحديث إليهم رغم محاولاتي العديدة لتليين قلبه. لا أحد يصدق أن كلمات، مجرد كلمات، يمكن أن تغير قلب الأب تجاه أبنائه إلى هذه الدرجة، رغم أني كنت متفهماً سبب سخطه وغضبه عليهم. أتحدّث معه فيتأفف ويعرض عني. أذكّره بفضل كاظم الغيظ والعافي عن الناس، فيعرض عني. شعرت بالفشل في التماس العفو لأبنائه. تضايقت. جلست في منتصف الشارع كمجنون. رفضت أن أمشي معه خطوة أخرى إلا إذا أرشدني إلى منزل أبنائه وصفح عنهم. وبقوة غريبة شدّني إليه يغرز أصابعه الهرمة في كتفي، وبلهجة المغلوب على أمره: "سأرشدك إلى مكانهم". ابتسمت ومشيت معه دون أن يكلمني كلمة واحدة. التزم الصمت، واكتفى بترديد نفس العبارة: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

عشر دقائق وهو يرددها إلى أن وصلنا منزلهم. دفعني بغضب وغلظة، وقال: "أرني كيف سيستقبلونك". ابتعد عن باب منزلهم بضعة أمتار. جلس أمام حانوته المقفل، ينفخ ويتأفف ويدمدم بكلام غير مفهوم. طرقت الباب بشدة وغضب. خرجت إليّ امرأة تفوح من وجهها رائحة الثراء والغرور. رمقتني

بنظرة متجهمة وأقفلت الباب في وجهي. اعتقدت أنني متسول. طرقت الباب مرة أخرى. صاحت بلهجة متعجرفة: "أخرجنا زكاة أموالنا، ابحث عن غيرنا". لم أكترث بكلامها. تابعت طرق الباب حتى فتحته وهي تعضّ على شفتها من الغضب، قائلة: "انصرف!". دفعتها ودخلت المنزل رغماً عن أنفها، فإذا بمجموعة من الشبان يلعبون "الشدة". رأوني أنتصب أمامهم بوجه عابس، ألقوا أوراقهم على الطاولة ونهضوا ينظرون إليّ بعيون غاضبة، يتساءلون عن هويتي.

أخبرتهم وجسدي ينتفض من الغضب مَن أكون. أعلمتهم بخروج والدهم من السجن، وحدّثتهم عن الألم الذي تسببوا به له عندما أخبروه بقرارهم الجائر والظالم. أشعرتهم بخطئهم الكبير حتى أيقنوا أنهم ظلموه، وعذّبوه، وأحرقوا قلبه الذي أحبهم وغمرهم بالحنان. تأثروا من كلماتي، شعروا بالذنب الكبير وخرجوا ليروا والدهم وليعتذروا له عن كل إساءة اقترفتها أيديهم بحقه.

عدت إلى أبي محمد برفقة أبنائه، وما أن رآهم حتى أشاح بوجهه عنهم وتظاهر أنه لا يراهم. طرحوا عليه السلام، لم يُجب. قبّلوا رأسه، فوصفهم بالمنافقين. بكوا نادمين على فعلتهم، فقارن دموعهم بدموع التماسيح. ركعوا أمامه معتذرين، أمسكوا بيده يقبّلونها ويطلبون منه السماح، نفض أيديهم بغلظة. أشفقت عليهم، وقلت: "المسامح كريم!". قال بسخط: "البادئ أظلم...".

قال ابنه الأكبر وهو يبكي: "أنت تاج رؤوسنا، سامِحنا!". أجاب بضجر: "بل حذاء ضاق على أقدامكم فقررتم كبَّه في سلة القمامة". قال آخر: "الكبير يحتوي الصغير، اعف عنا". قال بسخرية: "عندما تعرفون قيمة الأب وتقدرونه،

سأعفو عنكم". ضاق صدري من مبالغته في الغضب، فقلت: "إذن لن ترى أخاك".

قلتها ومشيت متظاهراً بجديتي. صاح بغضب: "أتمسكني من الذراع التي تؤلمني يا صابر؟". وقفت وقلت بانفعال: "أنت طلبت ذلك". قلتها وتابعت سيري، صاح: "تعالوا يا أولادي، أشهد الله أني عفوت عنكم". قلت في نفسي: "عرفتُ كيف ألوي ذراعك". ابتسمت وعدت إليه، ربتُّ على كتفه، وقلت: "هكذا أعرفك". تصافت القلوب، وهزمت الأحقاد. طلبت من أولاده أن يأتونا بسيارة لنذهب سوياً إلى عمهم. تطوّع ابنه الكبير وأخذنا بسيارته. ركبنا السيارة وانطلقنا إلى المخيم وأنا أفكر كيف سيتقبَّل العجوز ظهور أخ مفاجئ له، وكيف سأتعامل مع دلال.

obeikandl.com

(23)

اقتربنا من المخيم. رأينا طابوراً طويلاً من السيارات تصطف وراء بعضها في خط مستقيم. ظننا أن حادثاً ما قد وقع. ابتدأ أبو محمد يفقد أعصابه، وينفخ متضايقاً من فكرة الانتظار. اقترحت على محمد أن يتجاوز السيارات. تجاوزها فإذا بنا نفاجأ بحاجز عسكري ينصبه الجيش على مدخل المخيم، ومجموعة من الجنود منشغلين بتفتيش مركبة عمومية. اقترحت على محمد تجاوز الحاجز من الجهة الترابية. حاول ذلك دون تردد أو تفكير بالعواقب.

رآنا جندي، صوب بندقيته نحو سيارتنا وأخذ يصيح بأعلى صوته: "توقف! توقف!". توقفت السيارة. أسرع ثلاثة جنود إلينا وهم في حالة غضب. صاح أحدهم: "انزلوا جميعكم وأيديكم مرفوعة فوق رؤوسكم". نزلنا نرفع أيدينا للأعلى كما أمرونا، ربما ظنوا أننا نخبئ شيئاً ممنوعاً في السيارة، أو أن مطلوباً ما يجلس بيننا. أبعدونا عن السيارة وراحوا يفتشونها بحذر، قلبوها رأساً على عقب. لم يجدوا شيئاً ممنوعاً. أقبل أحدهم إلينا وطلب منا بطاقتنا الشخصية لفحصها. أعطيناه البطاقات وهاتف القيادة. عاد وأعاد لنا بطاقاتنا، وقال: "توخّوا الحذر في المرة القادمة. تجاوُز المحسوم قد يكلفكم حياتكم". هززنا رؤوسنا متفهمين قصده.

obeikandl.com

أشار إلينا بدخول المخيم، ركبنا السيارة ودخلنا المخيم نحمد الله أنهم لم يطلقوا علينا النار. رأينا شوارع المخيم مغلقة بالمتاريس، وإطارات السيارات مشتعلة بالنيران، يقف وراءها حشود كبيرة من الشبان الملثمين، ينددون بالاحتلال وممارساته التعسفية. فتحت نافذة السيارة ولوّحت لهم بيدي، طالباً منهم فتح الطريق، وما أن رأوني حتى فتحوا لنا الطريق.

اقترب أحدهم من السيارة، وقال مندهشاً: "ألم تستشهد يا صابر؟". سألت مستغرباً: "ماذا تقصد؟". قال واثقاً: "ظننا أنك نفذت عملية فدائية، الكل يعتقد ذلك". قلت موضحاً: "كنت سجيناً". هزّ رأسه وطلب من السيارة التحرك قبل أن يداهم الجيش المخيم. مشت السيارة وعقلي مشغول بما قاله الملثم. حقيقة قلب دماغي، أقحم مخيلتي بعشرات الاحتمالات التي يمكن أن تترتب على مثل هذا اعتقاد. نشبت حرب من الأسئلة في داخلي: "ماذا لو تزوجت دلال بآخر معتقدة أنني ميت؟". كرهت هذا الاحتمال الممقت، صحت بعفوية: "هذا لا يمكن، سأقتلها لو فعلت". رآني أبو محمد منشغل الخاطر، قال: "ربما يمازحك". لم أجب.

وصلنا المنزل واقترحت على أبي محمد وأولاده الانتظار قليلاً في الخارج حتى أمهد لمفاجأة ربما تكلّف أبو العبد حياته. رأيت باب المنزل مفتوحاً على مصراعيه. اجتاحت جسدي قشعريرة هزتني بشراسة، تقاسمتني مشاعر شتى، الخوف كان أحدها. لم يكن أمامي غير المواجهة لمعرفة ما يخبئه القدر لي على بضعة خطوات من مكان الوقوف. بضعة خطوات فقط ستحدد مصيري. ستشعل ناراً أو تخمدها.

obeikandi.com

دلفت عتبة الباب وأنا أفكر كيف سأبدأ. رآني أبو العبد فقفز من سريره، يصيح بفرح: "صابر! غير معقول!". تعانقنا بشدة، وبكينا. هو الآخر كان يعتقد أني نفذت عملية فدائية، وأنه لن يرى وجهي ثانية، لم يكن يعلم أنني كنت سجيناً.

أمسكت بيده وأجلسته. أخبرته عن المفاجأة التي تنتظره في الخارج. اعتقد أنني أمازحه. أقسمت له أني أقول الحقيقة. لم يصدق، كان وزن المفاجأة ثقيلاً. ثقيلاً جداً، أثقل من قوة احتمال رجل عجوز، بينه وبين الموت مجرد خطوة. ناديت على أبي محمد وأولاده طالباً منهم الدخول. ناديته ليكون الشاهد على ما قلته للعجوز.

دخل أبو محمد بخطوات ثقيلة مترددة. وقف مذهولاً يحدق بألم وفرح في وجه أخيه، وأبو العبد يبادله نظرات مفعمة بالتساؤل. أقترب أبو محمد خطوة، وقال بصوت خاشع مرتجف: "هذا أنا يا أخي". اختنقت الكلمات في حنجرته فتوقف عن الكلام. اقترب أبو العبد منه وأدرك أنه أخوه. فاضت عيناه دمعاً، اهتز جسده اضطراباً وتوتراً، غرقت الحجرة بسكون أعظم من أي كلام. لم أر سوى وجهين يتبادلان النظرات. يقلبان صفحات الذاكرة المدفونة، يسترجعان ما كان. طال الصمت، طالت النظرات، تشابكت القلوب، تقدما نحو بعضهما بخطوات متثاقلة، حبلى بوجع السنين وغرابة الأيام، يفتحان ذراعيهما استعداداً لأول معانقة بعد اثنين وأربعين عاماً تقريباً.

معانقة تختلف عن العناق الذي كانا يتبادلانه في الوطن الضائع كأصدقاء. تعانق الأخوان بعد طول فراق. تعانقا بقوة، بحرارة وسط دموع تنهمر من

أعينهم وكأنها شلال. يا له من مشهد حلو وحزين! اعتقدت أني أحلم، تمنيت أن يتكلم أحدهما. لم يكن هناك وقت للكلام. كان الوقت وقتاً للعناق، وقتاً لحديث القلوب. ربع ساعة تقريباً وهما يتعانقان ويبكيان حتى توقف العناق وابتدأت أسمع كلامهما. قال أبو محمد وعيناه تبتسمان: "كم تمنيت أن تكون أخاً لي!". أجاب أبو العبد وهو ينظر له بمودة: "كنت أشعر بشيء غريب يربطنا". صفن أبو محمد قليلاً ثم سأل: "أتذكر البريطاني الذي سرقنا قبعته؟". ابتسم أبو العبد وقال: "وكيف أنساه وقد كان سبب صداقتنا". صمت كلاهما وهما يتبادلان نظرات المحبة ويضع كل منهما يديه على كتف الآخر. سقطت دمعة على وجنة أبي محمد، فمد أبو العبد يده ومسحها قائلاً: "اثنان وأربعون عاماً لم نر بعضنا". تنهَّد أبو محمد، وقال: "مدة طويلة جداً، لقد هرمنا!". هزّ أبو العبد رأسه متحسراً على ما مضى، وقال: "المهم أننا التقينا". علَّق أبو محمد بفرح: "لا أصدق أننا التقينا، عضّ كتفي!". ابتسم أبو العبد، وقال: "أنت أولا!". تعانقا مرة أخرى. أخذا يتبادلان حكايات الماضي تارة يضحكان وأخرى يبكيان. تنحنحت لألفت انتباههما لنا. لم يسمعا سوى ما يقولان. كانا مستغرقين في تبادل ذكرياتهما الأليمة، الحلوة، الغريبة، يرددان أسماء لا تعني لنا شيئاً، مجرد أسماء. ظللت أنظر إليهما وأبكي بصمت متألماً على ما أصابهما من شتات وضياع وفراق سنوات طويلة.

فرحة أبي محمد بلقاء أخيه كانت تفوق فرحتي بالإفراج. كان قلبي الصغير يحمل أطناناً من الحقد والكراهية لدلال. كنت أفكر كيف سأقابلها. تارة أتخيَّل أنها تدخل المنزل، فأسرع إليها وأبصق عليها وأصيح: "أين أنت أيتها المجرمة؟". أشدّ شعرها وأجرها على الأرض وألقيها في الشارع... وتارة أتخيَّل أنها تجلس في

غرفة النوم، أقتحم عليها الحجرة وأنقضّ عليها كالثور الهائج، أكيل لها الصفعات حتى ألغي تقاسيم وجهها، ومن ثم أُطلِّقها... وأخرى أمسك سكينة متثلمة وأحزّ بها عنقها حتى تموت ببطء كما ذبحتني ببطء. تقاسمتني تلك الأفكار العنيفة فرحت أشتتها بهزّ رأسي.

تركت الأخوين يتحدثان ورحت أبحث عن دلال في غرف المنزل فلم أجدها. تساءلت مع نفسي بجنون: "أين ذهبت؟ أخشى أن تكون قد تزوجت؟". تارة أصرخ دون صوت: "أكرهها، أحبها، أكرهها، أحبها"، وأخرى أضرب رأسي بالجدار، لم أعرف لماذا كل ذلك السخط عليها.

عدت للجلوس مع أبناء أبي محمد الذين لاحظوا توتري وحاولوا أن يعرفوا سببه دون جدوى. بعد قليل سمعت باب الشقة يفتح، فخرجت مسرعاً وأنا أقول في قرارة نفسي: "لو كانت دلال فسوف أستقبلها بلكمة تحطم أنفها". فوجئت بامرأة ترتدي ثياباً سوداء، ذات وجه شاحب، وعينين غائرتين، ذات جسد نحيف هزيل تكاد عظامه تكون بارزة، من يراها يظن أنها عانت مجاعة طويلة أو أنها مصابة بمرض عضال. رأيتها تضم بين ذراعيها طفلاً نائماً، وجهه ممتلئ بالخدوش، كأن قطة رسمت بمخالبها لوحة من ثلاثة خطوط بارزة وخطين بلون خافت.

أمضت تلك المرأة دقيقة وهي تحدق في وجهي وكأنها رأت عفريتاً، تهزّ رأسها غير مصدقة ما ترى، تنظر إليّ بعينين دامعتين وكأنها تعاتبني على ذنب لا أعرفه. حقيقة ظننت أنها متسوِّلة، وسرعان ما انجلى ظنّي حين قالت: "استيقظي يا دلال، ما هذا إلا وهم". غصصت بريقي وسألتها بصوت مختنق: "دلال؟".

هزت رأسها وسألتني غير واثقة: "صابر؟". هززت رأسي. ظننت أنها ستعانقني، ستقبلني، ستفرح بعودتي، لم تقل سوى كلمات: "هل يخرج الأموات من قبورهم؟". قلت باندفاع: "هذا أنا، صابر". هزّت رأسها غير مصدقة. اقتربت منها، وقلت: "أقسم أنني صابر! أعرف أن مظهري قد تغير". لم تقل شيئاً، بقيت تحدق بي مطولاً. سألتها عن حالها. بقيت صامتة وكأني صدمتها. كررت سؤالي: "ما بك؟ تكلمي، قولي شيئاً!". لم تتكلم، أجابتني بنظرات بدت وكأنها خناجر مسمومة تمزق قلبي. جعلتني أشك أنها ليست دلال زوجتي، فلا الوجه وجهها الذي أعرفه، ولا الجسد جسدها. اعتذرت لها، وقلت: "ظننت أنك دلال زوجتي". ابتدأت الدموع تنهمر من عينيها. دخلت إلى حجرتها، وضعت الطفل الذي تحمله في السرير. وعادت وارتمت بين ذراعي مجهشة بالبكاء. انطفأت نيران غضبي بمجرد العناق. تلاشت أفكاري المجنونة وكأنه لم يخطر ببالي أية فكرة لردعها. مجرد عناق صادق أطفأ في روحي نار الحقد، فهدأت نفسي وسكن بدني، واطمأنّ قلبي وبردت أعصابي. قبَّلتني من جبيني، وسألت بصوت يعاتبني: "أين كنت أيها المجرم؟". أخبرتها أنني كنت سجيناً. صاحت في وجهي: "لا تكذب!". أقسمت لها أنني أقول الحقيقة. سألت مستغربة: "لماذا لم تراسلني إذن؟". أخبرتها أني كتبت لها عشرات الرسائل، ابتعدت عني معتقدة أنني اكذب عليها. اقتربت منها فأشاحت بوجهها، وقالت: "لم تصلني رسالة واحدة". قلت لها إن أخ جدها يشهد على ذلك. رمقتني بنظرة تتهمني بالجنون، لم تصدق أن لجدها أخاً. طوقتها بذراعي وأدخلتها الصالة، وأريتها أخ جدها وأولاده ففرحت كثيراً.

استأذنت منهم لتتكلم معي على انفراد. جلسنا في المطبخ، تناولت سيجارة من حقيبتها وأخذت تدخنها بشراهة. تحرّك الدم في عروقي غضباً، وسألتها: "منذ متى وأنت تمارسين هذه العادة القبيحة؟". تنهدت وقالت: "منذ رحيلك!". طلبت منها أن تطفئ السيجارة ففعلت، قائلة: "لو كنت تدري ما حدث معي لما لمتني على تناول السجاير". طلبت منها أن تحدثني عن كل شيء حدث وقت غيابي. قالت وبدنها يهتزّ: "بعد اختفائك بيومين، بدأت أبحث عنك في كل مكان، في المستشفيات، في الشوارع. أمضيت أسبوعين وأنا أبحث عنك دون جدوى. سل صديقك نضالاً. لقد ذهب وسأل عنك في الصليب الأحمر، وأكدّ له الصليب أنك غير موجود في السجون الإسرائيلية". شربت قليلاً من الماء واستطردت قائلة: "لولا شهامة نضال واعتنائه بنا لضعنا". قلت متباهياً: "عرفت أنه لن يخيب ظني فيه". تابعت قائلة: "المهم بحثنا عنك في كل مكان فلم نجدك. بعد شهر سمعنا أن شاباً قام بتفجير نفسه في إحدى الحافلات الإسرائيلية، فاعتقدت أنك الفاعل".

استغرقت بالضحك حين سمعت ذلك، وتذكرت ما قاله الملثم، قلت: "كيف اعتقدتم ذلك؟". قالت موضحة: "قالوا إن منفذ العملية مجهول الهوية، وتقريبا ذكر شهود العيان- الذين رأوا منفذ العملية قبل دخوله الحافلة- نفس أوصافك، ومع تأكيد الصليب الأحمر لنا بأنك غير معتقل اعتقدنا أنك الفاعل". ضحكت حتى الثمالة.

آه يا أبي! ظنوا أني ميت ففتحوا بيت عزاء. تقبّلوا بي التعازي وأنا حيّ. ولا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا أخبرهم الصليب الأحمر أني غير معتقل، مع أني

أخمن أن إدارة السجون هي السبب. أحمد الله أن الاحتلال لم يسمع تلك الشائعات التي روجها الناس، لصدقوهم وهدموا بيتي.

رأتني دلال أدمدم، سألتني عمّا يجري. أخبرتها أني فخور بها. سألت مستغربة لماذا أقول ذلك، قلت مفتخراً: "لأنك عظيمة، كان من حقك الزواج من غيري". دفعتني بمودة، وقالت: "لم يحبّ قلبي إلا صابراً". أدركت أنني ظلمتها بقسوة، وأنها لم تكن تعلم بمسألة اعتقالي، عانقتها بشدة واعتذرت لها عن سوء ظنّي بها، وعن الأفكار الرهيبة التي خطرت ببالي. أخبرتها ماذا كنت أفكر، وماذا أردت أن أفعل. بدأت بالضحك الهستيري المجلجل. ظلت تضحك حتى سمعنا صوت طفل يبكي. تذكرت الطفل الذي كانت تحمله سألتها بدهشة من يكون. قالت: إنه ابنك. لم أصدق أن لي ولداً، ظننت أنها تمازحني أو أني لم أسمعها جيداً. سألتها بدهشة: هل قلت ابني؟

- نعم، ابنك صابر.

- صابر؟

- أسميته صابراً نسبة إليك.

- نسبة إليّ؟

مفاجأة عظيمة هزت أركان جسدي بقوة. لم أستطع تمالك نفسي من الفرحة، لم أعرف ماذا أقول وكيف أعبر عن شعوري. وقفت أمامها مذهولاً، ضحكت، بكيت، جلست، وقفت، ثم هرعت إلى سريره أصيح: "أنا قادم يا ولدي!". حملته، ضممته إلى صدري، أُقبِّله بجنون. لم يخطر في بالي أنني سأغادر السجن لأرى ولدي ينتظرني. ما أروع تلك المفاجأة وما أعظمها! ويا له من شعور

يصعب وصفه عندما يتحول الابن إلى أب، ويرى طفله يلعب أمامه! تأملت تقاسيم وجهه البريء، نظرت إلى دلال لأخبرها أنه أخذ منها لون عينيها وشعرها، وأخذ مني شكل الأنف والفم، وجدتها تجلس على حافة السرير وتبكي بصمت. اضطرب قلبي، جلست بجانبها وسألتها باستغراب عن سبب بكائها. قالت إنها لا تريد أن تفسد علي فرحتي. ألححت أن أعرف ما يبكيها، فقالت والحزن يعصف بقلبها: لم تسألني عن أمي؟

– كدت أنسى، أين هي؟

– توفيت.

– توفيت؟

– قتلها السرطان.

حزنت كثيراً لسماعي ذلك الخبر المفجع. ضممتها إلى صدري أحثها على الصبر، رغم أن قلبي كان يبكي على فراق والدتها. تظاهرت بالقوة أمامها، اصطحبتها إلى المغسلة، رشقت وجهها بالماء، تنهّدت، وقالت بتأثر: "بكت أمي عليك بكاءً شديداً حين عرفت أنك استشهدت". قلت صادقاً: "أشهد الله أنها كانت بمثابة أمي رحمها الله".

ذهبنا معاً لنجلس مع الضيوف رغم ما تكتنفه قلوبنا من ألم. تقدَّمت نحو أبي العبد وقبَّلت جبينه قائلاً: "عظم الله أجركم"، هزّ رأسه، وقال بصوت حزين: "لله ما أعطى ولله ما أخذ"، وبمحاولة منه لتغيير مجرى الحديث، قال: اكتب رسالة لشقيقك، طمئنه فيها على نفسك.

– شقيقي؟

- ألم تخبرك دلال؟

- كدت أنسى يا جدّي.

- تخبرني بماذا؟

مفاجأة جديدة يا أبي! أخبرتني دلال بعودة شقيقي المفقود، قالت إنه أتى من أمريكا ليراني قبل ستة أشهر. أمضى برفقتهم أياماً قليلة وعاد ثانية. سألوه عن سبب غيبته الطويلة، أو بالأحرى عن سبب اختفائه! أخبرهم أنه كان فاقداً للذاكرة إثر إصابة رأسه بشظية وقت اجتياح لبنان، نُقل بعدها إلى أمريكا لتلقي العلاج. أعجبته الحياة في تلك الأراضي، فبقي فيها. لم يخبروه أنني قد استشهدت خوفاً من التسبب له بصدمة، أخبروه أنّني أقبع في السجن.

لم أستطع تمالك نفسي هرعت راكضاً نحو المطبخ أبكي، ألعن الاحتلال الذي تسبب في شتاتنا وحرماننا من أحبتنا. لحقت دلال بي تحمل بيدها صورته وعنوانه. أرتني صورته حملتها وأخذت أقبِّلها وأحدِّثها عن الألم الذي تسبب به لي ولك يا أبي. سرعان ما توقفت عن البكاء عندما أخبرتني أنه سوف يأتي لزيارتنا في الصيف القادم. خبر قدومه سكب الرضا في قلبي، وأفاض على نفسي من الأمل ما أنساني كل جرح وكدر وتنغيص سبَّبه لي. تذكرت أن هناك من أحب فلسطين رغم كل ما نتج عن حبه لها من عناء وشقاء، فقاده حبه إلى حبسه في العراء، وتفنَّن الاحتلال وتأنَّق في التنكيل به، ومع هذا أحب فلسطين كل الحب. تذكَّرت أن هناك من سُلبوا أوطانهم ودورهم وأهليهم وأموالهم، طردوا من مرابع صباهم، وملاعب شبابهم ومغاني أهلهم، ومع هذا أحبوا فلسطين كل الحب.

بعد ساعة من الزمن غادر أولاد أبي محمد منزل عمهم متوجهين إلى منازلهم. لم يذهب والدهم معهم، أراد أن يبقى بجوار أخيه ليشبع ناظريه برؤيته.

غادر أولاد أبي محمد منزلنا وهم يوصونني على الاعتناء بأبيهم. أكَّدت لهم أنه بمثابة أبي ولا أحتاج إلى من يوصيني عليه. رافقتهم حتى باب الخروج وعدت وجلست برفقة الأخوين ودلال... وما كدت أدفئ مقعدي حتى سمعت باب الشقة يُقرع، أسرعت لأفتحه معتقداً أن أبناء أبي محمد قد نسوا شيئاً فرجعوا إليه. فوجئت بجرعوش يحمل على رأسه سلة مملوءة بالمؤونة. دلف عتبة المنزل وأنزل السلة عن رأسه وهو يلهث ويسب، قائلاً: "أهلكني الجرذ نضال بهذه الحمولة". قلت متفهماً: "تبدو ثقيلة فعلاً". انتبه لي وكأنه لم يرني من قبل فانقضّ عليّ كالثور الهائج يضربني ويصيح: "حرامي! حرامي!". أقبل العجوز مسرعاً فرآه يجثم فوق صدري ويعصر عنقي بشدة، أسرع إليه وأبعده عني وهو يصيح بغضب: "ماذا تفعل يا جرعوش؟ كدت تخنقه". أجابه جرعوش وهو يحاول التملص من يديه ليجهز عليّ: "دعني أقضي على هذا اللص، هل يظن أنه لا يوجد رجال لحماية بيت المرحوم صابر!". أطلق العجوز ضحكة، وقال: "هل تريد أن تحمي بيت صابر من صابر؟!". لم يفهم جرعوش ما قاله العجوز، أخذ يحك رأسه بتوتر محاولاً أن يفهم ما قصده العجوز. نهضت عن الأرض واقتربت منه، وقلت: "هذا أنا، صابر. ألم تعرفني؟". أمعن النظر في وجهي، فامتقع لون وجهه وفجأة دفعني بقوة وفر هارباً وهو يصيح: "النجدة، شبح صابر يطاردني". أخذ العجوز يقلِّب كفيه، ويقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، جنّ جرعوش!". اقترب مني

العجوز، وقال مواسياً: "لا تؤاخذه، ظن أنك ميت". قلت في قرارة نفسي: "ومن أنا إذن؟".

بعد نصف ساعة تقريباً، أقبل نضال ومعه مجموعة من الشبان لزيارتي وتهنئتي بالسلامة. كان من بينهم: عرفات اللداوي، والطفل محمد، وجرعوش. دخلوا المنزل وهم يضحكون من جرعوش الذي أحضرهم من المقهى ليروا الشبح المزعوم واختبأ في الخارج ليراقب الوضع عن بعد. تبادلنا العناق وجلسنا لنتبادل كلام الشوق. جلس نضال على يساري وجلس عرفات اللداوي على يميني. طوقني نضال بذراعه، وبشوق قال: "لقد حرقت أعصابنا، لا أكاد أصدق أنك حي وتجلس معنا". قلت موضحاً: "لو وصلتكم رسائلي لعرفتم أنني حي". علّق نضال: "أعرف أن إدارة السجن تحتفظ برسائلنا ولا ترسلها إلى أهلنا".

لم أعرف كيف أشكر نضالاً على وقفته الأصيلة مع دلال وأمها والعجوز أثناء اعتقالي، فكل الكلمات بدت ضعيفة أمام شهامته ومروءته وكرمه اللامحدود. حتى أنه لم يسمح لي بشكره، قائلاً: "قمت بواجب الأخ تجاه أخيه فلا تشكرني".

همس عرفات في أذني قائلاً: "لا تؤاخذني، لقد ظلمتك". سألته مستغرباً عن قصده، فقال: "قلت عنك كلاماً سيئاً". سألته مستغرباً: "ماذا قلت بالضبط؟". همس في أذني قائلاً: "إن بعض الظن إثم... رأيتك وأنت ترتدي ثياب النساء، فظننت أنك...". قاطعته وقلت باستياء: "يا لنيتك السيئة! أنا رجل مستقيم. ولدي صابر يؤكد ذلك". هزّ رأسه محرجاً وقام وجلس بجانب شاب آخر. انتهز محمد الفرصة وأقبل إلي وجلس بجانبي والسعادة تغمر قلبه، ابتسم وقال: "بكيت عليك كثيراً حين عرفت أنك استشهدت!". طبطبت على كتفه، وبمودة

obeikandi.com

قلت: "لا أعرف كيف ظننتم أنني استشهدت". قال ببراءة: "هكذا سمعت فصدَّقت، أما الآن فعليّ أن أوفي بنذر". سألته مندهشاً: "أي نذر؟". قال: "كنت قد نذرت أن أصوم شهراً لو تبيَّن أنك حيّ". قبَّلتُ جبينه، وسألته ودمعة الفرح قد سبقت كلامي: "ألهذا الحد تحبُّني؟". هزّ رأسه وقال: "بل أكثر...". قاطعنا صياح جرعوش من الخارج، يقول: "هل قضيتم على الشبح؟". انفجر الشباب ضحكاً. طلبت من نضال أن يذهب ويحضره، ففعل.

أقبل نضال وهو يتأبط ذراع جرعوش، وجرعوش في حالة هلع شديدة. قمت وقلت بمودة: "أنا صابر يا جبان، وليس شبحاً!". قال بتلعثم: "صابر فجَّر نفسه ومات". أجلسه نضال بجانب عرفات، وقال: "أقسم لك أنه صابر، وأن صابراً لم يمت، بل كان سجيناً". صمت جرعوش قليلاً ثم طلب من نضال أن يعانقني أمامه. نهض نضال وعانقني قائلاً لجرعوش: "هل رأيت؟ لو كان شبحاً لما عانقته، هيا قم وعانق صديقك يا...". نهض جرعوش يمشي إليَّ بخطوات حذرة، صافحني بسرعة وعاد وجلس بجانب عرفات. طوَّقه عرفات بذراعه، وقال ممازحاً: "أهلكتني وأنت تتحدث عن بطولاتك الثورية، والآن تثبت العكس". أجابه جرعوش بلؤم: "اخرس وإلا أخبرتهم ماذا قلت عن صابر". وقف عرفات وقال متهرباً: "دعنا نذهب يا شباب، لنترك صابراً يرتاح قليلاً".

آه يا أبي! اعتقدت أن حياتي قائمة على المتاعب والضنى، وأن لا وجه لها سوى الوجه القبيح، كنت مخطئاً. تلك المفاجآت السارة جعلتني أنظر بعيون متفائلة إلى مسرح الحياة. تبيَّن لي أن الحياة ليست حزناً فقط بل فرحاً أيضاً؛ فيها

obeikandi.com

الجميل وفيها القبيح، فيها الطيب وفيها الخبيث، تبكينا أحياناً وتضحكنا أحياناً أخرى.

عدت وجلست برفقة الأخوين اللذين كانا منهمكين بالحديث، مالت عليَّ دلال برأسها وهمست في أذني: "اشتقت إليك...". ابتسمت وهمست في أذنها: "اشتقت لك أكثر". همست ثانية: "سنكمل ما توقف عنده الزمن"، سألتها متظاهراً بالغباء: "ماذا تقصدين؟". دفعتني بكتفها بمودة وابتسمت محرجة، ثم طلبت مني أن أذهب للحلاق لأقص شعري وأحلق لحيتي. أعجبتني الفكرة، فالحلاق هو أكثر شخص يعرف ماذا حدث في المخيم منذ غيابي وتوقف الزمن. كنت بحاجة إلى معرفة كل شيء: مَن مات ومَن ولد، ومَن تزوج ومن طلق.

طلبت من دلال أن تسخن لي الماء وغادرت ميمماً إلى الحلاق. رأيته جالساً على مقعد الحلاقة يحلق ذقنه ويغني. طرحت عليه السلام، نظر إلى المرآة ليرى من أكون. رآني فسقط موسى الحلاقة من يده وراح يردد بخوف: "أعوذ بالله! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ارحل، استحلفك بالله أن ترحل!". ظنّ أني عفريت، اقتربت منه فازداد ذعراً. قلت مستغرباً: "ما بك يا رجل؟ أنا صابر". أجاب ووجه قد شحب من الخوف: "أنت شبح صابر وليس...". أمسكته من ذراعه، فصرخ بأعلى صوته: "ابتعد، أرجوك ابتعد!". أخبرته أني صابر وأن خبر استشهادي لم يكن إلا إشاعة كاذبة. تمالك نفسه وسألني: "أين كنت إذن؟". أخبرته أنني كنت سجيناً. لم يصدقني، قال إن الصليب الأحمر أكد أنَّك غير موجود في أيّ سجن. قلت بغضب: "من استطاع إنكار تاريخنا وتزويره يستطيع

obeikandi.com

إنكار وجودي في سجنه". تنهَّد وكأنه استطاع أخيراً أن يلفظ أنفاسه وقال: "إذن أنت صابر"، نهض عن مقعد الحلاقة وعانقني بحرارة.

بلَّل شعري بالماء وأخذ يقصّه ويحدثني عن كل شيء حدث في المخيم منذ اعتقالي. لم يترك امرأة ولا رجلاً ولا صبياً دون أن يحدثني عنه أو عنها. ابتدأ حديثه بسؤال: "هل تعرف كامل الطبل؟". قلت إني أعرفه، وسألته: ما به؟" ضحك وقال: "الغبي طلَّق زوجته لأنه لم يستطع أن يصرف عليها". تنهَّد واستطرد قائلاً: "فعلاً غبي، ولا يستحقها، فلم أر في حياتي أطيب منها". قلت: "ربما الطلاق في مصلحتها، ربما يتقدم لها رجل أفضل منه". أطلق ضحكة، وقال: "تقدَّمت لخطبتها فطردتني، قالت إنها تكره الرجال". قلت في قرارة نفسي: "تستحق ذلك".

بلّل شعري بالماء ثانية وسألني: "هل تعرف عزيزاً؟". قلت: "هناك ألف عزيز، أيّ عزيز تقصد؟". قال: "عزيز النمس". سألت مستفسراً: "ذلك الولد الأعرج؟". قال مؤكداً: "بالضبط! أتدري ماذا فعل؟". قلت: "أخبرني". ضحك ضحكة مجلجلة، وقال: "سرق عقد أمه الذهبي واشترى دراجة هوائية وبعد أن اكتشفت أمه سرقة عقدها بلَّغت عنه الجيش، اتهمته أنه يرشق الحجارة على حافلاتهم، فاعتقلوه". ضحكت وقلت مستغرباً: "معقول هذا؟". قال مؤكداً: "أقسم أنها فعلت ذلك، حتى أني اشتريت الدراجة منها لشقيقي وبنصف الثمن". علقت مستغرباً: "وكيف تفعل الأم هذا بابنها؟". قال موضحاً: "جرَّها الشبان للجبل وحققوا معها، فتبيَّن أنها عميلة فقاموا بحرق وجهها بماء النار".

قلت في نفسي: "شعرت أن تلك المرأة السمينة غير نظيفة حين مسحت كرامتي بالوحل وأنا أتقمص شخصية العجوز".

تابع وهو يقص شعري ثم توقف، وقال مشمئزاً: "شعرك مملوء بالقشرة". قلت مبتسماً: "وماذا تنتظر من واحد أمضى شهوراً طويلة بين أربعة جدران لا تدخلها شمس ولا هواء، على الأقل غادر غيري السجن ورأسه محشو بالقمل". ضحك وقال: "القشرة أهون من القمل". طلبت منه أن يتعامل مع شعري كما هو وأن يكمل حديثه عن المخيم. تنهَّد بحزن وسألني: "أتعرف الحاجة صالحة؟". قلت بتوتر: "أعرفها جيداً، ماذا أصابها؟". قال بحزن: "توفيت ولم يعرف أحد بوفاتها إلا بعد يومين". تألمت لما أصابها، رحمها الله كانت امرأة طيبة وأصيلة، ولا تستحق أن تموت دون أن يعلم أحد بموتها. رآني تألمت، فقال: "عليك ألا تحزن عليها، لأنها طيبة والطيب مصيره الجنة". قلت له إنني لست حزيناً من فكرة الموت نفسه، فالكل سيموت عاجلاً أم آجلاً، وإنما حزين على الطريقة التي ماتت بها فهي كانت تتفقد الجميع وقت الشدائد، فلماذا لم يفتقدها أحد حين ماتت. سألني إن كنت أعرف الحاج أبا علي الصياد. قلت إني أعرفه، سألته: "هل مات هو الآخر؟". ضحك وقال: "لا! تزوج من امرأة في الأربعين من عمرها". ظننت أنه يمزح، قلت: "لا أصدق ذلك، فهو في الثمانين من عمره". ضحك وقال: "تزوج نبيلة ومهرها كان تلفازاً ملوناً". سألت مستغرباً: "أتقصد نبيلة المجنونة؟". قال: "نعم هي، تزوجها وبعد الدخلة أصيب بنوبة قلبية. لا زال حتى اللحظة يمكث في غرفة العناية المركزة".

ضحك بشدة، ثم سألني: "هل تعرف موسى أبو حطب؟". قلت بتوتر: "نعم، لا تقل لي إنه مات". ابتسم وقال: "لم يمت، تخرّج من الجامعة بتفوق، لكنه يعمل في الباطون". قلت في نفسي: "الباطون مصير الجامعيين". أخبرني أن الجيش قام بهدم منزل أبي أحمد وأبي خالد وأبي جلال لأن أولادهم اعترفوا بحرق حافلة إسرائيلية. قلت متألماً: "فليعوضهم الله". سألته باهتمام: "وماذا حدث معك؟"، ضحك وقال بفخر: "تزوجت وأصبحت أباً لعفريت صغير!". قلت في نفسي: "من شابه أباه ما ظلم".

أنهى حلاقة شعري وابتدأ يحلق لحيتي، سألني بفضول: "هل تتذكَّر المعتوه سعيداً؟". أجبت منفعلاً: "لا تصفه بالمعتوه فهو رجل شفاف ووفي". اعتذر عن وصفه بالمعتوه واستطرد قائلاً: "قبض عليه الجيش وهو يعتلي شاحنة كبيرة ويخطب بمستوطني مستعمرة بيت إيل ويدعوهم للجهاد. عرفوا أن عقله في غيبوبة فسلموه للمصحة في بيت لحم". قلت في نفسي: "لو عرفوا ما أصابك يا سعيد لما أسروا جسدك". تابع الحلاق سرد أخبار المخيم، وسألني: "هل تعرف أميناً الخياط؟". سألت مستفسراً: "أتقصد ذلك الصبي الشقي؟". رأيته في المرآة يهزّ رأسه وقد تغير لون وجه. سألته ماذا جرى له. فقال بألم: "استشهد وهو ينشر الغسيل لأمه فوق سطح المنزل. أصابه قنّاص إسرائيلي برصاصة في عينه استقرت في المخ ومات على الفور". تضايقت جداً من خبر استشهاده، وقلت: "رحمه الله، كان صبياً ذكياً". أنهى حلق الجهة اليمنى ثم سأل بصوت مختنق: "وهل تعرف الصبي مصطفى؟". قلت باضطراب: "أعرفه جيداً هو جاري، ماذا حل به؟". قال بألم: "استشهد هو الآخر، قتلوه وهو يمشي في المدينة قرب دوار المنارة".

تألمت على ما أصاب ذلك الصبي، وقلت: "كان دائماً يخبرني أنه يريد أن يكون شهيداً". هزّ الحلاق رأسه وقال: "نال ما تمنى، خرجت له جنازة لا يمكن أن تحصي عدد من شاركوا فيها". تنهدت وسألته: "ومن استشهد غيره؟" ابتسم وقال: "الثالث هو عميل، قتله الجيش بالخطأ، فلا أعتقد أنه يمكنني تسميته بشهيد".

سألته ماذا حدث بعد أن ظنّ الناس أني فجرت نفسي في حافلة إسرائيلية. ابتسم وقال إنه كلما جاءه زبون ليقصّ شعره وفتح أمامه موضوع تفجير نفسك المزعوم، ادعى الزبون أنه كان صديقاً لك، وبأنه كان يعرف بأنك كنت تنوي تفجير نفسك، منهم من قال بأنّك تنتمي لحركة حماس، ومنهم من قال لحركة الجهاد الإسلامي، وثالث ادّعى بأنَّك تنتمي لفصيل سري جديد، إلا عرفات اللداوي، قال بأنّك فشلت في زواجك فقررت الانتحار.

أنهى الحلاق تزيني. عرفت كل شيء حدث في المخيم، سمعت أخباراً أسعدتني وأخباراً أحزنتني. تناولت معه فنجاناً من القهوة بعد إلحاح منه ثم غادرت محله وأنا أفكر بمن رحلوا ومن بقوا.

دخلت المنزل فرأتني دلال بشكل يختلف عمّا رأتني به قبل ساعات. صاحت فرحة: "هكذا أعرفك، الشاب الوسيم". قلت: "لا تجامليني فأنا أعرف جيداً أني لست وسيما". قالت: "بل وسيم، هيا اذهب لتستحم لقد جهَّزت لك الماء والصابون".

(24)

دخلت الانتفاضة عامها الثالث، عرفنا أنها انتفاضة سيطول أمدها. أدرك الشعب أنها الطريق الوحيد للوصول إلى حريتهم. كل يوم كنا نسمع عن سقوط شهيد أو أكثر. إلا أن سقوط الشهداء كان يزيد الشعب قوة، ويدفعه إلى المواصلة حتى الحرية.

ذات يوم وبينما كنت جالساً بصحبة أبي العبد وأخيه نستمع إلى المذياع. سمعنا خبراً يقول إن القوات الصهيونية قد نفذّت مذبحة بشعة ضد المصلين في المسجد الأقصى المبارك، الذين تصدوا لعصابة أمناء الهيكل الصهيونية، ومنعوهم من وضع حجر الأساس لهيكل سليمان المزعوم في باحة الحرم. أسفرت المجزرة عن استشهاد ثلاثين مواطناً فلسطينياً، وجرح ألف مواطن ناهيك عن اعتقال المئات.

كان بين الشهداء خطيب المسجد الأقصى المبارك أبو سنينة. جنّ جنوننا، أغلقنا المذياع وتوجهنا إلى النوافذ لنرى ماذا سيحدث في المخيم كردة فعل. رأينا شبان المخيم يحتشدون أمام المسجد والغضب يتطاير من عيونهم. نظرت نحو الجبل فرأيت عصابات كبيرة من المحتلين محتشدين على الهضبة المطلة على المخيم يستعدون للمواجهات التي ستندلع. وما هي إلا دقائق معدودة وإذا بنا نسمع صوت أزيز الرصاص يدوي في سماء المخيم، سمعت أبا محمد يقول لأخيه

obeikandi.com

"ابتدأت المعركة". علَّق أبو العبد: "المعركة الحقيقة لم تبدأ بعد". سألته ماذا يقصد فقال: "ربما يُفنى هذا الجيل، لكن الأجيال القادمة ستأتي لترى أنهم فقدوا الأب أو الأخ أو العم، عندها ستبدأ المعارك الحقيقية". قلت: "وهل سيحدث أكثر مما يحدث الآن، ألا ترى أن أرضنا تحولت إلى مقابر؟". ضحك وقال: "في هذه الأيام يسقط في اليوم شهيد أو اثنان وقد يصل العدد إلى خمسة لكن في المستقبل سيسقط العشرات وربما المئات". علَّق أبو محمد: "أرجو أن لا يحدث ذلك، آمل أن يعم السلام". قاطعه أبو العبد وقال: "سيولد السلام وسيعيش أياماً معدودة، ربما أشهراً، لكن ستدرك الأجيال أن السلام مجرد خطة لامتصاص غضب الجماهير وأنه أكذوبة كبيرة. بعدها ستبدأ المعارك الحقيقية". قلت في نفسي: "لا أظن أن المستقبل سيحمل أخباراً أسوأ من أخبار الحاضر".

بعد نصف ساعة من الجدال والمواجهات العنيفة سمعنا، شباناً يصرخون: "استشهد محمد! استشهد محمد!". خرجت على الفور لأرى من الشهيد. تقدمت نحو الشبان فوجدتهم ملتفين حول الصبي محمد ذلك الطفل الذي جلب لي الملاءة، الطفل الذي أراد أن يكون طيّاراً في المستقبل، الطفل الذي نذر أن يصوم شهراً لو تبيَّن له أني على قيد الحياة. فقدت السيطرة على نفسي حين رأيت الدماء تسيل من رأسه. لم أعد أستطع الوقوف على قدمي، خارت قواي فخررت راكعاً أمامه أقبِّل جبينه وأبكي على ما أصابه. كنت معتقداً أنني أقبِّل ميتاً. لاحظت إبهامه يتحرك كأنه يقول: "لا زلت حياً، أنقذوني!".

ظننت أنني أتخيل ذلك. حرك إبهامه ثانية، تأكدت أن عيوني لم تخنِّي. نهضت أصرخ بملء حنجرتي: "لا زال حياً! لا زال حياً!". ظن الشبان أني جننت. قال

أحدهم ساخراً مما أقول: "كفّ عن الهذيان، ألا ترى رأسه مهشماً؟". قلت منفعلاً: "أقسم أني رأيت إبهامه يتحرك". جلسنا حوله نراقب يده بحذر. رأى الشبان ما رأيت، كبّروا، هلّلوا، طمعوا في كرم الله وطلبوا له النجاة. وضعناه في تابوت وسلكنا طريقاً جبلية آمنة لنقله إلى المستشفى. فحصه الأطباء فوجدوا أنه لا يزال حياً. انتصب أحد الشبان واقفاً وأخذ يكبِّر بأعلى صوته ويقول: "هذه معجزة!".

أدخلوه غرفة العمليات آملين أن ينجحوا في إنقاذ حياته. جلست في ممر المستشفى أنتظر بفارغ الصبر خبراً إيجابياً. بعد ساعات طويلة من الانتظار والتخمين خرج الأطباء من غرفة العمليات بوجوه مرهقة. هرولت إليهم مسرعاً، وبادرت أحدهم بالسؤال عن صحته فأجاب ببرودة أعصاب: الأعمار بيد الله.

- هل استشهد؟!

- لا، ولكن أمله في النجاة ضعيف.

- هل سيموت؟

- الله أعلم!

- هل سيموت؟

- ادع الله له بالنجاة.

- هل سيموت؟

- إن عاش فسيعيش معاقاً.

بعد قليل رأيت الممرضين يجرون سريره إلى غرفة العناية المركزة، هرعت إليهم وأنا أمسك بأصابعه وقلبي يدعو له بالنجاة. أدخلوه الحجرة، ومنعوني من الدخول. أخذت أراقبه من شقاق الباب. رأيتهم يضعون له الأوكسجين وأشياء كثيرة في منخاريه، وفمه، لدرجة أنه يصعب عليك أن ترى شيئاً من وجهه البريء.

خرج طبيب وأبعدنا عن الباب. جلست برفقة الشبان أمام غرفة العناية المركزة ننتظر بفارغ الصبر أيّ خبر يحمل في طياته أحرف النجاة. كان الكل يدعو الله له بالنجاة حتى الملحدين... بعد قليل أقبل شاب من المخيم، طرح علينا السلام، وقال إن الشبان جهزوا الأكاليل والأعلام لتشيع جثمان محمد، وسأل متى سنحضر جثمانه إلى المخيم. قمت كالذي يتخبطه الشيطان من المس، شددته من قبة قميصه وهززته بقوة صارخاً في وجهه: "اخرس، قطع الله لسانك!". غص الشاب بريقه وقال: "ماذا دهاك يا رجل؟". قلت بانفعال: "محمد لم يمت!". أجاب واثقاً: "بل مات وشبع موتاً!". شددته مرة أخرى وصحت: "اخرس! محمد لم يمت!". أمسك بيدي، وقال: "هذه هي الحقيقة". سألته بعصبية: "من أنبأك بذلك؟". أجاب بحزن: "هذا ما يعرفه الجميع". جُن جنوني، وقلت: "محمد لم يمت! لم يمت، أتفهم ذلك؟".

تدّخل عرفات اللداوي وفلّته من قبضة يدي وقال إن ذلك الشاب من خيرة شباب المخيم، وما كان علي أن أعامله وكأنه عدوي. نعم، عاملته بقسوة. أحرجته أمام الشبان دون قصد. كلماته كانت قاسية جداً على قلبي، في الوقت ذاته كنت مقدراً مشاعره ومشاعر الشبان الذين جهزّوا أنفسهم للجنازة. عدت

obeikandi.com

لأعتذر له، لم أجده. قال أحد الشباب إنه غادر حزيناً من أسلوب تعاملي معه. لحقت به حتى أدركته واعتذرت له. ضغط كتفي وقال إنه يتفهم مشاعري جيداً وطلب مني العودة إلى الشباب في المشفى. طلبت منه أن يأتي معي، قال إنه يريد أن يعود للمخيم ليخبرهم أن محمداً ما زال حياً. لم أعرف ماذا أقول له، تركته يفعل ما يشاء وعدت وجلست في الممر.

بعد ساعات طويلة خرج أحد الأطباء من غرفة العناية المركزة، وقال بصوت متفائل:

- استبشروا خيراً!

- هل سينجو؟

- بإذن الله.

- هل يمكنني رؤيته؟

- لا أفضل ذلك.

- أرجوك!

- سأسمح لك بإلقاء نظرة من بعيد.

- أشكرك.

ألبستني الممرضة ثوباً أخضر معقماً ودخلت لألقي عليه نظرة من بعيد. حقيقة لم أر شيئاً. كان رأسه ملفوفاً بالشاش الأبيض، ومن أنفه يتدلى أنبوب رفيع يتصل بجهاز إلكتروني. ألقيت نظرة عليه وقررت العودة إلى المخيم. سألت الشبان إن كان أحدهم يريد مرافقتي للمخيم، قام عرفات اللداوي، وقال: "خذني معك، فأنا متعب للغاية". اقترحت عليه أن نستقل سيارة أجرة توصلنا

للمخيم. رفض الفكرة تماماً، جازماً وجود الجيش عند مدخل المخيم. ركب العناد رأسي ونفيت وجود الجيش. قال متحدياً: "هل تراهن أنهم يحاصرون المخيم؟". قلت متحدياً: "أراهن". ابتسم وقال: "عن ماذا؟". قلت: "عن مائة شاقل". ضحك وقال: "إذن جهز النقود". قلت بثقة: "بل أنت جهز المبلغ". قال: "وما يجعلك واثقا لهذه الدرجة؟". قلت موضحاً: "المخيم في حالة استنفار، لذلك الجيش غير معني بإحداث أية فوضى". هزّ رأسه، وقال: "سنرى من منا يفهم عقلية الاحتلال". خضع لرغبتي غير مقتنع بما قلت. أقلتنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى المخيم وعرفات يقول: "جهز النقود". اقتربنا من مدخل المخيم فوجدنا عشرات الجنود ينصبون نقطة تفتيش ويقفون خلفها مستنفرين. رمقني بنظرة ساخرة، وقال: "هيا أعطني مبلغ الرهان". قلت له محاولاً التملص إن الرهان حرام شرعاً. لم يأبه، أصر على أخذ المائة شاقل. أعطيته المبلغ وقلت في قرارة نفسي: "يا لك من رجل جشع لا تخاف الله!". نزلنا من السيارة وسألني باستهزاء: "وماذا الآن يا بطل؟". اقترحت عليه أن نمشي من وراء نقطة التفتيش وندخل المخيم بحذر، وافق على اقتراحي. سلكنا الطريق الترابية غير مكترثين بالجيش وأوامره العسكرية بمعاقبة من لا يطبق قوانينهم. رآنا الجيش فهرعوا وراءنا يطاردوننا بجيب عسكري. اضطررنا لتغير طريقنا. سلكنا طريقاً جبلية وانطلقنا نركض بأقصى سرعتنا حتى دخلنا المخيم من الجهة الشمالية. هناك التقينا ببعض الشبان الهاربين من الجيش، سألناهم عن الوضع فوصفوه بالمكهرب.

جلسنا برفقتهم حتى حلّ الظلام، ودخلنا المخيم متسللين بين الأزقة كاللصوص، حتى وصلنا منزل الصبي المصاب محمد. طرقنا باب منزله بلطف

obeikandi.com

وحذر، حتى فُتح الباب. لم نجد بالمنزل سوى جدّته العجوز التي كانت تبكي على حفيدها معتقدة أنه قد استشهد. أخبرتها أن حالته قد تحسنت ووضعه الصحي مستقر. لم تصدقني، أقسمت لها أني صادق، فقالت: "ضربة الرأس تقود للقبر". قلت: "يفعل الله ما يريد". سألتها عن والده فقالت إنه يعمل في إسرائيل، وعن أمّه فقالت إنها ذهبت لزيارة ابنها الأكبر في سجن "عسقلان" وأنها لم تعد بعد. جلست أنتظر والدته حتى عادت برفقة ابنتها "دنيا". عادت مرهقة جداً. كان وجهها شاحباً وتمشي وتتكلم بتثاقل. فور دخولها المنزل رأتنا نجلس في صالة الضيوف وعلامات الحزن والتوتر تكتسح وجوهنا. غصّت بريقها وبادرتنا بالسؤال عن سبب وجودنا في منزلها وسبب تواجد الجيش بكثافة داخل المخيم. لم يستطع أحد فينا التفوه بكلمة واحدة. ازداد قلقها وتوترها أكثر، لطمت صدرها وبدا وجهها مذعوراً، وقالت بصوت مختنق: "ما بكم لا تتكلمون؟ أخبروني ماذا يحدث؟". لم يجبها أحد، وهنا فقدت أعصابها وصاحت بقوة: "ألم تسمعوا سؤالي؟ ويحكم! أخبروني ماذا حدث؟".

بقينا صامتين والحزن يمزق قلوبنا ويحبس كلمات الحقيقة الموجعة بين أضلعنا. لم يستطع أحد منا إخبارها بما أصاب فلذة كبدها محمداً. أخذت تصيح في وجوهنا وتسأل بإصرار. وأخيراً تجرأت وأخبرتها الحقيقة، ويا ليتني لم أفعل. جنّ جنونها، شرعت تلطم وجهها وتبكي بحرقة، وفجأة دلفت عتبة المطبخ مسرعة، امتشقت خنجر زوجها وخرجت إلى الجيش بنفس عارية حزينة، تصرخ بأعلى صوتها "أين أنتم أيها الجبناء؟". لحقت بها وحاولت بكل قوتي أن أوقفها وأمنعها من الاقتراب منهم دون جدوى. ركلتني في إليتي. صفعتني على وجهي.

جرحت يدي بخنجرها. فاضطررت لتركها قبل أن تقتلني. حقيقة لم أر في حياتي امرأة بتلك القوة، رغم أنها امرأة نحيفة جداً، وقصيرة. لكن مثلما كنت أسمع كبار السن يقولون: "عندما يقترب أحد من أولاد القطة تتحول إلى نمر مفترس"، وهذا ما رأيته بأم عيني. بعد عشر دقائق سمعنا صوت الرصاص يدوي فخرجنا لنرى ماذا أصابها، وجدناها ممدة في وسط الشارع كجثة هامدة، صدرها مضرج بالدماء. وما أن اقتربنا منها كي نحمل جثمانها حتى داهم الجيش المكان وهم يطلقون الذخيرة الحية نحونا والقنابل المسيلة للدموع. تفرقنا واقتربوا من جثمانها، حملوه وألقوه في مؤخرة مركبتهم العسكرية وهربوا به إلى مكان مجهول. شعرنا بالضعف الشديد وقلة الحيلة. لم نعرف ماذا نفعل أو كيف نتصرف. لم يكن أمامنا خيار آخر سوى الانتظار في شوارع المخيم نتساءل لماذا خطفوا جثمانها وإلى أين اقتادوه.

بعد ساعتين من الفوضى والتخمين، سمعنا صوت "جرعوش" يصيح بأعلى صوته: " يا شباب تعالوا، تعالوا!". هرعنا إليه لنرى ما به. سلطنا الضوء عليه، فرأيناه يتصبب عرقاً، ويلهث بشدة غير قادر على لفظ أنفاسه. أجلسناه قليلاً وسألناه ما سبب صراخه الذي أيقظ الموتى وأرعب الأحياء. قال إنه رأى مجموعة من الجيش وهم يدفنون جثة خلف منزله ببضعة أمتار. لم نصدقه، فالجميع يعرف أنه صاحب مقالب ويكذب كثيراً. أقسم بالله أنه يقول الحق.

اقترح أحد شيوخ المخيم أن نذهب معه لنتأكد مما يقول فربما كان صادقاً. أخذنا باقتراح الشيخ وهرولنا مسرعين إلى المكان الذي حدده جرعوش. سلطنا المصابيح على الأرض فرأينا تراباً أحمر وكأنه قد أخرج من الأرض للتو. قلت في

نفسي: "يبدو أنه صادق". أخذنا نحفر في تلك البقعة حتى اصطدمت معاولنا بالجثة. انتشلناها من الحفرة ولم نعرف ماذا نفعل فزوجها غائب وأهلها يعيشون في الأردن. مرت ساعة ونحن نتشاور حتى اقترح الإمام أن نقوم بدفنها في المقبرة، فإكرام الميت دفنه.

ذهبنا لدفنها بجنازة ليلية متواضعة في المقبرة. دفناها واستنفر الشبان والشيوخ والنساء ضد الجيش رغم الظلام الحالك. غادروا المقبرة يهتفون بملء حناجرهم كلمات تدين تلك الجريمة. سمعت شابين يتحدثان عن جريمة أخرى ارتكبت في قرية سالم، فقد دفن الجيش فيها مجموعة من الشبان وهم أحياء، وكسروا عظام آخرين بالحجارة. ولسوء حظهم تمكن صحافي غربي من تصوير تلك الجريمة وبثها على الفضائيات.

في صباح اليوم التالي ذهبت عبر الجبل لأطمئن على محمد. وصلت المستشفى فوجدت عدداً كبيراً من الشبان يقفون في ممر العناية المركزة، سألتهم عن وضع محمد فقالوا إن وضعه مستقر، سألتهم عن سبب وجودهم، قالوا إن غرف العناية المركزة ممتلئة بالإصابات الخطيرة وإنهم جاؤوا ليأخذوا جثة من يستشهد قبل أن يسرقها جنود الاحتلال.

وما هي إلا ساعة من الزمن وإذا بالشبان يحملون المجنون "جرعوش" ويدخلون به غرفة الطوارئ، كان صديقي نضال معهم، سألته عما أصابه، فقال وهو يلهث: "أطلق الجيش عليه النار". دخلنا غرفة الطوارئ لنطمئن على وضعه. فحصه الطبيب وكشف عن الإصابة، وأخبرنا أن الرصاصة لم تستقر في فخده، وأن إصابته ليست خطيرة. نظفوا الجرح ولفوا فخده بالشاش الأبيض

وهو يبتسم مفتخراً بنفسه. أقبل الممرض ليحقنه، شرع المجنون يصرخ بأعلى صوته، يسب ويشتم الممرض بكلمات نابية. سيطرنا عليه بصعوبة، ثبّتناه حتى استطاع الممرض حقنه خوفاً من تسمم جرحه.

قررنا العودة إلى المخيم عبر الجبل. أرهقنا المجنون، كدنا نبول على أنفسنا من شدة الضحك رغم الحزن الذي كان يتقاسم قلوبنا. تارة يتكئ على كتفي ويمشي بضع خطوات ثم يتوقف فجأة ويقول وكأنه يحتضر: "تعبت، احملوني"، نحمله ونمشي به قليلاً، وتارة يصيح ويقول وكأنه يختنق: "تعبت، أنزلوني!"، ننزله ونمشي قليلاً. ننزله فيقول "تعبت، احملوني"، وظل على هذا المنوال حتى أصبحنا على مقربة من المخيم، توقفنا وأرسلنا أحد الشبان ليستطلع الطريق. بعد برهة عاد إلينا وقال إنها آمنة. تسللنا نحو منزلي بحذر، دفعت الباب بقدمي وأدخلنا المجنون، وأجلسناه على الأريكة وارتمينا أرضاً من شدة التعب. رآنا أبو محمد فبادرنا بالسؤال: ما به؟

- أصيب برصاصة في فخده.

- لماذا أطلقوا النار عليك؟

- لا أعرف.

أقبل أبو العبد ورأى "جرعوش" صافحه، وابتسم قائلاً: "جرعوش" في منزلنا، يا مرحبا!

- الجيش، الجيش!

- ما بهم؟

- "طخوني"...

obeikandi.com

- مسكين يا "جرعوش".

ذهبت إلى المطبخ وطلبت من دلال أن تطهو لنا شيئاً نأكله. وعدت لأرى الأخوين، وجدتهما يضحكان من "جرعوش" الذي كان يمثل لهم كيف أصابه الجيش بحماس وطريقة مثيرة للضحك.

تقدَّم نضال نحو "جرعوش" وسأله: ألا تريد أن تتزوج؟

- بلى!

- لو فرضنا أن زوجتك قبَّلتك ماذا ستفعل؟

- سأضربها.

- ماذا لو خلعت ثيابها أمامك؟

- سأطلقها، وألقيها في الشارع.

- ولماذا تفعل ذلك، فهي زوجتك؟

- من تخلع ثيابها أمام رجل فهي امرأة وقحة ويجب قتلها!

- لكنها زوجتك!

بعد قليل أقبلت دلال، رأت جرعوش في تلك الحالة فسألتني بقلق عما أصابه. أخبرتها عن إصابته فتألَّمت كثيراً، وقالت بحزن: "حتى المجانين لم ينجوا من قسوتهم". تنهَّدت وقلت: "الرصاص أعمى لا يميز بين مجنون أو عاقل!". هزت رأسها، وقالت بمودة: "سأجهز لكم الطعام". بعد مضي نصف ساعة أحضرت دلال الطعام، وقالت بمودة مشيرة إلى جرعوش: "أطعمه جيداً حتى يعوض الدم الذي نزفه". سمعها جرعوش وابتسم في وجهها ابتسامة عريضة، وقال موجهاً الكلام لي: "هل سمعت، أطعمني جيداً!" صمت قليلاً ثم أردف

obeikandl.com

قائلاً: "ألم أقل لك إنها تحبني أكثر منك؟". أردت أن أصفعه على وجهه حين قال ذلك، فأنا أغار عليها من كل شيء حتى من ذلك المجنون. لاحظ أبو العبد أن وجهي قد طفح بالغضب من كلام جرعوش، تنحنح وضغط يدي بمودة وهمس في أذني: " اهدأ ولا تكن سخيفاً، فهو لا يعرف ماذا يقول".

أردت أن أقول له إنني أشعر بالغيرة عليها حتى من الثياب التي تلبسها، لكني تراجعت. أطعمت جرعوش بيدي حتى انتفخ بطنه من كثرة الأكل. وما أن انتهى من تناول طعامه حتى شرع يتثاءب بقوة، سألته إن كان يشعر بالنعاس، هزّ رأسه بقوة وقال إنه متعب جداً وطلب مني أن أوصله إلى بيته حتى ينام. اقترح عليه العجوز أن يمضي تلك الليلة في منزلنا لكنه رفض بقوة قائلاً إنه لا يستطع النوم إلا في منزله. سعدت بقراره، سعدت جداً! وقلت بحماس: "وأنا أيضاً لا أستطيع النوم إلا في منزلي". رمقني جرعوش بنظرة، وقال ساخراً: "كاذب!"، قلت بانفعال: "بل صادق!". أرعد ضحكة، وقال: "وهل أمضيت فترة اعتقالك مستيقظاً؟". أحرجني ذلك اللئيم، فقلت مدافعاً: "كنت مجبراً على النوم!". ضحك ضحكة مجلجلة، وقال: "خذني إلى منزلي وإلا نمت هنا". على الفور أمسكت بيده واقتدته إلى منزله متحدياً حظر التجوال.

استمر حظر التجوال مدة شهر كامل، دون ماء أو كهرباء. حال رفعه ذهبت إلى منزل محمد كي أطمئن عليه، فوجدته في المنزل مستلقياً على سريره. سررت جداً بعودته إلى بيته حياً. لم يخطر على بالي لحظة واحدة أنه سينجو من الموت. اقتربت منه والفرحة تغمر قلبي بسلامته. مددت يدي لمصافحته، رمقني بنظرة حزينة وطأطأ رأسه دون أن يمد يده لمصافحتي. ظننت أنه غاضب مني لسبب

أجهله. أخبرتني شقيقته أن يده ورجله في الشق الأيمن مشلولتين. تحطم قلبي حين سمعت ذلك. لم أعرف أية كلمات تسعفني في التخفيف عنه. جلست بجانبه أحثه على صبر لن يحتمله، فقال لي بلسان ثقيل: "لا تواسيني فأنا بخير، ونفسيتي صلبة". طبطبت على كتفه، وقلت مشجعاً: "هذا ما أريد سماعه". ابتسم وقال: "لا تقلق، أنا قوي وذكي". هززت رأسي مؤيداً. استطرد قائلاً وكأنه يواسي نفسه: "قبل أن أُصاب بالشلل انتزعت العلم الإسرائيلي عن خيمة الجنود وعلَّقت مكانه العلم الفلسطيني". سألته باهتمام: "حقاً؟ كيف فعلت ذلك؟". أجاب بحماس: "نعم! كانوا نائمين، حتى أنني تبولت على علمهم". ابتسمت، وقلت ناصحاً: "لا تخبر أحداً بما فعلت". سألني بدهشة: لماذا؟ فأخبرته أن الاحتلال سيعتقله لو عرفوا ذلك. سألني مستغرباً: "وهل يعتقلون مشلولاً؟". هززت رأسي، وقلت: "اعتقلوا رجلاً أصم أبكم واتهموه بالتحريض ضدهم عبر مكبرات الصوت". ضحك وكأنه سمع نكتة.

احترق قلبي وتمزَّق ألماً على ذلك الصبي الذي فقد أمه وأصبح معاقاً في ليلة وضحاها، انطفأ قنديل حياته منذ نعومة أظفاره، انغمست أيامه القادمة بوحل التعاسة الأزلية. كيف سيعيش المسكين بيد واحدة ورجل واحدة؟ لعنت الاحتلال الذي أحلّ لنفسه اضطهاد الطفولة التي مجّدها الأنبياء والشعراء، وصانها الإنسان في أكثر عصوره تخلّفاً وانحطاطاً، وصانتها حيوانات الغابة وهي ترضع أطفالها وتحنو عليهم وتحميهم حتى من بين جنسهم. أطفال فلسطين هم الأتعس حظاً في هذه الغابة الدموية. تعساً لقرن الطفولة المعذبة المستباحة دماؤها بلا قيد أو حدود، بل "سحقاً لأطفال العالم إن لم يعش أطفال فلسطين".

في المساء داهم جيش الاحتلال المخيم، وفرضوا حظر التجوال من جديد، هذه المرة بحجة هدم أربعة منازل تخص أربعة شبان متهمين بقضايا خطيرة أخلّت بأمن دولتهم حسب ادعائهم. أخرجوا أصحاب البيوت المقصودة عنوة، وهدموا بيوتهم بواسطة جرافات عملاقة. هدموها وهم يضحكون، يستمتعون بدموع أصحابها ويستهترون بوجعهم وحزنهم. هدموها وانصرفوا ينادون برفع حظر التجوال. هرع الناس ليروا ما فعلوه بتلك البيوت بوجوه عابسة كالحة، وقلوب باكية متعاطفة. لقد دمروها تدميراً، لم يتركوا فيها سقفاً ولا جداراً، لم يتركوا شيئاً على الإطلاق، حتى أن حظيرة الدجاج لم تنج من التدمير.

رأيت أصحاب البيوت المدمرة يبكون ويلطمون وجوههم، متحسرين على بيوتهم التي شقوا سنين طويلة وذاقوا الأمرين حتى بنوها. جاء إليهم من يدمرها في لحظات، برمشة عين، بجرة قلم. سمعت أحدهم يقول: "لم أسدد بعد ديون منزلي"، وامرأة تصرخ: "سرقوا أرضنا في الرملة ولحقوا بنا كالكلاب المسعورة ليسرقوا العَظْمة التي حصلنا عليها بعد شقاء طويل"، وامرأة أخرى: "يا رب، انتقم منهم شر انتقام"، وأخرى: "سننام في المقابر لكننا لن نركع". عبارات كثيرة تعبِّر عن ألمهم وعذابهم المستمر، الخالد خلود الصمت العربي.

السكين المتثلمة تحز أعناقهم النحيفة، تحزها على مدار الأربع والعشرين ساعة، تحزها ليل نهار وبالمجان دون أن يلتفت العالم نحوهم، دون أن يتحرّك ما يسمى بمجلس الأمن.

كنا نقف مذهولين من الكارثة التي أطاحت بأولئك المطحونين، عاجزين عن فعل شيء أو حتى قول شيء. النسوة تصرخ تسبّ وتلعن المحتلين، والرجال

يقفون بصمت يحدقون بركام منازلهم المدمرة، غير قادرين على الكلام أو الاهتمام بأحوال نسائهم اللواتي مزَّقن ثيابهن من هول الكارثة، فبدت عوراتهن موطئ الأنظار.

أقبلت الصحافة لتصور المنازل المدمرة واللاجئين الجدد، الصحفيون يلتقطون عشرات الصور، يصورون الإنسان والحجر، ووجوه أسرتها قسوة المشهد. يصورون منازلنا المدمرة، وشهداءنا، وجرحانا، دون أن يؤثروا على أحد يمكنه أن يوقف تلك المسرحية الهزيلة. مسرحية يلعب بطولتها فئران القرن العشرين، يتجاوزون النصوص، كما يتجاوزون القوانين ولا أحد يجرؤ على إيقافهم واستمرارهم في تلك العروض الدموية. كل يوم معاناتنا تتجدد، ليبقى المعتدي بطلاً في نظر الرأي العام، والضحية هي المجرمة بالرغم من سلبها معنى الحياة.

بعد قليل أقبل أبو محمد وشقيقه أبو العبد يتكئان على بعضهما، نظرا إلى البيوت المدمرة نظرات موجوعة. جن جنونهما، جلسا على الركام ودَعيا الله أن يرفع غضبه ومقته عنا. سمعهما صاحب أحد المنازل المهدمة فتقدم نحوهما وصاح: "لماذا تدعوان من يعذبنا"، وكزه أبو العبد بعكازه، وقال غاضباً: "لا تكفر يا رجل، إذا أحب الله عبداً ابتلاه"، قال الرجل بحرقة: "ابتلاني بما لا أطيق، ابتلاني بمأوى أطفالي". أجابه أبو العبد بانفعال: "ويبتليك في نفسك وأولادك أيضاً". لطم الرجل وجهه بقسوة وصاح: "ألا ترى ماذا أصابني؟". أجابه أبو العبد مواسياً: "الجميع معرض لما أصابك". ارتمى الرجل على الأرض، وسأل بقهر وجنون: "أين سنسكن الآن؟". أجابه أبو العبد بقسوة: "المقابر واسعة"،

obeikandi.com

أخذ الرجل يشد شعره ويصيح: "ليتني كنت عميلاً، ولو كنت لما هدموا منزلي"، وكزه أبو العبد بعكازه مرة أخرى، وصاح: "اخرس يا رجل، واحمد ربك على ما أصابك". نهض الرجل عن الأرض، وبعصبية صاح: "اعتقلوا ابني: فقلت الحمد لله، قتلوا ابني الأكبر، فقلت: الحمد لله، شلّوا جسد ابنتي برصاصهم، فقلت: الحمد لله، والآن هدموا بيتي أمام ناظري فماذا تريدني أن أقول يا أبا العبد؟". أجابه ببرود أعصاب: "قل الحمد لله أيضاً، عرفتك رجلاً صابراً، صامداً، تتحمل كل ما يصيبك، أتريد بعد كل ما أصابك أن تكفر بالله؟". أجهش الرجل بالبكاء وارتمى على الأرض يعفر رأسه بتراب بيته المدمّر في مشهد هزّ قلوب الموجودين وأبكاهم. قام أبو العبد وطوقه بذراعيه وحثّه على الصبر والتحمل.

آه يا أبي! من المؤلم أن يُهدم بيتك أمام ناظريك وأنت تقف عاجزاً عن فعل شيء، بل كل ما تقوى عليه تجرع الألم بصمت. ما أفظع أن ترى حجارة بيتك تتساقط فتاتاً! وكل حجر ينهار يأخذ معه ذكرى ويهدم ركناً في صدرك. صرت أرى وأنا أتلظّى قهراً كيف يذوب ويتناثر ما بناه ذلك المسكين الذي احترق شبابه وهو يعمل في الأشغال الشاقة. يحمل الباطون على كتفه ويصعد به سلالم طويلة وعالية، أو يحفر الأرض، وينقل حجارة ثقيلة وأكياس الاسمنت على ظهره، يتحمل الكثير من شتائم وإهانات، كي يلملم قروشاً قليلة ينفقها ثمناً للأدوية أو لاحتياجات أولاده. تحمَّل الأمرين وذاق العلقم ليرفع حجراً جديداً مع كل يوم في بناء البيت الذي يظلل أسرته، وأيّ بيت؟ بيت حقير لكنه كان يسترهم.

obeikandi.com

آه يا أبي! أصبحت هذه البلاد خراباً، فلا هناك من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع عليها. حُجبت الشمس عنّا فلا تضيء حتى يبصر الأعمى، ويستيقظ النيام، ويجوع أصحاب الأمعاء المتخمة، ويعطش من يمتلكون الآبار. كل الأشياء الطيبة ولَّت، والبلاد تحتضر. أملاك البائس تُغتصب منه وتُعطى للأجنبي كهدية، ما أشبه اليوم بالبارحة، الصورة تتكرر، وما أحوجنا اليوم لمعجزة تمطرها السماء، لا يهم نوع المعجزة، ما يهم أن تنصفنا وتخرجنا من مستنقع الموت.

بينما كان أبو العبد يواسي الرجل في محنته، أقبل محمد برفقة صبي يدفع كرسيه المتحرك، أشار أبو العبد بسبابته إلى الصبي، وقال مواسياً من هُدم بيته: "انظر إلى ذلك الصبي لقد شلّ في ليلة وضحاها". تركت العجوز يواسي الرجل في محنته، ومشيت إلى محمد ووقفت بجانبه للتحدث معه. رأيت عدداً كبيراً من صبيان الحارة يلتفون حوله ويحدقون في وجهه وجسده مستغربين ما أصابه، متسائلين عن نفسيته الجديدة. رأيت الدموع تتدفق في عينيه رغم محاولته كبتها والتظاهر بالنفسية الشجاعة. لم يستطع المسكين تحمل نظرات الصبية وهمسهم، انتابته حالة عصبية فصاح بهم: "ابتعدوا عني، ألم تروا صبياً مقعداً من قبل؟". أبعدت الصبية عنه، اقتربت منه ودعوته إلى منزلي ليتناول معي كوباً من الحليب، وكأني أسأت له في دعوتي، نظر إلي بعصبية ورفض دعوتي بأسلوب فظّ.

شعرت أنه ابتدأ يدرك مصاعب الحياة الجديدة، وانتقل إلى وضع جديد. ضغطت كتفه وهمست في أذنه: "أود أن أرى محمداً الذي تحدّى الخوف وعلّق العلم على الخيمة والجنود نيام". رمقني بنظرة، وقال بصوت حزين: "محمد الذي

تتحدث عنه مات". حرّك عجلات مقعده قليلاً، واستدار إلى ثانية، وقال: "نعم، مات". تقدَّمت إليه وقلت مشجعاً: "بل ازداد شجاعة". دفع عجلات مقعده بعصبية، وصاح بصوت باك: "بل أصبحتُ سخرية لصبيان الحارة"، قالها وابتعد عني بضعة أمتار وكأني عدوه. لم أرد أن أزعجه أكثر، أو أثقل عليه، فضَّلت ألا أتكلم معه حتى لا يزداد عصبية.

بعد برهة أقبل صبي لا يحب محمداً، يغار منه بسبب تفوقه عليه في المدرسة. وقف أمام محمد وقفة استفزازية، ينظر إلى مقعده وكأنه يشعر بالشماتة لما أصاب محمداً. أشاح محمد بوجهه محاولاً تجنب الاصطدام به، ازداد الصبي قسوة ووقاحة فأخذ يدور حول محمد كالمكوك، لم يستطع محمد ابتلاع استفزازاته، فصاح به يسأله: ماذا تريد مني؟ فأجاب الصبي بلهجة ساخرة: "مبارك لك سيارتك الجديدة"، رمقه محمد بنظرة حزينة، وقال: "أتسخر من إعاقتي؟"، فلتت من الصبي ضحكة ساخرة، وقال: "هلا سمحت لي بجولة؟".

لم أستطع احتمال تصرفاته الوقحة، أمسكت بيده ودفعته طالباً منه الانصراف من أمام محمد. لم يعجبه أسلوبي، رمقني بنظرة مغموسة بالكراهية، وقال مهدداً: "لو امتدت يدك عليّ مرة أخرى، فسوف أُخبر والدي ليكسرها ويكسر عنقك معها". لم أحتمل طول لسانه، صفعته على وجهه بقوة، وأجبرته على الاعتذار لمحمد أولاً ولي ثانياً. اعتذر بأسلوب سخيف، ركلته على مؤخرته بطريقة مهينة أضحكت الأطفال، واقتدت محمداً إلى منزلي، لأخفف عنه الألم الذي تسبب به ذلك الصبي المستهتر.

جلسنا قرب النافذة وأخذنا نراقب المارة بقلوب مقفرة وألسنة شحيحة. لم أكن أعرف كيف أتعامل معه، كنت خائفاً من زلة لسان ربما تزيد من إحباطه وبؤسه. بعد قليل رأينا الصبيان يطاردون بعضهم، يلعبون لعبة الجيش والقوى الضاربة، بلعت ريقي، وقلت في نفسي: "غادروا المكان أرجوكم"، وكأنهم تعمدوا أن يغيظوا محمداً بما يحب. رأيته ينظر إليهم ويبكي بصمت، سألته عما يبكيه وأنا أعرف الإجابة، فقال بصوت حزين: "أحب تلك اللعبة". ابتسمت وقلبي يبكي، وقلت مواسياً: "سيشفيك الله لتلعب معهم!". طأطأ رأسه وقال بنبرة حزينة: "أصابني الله بالشلل وحرمني من أشياء كثيرة: لعب الكرة، ولعبة الجيش، وألعاب كثيرة". صمت قليلاً والحسرة تسيطر عليه، وقال منفعلاً: "أريد العودة إلى منزلي". عرفت أنه يختنق، حاولت أن أبقيه قليلاً دون فائدة، خرجت برفقته حتى أوصلته منزله. رأيت والده ينتظره أمام الباب، طرحت عليه السلام، تجاهلني وأدخل ابنه المنزل، وهو يصرخ في وجهه: "ألا يكفي أنك قتلت أمك؟"، ومحمد يجيب باكياً: "لم أقتلها! لم أقتلها! كانت طيبة فأخذها الله كي يكرمها!".

يا لوقاحة والده وقسوة قلبه! استفزني أسلوبه للغاية. أردت أن أقتحم المنزل وأضربه ضرباً مبرحاً على سوء معاملته لابن كل ما يحتاجه الآن الحنان. تراجعت خوفاً من التسبب له بمشاكل أكثر، يكفيه ما هو فيه من ألم وضيق صدر.

اختصاراً للشر عدت إلى منزلي وأخبرت أبا العبد بما حدث مع محمد. انتفخت أوداجه من الغضب، نهض من فراشه وطلب مني أن أقتاده إلى منزل أبي محمد، ففعلت. طرقت الباب فخرج والده يلهث، وبتجهم وسخط سألني:

obeikandi.com

"خيراً، ماذا تريد؟". قلت بأدب: "أبو العبد يريد أن يزور ابنك ويطمئن عليه"، رمقني بنظرة متجهمة، وقال بأسلوب فظّ: "ابني بخير، مع السلامة". قالها وأغلق الباب في وجهي. استشاط أبو العبد غضباً ولأول مرة أراه غاضباً بهذا الشكل: "افتح الباب أيها الوقح"، فتح الباب فوكزه بعصاه، ودخل المنزل عنوة.

وجدنا محمداً مستلقياً على سريره مقيد اليدين والقدمين في مشهد مأساوي صعق أبو العبد وصعقت، هرع إليه أبو العبد وفك وثاقه ويداه ترتجفان من هول ما رأى. عانقه بمودة واعتذر له عن سوء تصرف والده، أجهش محمد بالبكاء قائلاً: "لماذا تغيَّرت معاملته معي؟". أجاب العجوز: "ربما هو متضايق لوفاة أمك". صاح محمد بانفعال وقهر: "وما ذنبي أنا بوفاتها؟". ضمه العجوز إلى صدره، وقال: "لا ذنب لك، سأتحدث معه!".

ذهب أبو العبد وجلس بجانب أبي محمد الذي كان يدخن وهو في غاية الغضب والاستياء، غرز أصابعه في كتفه بمودة، وسأله معاتباً: "ماذا أصابك يا رجل؟". أجاب أبو محمد بانفعال: "لو سمع كلامي لما أصبح مشلولاً". قطب العجوز حاجبيه، وقال: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". وقف أبو محمد وصاح بقهر: "ماذا تريد مني أن أفعل؟ انتظر وفاته، أم ماذا؟". وقف العجوز وأمسك به من ذراعه، وقال: "ما زال ولدك صبياً، دعه يخرج مثلما يشاء، وكُفّ عن معاقبته بوفاة أمه، يكفيه ما هو فيه". رمقه أبو محمد بنظرة جافة، وقال بوقاحة: "هو من تسبب في قتلها، لو التزم البيت لما حدث معه ما حدث". هزّ العجوز ذراعه بقوة، وقال محتداً: "لا تتحدى القدر بكلمة "لو" الشيطانية، فما حدث معه ومع أمه كان مقدراً لهما سواء قبلت أو رفضت". أجهش أبو محمد

بالبكاء وقال: "أنا لا أكفر بقضاء الله وقدره، لكنني أريده أن لا يجلب لي مصيبة أكبر بمغادرته المنزل". أجلسه العجوز، واقترح بمودة: "ما رأيك بأن يعمل مع صابر في الحانوت، فبهذه الطريقة تخلصه من الوحدة والانطواء على ذاته، وتخلصه من شعوره بالعجز وعدم الفائدة". صاح محمد متسائلاً: "وماذا عن المدرسة؟". أجاب العجوز بمودة: "المدرسة مغلقة، عندما تفتح تعود إليها". تدخل أبو محمد، وسأل: "وما رأي صابر بذلك؟". أجاب العجوز مدّعياً: "هذه فكرة صابر". أقنعه أبو العبد بالعمل معي في الحانوت. رغم أنها لم تكن فكرتي إلا أنني رحَّبت بأن يعمل معي، فعلى الأقل سيتخلص من عقدة شعوره بالنقص ومن هيمنة والده.

في اليوم التالي ذهبت إلى الحانوت، وجدت محمداً ينتظرني أمام الحانوت متحمساً لمباشرة عمله معي. كان وجهه يشع نوراً وصفاءً. فتحت الحانوت وأجلسته ليشرف على محاسبة الزبائن، كان ذكياً جداً في أمور المحاسبة رغم صغر سنه وقلة سنوات دراسته. في المساء أقبل نضال على الحانوت وهو في غاية السعادة. اقترب من محمد، وقال له: "أبشر يا محمد، هناك رجل أعمال فلسطيني يقطن بفرنسا تطوَّع أن يعالجك على حسابه". صفن محمد قليلاً، وسأل مستغرباً: "هل يوجد علاج للشلل؟". أجابه نضال بتفاؤل: "أرسلت لرجل الأعمال التقارير الطبية وعرضها على المختصين وأكدوا أنه يوجد أمل". اغرورقت عينا محمد بالدموع، وسأل بلهفة: "هل سأعود للعب الكرة و...". قاطعه نضال قائلا: "ستلعب وتركض بإذن الله...". رفع يديه الصغيرتين إلى السماء، وقال بقلب خاشع: "يا رب!". ثم استأذن بالذهاب إلى منزله ليخبر والده بالأمر.

غُمر قلب محمد الصغير بالسعادة، وغادر الحانوت يدفع عجل مقعده بسرعة ليزف لأهله هذا الخبر. وما أن تلاشى ظله حتى همست لنضال: "هل أنت واثق أنه يوجد أمل في شفائه؟". أجاب بثقة: "هذا ما أكده لي رجل الأعمال". قلت متشككاً: "أتمنى ذلك، لكن أخشى أن...". قاطعني نضال، وقال متفائلاً: "ثق بالله، إنه على كل شيء قدير".

obeikandl.com

(25)

بعد شهر غادر محمد لتلقي العلاج في فرنسا، وأقبل شقيقي لزيارتي برفقة زوجته وابنته. التقيت بهم في السيارة، لكنني لم أعرفهم. عدت إلى الحانوت وما كدت أجلس حتى أقبل عليّ صبي وقال إن زوجتي تريدني في الحال. خفق قلبي، اعتقدت أن مكروهاً قد أصاب الأخوين فانطلقت راكضاً كالمجنون لأرى ما حدث. دخلت المنزل فرأيت الرجل الذي التقيت معه بالسيارة يجلس برفقة دلال والأخوين. طرحت السلام وسألتهم بلهفة عما جرى، سألتني دلال: "أتعرف هذا الرجل؟". قلت ببساطة: "رأيته في السيارة!". طلبت مني أن أنظر إليه جيداً، نظرت إليه وإلى زوجته وابنته وقلت إني لا أعرف أحداً فيهم. ابتسمت دلال، وقالت: "هذا شقيقك أسامة وهذه زوجته وهذه ابنته". شعرت بدوار مفاجئ، وخفقان قلب يقاوم، كأنها طبول الحرب في زمن السلام، وقف أخي وجسده يهتزّ كجسدي، وتعانقنا طويلاً.

يا لها من لحظة غريبة رغم الفرح المفرط بلقاء أخ تمنيت أن تراه عيني! جلسنا سوياً كالغرباء نتبادل النظرات، نتصفح وجهينا كل يبحث عن شبه مشترك لنبدأ حديثاً سيجر خلفه حكايات وحكايات. علقت الكلمات في حلوقنا، فاستعضنا عنها بالنظرات، كل نظرة كانت تفضح همّاً، وتعد باقتلاعه لتزرع مكانه أعظم الأمنيات، وعيون الحاضرين ترقبنا وتنتظر من يبادر بأولى الكلمات.

كأنه عرف ما يجول في خاطري، فبادر بالكلام، فحدثني عن قصته من ألفها إلى يائها، تفهمت ما أصابه، والتمست له عذراً قوياً مسح من قلبي أسوأ الذكريات. تعانقنا ثانية ثم أخذته في جولة داخل المخيم. كان سعيداً للغاية، كلما مررنا بشارع أو زقاق أخبرني عن ذكرى جميلة تخص طفولته، شعرت أنه يحب المخيم حباً لا تصفه الكلمات، وما أن انتهت جولتنا حتى توقف، وقال بحماس: "أريد أن أستقرّ في هذا المخيم". اعتقدت أنه يمازحني، أكد لي أنه جاد، وطلب مني مساعدته في البحث عن قطعة أرض كبيرة ليبني عليها منزلاً كبيراً لنا جميعاً، فاجأني بقراره الرائع، غمر قلبي بسعادة لطالما انتظرتها.

اشترينا قطعة أرض كبيرة تقع على قمة الجبل المطل على المخيم، ثم ذهبنا إلى مكتب هندسي لتصميم عمارتنا الجديدة. عرض شقيقي على المهندس تصوّره، وطلب أن يكون هناك ثلاثة طوابق: الطابق الأول سوبر ماركت، والطابق الثاني شقة لي ولدلال وللأخوين، والطابق الثالث شقة له ولزوجته وابنته.

بعد ثلاثة أشهر من العمل الشاق المتواصل انتهى المتعهد من تجهيز العمارة، وسلَّمنا مفاتيحها جاهزة لا ينقصها سوى الأثاث. قمنا بتأثيثها، وبعد أسبوع أقمنا فيها.

في مساء الليلة الأولى من إقامتنا في منزلنا الجديد، وبينما كنا نتناول وجبة العشاء، أقبل جرعوش إلينا يزف خبراً أثلج صدورنا وأزاح غيمة القلق عن قلوبنا. أخبرنا أن محمداً قد عاد من فرنسا. غادرت المنزل راكضاً لأرى كيف حاله. وصلت منزله فرأيت شقيقته تقف أمام منزلها وتوزع الحلوى على المارة. سألتها بلهفة: "هل تحسّن وضعه؟". أجابت بسعادة: نعم، لم يعد يحتاج للكرسي

المتحرك. لم أستطع الانتظار، قرعت الباب ودخلت دون أن يُؤذن لي بالدخول. وجدته يجلس على أريكة ومن حوله يجلس أصحابه ويحدثهم عن رحلته إلى فرنسا، يقول لهم إنها جنة الله على الأرض. تنحنحت لألفت انتباهه، وما أن رآني حتى أقبل إلي يتكئ على العكاز. تبادلنا العناق ولساني يلهج بحمد الله. توقف عن العناق، وقال: "سألعب كرة القدم قريباً". قلت بفرح: "نعم يا صديقي، ستلعب كل شيء، ألم أقل لك ذلك؟". ابتسم وقال: "نعم قلت، هيا تفضل بالجلوس". جلسنا وأخذ يحدثني عن جمال فرنسا وعظمة ممرضاتها. قال متحمساً: "ممرضات فرنسا ملائكة رحمة بمعنى الكلمة، لا يمكنك أن تتصور مدى روعتهن ورقتهن وتعاطفهن معي". قلت ممازحاً: "ماذا فعلن لك الممرضات الشقراوات الحسناوات أيها الشقي؟ هيا حدثني". مد رأسه إلي وهمس قائلاً: "ليتني كنت كبيراً لتزوجت واحدة منهن". ابتسمت ابتسامة عريضة، وقلت همساً: "لم يفت الأوان انتظر بضع سنوات واذهب لتتزوج واحدة". سبّل عيناه وقال: "الله كريم".

أمضيت برفقته ساعة تقريباً وهو يحدثني عن فرنسا وجمال طبيعتها وعظمة بنيانها وأنهارها، ثم عدت إلى المنزل وأخبرت العجوز عن حال محمد وشقاوته، فسرّ كثيراً بسلامته وقال إنه سيزوره فيما بعد ليهنئه بسلامته.

بعد مرور أسبوع من عودة محمد، شرعت بالعمل في السوبر ماركت الجديد بشراكة نضال. كان يحوي بضائع كثيرة ومتعددة. طرأ تحسن كبير على أوضاعنا المالية، إلا أن الأوضاع السياسية كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. كلما حدث شيء

obeikandi.com

مناهض للاحتلال تنمروا علينا بمنع التجوال، ولجأوا إلى العقوبات الجماعية، وكثيراً ما داهم الجيش عمارتنا يبحثون عن المطاردين.

ذات يوم حدث اشتباك عسكري بين مجموعات الفهد الأسود وقوات من الجيش الإسرائيلي المتمركزين عند نقطة تفتيش. استعان الجيش بطائرات الأباتشي الحربية للسيطرة على عناصر الكتائب، الأمر الذي دفع الكتائب للانسحاب والهروب بين الجبال. كنت أقف أمام السوبر ماركت وأستمع لزخّات الرصاص التي كانت ترعد في الجبال دون توقف وكأنها الحرب. لحظات وإذا بنضال يركض باتجاهي متهالكاً، جسده يتصبب عرقاً، ويلهث بقوة. سألته بغباء: "ماذا حدث؟ ما بك؟". لم يستطع لفظ أنفاسه أو التفوه بكلمة من شدة التعب، وجود السلاح في يده كان كافياً أن اعرف أنه كان يقاوم المحتل مع الكتائب، وأن الجيش يطارده. نصحته بدخول العمارة والاختباء بها، ففعل لقلة الخيارات أمامه.

لم يكن أحد موجوداً في العمارة سوى شقيقي أسامه وابنته نور التي كانت تستحم. دخل نضال العمارة مذعوراً يحمل سلاحه ويلهث طالباً المساعدة. أمره شقيقي بإماطة اللثام عن وجهه والدخول إلى الحمام، قائلاً: "اذهب إلى الحمام، ابنتي تستحم، سأتدبر الأمر مع الجيش". رفض نضال فعل ذلك مفضلاً تسليم نفسه. سمع شقيقي قرع نعال الجنود وهم يدخلون العمارة، فدفع نضالاً بقوة نحو الحمام، قائلاً: "هي أختك في عهد الله"، أجاب نضال: "أشهد الله أنني لن أخون من ائتمنني على عرضه". دخل الحمام ونور عارية تتمدد في حوض الماء وجسدها مغطى برغوة صابون كثيفة، فزعت حين اقتحم عليها خلوتها والسلاح في يده. أخذت تصيح منادية على أبيها، ارتبك نضال فأماط اللثام عن وجهه،

وقال بتلعثم وهو ينظر إلى الاتجاه المعاكس: "الجيش يطاردني، طلب والدك مني...". قاطعته مدركة أنه في مأزق، وقالت باستحياء: "اخلع ثيابك وتمدد معي في الحوض".

لم يكن هناك وقت للخجل، إذ أن الجنود بدؤوا يقرعون الباب بهمجية، ويصيحون مطالبين فتحه. تناولت سلاحه ووضعته في الحوض، وخلع نضال القسم العلوي من ثيابه بسرعة وتربع في حوض الماء وهو يرتدي سرواله، شرعت نور ترشق رأسه بالماء، وتحرك الماء الموجود في الحوض حتى تزداد كثافة الرغوة.

بعد دقائق معدودة فتح شقيقي الباب فاقتحم الجيش الشقة والغضب يكتسح وجوههم، حاولوا الانتشار بين الغرف لتفتيشها، اعترض طريقهم يسألهم عن مطلبهم بلهجة حادة، سأله الضابط: "دخل شاب مسلح العمارة، أين هو؟". أجاب شقيقي ببرود أعصاب وباللغة الإنجليزية: "لا يوجد أحد في المنزل سوى ابنتي العروس وزوجها". سأله الضابط بلهجة ساخطة: "أين هما؟!". تنهد شقيقي، وقال: "إنهما يستحمان". دفعوه بأسلوب قاس وأوقعوه أرضاً، اقتحموا الحمام بهمجية فجن جنون نضال وصاح غاضباً: "كيف تسمحون لأنفسكم باقتحام حرماتنا". تجاهل الضابط صياحه، وسأله بلهجة غاضبة: "من أنت؟"، أجاب نضال بفظاظة: "أنا صاحب هذه البناية وهذه عروسي، هيا انصرفوا"، ثم صاحت نور باللغة الإنجليزية طالبة منهم الانصراف وإلا اشتكتهم للسفارة الأمريكية. طفح وجه الضابط بالحمرة، وقال معتذراً: "نأسف لهذا الخطأ". أجابه نضال بانفعال: "اعتذارك مقبول، مع السلامة".

أغلق الضابط الباب، وأمر جنوده بتفتيش باقي الغرف فلم يجدوا أحداً، اضطروا لمغادرة العمارة ليواصلوا بحثهم عن ذلك المطارد.

نجا نضال بأعجوبة، لم يعرف كيف يعبِّر عن شكره لشقيقي ولنور التي أنقذته من موت أو مؤبد مؤكد. كل الكلمات لا تكفي لتصف عظمة من صنعوا هذا الموقف، اكتفى بقول بعض الكلمات: "أنا مدان لكما بحياتي". طبطب شقيقي على كتفه، وقال بمودة: "الضرورات تبيح المحظورات".

غادر نضال العمارة معتقداً أنه نجا، لم يكن يعرف أن خفافيش الليل كانت ترصد تحركاته، وأن أمره قد انكشف فأصبح مطلوباً للاحتلال.

دخل منزله فوجد أمه وشقيقته تبكيان، وأثاث المنزل مقلوباً رأساً على عقب. أصابه الهلع فسأل أمه عما جرى. أخبرته أن الجيش يبحث عنه، وعليه أن يسلم نفسه. رفض أن يسلم نفسه، قائلاً: "هناك ما هو أهم من الجيش والاعتقال أو حتى الموت". استغربت أمه كلامه وسألته ماذا يقصد. أخبرها أنه سيتزوج نور، وحدَّثها عما جرى معه. أخذ مباركة أمه لتلك الخطوة المقدسة حسب تعبيرها، وغادر بحذر ليتدبر مكاناً ينام فيه.

في الليلة التالية أقبل نضال برفقة وجهاء المخيم يطلب يد نور للزواج، وافقت نور والجميع على طلبه، رغم أنه أخبرهم أنه مطلوب للاحتلال وربما يتم اعتقاله في أية لحظة وقد يطول سجنه لسنوات عديدة. لم يأبهوا بما سيحدث متوكلين على الله تماماً. قرؤوا الفاتحة وانطلقت الزغاريد.

في اليوم التالي تجمع شبان المخيم أمام منزل نضال، خرج من منزله فحملوه فوق أكتافهم واتجهوا به إلى الحلاق ليقص شعره وهم يغنّون له أغانٍ شعبية.

obeikandi.com

انتهى الحلاق من تزينه فحملوه الشبان ثانية واقتادوه إلى منزله ليستحم، دخل برفقته ثلاثة شبان لمساعدته في تغسيل جسمه، وتلبيسه زي الزفاف حسب العادات والتقاليد. انتهوا من تغسيله وخرج ليجد مئات الشبان ينتظرونه بالتصفيق والهتاف، والنساء بالزغاريد والأغاني. حملوه على أكتافهم وخرجوا يزفونه في شوارع المخيم يغنُّون بصوت واحد:

(طلع الزين من الحمام

الله واسم الله عليه

عريسنا زين الشباب

زين الشباب عريسنا

عريسنا من قال عنه أسمر

عريسنا أبيض من الجبنة وأحلى من السكر)

أقيمت لنضال حفلة وطنية مميزة، شاركه فيها جميع أهالي المخيم، حتى أن الشبان الملثمين كانوا يحرسون المخيم خوفاً من اقتحام الجنود منزله وبالتالي إلقاء القبض عليه في ليلة زفافه. كان يوماً مميزاً حيث أقيمت العروض العسكرية وأُطلق الرصاص من قبل كتائب الفهد الأسود تعبيراً عن فرحتهم بعرس أحد أفرادهم. كان شقيقي متوتراً جداً، خائفاً من اقتحام الجيش للمخيم واعتقال زوج ابنته الوحيدة في ليلة زفافها، وكنت أكثر توتراً وقلقاً منه.

تدبّر أبو العبد موضوع حماية نضال من الاعتقال بأساليبه الذكية، تارة يلبسه ثياب امرأة، وأخرى ثياب عجوز، وظل نضال مستمراً في تقمص الشخصيات العديدة بنجاح لمدة لا بأس بها.

obeikandl.com

ما بين الفينة والأخرى كنا نسمع عن عمليات تفجير ضد حافلات إسرائيلية أو داخل أسواق الخضار أو في المقاهي. كلما وقعت عملية جلست أتجادل مع أبي العبد عن شرعيتها حتى ملّ من كلامي وفضَّل ألا أناقشه في موضوع العمليات. كان مصراً على أنها أرقى أنواع المقاومة وأكثرها تأثيراً على الاحتلال من الناحية الأمنية والجسدية والاقتصادية والنفسية، ولم يكن يهمُّه إن كانت تستهدف مدنيين أو جنوداً، معتقداً أن دولة الاحتلال تخلو من المدنيين. الكل في نظره محتل ومغتصب. كان رأي شقيقه أبي محمد يختلف عنه معتقداً أن مثل هذه العمليات تعتبر ناجعة ومؤثرة إذا كانت تستهدف العسكريين فقط وليس المدنيين، أما أنا فلا أؤيدها حتى لو كانت تستهدف دجاجة.

obeikandl.com

(26)

دخلت الانتفاضة عامها السادس ونضال لا يزال مطارداً ومنشغلاً بتقمص الشخصيات. ذات يوم تقدَّم رجل إلى شقيقته يطلب يدها للزواج، رفضت أم نضال تزويجها دون وجود شقيقها نضال وموافقته. اقترح الرجل عليها أن تبعث وراء ابنها نضال ليحضر ويقول كلمته، فوافقت. أرسلت أم نضال أحد أقاربها الموثوق بهم لاستدعاء نضال ليبت في أمر زواج شقيقته. لم يشأ نضال أن يكون عثرة في تعطيل زواج شقيقته، فذهب ليتعرف على العريس دون تنكُّر. دخل نضال الصالة ففوجئ بخمسة رجال يرتدون ثياباً رسمية ويفوح منهم شذا الثراء، وقفوا وصافحوه بحرارة، وجلس بجانب أكبرهم بناء على رغبتهم.

تحدَّثوا قليلاً في أمور مختلفة، ثم طلب أكبرهم يد شقيقة نضال للزواج من نجله، راجياً من نضال مباركته. رحَّب نضال بطلبه وطلب منه أن يمهله فترة وجيزة للسؤال عن العريس حسب الأعراف والتقاليد. أقبلت أم نضال وهي تحمل صينية القهوة لتقوم بواجب الضيوف، تناول نضال الصينية من أمه، وما كاد يخطو خطوة نحو الضيف الأول وإذا به يفاجأ بالضيوف المزعومين يسحبون مسدساتهم المخبَّأة تحت زيهم الرسمي ويصوبونها نحو رأس نضال طالبين منه رفع يديه إلى الأعلى وعدم الحركة.

لم يكن أولئك الرجال قادمين من أجل طلب يد شقيقته، بل لطلب يديه للقيود. لم يكونوا عرباً على الإطلاق وإنما وحدات إسرائيلية خاصة، تتقن اللغة العربية وتحفظ العادات والتقاليد العربية عن ظهر قلب. أما الذي لعب دور العريس وأتقنه بشكل لا يقبل الجدل، ما كان إلا ضابط المنطقة الجديد الذي كُلِّف بمسؤولية ضبط الأمن، فنجح بتفوق في القبض على المطارد الذي أهلك ضابط المخابرات السابق ورجاله.

وضعوا القيود في معصمي نضال، واقتادوه إلى مركباتهم.

تسرَّبت الأخبار كسرعة البرق إلى مسامع نور، عرفت باعتقال زوجها عن طريق جرعوش، فجنّ جنونها. هرعت إلى منزله لتتأكد من صحة ما سمعت، أيقنت أن الخبر صحيح، لم يكن أمامها متسع من الوقت لتواسي أهله، هرعت إلى الصليب الأحمر تخبرهم بأمر اعتقاله، ووكلت له محامية إسرائيلية رفيعة المستوى لتقوم بالدفاع عنه.

أمضى نضال قرابة المائة يوم في أقبية التحقيق دون اعتراف. بعد فشلهم قاموا بإرساله إلى معتقل أنصار ثلاث في صحراء النقب ليمضي هناك ستة أشهر إدارية دون تهمة مثبتة ضده. انتهت المدة، فأطلق سراحه، ولسوء حظه تم اعتقاله ثانية وهو في طريقه إلى منزله حيث ألقي القبض على أحد أفراد مجموعته وقام بالاعتراف عليه.

داهم الجيش العمارة وأخبرونا أنهم سيهدمونها في صباح اليوم التالي، سألناهم باستغراب عن السبب، قالوا إن نضال قد اعترف على قضايا خطيرة وأن المحكمة حكمت عليه بالسجن مدة عشرين عاماً، إضافة إلى هدم منزله. أخبرتهم أن المنزل

ملك شقيقي أسامة وليس لنضال، لم يقتنعوا بذلك، نصحونا بإخراج الأثاث من المنزل حتى يهدموه في الصباح الباكر. أقبل شقيقي وأخذ يتحدَّث معهم باللغة الإنجليزية قائلاً لهم إن المنزل له وليس لزوج ابنته، طلبوا منه أن يريهم عقد ملكيته، أخبرهم أن بيوت المخيم لا عقود لها وأنه قام بتسجيلها في وكالة الغوث. لم يأخذوا كلامه على محمل الجد وأصروا على هدمه، حاول شقيقي أن يمنع قرار الهدم مستعيناً بمحامية إسرائيلية دون فائدة.

في الصباح الباكر قدِم خبراء المتفجرات برفقة قوات كبيرة من الجيش والشرطة العسكرية، طردونا من البيت بقوة السلاح وقاموا بتفجير العمارة التي كلفتنا الكثير. جُنَّ جنون شقيقي وهجم على الجيش فقاموا بضربه واعتقاله. أخبرت زوجته القنصلية الأمريكية باعتقاله فقام القنصل بإخراجه من السجن كونه يحمل الجنسية الأمريكية. لم يستطع شقيقي التحمل أكثر، قرر العودة إلى أمريكيا. حاولت أن أمنعه لكنه أصرّ على الهجرة ثانية. اشترى لي شقة في المخيم وأعطاني مبلغاً من المال لأتدبر به أمري ثم اصطحب زوجته وابنته نور التي أصيبت بانهيار عصبي نتيجة ما حدث لزوجها، وعادوا ليعيشوا في الولايات الأمريكية المتحدة.

آه يا أبي! رحل أسامة قبل أن أُشبع ناظري منه، رحل دون استئذان أو إنذار مبكر كما الموت. رحل وترك في قلبي جرحاً عميقاً فصرت أرى الماء الزلال علقماً، والورد حنظلاً، والحديقة المثمرة صحراء قاحلة، والحياة سجناً مظلماً لا يطاق. بعد أن التقينا شاء القدر أن يفرقنا ثانية ويحرمني منه. ألم يَكْفِهِ أنني أمضيت حياتي مهموماً عليه؟ تمنيت لو أنني لم ألتق به، لكانت معاناتي أرحم. تحطمت نفسيتي

تماماً، فلم أعد أرغب في الحياة، وما أتعسها من حياة! إن صحّت من جانب، فسدت من عشرة جوانب، وإن أقبل المال صلح الجسم، وإن ذهب المال حلّت المصائب، وإن صلح الحال والتقى الغائب بالغائب حلَّ الفراق. ظننت برهة أن الحزن قد ارتحل، أن قلبي بعد الجفاف الطويل قد امتلأ سعادة وحبوراً ونوراً وسروراً، لكنّ ظني سخر مني ومن قلبي وسلَّمني للأقدار المؤلمة لأكون عبدها الوفي. لأُدمن الألم! لأدمن القهر! لأدمن الاكتئاب!

حبست نفسي في مضجعي واستسلمت لموت يعرف الله فيرسلني إليه. ظن أبو العبد أن الشيطان قد استولى على عقلي وقلبي، فابتدأ يتلو على رأسي آيات قرآنية، لعلّ القرآن يشفيني مما أنا فيه. طلب مني أن أريح رأسي وأغلق عينيّ وأستمع لما سيتلوه، بمجرد أني وضعت رأسي المنتفخة بالهموم على وسادتي، غلبني النعاس. نمت وأنا أتساءل عن ماهية قدرنا الصعب، عن آلامنا التي لا نهاية لها، وعن أحلامنا التي لا مكان لها. نمت والدموع تملأ عينيّ، والحسرة تحاصر قلبي.

لحظات فإذا بي أسمع غضب السماء، أصواتاً مرعبة أظنها أصوات الرعد بل أشد رهبة، الأرض ترتج والمنزل يهتزّ، ماذا يحدث؟ هل قامت القيامة وجاء يوم الحساب؟ أم أن أبانا آدم قد ضج من كلماتي فتململ في قبره محاولاً النهوض لتسوية خلافاتنا الدموية التي نشبت منذ أن طرد إلى الأرض.

نعم إنه أبونا آدم، طغيان أولاده وفسادهم في الأرض يقلِّبه يميناً ويساراً في قبره، تؤلمه حكايتهم في الإجرام، تعذبه شراستهم، يؤرقه ظلمهم ضد بعضهم،

obeikandl.com

يتململ في قبره، بل يتخبط قهراً وغضباً. ينهض بعد سبات طويل ليرى ماذا يفعل أولاده.

آدم، أبي! لا تنهض من قبرك، فلن ترى سوى الظلم الذي استفحل في الأرض، ولن تسمع سوى صراخ المقهورين، المعذبين، المضطهَدين، آدم خذ نصيحتي ودعك منهم. ضرب آدم نصائحي بعرض الحائط وأراد أن يجني على نفسه برؤيته أولاده، نفض التراب الذي خُلق منه ويغطي جسده وجاء إليّ في منتصف الليل، يستر عورته بورقة تين. طرق باب شقتي بشدة، ففتحت له.

أرعبني منظره في بادئ الأمر ولكن سرعان ما انجلى خوفي حين قال: "لا تخف يا بني، أنا والدك آدم، أتيت لأتفقد أحوالكم في هذا القرن". أدخلته غرفة الضيافة وأنرت الحجرة، دهش كثيراً عندما رأى الضوء، وباستغراب سأل: "هل تطورت الجدران وأصبحت تضيء إذا ما ضغطتها بسبابتك؟". أخبرته أن الضوء يعمل عندما نضغط الزر، ويغلق عندما نضغطه مرة أخرى. طلب مني أن يجرب فعل ذلك بنفسه، فسمحت له. ظل يكبس الزر ويضحك منبهراً بما توصل إليه أولاده من اختراعات. أعجب بالفكرة كثيراً، وقال إنه لم يكن لديه ذلك الشيء. طلبت منه الجلوس، فجلس على الأرض. عرضت عليه أن يجلس على الأريكة، نظر إليّ مستغرباً كلمة الأريكة، أشرت إليها بسبابتي، هزَّ رأسه معرباً عن إعجابه بذلك الاختراع.

جلس عليها فأعجبته قعدتها، ابتدأ يهزهز نفسه عليها ويضحك. تركته يستمتع بما حرم منه وذهبت إلى الثلاجة لأحضر له شيئاً يشربه. لحق بي وسألني عن ذلك الشيء الكبير. أخبرته بأنها ثلاجة نستخدمها للتبريد. أعجب بالفكرة،

وقال: لم يكن لديَّ مثل ذلك الشيء. تناولت علبة "سفن أب"، وأعطيته إياها، شربها على نَفَس واحد، أعجب بمذاقها فأعطيته علبة أخرى.

عدت وجلست على الأريكة لأشاهد التلفاز، ضغطت زر التشغيل بوساطة جهاز التحكُّم فجاءت محطة "أل ا ر ت" الموسيقية. استغرب من جهاز التلفاز وأخذ يتعوذ بالله من الشيطان معتقداً أن بيتي مسكون بالجان والعفاريت. أخبرته أن بيتي لا يسكنه إلا أنا، وأن ذلك الشيء الذي أسماه صندوق العفاريت مجرد جهاز تلفاز وأنا شغلته باستخدام جهاز التحكُّم. لم يخفف حديثي شدة خوفه، لكنه تقبَّل الأمر واستغفر الله لأولاده. اقتحمت عينيه الراقصات في تلك المحطة، امتقع لون وجهه، وكبرت عيناه عندما رأى إلى أين وصلت الحضارة عند أولاده، استغفر الله لنا ثانية، وغضَّ بصره عن الراقصات اللواتي أثرن شهوته بلا شك.

أغلقت التلفاز من حرج لا من ملل، تناولت أسطوانة موسيقية ووضعتها في جهاز "الاستيريو" عوضاً عنه. رأيته يهز جسده مع الإيقاع دون أن يعي أن الموسيقى رقَّصته، سألته: هل أعجبتك الموسيقى؟

- موسيقى؟

- ما تسمعه الآن، هل يعجبك؟

- أعتقد أنها محرمة...

- لماذا شرعت بالرقص إذن؟

- ماذا يعني رقص؟

- يعني أن تهز جسدك مثلما تفعل الآن.

obeikandl.com

يبدو وأن كلماتي أحرجته، لذلك أطفأت الجهاز الذي أسماه آدم قطعة من الجحيم.

دخلت إلى المطبخ لأصنع له فنجاناً من القهوة، ولدى عودتي إليه وجدته يضغط بأزرار جهاز التحكم محاولاً تشغيل التلفاز، لكنه لم ينجح، حيث كان يضغط على زر الإغلاق لا زر التشغيل. علَّمته كيف يشغله، أخذ يقلب المحطات ورأى ما رأى من عجائب وغرائب. امتنع عن الكلام واكتفى بتقطيب حاجبيه معبراً عن دهشته. أثناء انشغاله بتقليب المحطات كانت محطة "أل م ب س" تبث مسرحية مدرسة المشاغبين، لم يستطع أن يتمالك نفسه من الضحك، بادرني بالسؤال: هل أصاب أولادي مسّ الشيطان؟

– ماذا تقصد؟

– لماذا يستهزئون من بمعلميهم؟

– هذا تمثيل وليس حقيقة.

– تمثيل؟

– تمثيل يعني...

– يعني ماذا؟

– مثلما ترى ليس حقيقة، لكن الحقيقة أن الأمر وصل بطلاب اليوم ضرب معلميهم.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

obeikandi.com

صمت عشر دقائق تقريباً دون أن يتفوَّه بأية كلمة. طلب مني أن أرافقه في رحلة تفقدية في الصباح ليرى ماذا يفعل أولاده. في الصباح الباكر، ركب حماره وأراد أن نبدأ الرحلة التفقدية.

أخبرته أننا لا نستخدم الحمير بل المركبات، رمقني بنظرة ملؤها الاستغراب، ابتلعت نظرته وأنزلته عن الحمار، واقتدته إلى مركبتي وهو يدمدم بكلام غير مفهوم. فتحت له باب المركبة وأجلسته بجانبي، وانطلقت مسرعاً. بهت آدم عندما رأى السيارة تسير دون أن يجرّها أحد، جزم أن الشياطين هي من تجرها، فشرع يتعوذ بالله من الشيطان. ضحكت من اعتقاده وأخبرته أنها تعمل بواسطة المحرك ولا يجرُّها أحد. سألني كيف يعمل المحرك، أخبرته بواسطة البنزين أو السولار.

سألني ماذا يكون السولار أو البنزين، أخبرته أنه كماء أسود اللون يمتلكه أولاده الخليجيون، ابتسم وقال بدهشة: "ما أذكاكم يا أولادي!".

في الطريق شاهدنا دبابات عملاقة تسير في الشوارع، سألني بدهشة عن ذلك الشيء الكبير. أخبرته بأنها دبابة، فسأل: ما استخداماتها عندكم، قلت: "لنقتل بها الأعداء". استغرب إجابتي، وسأل: "ومن هم الأعداء؟". قلت: "البشر". قطب حاجبيه، وسأل: "كيف يُقتل البشر بالدبابات؟". قلت: "تنطلق منها قذائف وصواريخ متفجرة حارقة خارقة تقطع أجساد البشر إلى أشلاء، وتدمر المنازل وكل شيء. طبق الحزن على قلبه حين سمع ما قلت. حزن كثيراً لذلك الاختراع، وقال: "جعلتم من نسلي أعداء تقتلون بعضكم، ما أشقاكم يا أولادي!". قلت مستفزاً: "لم تر شيئاً بعد، فالقادم أعظم".

تابعنا رحلتنا التفقدية بين معسكرات البشر، أدخلته معسكراً للجيش، رأى البندقية والمدفع والرشاش، والطائرات الحربية، والقنابل المدمرة، وصواريخ لا حصر لأسمائها. سأل عن وظيفتها، قلت: "لنقتل بها الأعداء". استشاط غضباً، وقال وقلبه يحترق ألماً: "لقد استعبدكم الشيطان وأصبحتم مجرمين!". قلت له إن الإجرام ليس بالشيء الجديد على أولادك، فمنذ الأزل كره أولادك بعضهم. ذكَّرته بهابيل وقابيل، هزّ رأسه والدمع يفيض من عينه.

قلت له: إنكّ تتحمل المسؤولية في كل شيء، فأنت من أخرجتنا من الجنة عندما عصيت أمر ربنا وأكلت من تلك الشجرة الملعونة. انتفخت أوداجه من الغضب، وقال: "بل الشيطان هو من يتلاعب بعقولكم". قلت إن الشيطان قد تلاعب بعقلك قبل أن يتلاعب بعقولنا. رمقني بنظرة كلها عتاب، ثم غطَّى وجهه بكفيه.

بعد صمت لم يدم طويلاً، قال بصوت غلبه الألم: "دعنا نكمل رحلتنا لنرى ماذا فعلتم أيضاً". نصحته بألا نفعل، رفض نصيحتي وأصرّ على متابعة رحلته التفقدية. كنت محرجاً بعض الشيء من التجوال معه بسبب مظهره، فكل من يراه ينفجر بالضحك على ورقتي التين ويتساءل: "أهو موكلي أم طرازان؟!".

أردت أن أشتري له ثياباً متحضرة، رفض بشدة جازماً أنها من صنع الشياطين. لم يكن أمامي سوى الخضوع لرغبته واحترام حريته الخاصة. تابعنا سيرنا وكلما مشينا قليلاً كنت أسمعه يدمدم: "آه لو أن عزازيل اللعين يظهر ويقاتلني فسأقتله ألف مره". سألته باستغراب: "ومن يكون عزازيل؟". قال: "إنه من تسبب بهلاكنا، وطردنا من الجنة إلى الأرض". قلت منفعلاً: "الأرض

هي أقوى أسباب اقتتالنا وذبحنا لبعض"، واستطردت قائلاً: "لا، ليس الأرض فحسب بل الضغينة التي تصول وتجول في أعماقنا منذ الأزل، والغيرة والحسد والتميز العنصري اللاذع، هذا أبيض وذاك أسود، هذا غني وذاك فقير، هذا مسلم وذاك مسيحي، هذا سمين وذاك ضعيف، هذا ظالم وذاك ضحية. هذا ذكي وذاك غبي. هذا طيب وذاك خبيث. هذا نذل وذاك شجاع. هذا وسيم وذاك قبيح، هذا رجل وتلك امرأة، ألسنا أولادك يا آدم؟".

- هل توجِّه حديثك إليَّ يا بني؟

- نعم، وأطمع بإجابة.

- كلكم أولادي بلا شك.

- لماذا إذن كل هذه التفرقة؟

- إنه عزازيل يستخف بعقولكم يا ولدي.

- عزازيل، عزازيل، كل شيء عزازيل.

- ومن غيره؟

- هل يمكن أن يكون الإنسان شيطاناً؟

- ممكن جداً.

- إذن بوش شيطان!

- من هو بوش؟

- ابنك يا أبي...

حدَّثته عن أمريكا وأوروبا ودول الخليج والشرق الأوسط. وبعد أن استمع إلى ما قلته، أصرّ على أن أصطحبه في رحلة حول العالم، معتقداً أن العالم قابيل

وهابيل وحواء. أعجبت بفكرته حيث كان لي رغبة قوية لا تقل عن رغبته بعمل جولة حول العالم. أمسك بيدي وأسرع نحو السيارة حتى نبدأ الجولة، قلت له إن السيارة لا تصلح لمثل تلك المهمة، وإننا مضطرون لاستئجار طائرة خاصة لإتمام مهمتنا بأسرع وقت ممكن.

سألني عن الطائرة، أخبرته أنها شيء مصنوع من الحديد، ويمكنها التحليق في السماء، وهي أنجع وسيلة للرحلات الطويلة حيث السرعة والمتعة الممتزجة بقليل من الخوف. لم يصدق آدم أن أولاده اخترعوا شيئاً من هذا القبيل، أصرّ على أن الشياطين هي التي تحمل أكوام الحديد، فرفع يديه إلى السماء مستغفراً ربه وطالباً لأولاده السماح والمغفرة. حاولت أن أقنعه أن العقل الآدمي هو من توصَّل إلى صنع شيء أشبه بالطائر لكن حجمه أكبر من حجم جبل، كلماتي لم تزده إلا استغفاراً وتضرّعاً إلى الله.

وصلنا إلى المطار، اقتحمت عيناه طائرة كبيرة تحلِّق في السماء، شدّني من ذراعي وبدهشة طلب مني أن أنظر إلى ذلك الطائر الغريب. أخبرته أنها الطائرة وليس طائراً كما يعتقد، هزّ رأسه غير مقتنعٍ بما قلته. نزلنا من السيارة وتوجَّهت برفقته إلى مكتب الطيران وقمت بحجز طائرة خاصة.

صعد إلى الطائرة وقدماه ترتعشان من الخوف، أقلعت الطائرة، كبرت عيناه أدرك أن أكوام الحديد تطير فعلاً، صمت قليلاً ثم قال بصوت متقطع: الحديد يعرض صوراً، ويخرج أصواتاً بشرية، ويقتل، ويطير، سبحان الله!

– لم تر شيئاً بعد.

– ليتني لم أنهض من سباتي.

- نصحتك فرفضت النصيحة.

وصلنا إلى أرض يتكلم أهلها اللغة العربية. رأينا دماراً مخيفاً، منازل مدمرة، وشوارع ممتلئة بالخنادق، وجثثا متفحمة على امتداد البصر، جن جنونه وباستغراب، سألني:

- ماذا حدث هنا؟

- أعتقد أنها الحرب.

- بين من ومن؟

- بين أولادك...

سكت قليلاً، ثم أخذ يسير بين الجثث المتفحمة يستغفر الله، ويسب الشيطان الذي دمر عقول أولاده وحولهم إلى مجرمين أشقياء. توقف برهة، وسألني: ما اسم هذا البلد؟

- العراق.

- ومن يرأسه؟

- صدام.

- ومن المعتدي؟

- أمريكيا.

- لماذا؟

- اعتدى صدام على الكويت، فهبت أمريكا لتأديبه.

- من أمريكيا؟

- أمريكيا دولة أرعبت العالم بأفلام رامبو.

obeikandl.com

– أريد أن أتحدث مع رئيسها.

– لن يفهمك ولن يرضى أن يكلمك.

– لماذا؟

– لا يعرف العربية.

– ما لغته؟

– الإنجليزية.

– هل تعرفها؟

– نعم.

– إذن عليك أن تترجم لي.

– لن يرضى أن يستقبلك.

– كيف يرفض أن يستقبل أباه؟

– هل أنت أب لذلك الشيطان؟

– استغفر الله.

– تكلم مع صدام أولاً.

– من صدام؟

– رئيس هذه البلاد المدمرة.

– خذني إليه.

– سأحاول.

ظللنا نسأل البشر لعدة أيام حتى استطعنا أن نصل إلى الرئيس الفذّ صدام، بعد تفتيش دقيق سمح لنا بمقابلته. دخلنا إلى قصره الذي أثار شهوتي في التملك

obeikandl.com

وتمنيت لو أعيش فيه، خضعنا للتفتيش الدقيق وللأسئلة التي تضايق آدم منها كثيراً. وأخيراً نزل صدام إلينا يحمل بيده بندقية، ويغطي رأسه بقبعة مثل قبعات رعاة البقر.

تقدَّمت إليه لأصافحه، وما كدت أفعل وإذا بألف مسدس وبندقية يصوبون إلى رأسي، تراجعت إلى الخلف مذعوراً. استشاط آدم غضباً من الحراس، وأمرهم بلهجة غاضبة بألّا يعاملوا أخاهم تلك المعاملة. قاطعه صدام بسؤال طرحه بلهجة عسكرية: من أنت؟

- أنا آدم.

- آدم من؟

- أبوك.

احمَّرت عينا صدام من الغضب لدى سماعه تلك الإجابة فشتمه. كان عليَّ أن أتدخل حتى لا يسيء أكثر لآدم، فقلت بأدب: "هو آدم فعلاً سيادة الرئيس". انفجر من الضحك، وقال بلهجة ساخرة:

- لماذا قمت من نومك؟

- أخباركم المزعجة أيقظتني.

- وماذا تريد مني؟

- أريدك أن تكون رحيماً بأشقّائك.

- تقصد بأشقّائي؟

- البشر أشقّاؤك.

- بوش؟

obeikandl.com

- نعم.

- اخرج من قصري وإلّا...

- أتطرد أباك؟

- لو كنت آدم حقاً لما اعتبرت بوش ابنك؟

- كل البشر أولادي!

- هيا، اغرب عن وجهي.

غضب صدام كثيراً، وشكك في أن يكون الرجل الذي يقف أمامه هو آدم، اعتقد أنه جاسوس يعمل لمصلحة بوش. أشار إلى الحراس بسبابته يأمرهم بوضعنا في الزنزانة للتحقيق معنا ومعرفة هويتنا. جرَّنا الحراس إلى زنزانة مظلمة، أمضينا هناك بضعة أيام ونحن نتلقى الأسئلة دون أن يقتنع الحراس أن آدم قد عاد ليطمئن على أولاده. بعد طول عناء اعتقدوا أننا مجانين، شفع الجنون لنا، فأُطلق سراحنا وتمَّ ترحيلنا من أرض العراق. لم يؤلمني شيئاً أكثر من النظرات الحزينة التي كانت مرتسمة على سرائر وجه آدم، نظرات حزن واستغراب. قلت لآدم محاولاً امتصاص حزنه: إن صدام يعيش في حروب دائمة، وليس من السهل أن يثق بالغرباء فلا تلمه!

لم يثبط موقف صدام من عزيمة آدم وإصراره على مواصلة رحلته حول العالم. صعدنا إلى متن طائرة جديدة، واتجهنا إلى الشيشان، كالعادة قَتْل تفوح رائحته في كل مكان، جثث مُثِّل بها بشكل يثير الاشمئزاز، أطفال تتسول من المارة، أحزان منتشرة في كل بيت. بهت آدم من هول ما رأى، وسأل عن الجاني، أخبرته بأن أولاده الروس هم من فعلوا ذلك. سأل عن جريمة الشيشان، أخبرته

ربما الإسلام، اغرورقت عيناه بالدموع، ورفع يديه إلى السماء مستغفراً لأولاده. شدَّني من كتفي واقتادني إلى الطائرة طالباً مني تغيير المكان. أخذته إلى أفغانستان، فرأى أن كل المصائب تسكن ذلك البلد. دمار وحصار وقبور لا حصر لها منتشرة في كل مكان، سأل عن الجاني، فأخبرته. سأل عن الجريمة ، قلت غير واثق: "ربما الإسلام".

صفن لبرهة ثم شدني بقوة إلى الطائرة طالباً تغيير المكان. أخذته إلى لبنان، رأى ما رأى من دمار، وقتل. سأل عن الجاني، أخبرته إسرائيل والأمريكان. جُنَّ جنونه ولعن كلاهما، وشدَّني من شعري بقسوة إلى الطائرة. أراد أن يرى أرض المحشر والمنشر.

أخذته إلى فلسطين، فرأى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. رأى أن طائفة صغيرة تتصدى بحجارتها لعدوان دولة مدججة بشتى أنواع الأسلحة، إنها دولة الطغيان، التي تتبناها دول العالم، ويمدُّونها بالمال والسلاح والعتاد من أجل تدمير شعب برمته.

تجوَّل آدم في شوارع فلسطين، متنقلاً بين المدن والقرى والمخيمات. رأى البيوت المهدمة والمغلقة، والدماء المنتشرة في كل مكان، رأى أطفالاً تتحدى الطاغوت بحجارتهم المقدسة، وإرادتهم القوية. تحدَّث إليهم، فأعجب بشجاعتهم. سألهم لماذا لا تخافون الموت، أجابوا بصوت واحد: "لأننا ملح الأرض وبارودها، لأن الموت رفيقنا منذ الأزل". نظر إليَّ نظرة كلها عتاب، سألته:

- لماذا تحتقرني؟

- لا أحتقرك.

- ما بك إذن؟

- فلسطين.

- ما بها؟

- هي ضحية العالم.

لم أفهم ماذا قصد، لكنني هززت رأسي كطفل وديع. سألني بصوت خشن عن ديانة أهل فلسطين، أخبرته الإسلام والمسيحية واليهودية. حملني على كتفه كما لو كان يحمل كيساً من القطن، وألقى بي في الطائرة. طلب مني أن أقتاده إلى أمريكيا. وافقت بعد أن ألححت على أن نعمل جولة في أوروبا قبل التوجه إلى أمريكيا، فوافق على الفكرة.

قمنا بزيارة كل الدول الأوروبية، عالم آخر؛ هدوء، واستقرار، وهذا ما أكَّد لآدم أن المقصودين في التهلكة هم العرب والمسلمون. كل بلاد العالم تنعم بالراحة والاستقرار والسلام إلا بلاد الإسلام والعرب، مدمرة أو شبه مدمرة، يكتسحها الفقر والفوضى والظلم والاستعباد، وتستعمرها دول الغرب بشكل مباشر أو غير مباشر. أدرك آدم عظمة الظلم الذي يقع على أولاده العرب، فدعا الله لهم بالإعدام، ليريحهم من جبروت الظلمة اللئام.

ألقى بي بالطائرة وطلب مني أن اقتاده إلى دولة الحروب أمريكيا. انطلقنا إليها وبعد ساعات طويلة ونحن معلقون بين السماء والأرض وصلنا. مباشرة اقتدته إلى البيت الأبيض، طلبت مقابلة بوش وبعد إلحاح أُذن لنا بالدخول. هناك رأينا كل زعماء العرب- إلا من رحم الله-، مشغولين في خدمة بوش. واحداً يقلم

أظافره، وآخر يطلي حذاءه، وثالثا يحلق ذقنه، ورابعا يغسل قدميه، وخامسا يرقص له رقصة شرقية، وسادسا يُهَوّي وجهه بريش النعام، وسابعا ينظِّف المراحيض، والباقية رُكَّع سجود، ينتظرون الأوامر من إلههم الجديد.

سألني آدم باستهجان: "من أولئك العبيد؟". قلت وأنا أتلفت يمنةً ويسرةً: "إنهم من يحكمون الدول العربية، وكأنه صدم، طلبت منه عدم الاستغراب، فالكل يعرف أنهم جبّارون على شعوبهم، وعبيد لا حول لهم ولا قوة أمام سيِّدهم إله الحروب. أخيراً فرغ زعماء العرب من خدمة بوش، وأُذِن لنا بالحديث معه.

تقدَّم آدم نحو بوش، وسأله: من أعطاك صفة الإلوهية؟

- أنا رئيس العالم.

- أنت سفّاح وظالم!

- بل أنا من يحارب الظلمة.

- أنت كاذب وعنصري ومتحيز.

- الزم حدودك!

- أحرقت العراق بحجة السلام!

- بل صنعت السلام. هؤلاء كل الزعامات العربية، اسألهم.

- بل أذناب العرب لا زعاماتهم.

- إنهم يساعدونني على اجتثاث الإرهاب من جذوره!

- بل عبيد يساعدونك على هتك أعراضهم وتدنيس أراضيهم ومقدساتهم، قاتلكم الله يا عبيد الشيطان.

قالها وإذا بحراس بوش يصوبون أسلحتهم الفتاكة في وجه آدم، فلم يكن أمام آدم إلا أن تقدم نحوهم ونفخ نفخة في وجوهم بدت كالإعصار. أمسك بي وخرج من بيت المؤامرات يسب ويلعن عبيد العرب. سألته إذا كان يريد أن يرى المزيد، أجاب بصوت غاضب: "خذني إلى فلسطين. لا أريد أن أرى شيئاً، قاتلكم الله يا أولادي العرب، ألا تخجلون؟ كيف رضيتم على أنفسكم الهوان، وقبلتم أن تكونوا صفراً في سجل النخوة والكرامة، ها أنا أشهد الله أنني بريء من أولادي الظالمين...

كان غاضباً جداً وهو يقول تلك الكلمات، لم ألمه على كلماته، كان محقاً، شعرت أنه تألَّم كثيراً مما يفعله أولاده المخنثين، حاولت أن أخفف عنه ألمه دون جدوى. عانقني، وقال: سأحفر قبراً لي في أرض فلسطين، فلا أولاد لي سواهم، وكل من يقف بجانبهم ويناصرهم على رفع الظلم والطغيان.

- وهل أنا منهم؟

- أنت أعلم إن كنت منهم.

قالها فصحوت من نومي مذعوراً على صوت وابل من الرصاص يخترق منزلي ويبتلع أجزاء من جدرانه. انهالت الأتربة والحجارة الصغيرة على رأسي، ونال جسدي نصيباً من الأتربة التي كتبت عبارة على صدري: "سحقاً للاحتلال!".

حبست أنفاسي وتسللت إلى غرفة العجوز أسأله بذعر عمّا يجري. قال إن التظاهرات مشتعلة في المخيم. رآني أتصبب عرقاً، سألني عن سبب كل ذلك العرق، أخبرته عن الحلم الذي رأيته. صفن قليلاً، وقال: "ربما هي الحرب".

سألته باستغراب: "أية حرب، ألسنا في حرب الآن؟". تأفف وقال بيأس: "القادم أعظم! القادم أعظم!".

أجلسني بجانبه وطلب مني أن أفكّ أسر نفسي، وأن أعود لممارسة حياتي الطبيعية. قلت له إني سأفعل ذلك حين تلتئم جراحي وأنتصر على أزمتي.

أقبلت دلال تمشي بتثاقل إذ إنها كانت حاملاً في شهرها السابع. قبَّلت جبيني وضمَّت صوتها لصوت جدها. أرادت أن تخرجني من القمقم الذي حبست نفسي فيه طويلاً وأن أعود إلى الحياة. قالت: إنَّك لو حسبت ما عندك من وسائل العيش ونِعَم الحياة وقارنته بما ينقصك من الرغد والسعادة، لوجدت ما ينقصك لا يساوي شيئاً أمام ما عندك. وإنَّك تبكي دائماً على ما ينقصك، ولا تضحك أبداً لما عندك، وإنَّك تحزن على ما فاتك ولا تفرح لما وصلك، وإنَّك آسف لما أصابك ولا تُقدّر ما تبقى لك. أشحت بوجهي عنها وهرعت إلى النافذة متهماً إياها بعدم الإحساس بما أحس.

لحقت بي وأبعدتني عن النافذة خشية إصابتي برصاصة طائشة، ثم طوقتني بذراعها، وقالت بمودة: "أنا اقرب إليك من ظلك، ولا أرى في هذه الدنيا وجهاً محبباً إلى قلبي أكثر من وجهك، لكنك أناني، لا تفكر إلا بنفسك".

أزحتها عني، وصحت: إنني غير أناني وإنما لم أعد قادراً على احتمال المصائب المتتالية. اقتربت مني وعانقتني بحنان، وقالت: "أخبرني يا حبيبي! ماذا عن أم نضال؟ هل زرتها بعد اعتقال ابنها؟ هل سألتها ماذا تحتاج؟ هل نسيت ما قدَّمه لنا نضال أثناء اعتقالك؟ اذهب يا أصيل ورد الجميل، وأرح قلب صديقك كما أراح قلبك".

ابتعدت عني قليلاً ثم أردفت قائلة: "أتدري يا حبيبي! لقد فقدت أبي، وأمي، وأشياء كثيرة... لكن كلما أصابتني مصيبة ازددت قوة وعزماً وإصراراً على مواصلة الحياة... فكر بما لديك. بحبيبتك دلال التي تقدِّس التراب الذي تدوسه قدماك، بفلذة كبدك صابر، وابنك الذي لا يزال يسكن رحمي ولا أريده أن يأتي إلى هذه الدنيا ليرى أباً منهاراً، متحطماً، مستسلماً!... ثم أخبرني من منا يعيش بسعادة مطلقة؟ من منا لا يسكن قلبه ألف همّ وهمّ؟ إن كنّا نعني لك شيئاً عليك أن تهزم الهمّ والغمّ من أجلنا، فلا يوجد لنا غيرك في هذه الدنيا".

صمتت قليلاً، وهمست في أذني: "إلى متى ستبقى هكذا بعيداً عني؟ ألم تشتاق إليّ؟ ألم تشتاق إلى حضني؟ ألم يشتاق رأسك إلى أناملي؟ أكاد لا أصدق هذا الجفاء. لم أعد أستطيع تحمل بعدك وقسوتك. لقد اشتقت إليك كثيراً، أتفهم؟! وأنت أمامي لكن لا أستطيع حتى لمسك أو تقبيلك. أتدري؟ إنني أموت في اليوم مائة مرة. لقد اشتقت إلى نداء اسمك والنوم في حضنك الدافئ. لماذا ابتعدت عني كل هذا البعد؟ هل ماتت مشاعرك الرقيقة ولم يعد لي مكان في قلبك؟ إلى متى سأظل أحلم بك وكأني عزباء؟ إلى متى؟ بالله عليك ارجع إليَّ، لم أعد أقوى على فراقك. عد إليَّ لأضمك بين صدري الذي يتلهف لعناقك، لن أسامحك إن مر هذا اليوم دون أن نغتسل!!".

(27)

اغتسلنا بعد أن أقنعتني دلال المدللة بكلماتها الصادقة والجريئة وأنقذتني من شرور نفسي. اضطررت لجمع شمل نفسي وتنظيم أموري وأمور منزلي. فالمال الذي تركه شقيقي بدأ ينفد، وقلته تشتت الذهن وتكدر النفس، وتورث الغم والهمّ، والحمل يحتاج مصاريف كثيرة، ودلال تحتاج إلى زوج، وصابر يحتاج إلى أب، وأم نضال تحتاج إلى معيل بعد اعتقال ابنها.

لا تقلق يا أبي! أنا كالعشب الأخضر، كلما أكلته المواشي ينمو بغزارة!

افتتحت الحانوت القديم وباشرت عملي من جديد. فاتحاً صفحة جديدة مع الحياة، راجياً منها أن تكفّ عن تعذيبي والعبث بعواطفي. تطلع الله إليّ بشفقة ورحمة فوفقني في عملي. تضاعف عدد زبائني كثيراً وكأنهم كانوا يتعمدون التسوق من حانوتي لتشجيعي على الصمود في وجه تلك المحن التي ظلت تزلزل الأرض تحت قدميّ دون توقف.

لم أستطع تحمل ضغط العمل، واكتظاظ الزبائن، الأمر الذي دفعني لتشغيل محمد وجرعوش معي. كنت أنتهز الفرصة وأقوم بزيارات يومية خاطفة لأم نضال، تلك المرأة الصلبة، عزيزة النفس. لم يكن سهلاً عليها أن تقبل مساعدتي معتقدة أنني أتصدق عليها. لم تقبل شيئاً مني إلا بعد أن تدخل العجوز وأكد لها

أنني مدان لابنها بمبلغ كبير من المال وأقوم بسداده. اعتدت أن أرسل لها مئونة الأسبوع بانتظام، إضافة إلى مبلغٍ من النقود.

من خلال زياراتي لها عرفت أن نضالاً في حالة صحية جيدة وأنه يتمتع بنفسية صلبة ومعنويات عالية وأنه يرى الحرية قريبة، رغم أنه محكوم بالسجن لسنوات طويلة، طويلة جداً. كان يأمل بخروجه من السجن في أي صفقة يعقدها حزب الله أو منظمة التحرير لتبادل الأسرى.

أبت الحياة إبرام صلح معي، رغم أنني جئتها بابتسامة متفائلة، أنظر للوجه المشرق فيها، متناسياً وجهها النكد والمكدر لتخرج لي زهراً وورداً وياسميناً.

آه يا أبي!!

البؤس يا أبي يداهمني ويلفّ بي رحاب الدنيا، والبعد يا عقلي يهازحني مرارة لا تعرف هدنة، والتعاسة يا ويلي ترافقني وتنصب في الرمش ثكنة! والحظ يا عمري، يعاندني وينتزع من فمي اللقمة، والقهر يا روحي، يأسرني ويزرع في عيني الدمعة، ووجع القلب يحرقني ويسرق من وجهي البسمة..

أتدري؟!

ذات ليلة صماء ظلماء، داهم المخاض رحم دلال، فاستيقظت من نومها تصيح صيحات مجلجلة من شدة الألم. قمت من نومي مفزوعاً، أسألها عن علّتها بذعر. قالت: "سأموت! افعل شيئاً، سأموت!". سالت بغباء: "ماذا يؤلمك!". صاحت بملء حنجرتها: "خذني للمستشفى، سألد!". ارتديت ثيابي وغادرت المنزل راكضاً وأحضرت عرفات اللداوي لينقلها إلى المستشفى. تركنا صابراً الصغير برفقة العجوز وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها. في طريقنا إلى المستشفى

obeikandi.com

تفاجأنا بفرقة من الجيش ينصبون نقطة تفتيش عند مدخل المدينة، ويمنعون الناس من دخول المدينة أو مغادرتها. كنا نقبع تحت حصار عسكري وإغلاق شامل للمدن الفلسطينية نتيجة عملية فدائية قام بها أفراد المقاومة الإسلامية في شارع يافا بالقدس.

نزلت من السيارة وهرعت إلى الجنود مسرعاً أتوسل إليهم أن يسمحوا لنا بالعبور، رفضوا بشدة وأمرونا بمغادرة المكان. بقينا ننتظر قرب الحاجز حتى ازداد الألم عند دلال وابتدأت تصيح: "أكاد أموت! أكاد أموت!". لم أحتمل رؤيتها تتألم، تقدمت نحوهم مرة أخرى أتوسل إليهم أن يدخلونا، أجابوني بقنبلة مسيلة للدموع خنقت زوجتي وجنينها فماتت أمام حاجزهم اللعين.

ماتت دلال يا أبي! استشهدت الحكيمة، قتلوها بغازهم السام دون ذنب ارتكبته. خطفوها مني ببرود أعصاب. قتلوها يا أبي! قتلوا الدفء الأليف الذي حمل وجودي المهزوز سنوات طويلة.

أصبحت يتيماً مرة أخرى. عصف موتها بقلبي وفتك. صرخت، بكيت، لطمت وجهي، تمرغت بالتراب. لم أصدق أنها رحلت بتلك السهولة. هاجمت القتلة أرشقهم بالحجارة، فردوا لي الصاع صاعين. ألقوني على الأرض وشرعوا يدوسون رأسي بنعالهم، ويكيلون لي اللكمات الموجعة بقلوب ميتة فقدت إنسانيتها. لم أستسلم، قاومتهم بلحمي، ضربت وضُربت. كسروا أنفي، هشموا وجهي. لم يكتفوا بذلك بل سرقوا جثتها. لم أعرف ماذا أفعل، تمنيت لحظتها لو كان بحوزتي قنابل لأفجرها بأولئك الوحوش الآدمية، ولولا وجود عرفات معي لقتلت نفسي. فلا قيمة للحياة بعد رحيل دلال!

حملني عرفات كما لو كان يحمل كيساً من التبن وألقاني في سيارته بالقوة وانطلق بي إلى المخيم. نزلت عند المقهى وعدت إلى منزلي اليتيم مشياً وأنا في حالة نفسية يُرثى لها. دلفت عتبته فرأيت فستانها معلّقاً خلف الباب، وولدي صابراً يجلس في حضن العجوز ويبكي منتظراً عودة أمه لتضمه إلى صدرها وتسقيه جرعة حنان. رآني العجوز أقف أمامه بوجه شاحب ملطخاً بالدماء، وثياب متسخة ممزّقة، وشعر مغبر ومبعثر. تغير لون وجهه، غصّ بريقه وأعطى صابر لشقيقه ثم وقف مذعوراً يسألني بصوت يرتجف: "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ تكلم!". لم أعرف ماذا أقول. بقيت واقفاً أمامه كلوح من الثلج، غير قادر على الكلام. فرغ صبره فأخذ يهزني بقوة ويتوسل إليّ أن أخبره ما علتي. دفعته بقوة وهرولت إلى حجرتي راكضاً، أغلقت الباب خلفي بالمفتاح وارتميت على السرير تارة أصرخ بأعلى صوتي وأخرى أدق رأسي بحافة السرير حتى أسلت الدم من جبيني.

ابتدأت أقلّب ما في خزانتها وأتصفح كل شيء لمسته يدها وتركت عليه بصمة من رائحتها الزكية. تلك اللوحات الدقيقة التي شغلتها أناملها الدافئة في ليال باردة طويلة: رجل يرفع قبة الصخرة تتوسط وجه وسادة لم تحتضن رؤوسنا بعد. ملاءة صنعتها من قصاصات أقمشة متعددة الألوان، نسّقتها بأعجوبة فصارت كتحفة فنية. سجادة الصلاة المطرّزة أطرافها بخيوط حريرية ملوّنة: الأحمر والأخضر والأبيض والأسود. صورة طفل يبكي رسمتها بالصوف خيطاً بعد خيط...

obeikandi.com

كلما نظرت أو لمست شيئاً فيه رائحتها، اقشعرّ بدني واستنهض عقلي ذاكرة المكان والزمان. رأيت حقيبتها معلّقة خلف باب حجرتنا، مشيت إليها وتناولتها ويدي ترتجف. أردت فتحها، لم أستطع. علّقتها وارتميت على الأرض مسنداً ظهري إلى الخزانة. سقط بصري على صورة معلقة فوق باب الحجرة. صورة زواجنا، نهضت عن الأرض واقتربت منها. اعتذرت لها عن ضعفي وقلة حيلتي ومنعهم من أخذ جثتها.

نفد صبر أبي العبد، فأخذ يقرع الباب بشدة ويطلب مني فتحه وإلا حطَّمه، ولم أفتحه إلا بعد أن سقطت صورتها عن الجدار وارتطمت بالأرض وأصبحت أشلاء مثل قلبي. أحسست بنصل يغوص في صدري، أدمى قلبي وسقط إلى ركبتي، فجثوت. رأيت وجهاً منكفئاً على أشلاء الزجاج، هادئاً قريراً. صحت بصوت مذبوح: "نامي يا حبيبتي، واحجزي لي مكاناً بجانبك، فأنا قادم إليك".

دخل أبو العبد الحجرة ورأى حطام الصورة، سكت لفترة قصيرة محدقاً في الصورة. ابتلع ريقه ثم أردف قائلاً: "لماذا كسرته؟". قلت والألم يمزقني: "أنت من كسرها بطرقك الباب". صاح بعصبية: "خفت أن تفعل شيئاً بنفسك، فوا لله إني أراك في قمة الجنون". أمسك ذراعي بيد ترتجف وسألني لماذا أتصرف كالمجنون، لم أقو على الكلام. استحلفني بالله ألا أخفي عنه سبب حالتي. صرخت بهلع هزّ جدران الحجرة: "ذبلت وردة عمري". لم يفهم ما قصدت، رفع حاجبيه دهشة وقال من بين أسنانه: "قل ما عندك دون لف ودوران". صحت ثانية: "لم يعد للحياة وجه، لم يعد لرأسي حضن دافئ". وكأنه أدرك الحقيقة الموجعة، سألني بهلع: "هل أصاب حفيدتي مكروه؟". أخبرته ما جرى،

obeikandi.com

خرّ على الأرض ورفع يديه إلى السماء يقول: "اللهم إني لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه" ثم أجهش بالبكاء. سمع أبو محمد بكاءه فأقبل مسرعاً يسأل بذعر عما حدث. أخبرته القصة. أخذ يعضّ على شفته حتى أسال الدم منها، يقول لأخيه: "لا تحزن، لله ما أعطى ولله ما أخذ".

انقلبت حياتي رأساً على عقب. لم أعد أرغب في الحياة أكثر، انتهت حياتي بموت دلال. أثناء حالة الجنون التي سيطرت عليَّ أقبل طفلي يزحف على ركبتيه ويديه، ينادي "ماما"، كدت أختنق حين ناداها. حملته وطوقته بذراعي، أقول له إن أمه قد ارتحلت إلى عالم بعيد وإنها لن تعود. نهض أبو العبد عن الأرض مفزوعاً. ضغط كتفي بشده وهزه قائلاً بلهجة غاضبة: "وَحِّد الله يا بني". فأقول: "دلال لن تعود". يطالبني بالصبر، فأقول: "دلال لن تعود". يطلب مني أن أدعو لها بالرحمة، فأقول: "دلال لن تعود". يُذكِّرني أنها تركت لي صابراً، فأقول: "دلال لن تعود".

اختنق قلبي بصرخات لم أعرف كيف أخرجها. تزاحمت فيه الهموم وتوالت فلم أجد من أشكو له سوى نفسي. تلاعب بي الجنون، فلم أعد قادراً على ردعه. كل ليلة أقف على الشرفات أحمل صورة حبي وأشيِّع بقايا عمري. كلما مر طيفها أمامي أناديه بصوت مذبوح لا يسمعه غيري. صوت مختنق ينطلق من قلبي ويصطدم بقلبي ويعود إلى قلبي. بت سجين ألم أكبر مني. ألم خبيث طوى أوراق عمري وأحرقها.

أمضيت أسبوعاً كاملاً مرّ ببطء شديد. أمضيته وكأني أجلس فوق جمر ملتهب يحرق أطرافي بلا رحمة. أمضيته أنتظر خبراً أو فتات خبر عن جثمان الوجه الجميل في حياتي. أسبوعاً كاملاً لم أذق فيه شيئاً سوى السجائر والقهوة.

أقبلت الليلة الثامنة من استشهاد رفيقة دربي. في تلك الليلة، استسلمت للتعب فنمت مبكراً. استيقظت فجأة من نومي ووجدت نفسي جالساً فوق الفراش، أتصبب عرقاً وألهث في تنفس سريع ومضطرب، سمعت قرع نعال كثيف تدب خلف منزلنا بعشوائية ومن ثم صوت جهاز اللاسلكي يستقبل مكالمة باللغة العبرية. اضطرب بالي وشعرت بتعب شديد. مكثت شارد الفكر، مستلقياً فوق سريري، محاولاً التركيز وسماع ما يحدث خارج جدران منزلي. سمعت همهمات بلغة لا أفهمها. صحت بصوت أجش منادياً العجوز. لم يسمعني. انتعلت حذائي وغادرت حجرتي ميمماً إلى الصالة. وجدت العجوز جالساً برفقة أخيه ويبدو متوتراً. سألته بفضول عمّا يحدث خارج المنزل. أطلق العنان لخياله وهواجسه، وقال متنهداً: "لا أدري! ربما يقومون بحملة اعتقالات في الحارة". فجأة سمعنا قرعاً خافتاً على باب الشقة. رمقني أبو العبد بنظرة وهمس: "تمالك نفسك من أجل طفلك". هززت رأسي واتجهت صوب الباب وأنا شارد الفكر أمشي بتثاقل بيّن، أعصر نفسي في محاولة يائسة متسائلاً ماذا يريدون منا في هذا الوقت المتأخر.

فتحت الباب فوجدت عشرات الجنود مدججين بالسلاح، يتقدمهم ضابط طويل القامة، تتوسط وجهه هالات سوداء، ويكتنف الشيب جوانب شعر رأسه، يرتدي بذلة عسكرية تحمل رتبة نقيب، يقف بشموخ وكبرياء على عتبة الباب،

يسبقه كرشه المنتفخ والمترهل على حزامه العسكري العريض. وعلى غير عادتهم، بلّغني الضابط التحية بمودة، وسألني: "هل أنت صابر؟". ابتلعت ريقي معتقداً أنهم جاؤوا لاعتقالي، الأمر الذي جعلني مضطرباً وقلقاً ومرتبكاً في سلوكي. رغم ذلك تمالكت نفسي وتظاهرت بالشجاعة ورحبت به متصنعاً البهجة، وأجبته بأدب: "نعم أنا صابر، تفضل!". لم يدلف عتبة الشقة، أفرغ ما في جعبته أمام الباب. أخبرني أن جثة دلال ترقد في ثلاجات الموتى في مستشفى رام الله وأنّنا بإمكاننا أن نستلمها من هناك بهدوء دون إحداث أية فوضى قد تخلّ بأمن دولتهم.

تلاطمت في رأسي الكلمات، تزاحمت واختلطت وتشابكت. التصق لساني بحلقي ولم أستطع قول كلمة واحدة. نظرت إلى الضابط، رأيته محدّقاً بالأرض متظاهراً بالحزن. لم أستطع رؤيته، أغلقت الباب في وجهه. انكمش جسدي وخارت قواي فارتميت خلف الباب أصارع حريقاً مهولاً شب في قلبي فأحرقني. وفجأة تبدّل الحال. جاءت اللحظة العصيبة. لحظة المواجهة. لحظة الوجع الحقيقي. فقدت السيطرة على أعصابي تماماً، ورحت ألطم وجهي وأمزقه بأظافري. رسمت خريطة وجعي على وجهي، مزّقت جبيني بجدران منزلي طلاؤه المدبب كرؤوس الإبر، حطّمت كل شيء قابلاً للكسر، وخرجت إلى الشوارع هائماً على وجهي أصرخ بأعلى صوتي. صرخات حادة مزقت سكون الليل وأيقظت النيام. صرخات أنادي بها على من قتل دلال، وحرمني منها إلى الأبد. صرخات تمنيت لو يسمعها من تسبب بموتها فيأتي لأنهش لحمه بأنيابي. لحق بي أبو العبد يجر نفسه جرّاً، يتوسل إليّ أن أصبر وأحتسب. لم أكن في حالة

obeikandi.com

ينفع فيها الكلام أو النصيحة، كلما حثَّني على الصبر، ازدادت ثورتي أكثر وازداد جنوني وكفري. ظللت أصرخ وأسبّ. أمشي وأتعثر، إلى أن تعثرت قدماي بلوح خشبي حملته، وصحت: "تعالوا يا أولاد العاهرة! تعالوا أيها الجبناء". هجم عليَّ أبو العبد بكل قوته محاولاً منعي من التهور. دفعته بقوة وانطلقت مسرعاً أركض نحو الشارع الرئيس حيث تقف دوريات الاحتلال. لحق بي شبان المخيم، حتى امسكوا بي. ثبّتوني بقوة، وحملوني على أكتافهم وأعادوني إلى منزلي. اقترب مني عرفات اللداوي، وقال ناصحاً: "ليس الشديد من يتهور بل الشديد من يمتلك نفسه عند المصائب. لمن تريد أن تترك ولدك؟". قلت باشمئزاز: "سأتركه للذي أخذ روحها"، قال آخر: "ألمُك ألمُنا وفرحك فرحنا، اصبر واحتسب".

ظلوا يكيلون لي النصائح حتى أقبل أبو العبد، عانقني وجلس بجانبي قائلاً: "أمامك خياران: إما أن تتمالك نفسك فتأتي معنا لاستلام جثتها ودفنها أو نقيدك في السرير ونفعل ذلك وحدنا". وكأنه طعنني في ظهري، صحت بغضب: "أتريد أن تحرمني من رؤيتها ودفنها؟". قاطعني وقال: "إذن كن رجلاً وتحلّى بالشجاعة". تدخل أبو محمد، وقال: "إذا كنت تحبها فعلاً، عليك أن تحافظ على الأمانة التي تركتها في عنقك"، سألته بصوت باك: "أية أمانة؟"، قال بألم: "ابنك صابر".

أمسك العجوز بيدي واقتادني إلى المغسلة، فتح صنبور الماء ووضع رأسي تحته بالقوة، وهو يقول: "اللهم لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه". تناول المنشفة وجفف رأسي، وقال بحنان: "استغفر ربك يا بني، ورافقنا لاستلام جثتها بهدوء". كظمت غيظي واستغفرت ربي.

رافقني العجوز وخمسة شبان. ذهبنا بسيارة عرفات اللداوي الذي لم ترقه فكرة ذهابي إلى المستشفى خوفاً من فقدان أعصابي لدى رؤيتها. أكَّدت له أنني لن أتصرف بحماقة وأنني سأواجه الموقف بشجاعة، صفن قليلاً ثم طلب مني دخول سيارته.

على مقربة من مدخل المخيم أوقف الجيش سيارتنا، وحاصرونا وهم يصوبون بنادقهم المضيئة نحو رؤوسنا وكأننا مجموعة فدائية. ابتدأت أفقد السيطرة على أعصابي. ربت أبو العبد على ظهري، وقال: "أرجوك تمالك نفسك ولا تتهور". أقبل ضابط الدورية وهو يحمل مصباحاً في يده، سلَّطه على وجوهنا وطلب بطاقاتنا الشخصية. أخرجنا له البطاقات. أعطاها لأحد الجنود ليفحص إن كنا مطلوبين، ثم أمرنا بمغادرة السيارة والوقوف بجانب بعض في خط مستقيم. غادرنا السيارة ووقفنا كما أمرنا. اقترب أحد الجنود وأخذ يفتشنا، يتحسس أجسادنا. انتهى وأخبر الضابط أننا لا نحمل أسلحة ممنوعة. هزّ الضابط رأسه وبادرنا بالسؤال: "أين انتم ذاهبون في هذا الوقت المتأخر؟". أجاب أبو العبد بهدوء: "إلى المستشفى لاستلام جثة دلال". أشعل الضابط سيجارة وأخذ نفساً عميقاً نفثه في وجوهنا وأشار إلى أحد الجنود طالباً منه تفتيش السيارة بدقة. تأفَّف أبو العبد، وقال بانزعاج: "جئتم إلى بيتنا وطلبتم منا أخذ الجثة، والآن تضايقوننا!". صوّب الضابط المصباح على وجه أبي العبد وسأله: "ما علاقتك بالميتة؟". أجابه مختصراً: "حفيدتي". سأل عرفات اللداوي نفس السؤال فأجاب بصوت يرتجف: "أنا جارهم وتطوعت بأخذهم للمستشفى". أمره بالوقوف جانباً وهو يرفع يديه للأعلى. سأل آخر نفس السؤال، فأجاب: "أنا جارهم

وصديق العائلة". أمره الضابط بالوقوف بجانب عرفات ورفع يداه. سألني نفس السؤال فأخبرته أنها زوجتي. هزَّ رأسه وعلق ساخراً: "لا تقلق! ستتزوج غيرها". صحت منفعلاً: "لن أتزوج غيرها". ابتعد عني وسأل شاباً آخر عن صلة القرابة التي تربطه بدلال، فقال بتلعثم: "أنا جارها، وجئت للمساعدة". أمسكه الضابط من قبة قميصه وأوقفه بجانب باقي الشباب. ووجَّه نفس السؤال للشاب الأخير، فأجاب مدعياً: "أنا شقيقها". رمقه الضابط بنظرة، وقال: "سنرى الآن إن كنت شقيقها أم لا".

عاد الجندي الذي أخذ البطاقات. أعطى البطاقات للضابط وأخبره أن كل شيء على ما يرام. تناول الضابط بطاقة الشاب الذي ادعى أنه شقيقها، وألقى نظرة على الاسم. اقترب مني وسألني عن اسم دلال الرباعي فأخبرته دون تفكير. ابتسم ابتسامة ساخرة وهرع نحو الشاب الذي ادعى أنها شقيقته. صفعه بقوة على وجهه، وقال: "لا تكذب مرة أخرى، مفهوم؟". أجابه الشاب بنبرة غاضبة إنها أختي في الرضاعة. سأله الضابط ماذا يعني ذلك. تدخل أبو العبد وطلب من الضابط أن يخلي سبيلنا لاستلام الجثة. هز رأسه وقال مشيراً إليَّ وإلى أبي العبد: "أنت وأنت يمكنكما الذهاب، أمَّا أنتم فعودوا إلى منازلكم". تدخل أبو العبد، وقال بمودة: "على الأقل دع السائق يرافقنا". صفن قليلاً وسمح لعرفات بمرافقتنا. أعاد لنا البطاقات وطلب منا دخول السيارة ومن باقي الشبان العودة إلى المخيم ركضاً. تناول الشبان بطاقاتهم وانطلقوا يركضون بأقصى سرعتهم نحو المخيم.

دخلنا السيارة فرأيناها مقلوبة رأساً على عقب. استشاط عرفات غضباً، وقال بصوت خافت: "لولا أننا في موقف حرج، لحطمت جماجمهم". قلت في قرارة نفسي: "وماذا عن نصيحتك بخصوص الرجل الشديد؟" أعدنا المقاعد إلى مكانها وهممنا بمغادرة المكان. فتحوا لنا الطريق بعد أن طلب الضابط منا التصرف بهدوء.

حال وصولنا المستشفى هرولت مسرعاً برفقة جدَّها إلى ثلاجة الموتى لأستلم جثتها، ويا ليتني لم أرها! كان وجهها شاحباً ومنتفخاً، وبطنها مقطّبا بمئات الغرز، وبجانبها يرقد جنيني الذي كنت قد نسيته تماماً. لم أحتمل رؤية هذا المشهد القاسي. صحت بملء حنجرتي وأنا أبكي قهراً: "أولاد العاهرة قتلوا جنيني!". عانقني العجوز، وقال مواسياً: "سيكون شفيعاً لكما يوم القيامة". صحت بقهر وأنا ألطم وجهي: "سرقوا أعضاء من جسدها!". أمسك العجوز رأسي بكفيه المرتعشتين، وقال: "سبقتها أعضاؤها إلى الجنة".

طبطب على كتفي ومشى نحو الثلاجة. خلع عباءته وتناول الجنين من جانب أمه ولف بها جسده الطري بحنان وعيناه تغصّان بالدموع ثم احتضنه وهرع به إلى السيارة. أقبل عرفات إليّ يحمل ملاءة خضراء جلبها من المستشفى، ناولني إياها وذهب إلى سيارته وهو يبكي بصمت. غطَّيت جسد دلال الهامد بخشوع، وانطلقت إلى السيارة أحملها بنفسية منهارة، وقلب ذبيح. جلست في المقعد الخلفي ومددتها في حضني وأنا أطوقها بذراعيّ، وعدنا إلى المخيم لدفن جثمانها وجنينها واجمين مصدومين، غير قادرين على الكلام.

وصلنا مدخل المخيم فأوقف الجيش سيارتنا ثانية. ألقى الضابط نظرة على الجثة، وقال بأسلوب فظ: "ادفنوها بهدوء دون شغب، مفهوم؟". نظرت إليه بعينين يتطاير منهما الشرر، وقلت: "ماتت بصمت وسندفنها بصمت". طبطب على ظهر السيارة وسمح لنا بالدخول.

وصلنا دوار المخيم. وجدنا حشوداً كبيرة من الشباب والنساء والشيوخ ينتظرون عودتنا بفارغ الصبر. أقبل احد الشبان الذين أعادهم الضابط إلى المخيم، وقال: إن الشباب جهَّزوا القبر. صحت به: "لماذا العجلة؟ سندفنها غداً". احتدّ أبو العبد، وقال: "بل سندفنها الليلة". ثم طلب من الشاب أن يذهب ليحضر الحاجة أم نبيل لتقوم بتغسيل وتكفين جثمانها. صحت منفعلاً: "دعنا نفعل ذلك في الصباح، أرجوك!". أجاب أبو العبد: "إكرام الميت دفنه، يكفى أنهم احتجزوا جثتها أسبوعاً كاملاً".

تابعنا مشوارنا حتى وصلنا منزلنا. وجدت عشرات النساء يجلسن في الصالة، وما أن رأين جثمانها وجثمان جنينها حتى أجهشن بالبكاء. مددت جثمانها على سريرها في حجرة نومنا وعدت وتناولت جثمان الجنين من جدها ومددته على ذراعها، وما كدت أُقبِّل جبينها وإذا بالنسوة يقتحمن الحجرة ويطردنني، قائلين إنها حُرّمت عليّ. قلت في قرارة نفسي: "كيف حُرِّمت عليّ، فأنا لم أطلقها".

غادرت الحجرة وعدت إلى الصالة، وجدتها تغصّ بالشبان جلست معهم أنتظر قدوم الحاجة أم نبيل. رأيت ابني يجلس في حضن أبي محمد، ينتف شعر لحيته ويضحك. قلت في نفسي: "لو كنت تعرف أنك فقدتها لما ضحكت". لمعت في ذهني فكرة، هرعت إليه، انتزعته من حضن أبي محمد ودخلت به الحجرة

obeikandi.com

ليودع أمه وشقيقه. وضعته بجانبهما وقلت: "قبِّل أمك وشقيقك يا صابر القبلة الأخيرة". زحف وجلس فوق جثمان أمه يغرز أصابعه الرقيقة في وجهها ويردد: "ماما، ماما"، لكن لا حياة لمن ينادي. أقبلت الحاجة أم نبيل، رمقتني بنظرة استغراب، وقالت: "هل جننت يا بني؟ خذ ابنك وانتظر في الخارج حتى أغسّل جثمان زوجتك والجنين". طردتني من الحجرة وشرعت بتغسيل جثمان دلال الطاهر. كفنتها بالعلم الفلسطيني ولفَّت رأسها بالكوفية وسط زغاريد وبكاء. أبقت الوجه مكشوفاً فبدت وكأنها نائمة. وضعت النسوة جثمانها في التابوت ومددن الجنين بجانبها ونادين علينا لتشييعهما إلى مثواهما. خرجنا لدفنهما وسط سكون ليل ميت، وجو حار وخانق يبعث القيظ رخاء وكسلاً في أجسامنا المتعبة ووجهونا المغمسة بحبات العرق الدبق. من يَرَنا يعتقد أننا نيام أو سكارى أو أشباح تائهة. وصلنا المقبرة فرأيت أضواء المصابيح التي يحملها الشباب تسطع بقوة، تمزق عتمة الليل وتنير الضريح.

نزل جدُّها إلى القبر وألحد جثمانها ومدد الجنين بجانبها والشباب من حوله يكبِّرون ويهلِّلون. دفنها بجانب ضريح أمِّها كما أرادت ودفنت عقلي وقلبي معها. دفنها فخارت قواي وارتميت فوق ضريحها فاقداً الوعيّ. أيقظني الشبان بدلو من الماء رشقوه على وجهي. استيقظت وقلبي يتَّقد غيظاً. رأيت نفسي ممدداً فوق ضريحها، جُنَّ جنوني ورحت ألطم وجهي وأصيح: "دلال! دلال! عودي إليَّ". اقترب مني جدّها، وقال: "يكفي يا بني! أرجوك تقبَّل قضاء الله وقدره". صحت بحرقة: "لماذا يتعقب الموت كل أحبائي؟ لماذا...؟". أغلق فمي بكف يده، وقال: "لا تكفر! استغفر ربك يا بني، وادع لها بالرحمة". ساعدني الشبان

على الوقوف واقتادوني إلى المنزل يجرونني جرّاً. وضعوني في حجرتي وأغلقوا بابها بالمفتاح وانصرفوا. لم أحتمل الفراق، أردت أن أكون بجانبها. لم يكن أمامي سوى النافذة، فتحتها وهربت نحو المقبرة.

أمضيت أسبوعاً كاملاً وأنا تائه وسط القبور. تارة أمضي الليل وأنا أتحدث مع ضريحها، وأخرى أعفِّر التراب فوق رأسي وأصيح طالباً منها العودة إلى الحياة. بقيت على هذا الحال إلى أن عرف العجوز مكاني، فأقبل إليّ ومعه مجموعة من الشبان أعادوني بالقوة إلى حجرتي، ووضعوا حماية من الحديد حول النافذة.

انطويت على ذاتي مدة طويلة. حاولت قتل نفسي مرات عديدة للهروب من زنزانة مأساتي. لكن الفشل كان حليفي في كل مرة. لم أعد أعرف من أنا، ولماذا أعيش...

آه يا أبي! كم أتمنى صدرها الحنون، ألقي عليه برأسي المتعب وما يحمله من أجراس لا تتوقف عن الضجيج، لكنّها تركتني وحيداً وتسلّقت سماء ملبدة بالغيوم في لحظة بؤس ليس لها مثيل. تلاشى ظلها وغاب وراء شمس بعيدة إلى غير رجعة. غيابها لم يستطع أن يطوي صفحة مرصعة بتاريخٍ يخصّني. يخصّني وحدي! زرع في أعماقي قيماً سامية، وشّج بالمقابل قيماً لا قيمة لها. ارتحلت وتركت لي من ذكراها صورة مشرقة لا تغيب، أقبِّلها كل لحظة، أشاهدها تتلألأ أمامي في كل ركن من أركان الماضي. الآن يحاسبني ضميري على كل صغيرة وكبيرة. الآن أرى الماضي يفتح لي سجلاً أسودَ، يريني نفسي بأكثر الصور قذارة، يُذكِّرني بصراخي بها وغضبي لأتفه الأسباب، وبلا أسباب. كانت لها القدرة على

الصبر والتحمّل، تدفن حزنها في خلجات صدرها، في مكان عميق لا يدركه أحد.

سألتني يوماً وهي تصبّ الماء على يديّ: "هل ستتزوج إنْ مت؟". أغضبني سؤالها كثيراً، وقلت: "أكرهك جداً كلما ذكرت اسم الموت". كسرت كلماتي قلبها الرقيق، الرقيق جداً. قذفت إبريق الماء وأسرعت إلى حجرتها تبكي. لحقت بها واعتذرت لها. قبلت اعتذاري وكررت نفس السؤال، فقلت مستغرباً: "لماذا تسألينى سؤالاً تعرفين جوابه جيداً؟". قالت وأنفها الدقيق يصطبغ بالحمرة: "تزوج ابن الجيران بعد وفاة زوجته بأربعين يوم". ابتسمت، وقلت: "أنا صابر وليس ابن الجيران، لن تأخذ امرأة أبداً مكانك". ابتسمت ابتسامتها الساحرة، وسألت: "أهذا وعد؟". هززت رأسي مؤكداً أنه وعد رجل حر. عانقتني، وقالت: "إن متّ قبلك فاحفر لي قبراً جوار أمي، هذه وصيتي!".

بينما كنت معتكفاً في زاوية حجرتي، أعاتب قدري، سمعت العجوز يقول بصوت مختنق باك: "إنا لله وإنا إليه راجعون". اضطرب قلبي. تساءلت بقلق: "من مات؟". اقتحم الشك مخيلتي فصحت بعفوية: "صابر!". نظرت إلى السرير فوجدته نائماً. انتابني شعور غبي، قلت محدثاً نفسي: "ماذا لو كان...". لطمت وجهي وهرعت إليه لأقطع الشك باليقين. ألصقت أذني فوق قلبه فسمعته يخفق. وضعت يدي أمام فمه فأيقنت أنه يتنفس. ارتاح قلبي وحمدت الله أن ابني بخير. جلست على حافة السرير أتساءل ماذا أصاب العجوز ولماذا يقول تلك العبارة التي لا أسمعها إلا وقت الرحيل. لم أتوصل إلى شيء ولم أكن مستعداً لمغادرة حجرتي. سمعت صياح أبي العبد مرة أخرى: "أبا محمد! أبا محمد! أرجوك تكلم،

قل شيئاً!". أدركت أن هناك ثمة خطب. كسرت اعتكافي وخرجت إليه مذعوراً لأرى ماذا يجري. رأيته يحتضن رأس أخيه ويبكي. سألته بقلق: "ماذا أصابه؟". قال بلسان ثقيل: "لقد توفي، اذهب وأخبر أولاده". انقبض قلبي على وفاته. لم أعرف ماذا أقول. قبّلت رأس أبي العبد، وقلت معزياً: "عظم الله أجركم!". رمقني بنظرة حزينة، وقال وهو يبكي: "شكر الله سعيكم. اذهب وأخبر أولاده حالا".

غادرت المنزل راكضاً، استأجرت مركبة وتوجَّهت إلى المدينة. طرقت باب منزل أولاده، ففتحته امرأة في العشرين من عمرها، وما أن رأتني حتى صرخت صوتاً مجلجلاً وسقطت على الأرض فاقدة وعيها. لم أعرف ماذا أصابها... أردت الرجوع وما كدت أفعل حتى خرج محمد، رآني وسألني بذعر من أكون. استغربت سؤاله جداً، ورغم ذلك أخبرته أنني صابر. رمقني بنظرة استغراب، وسأل: "لماذا تبدو كوحش بري مفترس؟". لم أفهم ماذا قصد. أمسك بيدي واقتادني إلى المرآة.

نظرت إلى وجهي فخفت وتراجعت إلى الوراء. فعلاً كان مظهري مخيفاً، مفزعاً. وجه ميت لا ترى منه سوى وجنتين بارزتين، وشعر كثيف يغطيه بعشوائية كوجه الغوريلا. أخبرته ما أصابني، تعاطف معي وحثني على الصبر والثبات في وجه محنتي. سألني عن سبب زيارتي فأخبرته بوفاة والده. جُنّ جنونه وأخذ يصيح منادياً على إخوته طالباً منهم القدوم إليه وكأنه ليس نفس الرجل الذي كان يحثني على الصبر. قلت في نفسي: "كلكم هكذا، في وقت الراحة تكيلون النصائح، وفي وقت الشدة تنسونها". لحظات وإذا بهم وبزوجاتهم يأتون

obeikandl.com

إلى الصالة مذعورين. حتى المرأة التي فقدت وعيها استيقظت وجاءت للصالة. نظروا إليّ فتراجعوا إلى الوراء ووجوههم قد اكتست بملامح الخوف. ظنوا أن محمداً يصيح لأنني اعتديت عليه. منهم من حمل كرسياً وصاح قائلاً: "ابق مكانك ولا تتحرك!"، وآخر وضع يده خلف ظهره وأخذ يهددني قائلاً: "لدي مسدس إذا اقتربت منه سأطلق عليك النار وأقتلك"، وآخر هرع للمطبخ وعاد إليَّ وهو يحمل هراوة وصاح عن بعد، قائلاً: "غادر الآن وإلا حطمت جمجمتك". إلى أن توقف محمد عن البكاء وأخبرهم أنني صابر وجئت لأعلمهم بوفاة والدهم. أجهشوا بالبكاء، ورافقوني للمخيم دون أن يعتذروا لي عن سوء استقبالهم.

دخلوا منزلي وطوقوا جثمان والدهم يقبِّلونه ويبكون متحسرين على رحيله. ضحكت وشر البلية ما يضحك. قلت في قرارة نفسي: "ويحكم! الآن تذكرتم أن لكم أباً؟". أخذوا جثة والدهم ليدفنوه في مقبرة المدينة. ذهبنا معهم للمشاركة في تشيع جثمانه. قام العجوز بتغسيله وتكفينه في منزله ثم ذهبنا به إلى المسجد لتأدية صلاة الجنازة على روحه. شاركت في الصلاة، ولأول مرة أصلي. ارتحل أبو محمد وترك في عقولنا وقلوبنا ذكريات جميلة لا تنسى. رحمه الله، كان رجلاً تقياً وخدوماً.

دخلت الانتفاضة عامها السابع دون أن يتغير شيء عليّ. أمضيت عاماً بأكمله مطلقاً لحيتي وشعري. ألبس ثوب الحداد، ولا أختلط بأحد غير الزبائن. أصبحت حياتي عبارة عن مسافة قصيرة، تتنقل بين الحانوت والمنزل وضريح

obeikandi.com

دلال. لم يعد يهمني شيء غير الاعتناء بصابر وحمايته من أي شيء قد يؤذيه. لم يعد قلبي قادراً على احتمال أي جرح جديد، فجراحه بحجم الأرض والسماء.

ذات ليلة استيقظت على صوت ابني وهو يبكي. كان بكاؤه مثل سكاكين تغرز في قلبي. هرعت إلى سريره لأرى ما علته. تحسست جبينه فوجدت حرارته مرتفعة. أصبت بالهلع. وضعت له الكمادات الباردة لأخفف من حرارته، لكن دون جدوى. خفت أن أنقله إلى المستشفى في الليل، فالليل ليس لنا بل لهم. كان يبكي وينادي أمه: "ماما! ماما!". وأنا أقول: "آه يا صابر! فماما لن تعود، لقد أحرقتها وسممتها عقارب الزمن، وسحبتها المنية في رحلة أبدية، لا لن تعود". تمنيت أن ينبلج الصباح. لكن كما هو لسان حالي، ضيَّعت عمري بالتمني وليتني نلت ربع ما ضيعته فيها.

شعرت أن الليل قد طال، وأن الفجر لن يأتي. كانت كل ثانية تعادل دهراً، انتابتني وحشة وخيل إلي أن الرحلة تكاد تكون أبدية وسوف لا ولن تنتهي. حلّقت برأسي الظنون، وتهت في خيالات شتى، كادت تفقدني صوابي، فرحت أبدد ظنّي، وأبعد عن مخيلتي هواجسي. حملت صابراً وغطَّيته بجسدي وصعدت إلى سطح المنزل في جو بارد وكأني التمس له النجاة. وضعته في حضني وتلهيت بعد النجوم المرة تلو الأخرى، وكلما فرغت كنت أعود وأعيد الكرة. أخذت أقبِّل جبينه وأقول بصوت نحيف مختنق: "أخشى يا ولدي، أن قدوم الصبح يحمل لي شيئاً أكثر حزناً من هذا". حاولت إقناع نفسي أن الخوف المفرط، هو الذي قادني إلى التفكير بتلك الصورة التشاؤمية البشعة، إلى فقدان ما تبقَّى لي.

obeikandl.com

لحظات بل سنوات من الحيرة والعذاب وإذا بي أسمع آذان الفجر، قلت لصابر: "اصمد يا ولدي، فالصبح قادم". تذكرت كلمات دلال التي قالتها لي قبل الرحيل، شرعت أرددها وتارة أنشدها: "لكل قصة جميلة نهاية حزينة، لكل قصة جميلة نهاية لعينة"، إلى أن اقترب الهزيع الأخير أو كاد. وما هي إلا ساعات قليلة طويلة أمضيتها في مستنقع الحيرة والأحزان، ألتمس صباحاً يزيل قلقي الرهيب، وإذا بالنهار يعلن انتصاره على ظلمة ذاك البشع الأسود الذي لملم ذيوله ورحل.

كانت ليلة شاقة، حزينة، وعقيمة، منذ بدأ ذلك الأسود يطلي أوتار النهار بطلائه البشع، ويملأ ساعاته بموسيقاه المخيفة. هرولت إلى المنزل، ألبست صابراً أجمل ثيابه وحملته إلى المستشفى وأنا أدعو الله ألا يأخذه مني. فحصه الطبيب وأعطاه الدواء المناسب، قائلاً لي: "سلامته، أنصحك أن تعتني به جيداً!". رغم أن حالته لم تكن صعبة إلى حد القلق إلا أن الخوف من فقدانه ظل يسيطر عليّ. خوفي دفعني لوضعه في قفص. وضعته في قفص لأحميه من إخطبوط الموت الذي يختطف بأذياله الصغار والكبار، يسلبهم أرواحهم بدم بارد. كنت أحرس قفصه من ذلك الأخطبوط الماكر ليلاً ونهاراً، أحمل بيدي سكيناً حادة لأمزق بها أمعاءه لو امتدت أذياله لاختطافه مني. أنا لست مجنوناً يا أبي، لكني لم أنجح في تخليص نفسي من آلام مزمنة، وآمال مخيبة، ولم أستطع تقبل الموت مرة أخرى. أردت أن أبعده عن صابر، لأنني اعتبرته أمانة واجبة الأداء. أعرف أنك تصدقني، مع أنهم يصرّون على اتهامي بالجنون. أتدري ماذا فعل أبو العبد؟!

اتهمني بالمس الشيطاني، استدعى المشعوذين لينتزعوا من جسدي الروح الشريرة التي تسكنه. جلدوني بعصيِّهم الحاقدة، معتقدين أنهم يجلدون الروح

المزعومة. عذبوني مثلما عذبوا أبا محمد وهو صغير، وبعد فشلهم في علاجي اتهموني بالكفر، وأنا لست بكافر. كل هذا لأنني أردت أن أحمي ولدي من إخطبوط الموت، إخطبوط الذعر، إخطبوط الرعب، إخطبوط المصائب. كنت أعرف جيداً أن أبا العبد كان يفعل أشياء غريبة هو نفسه لا يؤمن بها ليصلح من شأني الذي تغيَّر وتدمَّر بوفاة دلال. أراد أن يجرّب أيّ شيء حتى لو كانت خزعبلات فقط ليعيدني إلى صوابي، لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

حرمني من رؤية صابر. أجبره على النوم في حجرته. اعتقد أنني قد جننت، مع أنني لم أجن، ولكن إذا حكم عليك المجتمع بالجنون، فأنت بلا شك مجنون، مجنون. مجنون! وألف مجنون! أليس كذلك؟!

بعد أشهر وقعت اتفاقية أوسلو. خرج الناس يحتفلون بالسلام، يحملون بأيديهم أغصان الزيتون. رأيت النساء يزغردن من الفرحة والشبان يشبكون أيديهم ببعضها ويرقصون رقصات شعبية. نزلت أرقص بينهم كالديك المذبوح، أرقص وأسقط أرضاً، فيساعدني الشبان على الوقوف ثانية، أرقص وأقع فيوقفوني، يضحكون عليَّ، يسخرون من حالتي.

آه يا أبي، ليس في الدنيا لمثلي موضع ، يتضاحكُ الناس وعينايَ تدمعان، تركتهم يحتفلون بالسلام وعدت لأخبر العجوز بما رأيته رغم أنه لا يؤمن باتفاقية أسلو. كان يصفها بالحقنة التي ستجهض الانتفاضة.

دخلت حجرته فوجدته نائماً وصغيري صابر يجلس فوق صدره، تارة يشد لحيته ويضحك وأخرى يشد أذنه. ضحكت، ولأول مرة أضحك منذ وفاة دلال. انتهزت فرصة نومه وحملت صابراً أُقبِّله. يبدو أنه خاف من منظري فانفجر

بالبكاء. أعدته إلى صدر العجوز فسكت. جلست أراقبه عن بعد. اختلس نظرات إلى وجهه البريء الذي يشبه وجه أمه تماماً. مرت ساعة وهو ينتف لحية العجوز ويضحك. استغربت أن العجوز لم يستيقظ. اقتربت منه وحاولت أن أوقظه. لم يستجبْ. صحت منادياً اسمه، لم يسمعني. قلَّبته يميناً ويساراً، لم يتحرك. أدركت أن الله قد اختاره إلى جواره.

مات العجوز لتنتهي حقبة الماضي وأسراره الأليمة وليلد في الأفق تاريخ فلسطين الجديد. عاش غير مرئي، ومات غير معروف.. أصبح مجرد جثة مجهولة لا يعرفها أحد، لا اسم ولا لون ولا شكل لها. تنتظر من يبادر ويكرمها بالدفن. لا تأبه باسم يعلّق فوق قبرها، أو باقة من الورود، جلّ ما تريده أن تدفن قبل أن تفوح رائحتها ويهرب من عندها الجميع، تماماً كما هربوا حين كان له اسم وقلب يحب الجميع، يحبهم من مسافة قريبة جداً لكنها لا تُرى بعيون عمياء جاحدة!!

مات العجوز فأبقيت جثته في منزلي. لم أرغب في دفنها! أردت أن أكرمها بطريقة أخرى غير مواراتها تحت التراب، أردت أن تكون برفقتي لتشد أزري. أبقيتها في حجرته حتى فاحت رائحتها، فشمَّها الجيران. اقتحموا منزلي، واتهموني بالجنون. انتزعوا ولدي من بين يدي وألقوه في ملجأ الحرمان. سرقوا صابراً، ابتاعوا صابراً، شردوا صابراً، لم يبق عندي من يواسيني سوى جرعوش. هو الوحيد الذي تحسس آلامي وأحزاني. هو الوحيد الذي بقي يفهمني في زمن باع الناس عقولهم بثمن بخس. ظل جرعوش يرافقني إلى أن خاف على نفسه مني، ففر هارباً إلى الجبال ليستأنس بكلابها المسعورة. ظن الغبي أنني سأخنقه! أساء الظن بي. كل ما في الأمر أنه كان مستغرقاً بالشخير، ينام بطريقة غير صحيحة،

أردت أن أريحه. مددت يدي لأعدل عنقه، فاستيقظ معتقداً أنني سأقتله. فر هارباً يصيح بأعلى صوته: "يريد صابر أن يقتلني! جنّ صابر!". سمع الناس صراخه فاقتحموا شقتي. وبَّخوني وضربوني ثم قيدوني بقميص الجنون واقتادوني إلى مستشفى المجانين، وأنا لست مجنوناً.

تمخَّض الألم في قلبي، فأنجب جنوناً! يا ناس، أنا لست بمجنون، أنا أعقل من أعقلكم، لكن ما أصابني جنن الجنون. يا ناس، أعيدوا لي صابراً، أعيدوا لي دلال، أعيدوا لي العجوز، أعيدوا لي كل ما فقدت وأعدكم بأن أحارب الجنون. يا ناس، لا تقطعوا العرق النابض، لا تغتالوا حلمي المبعثر، لا تسخروا من وضعي المدمّر، الموت للصدمات. الموت للحقن! الموت لكل من اتهمني بالجنون.

أنا أيوب يا أبي، نعم، أيوب. لا! لست أيوب، أنا زيوس. نعم، زيوس. لا! لست زيوس. أنا سيزيف، نعم، أنا سيزيف هذا العصر، أنا من تحدّى الصخرة، أنا سيزيف، نعم سيزيف يا مجانين هذا العصر.

هذه قصتي يا أبي، تفلق الحجر وتعبِّر عن جنون، وأنا لست مجنوناً وإنما أمكث في هذا المستنقع النفساني لأترقى إلى درجة مجنون، وعندما أتعلم فنون الجنون، سأعود وأسرد لك تاريخنا الجديد. سأحتفظ بصورتك لأحدثها عن فلسطين الجديدة. الآن شقشق النهار، واستيقظ سعيد وجاء موعد نومي. سأنام طويلاً، ربما أشهراً أو سنوات، وحين يذوب الثلج ويظهر ما كان مخفياً، سأعود... حتماً سأعود لأروي لك الجديد.

(تمت)

(25 أيلول 1993)